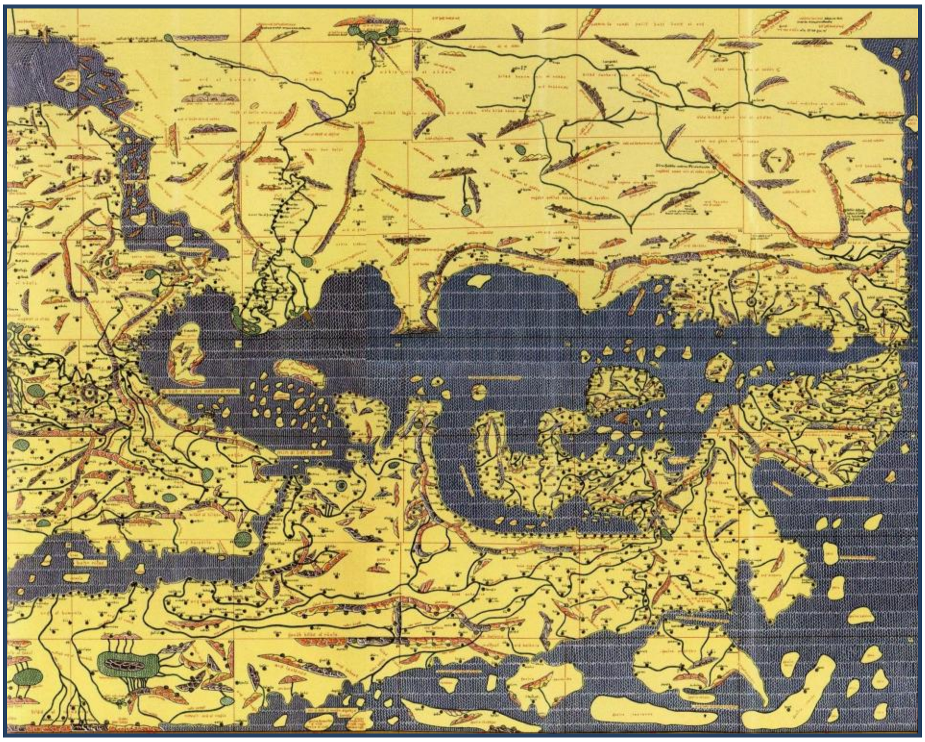
علي الحمامي



إدريس، رواية شمال أفريقية

تعريب محمد الناصر النفزاوي

معهد الهوڤار

إدريس، رواية شمال أفريقية

كتاب الأخ المجاهد علي الحمامي المغربي (نسبة إلى بلاد المغرب) يكشف — ولو أنه محرر في شكل رواية — عن الكثير من أباطيل سياسة فرنسا الطائشة في المغرب. وعسى أن يترجم هذا الكتاب المحرر باللغة الفرنسية إلى اللغة العربية حتى يدرك أبناء عمومتنا في الشرق العربي ما هو جار هناك. كما أن هذا الكتاب لا يخفي بعض الأخطاء التي كانت سائدة في المغرب قبل الاحتلال والتي كانت من البواعث الأكيدة على سقوطه في قبضة الاستعمار. فالبلاد المغربية التي لعبت دورها الكبير في تكوين الحضارة العربية والتي تفتخر دائما بأنها قدمت للمدنية الإنسانية رجالا كابن خلدون وابن بطوطة وابن تومرت وابن رشد سوف لا تدخر وسعا في إعادة مكانتها المفقودة بعد استرجاع حريتها واستقلالها المسلوبين كما هو شأن كافة الأمم قبلت فرنسا ذلك أم أبت.

الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي

المؤلّف



المؤلّف في بغداد (1935)

لا يوجد إجماع حول نسبة علي الحمامي. وعلى العكس من ذلك يتفق الجميع على أنه ولد في تيهرت في الجزائر سنة 1902 وشارك في الحرب الريفية لينتقل عند نهايتها إلى البلدان التالية: فرنسا (1926–1928) والاتحاد السوفييتي (1928–1930) وسويسرا وألمانيا (1930–1932) والمملكة العربية السعودية (1933) وبغداد (1933–1947) التي عيّنه الأمير فيصل فيها مدرسا للتاريخ الإسلامي وأخيرا القاهرة (1947–1949) التي ارتحل إليها عندما بلغه لجوء محمد بن عبد الكريم الخطابي السياسي إليها. وفترة الإقامة في بغداد هي الفترة التي ألّف فيها بين 1941–1942 رائعته "إدريس: رواية شمال أفريقية" في اللغة الفرنسية التي هي ضرب من الرواية التاريخية الفلسفية التي لا تقتصر على بيان مثالب استعمار الغرب شمال أفريقيا قديما وحديثا ولكنها تعرض كذلك فلسفة شاملة للتاريخ يقتضي فهمها أكثر من ثقافة متوسطة. ولقد مات الحمامي صحبة التونسي الحبيب ثامر والمغربي الأقصوي محمد أحمد بن عبود وآخرين في 12 ديسمبر 1949 في حادثة طائرة في سماء باكستان بعد أن مثلوا بلاد المغرب في أول مؤتمر إسلامي انعقد في هذا البلد الآسيوي المستقل حديثا. (الهوقار)

المعرّب



المعرّب في عقده الخامس

محمد الناصر النفزاوي أستاذ جامعي تونسي، من مواليد سنة 1948 بمنزل بورقيبة من ولاية بنزرت. زاول العمل الصحفي بمجلات و جرائد متعدّدة. شغل إلى نهاية سنة 2008 وظيفة أستاذ تعليم عال يدرّس الحضارة العربية الحديثة والمعاصرة بالجامعة التونسية. وهو من المهتمين بالبحوث والدراسات حول المغرب العربي. صدر له العديد من الكتب منها: المتشابهون (رواية)، سوريا 1987 — محمد كرد علي: المثقف و قضية الولاء السياسي، تونس 1993 — فارس و بيزنطة و الجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع، تونس 1996 — الدولة والمجتمع، من محنة ابن رشد إلى خصومة محمد عبده فرح أنطون، تونس 2000 — التيّارات الفكريّة السياسية في السلطنة العثمانية (1839–1918)، تونس 2001.

ISBN 978-2-940130-24-5

2011 معهد الهوقار

www.hoggar.org

صورة الغلاف: جزء من خريطة للجغرافي محمد الشريف الإدريسي (1099–1160)

علي الحمامي

إدريس، رواية شمال أفريقية

تعريب محمد الناصر النفزاوي

معهد الهوڤار

إدريس، رواية شمال أفريقية

إدريس، رواية شمال أفريقية
تأليف علي الحمامي
تعريب محمد الناصر النفزاوي
2011 معهد الهوڨار
www.hoggar.org
ردمك: ISBN 2-940130-24-8

النسخة الفرنسية
Idris : roman nord-africain
Ali El-Hammami (1902-1949)
SNED, Alger 1976

الفهرس

تقديم الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي

حالة المغرب وأعني بالمغرب أقطار أفريقيا الشمالية الثلاثة هي حالة فريدة في بابها. فقد شاءت الأقدار أن يسلم هذا البلد العظيم – العظيم في تاريخه وحضارته وفضل أهله – إلى أفظع عدو عرفه التاريخ الحديث: فظيع في ظلمه وفي بطشه وفي مراوغته وفي حماقة طرقه وأساليبه وفي ضعف عقله وفي ضيق دائرة تفكيره وفي عدم انسانيته وفي بهتانه وألاعيبه.

فقد جاهد المغرب ولله الحمد خير جهاد عند نزول الفرنسيين الغزاة أرض الجزائر سنة 1830 حتى أيامنا هذه. واذا كان (السور الحديدي) الذي استطاع الفرنسيون أن يضربوه حول المغرب – بعدما استولوا على منابيع رزقه وامتصوا خيراته وروجوا بين شعوبه الجور والفقر والجهل – قد حال حتى الآن دون تسرب أخباره الى الخارج ولا سيما الى أقطار الشرق فقد جاءت الأيام لنقل سلاسل المآسي التي ارتكبها أولئك الطغاة الى العالم ليفهم كل ذي عقل راجح وقلب سليم ما هي حقيقة فرنسا والفرنسيين.

وسوف لا نحجم عن نشر وتبيان كل المثالب التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي في الشمال الأفريقي: منذ العهد الذي ظهر فيه ابن وطني البار وأستاذي الكبير في الجهاد الأمير عبد القادر الجزائري طيّب الله ثراه الى هذا العهد الذي ارتفعت فيه صيحات شعوب الأرض مطالبة بحقوقها الأمر الذي يجعل اغفال هذه الصيحات أو التغافل عنها من الأمور المؤدية الى ارباك حياة البشرية بأسرها.

وكتاب الأخ المجاهد علي الحمامي المغربي يكشف – ولو أنه محرر في شكل رواية – عن الكثير من أباطيل سياسة فرنسا الطائشة في المغرب. وعسى أن يترجم هذا الكتاب المحرر باللغة الفرنسية إلى اللغة العربية حتى يدرك أبناء عمومتنا في الشرق العربي ما هو جار هناك.

كما أن هذا الكتاب لا يخفي بعض الأخطاء التي كانت سائدة في المغرب قبل الاحتلال والتي كانت من البواعث الأكيدة على سقوطه في قبضة الاستعمار.

فالبلاد المغربية التي لعبت دورها الكبير في تكوين الحضارة العربية والتي تفتخر دائما بأنها قدمت للمدنية الانسانية رجالا كابن خلدون وابن بطوطة وابن تومرت وابن رشد سوف لا تدخر وسعا في إعادة مكانتها المفقودة بعد استرجاع حريتها واستقلالها المسلوبين كما هو شأن كافة الأمم قبلت فرنسا ذلك أم أبت.

والأمر موفوع الى الله جل شأنه فعسى أن يوفق العاملين لخلاص بلادهم ويسدد خطاهم آمين.

القاهرة، 23 جماد الأول سنة 1367 الموافق 3 أبريل 1948.

نموذج جديد من قصص قومي: إدريس (قصة مغربية بالفرنسية – الأستاذ علي الحمامي)

محمود تيمور

ثلاثة عناصر، متى توافرت لعمل فني مكنت له وأبلغته ذروة الإجادة فأسلست له أهواء النفوس. تلك العناصر التي أعنيها هي: قوة الإحساس وصدق التعبير وموهبة الأداء.

وقد اتسقت ثلاثتها في هذه القصة التي ألفها الأستاذ "علي الحمامي" في اللغة الفرنسية وسماها "إدريس" وصور بها الحياة المغربية وما يضطرم فيها من آلام وآمال...

في تلك القصة تنبسط صحف من التاريخ وتنصقل مرآة للحاضر وتتجلى أحوال سياسية واجتماعية قائمة وتترسل روح من الوطنية تثير الأفئدة وتهز المشاعر. فالكتاب – بفضل ما حواه من ذلك كله – يعد نموذجا من القصص القومي، جديرا بالتقدير والإعجاب...

ومما هو مسلم به عند البصراء من نقاد الأدب أن الفن لا يجود ولا يؤتي جناه إلا إن تركت له حرية التحليق والانطلاق، لا نزعة تملى عليه ولا مبدأ يتحكم فيه. ومن ثم كانت القصص التاريخية والسياسية والوطنية في المقام الثاني من القصص الفني

لأن كتابها مقيدة أقلامهم بما حدد لهم من أغراض وما عين لهم من أهداف.

ولكن الأديب "الحمامي" في قصته القومية ينجو من تبعة هذا النقد ويسمو على تلك الملاحظة، وذلك لأنه لم يخضع قلمه لمنحى مسوق إليه ولم يرد فنه على غرض دخيل عليه. وإنما أحس في قوة وعبر في صدق وأدى قادرا على الأداء.

لقد عايش المؤلف أمته وشهد ما تعانيه من كوارث، وما يعوق خطاها من أغلال، وشعر بما يعتلج بين حناياها من منازع الحرية والعزة، وكان لذلك أثر في نفسه لم يلبث أن دفعه الى التعبير فجرى قلمه يصور حياة قومه ويكشف عن آلامها وخوالج نفسها في إيحاء فني قويم.

وأنت تساير "إدريس" بطل هذه القصة، وهو يروي لك أحداث حياته، وما تعاقب عليها من أحوال، فإذا بك. وأنت مسترسل معه. تطالع الحياة المغربية في عهدها العتيد، فترى كيف صنعت سياسة الاستعمار بذلك الوطن المغلوب على أمره، وتعلم كيف يسام الخسف والعسف في جحيم تلك السياسة الغشوم، وكيف تتوق نفسه الى عيش الحرية والكرامة، فهو يكافح ويجاهد ما وسعه من الكفاح والجهاد.

فقارئ هذه القصة لا يملك سكينته إزاء ما يمر به من صور تفصح له عن نفسية شعب أبي يتنزى في الحديد والنار، وتشهد بما يكمن في سيرة ذلك الشعب من فتوة وحمية، وما يغلي في عروقه من دماء أسلافه الذين كانوا في طليعة بناة الحضارة وسادة الأمم.

والقصة في جملتها مزاج طريف من التاريخ والسياسة والوطنية والاجتماع، أو طاقة مزهرة تجمع تلك ألأفانين المختلفة. وبراعة الكاتب تتجلى في تأليف هذا المزاج،

وتنسيق تلك الطاقة. فهيهات أن يلمح القارئ، في أطواء القصة، حديثا لا يستدعيه الموقف، أو موقفا ينبو عن السياق، أو إغراقا في وصف وتصوير تتجافى به القصة عن سبيل التأثير والإقناع.

ما أكثر ما كتب الغربيون عن الأمم الشرقية والإسلامية بلغات الغرب، ولكن ما كتبوه لا يصور نفسية هذه الأمم وعقليتها حق تصويرها، ولا يستوفي حقائقها كما هي عليه، وذلك لأن أولئك الكتاب إما أن تحدوهم نية سيئة ونزعة مغرضة، وإما أن يقعد بهم عجز عن التحقيق وصدق التصوير.

وإذا فقد أحسن صاحب "إدريس" صنعا، اذ كتب قصته بلغة غربية، سدا لذلك النقص، واطلاعا لقراء الغرب على حقائق أمة إسلامية فتية تنشد سلامة وكرامة.

وما أجمله توفيقا أن تكون تلك اللغة الغربية التي كتبت بها القصة هي اللغة الفرنسية. فالقصة ليست إلا صفحة من اضطهاد المستعمر الفرنسي. فمن الخير أن يقرأها الفرنسيون بلغتهم، دانية المنال، حتى يتبين لهم كيف يؤدون في بلاد المغرب رسالة الحرية والسلام.

محمود تيمور
القاهرة، الرسالة، 29 جويلية 1948.

مقدمة المعرّب

لو أردنا أن نحصر مشاغل المفكرين السياسيين عندنا لوجدنا أنها تنحصر في مشاغل ستة يمكن للمرء أن يتصورها في شكل درجات سلم تصاعدية أو في شكل ما يحدثه حجر يلقى به في الماء من دوائر تتسع وتتباعد باطراد.

هذه المشاغل الفكرية السياسية الستة هي:

1– الفكرة القبلية أو الجهوية التي نعرفها جميعا في نموذجها الجزيري العربي القديم الذي عبر عنه الشاعر بقوله:

وما قحطانُ لي بأبٍ وأمٍ ولا تصطادني شُبَهُ الضلال
وليس إليهمُ نسبي ولكن مَعَدِّيًا وَجَدْتُ أبي وخالي

وفي نموذجها الشمال الأفريقي من خلال تصادم أمواج القبائل البربرية التي لا نعثر اليوم على من يتغنى بها بشكل صريح مثلما كان الشأن قديما وإن كانت كثير من الأحداث هنا وهناك تثبت أن بعض مقوماتها ما زالت ثابتة عند الكثيرين.

2– الفكرة الوطنية وهي على عكس ما سبق سيدة الأفكار إن لم تكن فعلا فقولا. ولقد عرّفها أحد مؤسسي الحزب الدستوري الجديد في تونس وهو محمود الماطري (1897-1972) على النحو التالي:

"رأيت بدوية جسيمة بيدها حجر تهمّ بغرزه في الأرض لنصب خيمة المخيّم الصغير. لقد رمزت بالنسبة إليّ إلى تونس الخالدة، تونس حنبعل والكاهنة والأغالبة والزيريين والحفصيين، إلى تونس التي ليست رومانية ولا بيزنطية ولا عربية ولا أسبانية ولا تركية ولا فرنسية وإنما تونس التونسية"[1] مثلما عبّر عنها الدستوري الجديد الشاذلي العياري سنة 1974 عندما أجهش على ما يقال بالبكاء وهو يسمع بخبر الوحدة القذّافية – البورقيبية القصيرة العمر التي ستذهب، في نظره، بعلم تونس.

3– الفكرة الثالثة هي الفكرة الإقليمية التي دعا إليها في نفس الوقت تقريبا الشامي الأرثوذكسي أنطون سعادة من ناحية والشمال الأفريقي مصالي الحاج وجمعية الطلبة المسلمين الشمال أفريقيين في فرنسا منذ عشرينات القرن العشرين من ناحية أخرى. ولقد كان سعادة يقسّم المجال الناطق بالعربية إلى مناطق أربع تضمّ كتلا بشرية أربع تتميّز باختلاف متفاوت في الذهنية. أما الوهراني الجزائري مصالي الحاج الذي كان ينشط في الوسط العمالي المهجري الفرنسي ضمن أغلبية أمازيغية متحفّظة إزاء الفكرة العربية الناشئة فقد أسّس سنة 1926 "نجم شمال أفريقيا" الذي إن لم يستند إلى نواة فكرية سياسية ترسّخها مؤلفات وكتابات وارفة فقد زرع منذ هذه الفترة المبكّرة بذور الفكرة المغربية التي تأسّس اتحاد المغرب العربي سنة 1989 لتجسيدها بعد تعثّر دام طويلا.

4– الفكرة الرابعة هي الفكرة العربية سواء في شكلها التقليدي عند ساطع الحُصْري أي في شكلها المزامن لنشأة الفكرتين الشامية والمغربية في عشرينات القرن العشرين وثلاثيناته أو في شكلها البعثي أو الناصري أو القذافي. ولن نطيل الحديث

[1] محمود الماطري، مسار مناضل، بالفرنسية، ص 179.

فيها وعنها لأننا عاصرنا مدّ هذه الفكرة وجزرها مثلما عاصرنا صراعها ضد الفكرة الإسلامية الوهابية السعودية. ويمكن للمرء أن يعود إلى مواقف أمثال جمال عبد الناصر وأحمد بن بلّة ومحمد حسنين هيكل من تونس البورقيبية أو ليبيا الإدريسية أو المغرب الحسني الثاني حتى يكون فكرة واضحة عن مدى تناكر الفكرتين العربية والمغربية.

لقد كان بورقيبة مثلا يرى على حدّ ما كتب بول بالطا (Paul Balta) في "المغرب الكبير" (بالفرنسية 1990) نقلا حرفيا عنه "إن الرباط والجزائر وتونس وطرابلس أقرب إلى لشبونة ومدريد وباريس وروما من دمشق وبغداد والرياض" وكان خصومه من القوميين والإسلاميين يرون في مثل هذه النظرة شذوذا فكريا سياسيا لا يمكن أن يغفروه لمفكر سياسي خاصة إذا تسلم السلطة وعمل على تطبيق تفكيره في المجتمع مثلما كان شأن بورقيبة الذي يعدّ في هذا السياق نسيج وحده مما يفسّر حديث أحمد بن بلّة عنه في برنامج "شاهد على العصر" في قناة الجزيرة الإسلامية النزعة (حصة يوم السبت 9 نوفمبر 2002) في لهجة حاقدة لم يخفّف منها الزمن ولا تقدّم عمر الرئيس الجزائري الأسبق ولا وعيه المتأخر تهافت تجربة حكْمه الشعبوية إذ صرّح متحدّثا عن بورقيبة "لا أنا منه ولا هو مني" ليضيف في موضع آخر "أنا عربي وهو غربي".

5– الفكرة الخامسة هي الفكرة الإسلامية التي تتخذ من العرب لا من الإنسانية ومن القرن السابع الميلادي لا من تاريخ البشرية الضارب في القدم مرجعا واحدا أحدا لها وتقول تبعا لذلك بالاجتهاد لا بالتغيير وهي فكرة تحتاج لتبرير ظهورها إلى رفض ما سبق من أفكار وإلى تشطين دعاة هذه الأفكار وتطمح على أساس إرادوي إلى منافسة الفكرة العالمية بالتلويح بعدد المسلمين الهائل.

6– الفكرة العالمية أو الأممية التي تتخذ من العولمة فلسفة لها. وهي وجهان، وجه اشتراكي ووجه رأسمالي. ولقد نشأت بذورها منذ القرن الثالث عشر الميلادي. وهي بوجهيْها ضاربة في مفهوم الحداثة إذ قامت على أنقاض النظرة التقليدية إلى الأشياء. وهي خير محض أو شرّ محض حسب المستفيدين أو المتضررين منها شرقا وغربا فيجب عند دراستها الإقلاع عن عزل الثقافي عن الاقتصادي عزلا يذكّر بعزل الله عن الطبيعة أو الروح عن الجسد أو الدولة عن المجتمع.

وبما أنّ لكل واحدة من هذه الدوائر الست دعاتها المتحمّسين لها الذين يستغلّون كل مناسبة للدعوة إلى نظرتهم إلى الأشياء، فقد رأينا انه قد يكون من المفيد استغلال رواية الجزائري علي الحمامي (1902-1949)[2] "إدريس، رواية شمال أفريقية" (Idris, roman nord-africain) التي كتبها في بغداد، بالفرنسية، سنة 1941-1942 لبيان أبعاد هذه الخصومة التي هي، في نظرنا، تعبير مغلف عن موقف معين من علاقة بلاد المغرب ببلاد المشرق قديما وعصرا وسيطا وحديثا. ولذلك فلن يحصل حولها إجماع لأنّ الخلاف هو في حقيقة الأمر بين دعاة النظرة الميتا-تاريخية إلى الأشياء من الإسلاميين وغيرهم من دعاة النظرة التاريخية العقلانية مثل علي الحمامي أو النظرة التاريخية المادية إليها.

لا تتمكن النظرة التاريخية العقلانية مثلما تظهر عند علي الحمامي من تصور إسلام يتعالى مثل الله عن التاريخ والعرق والبيئة لذلك هو يرى انه لا توجد أمة إسلامية واحدة لا شيء يميز الأقوام المندرجة ضمنها عن بعضها البعض ولكن توجد أمم إسلامية منها الأمة المغربية التي تملك تاريخا خاصا بها على المدارس المغربية أن تمكّن له في أذهان التلاميذ المغاربة دفعا لكل عملية إلحاق سياسي فقد كتب في

[2] نسبة إلى عين الحمّام في قلب جرجرة التابعة حاليا لولاية تيزي وزّو (الجزائر).

ص 239 (النسخة الفرنسية):

"إن دراسة الماضي بصفتها مرآة تنعكس عليها جملة أمجاد الأمة وآلامها إنما تتنزل في علاقاتها بهذه الأمة منزلة الروح من الجسد. وابن المغرب بقدر ما يستكشف ماضي أجداده يزداد احتراما له وهو يتأمل في هذه العصور التي لعب فيها أجداده دورا يجعل الإنسانية مدينة لهم بعض الدين بما هو أكثر تميّزا في مكتسباتها بحيث يرتقي إلى مستوى أرفع ويدرك بعد أن يكون قد نأى عن الاستخفاف بالوسط الذي يعيش فيه والذي شوّهه انحطاط طال أمده، أن وطنه منجم قيم يكفي بعض النشاط الذكي والشجاعة لتخصيب البذار فيه."

والسؤال الذي لا بد من طرحه هنا هو لم (لماذا؟) ظهرت هذه الدعوة الحمّاميّة إلى القومية المغربية بعد الحرب العالمية الأولى؟

لقد كان من نتائج الحرب العالمية الأولى 1914-1918 (الحرب الكبرى) سقوط الخلافة العثمانية. إنّ الأمة الإسلامية تتكون من أقوام أربعة: العرب والترك والفرس والمغاربة. ومرجع كل هذه الأقوام هو الإسلام الذي يتظلل به الجميع على اختلاف أعراقهم (أجناسهم) ومواطنهم لأنّ من شروط الإسلام الذي يقوم، شأنه في ذلك شأن كل الديانات سواء أكانت منزّلة أم غير منزّلة، على نظرة ميتاتاريخية إلى الأشياء، نبذ الميز العرقي والوطني. وها أن الحرب الكبرى تلد في المجال الإسلامي الجامع، مفهوما جديدا على هذا المجال، هو مفهوم الوطنية ضمن بلد وهو القومية ضمن مجموعة بلدان متقاربة فظهرت في إيران القومية الإيرانية على يدي رضا شاه بهلوي (1878-1944) الذي استولى على الحكم سنة 1925 وأسس حكم العائلة البهلوية (1926) التي ستبقى في الحكم إلى أن تطيح بها الثورة الإسلامية سنة 1979 بزعامة روح الله الخميني (1902-1989). وظهرت في تركيا القومية التركية بزعامة

مصطفى كمال "أبي الأتراك" (أتاترك) (1881-1938) الذي أسس سنة 1923 الحزب الجمهوري وأصبح أول رئيس جمهورية في تركيا التي حرصت حتى على تغيير عاصمتها فأصبحت أنقرة عوضا عن اسطنبول وألغت الخلافة الإسلامية سنة 1924.

عن هذا الوضع السياسي الجديد الذي يعبّر على مستوى المفاهيم عن نبذ للميتاتاريخية وتبنّ للمذهب التاريخي العقلاني تحدث ساطع الحصري (1880-1969) الذي كان عثمانيا ثم أصبح "أب القومية العربية" في مذكراته (صص489-490):

"إن الدولة التي كانت حكمت (...) في الماضي لم تكن دولة تركية بل كانت دولة عثمانية إسلامية. ولكن الدولة التي قامت مقامها الآن هي دولة تركية بكل معنى الكلمة: إنها تركية باسمها وتكوينها وسياستها."

فقيام الدولتين القوميتين (Etats-nations) الإيرانية والتركية هو إذن السبب في دعوة الحصري إلى قيام دولة قومية عربية تكون عاصمتها مصر ويكون جناحاها الشرق الأدنى في المشرق وبلاد المغرب في أفريقيا الشمالية مما دفع علي الحمامي تماما مثل أنطون سعادة (1904-1949) في الشام إلى رفض هذه الدعوة التي كان يرى فيها دعوة سياسية الى الحاق بلاد المغرب ببلاد المشرق على ما بينهما من اختلافات دفعت ببلاد المغرب منذ القرن التاسع الميلادي إلى الاستقلال بنفسها داعيا إلى أن يبحث المغرب عن وحدة خاصة به أي إلى وحدة مغربية إذ كتب في "إدريس، رواية شمال أفريقية" صص 137-138: "إن التاريخ [يقصد عند المدرسة الميتاتاريخية] لم يكن إلا مجموعة نوادر غثة متناثرة مستخرجة [من وريقات كتب] تهتم بمجمل المجموعات الإسلامية أكثر مما تهتم بحياة شعب واحد من هذه الشعوب. ونحن اليوم لسنا نعيش في زمن الخلافة. ومن ناحية أخرى فإن المغرب لم

يبد البتة استعدادا كبيرا للقبول بالتخلي تخليا صريحا عن استقلاله لا بعد الإسلام ولا قبله". وأضاف في موضع آخر ص 147: "عرف إدريس هذه المرة نهائيا أمرا هو أن روح الشرق قد تغيّر وأنه من الآن فصاعدا على كل بلد وهو يعود إلى القوانين الخالدة التي أملتها على الدوام الأرض والدم وإلى دروس تاريخه، أن يحرص على خلاصه الخاص. فلقد كانت الفكرة القومية تشق خطاها تحت الفكرة الدينية". ولقد عمد علي الحمامي، مقاومة منه لما كان يرى فيه سياسة إلحاق مشرقية ذات لونين مختلفين (الإسلامي والقومي المشرقيين) إلى إعادة كتابة التاريخ المغربي من وجهة نظر قومية مغربية تربط ربطا وثيقا بين التاريخ القديم والوسيط والمعاصر. كيف قرأ الحمامي التاريخ المغربي أولا وما هي مقومات القومية المغربية ثانيا؟ هذان هما السؤالان اللذان نحاول في ما يلي الإجابة عنهما.

حارب علي الحمامي الأفكار التي تقول أن للبربر أصولا غربية أو أصولا شرقية نظرا إلى أن البحث في أصول الأمم البعيدة لا يستند في حقيقة الأمر إلى غير افتراضات تخدم نوايا سياسية اقتصادية إلحاقية. أما الحقيقة عنده فهي انه إذا كانت الأساطير العربية تتحدث عن انحدار العرب من قحطان وعدنان باعتبارهما بذرتين أوليين للجنس العربي فإنّ للبربر أصولا أخرى إذ كتب في ص 22:

"إن عائلة إدريس تنحدر منذ آلاف السنين من هذه الجماعات البربرية الأولى التي لا يعرف أحد الآن لا من أين أتت ولا كيف جاءت لتستقر في هذه الزاوية من المغرب. فمنذ عصور سحيقة سابقة على الفتح الإسلامي ظل الجبل باستثناء بعض الأماكن الساحلية مغلقا إغلاقا تاما في وجه كل دخيل أجنبي."

ولذلك استأهل الجبل عند الحمامي صفة "مقياس الصفاء الجنسي المغربي" الذي تقاس إليه نسبة صفاء بقية البلاد المغربية سواء أكانت برية مثل القيروان وفاس أم

بحرية مثل طنجة أو الجزائر أو قرطاج. فالجبل يمثل الحس البربري الأصيل والبساطة والنفور من السفسطة والوطنية الحقيقية والتعلق بالحرية. أما المدينة فهي تمثل عكس ذلك تماما. وإذا كانت قوانين التطور تفرض المدنيّة فإنه لا مدنيةَ حقيقيةً إلا على أساس من هذه القيم التي نبتت في الجبل. فالأصل المغربي الصافي المقياس هو، إذن، أولا بربري، وثانيا جبلي. وصفات هذا البربري الجبلي كانت دائما صفات المتحفظ إزاء المدينة حتى لو كانت مغربية مثل فاس والجزائر وتونس. نعمْ، إن المغاربة هم أخوة في البربرية ولكن أنقاهم هو البربري الجبلي الذي من صفاته النفسية انه: "فردي رغم خضوعه لقوانين العشيرة وفوضوي مزاجا وسجية كذلك ومتعلق بالحرية حتى انه ليفضل بسببها مخاطر الحياة البدائية على الوفرة وعلى أمن المجتمعات المنظمة." (ص 23).

وهذه السمات النفسية تكاد أن تكون، طبيعةً جغرافيةً، من صفات أنهار ووديان بلاد المغرب "هذه الخيوط المائية المتقلبة مثل الرياح التي تهب على المرتفعات إنما هي شقيقات كل وديان وأنهر أفريقيا الشمالية. إنها، وإن بحجم أصغر، السبو والشلف ومجردة. وهي تماما مثل روح المزارع المحارب الذي تسقي أراضيه، تنتقل فجأة من حالة الساقية البسيطة التي تنقل مياهها الوحلة بين الحصى الملساء في مجرى بلا ماء إلى حالة سيل تضطرب فيه الأمواج المزبدة التي كونتها أمطار الربيع وذوبان الثلوج" (ص 20). هذا التلاؤم بين الطبيعة الجغرافية والإنسان البربري الجبلي أي بين "الأرض والدم" بتعبير علي الحمامي، تولّدت عنه عند الإنسان المغربي سمتان أولاهما نفسية وطنية وثانيتهما نفسية عقلية.

يفصل الحمامي الحديث عن السمة الأولى أي النفسية الوطنية فإذا هي تتمثل في رفض البربري كل دخيل عليه لا يتبربر (الرومان قبل الإسلام) أو يتمغرب (الفرنسيون بعد الإسلام) لسبب أو لآخر فيذوب في هذه الأغلبية البربرية المغربية الحاسمة بعد

أن يكون قد حقق بهذا الاندماج دفعا للحضارة المغربية. فصفاء الدم هنا إنما يعني قدرة الجسد البربري، لسلامته الأصلية، على "تمثل" ما دخل فيه من دماء الأقليات واتسام هذه الأقليات بسمات تسهل عملية التمثل هذه. هكذا كان شأن الفينيقيين "أبناء عمومتنا" (ص 23) وعرب الإسلام الأول.

جزء كبير من الفصل الأول في رواية "إدريس" المعنون بـ"تولد" (Germinaison) خصصه الحمامي للبحث عن سبب قبول البربر الفينيقيينَ والعربَ الأوائلَ على العكس مما كان عليه موقف البربر من اللاتينيين والوندال والإغريق إذ كان "الرومان والجرمان والإغريق في عيون البربر سواء" (ص 31).

يفسر الحمامي قبول البربر الفينيقيين باستعداد هؤلاء للتبربر تماما مثلما سيكون شأن العرب المسلمين الأوائل الذين كان يمكن لهم، لو أخذوا بطريقة عقبة بن نافع في الفتح، أن يلقوا ما لقي اللاتين من مصير. وفعلا فإنّ عقبة بن نافع لم يفهم، في نظر الحمامي، إحدى سمات الشخصية البربرية وهي الحرية ومن ثم الوطنية فكان اندفاعه سبب قتله.

لم يقتصد بعض مؤلفي الكتب المدرسية وحتى غير المدرسية من المنتمين إلى التيارين الديني السلفي والعروبي في لعن القائد البربري كُسَيْلَة والكاهنة البربرية بسبب مقاومتهما الغزوات العربية والحال أنّ هذين القائدين لم يكونا، في نظر الحمامي، إلا تعبيرا عن بعض السمات المميزة للجنس البربري وهو الوطنية ومن ثم التعلق بالحرية.

لمَ أسلم البربر إذن؟ لأنّ الفاتحين اندمجوا في البربر ضمن مصير واحد أصبح الجميع بمقتضاه مغاربة. فمثلما تخلى الفاتحون عن جزء من خصوصيات الجنس العربي، تخلى

البربر كذلك عن جزء من خصوصياتهم العرقية. فأصبح في الإمكان قبر العبارة بلاد البربر[3] لتحل محلها عبارة بلاد المغرب. وهذا هو بالذات ما يفسّر تشبّث الاستعمار اللاتيني الحديث بالصيغة القديمة أو بصيغة ملطفة عنها وهي "بلاد شمال أفريقيا".

إنّ عبارة "الإسلام المغربي" من العبارات التي يكثر الباحثون الغربيون من استعمالها سعيا منهم في كثير من الأحيان إلى فصل المغرب عن المشرق فيقاومهم خصومهم من الإسلاميين خاصة برفض هذا المفهوم لأنه "تقسيمي" واستعماري. أما الحمامي فهو يحارب مضموني العبارة عند الباحثين الغربيين والإسلاميين جميعا إذ "الإسلام المغربي" عنده هو هذا الإسلام الذي ولد نتيجة الاندماج في ميدان القتال ضد أوروبا، بين القلة من العرب والكثرة من البربر الفاتحين أي هذا الإسلام الذي ولد في الفترة التي ولد فيها "الشعب المغربي الجديد". فـ"الشعب المغربي الجديد" ليس هو تماما الشعب العربي وليس هو تماما الشعب البربري ولذلك فإنّ الرابطة السياسية بين الدول المغربية (الأغالبة في تونس ودولة بني رستم في الجزائر ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى) ومختلف الخلافات في المشرق ستتراخى شيئا فشيئا (إن لم نقل ستنقطع) منذ القرن التاسع الميلادي أي منذ ولادة "الشعب المغربي الجديد" كما أنّ حضارة جديدة إسلامية مغربية، هذه المرة، ستنشأ في صلب هذا الشعب الجديد هي الحضارة الموحّدية.

"سلكت السلالات والقادة العرب المسلك نفسه فهم تأفرقوا تماما مثل الفينيقيين. ومن دون أن يفقدوا المزايا الأصلية المميزة لجنسهم أصبحوا مغاربة راسخين خالصين. لقد اندمج أمراء قرطبة [في الأندلس] والأغالبة [في المغرب الأدنى] والأدارسة [في المغرب الأقصى] والرستميون [الخوارج الإباضية في المغرب الأوسط]

---

[3] La Berbérie

والسعديون [حكموا المغرب الأقصى من 1554 إلى 1659 قبل أن تحكمه السلالة العلوية الحاكمة من 1659 إلى الآن] في تاريخ المغرب اندماج المرابطين والموحدين (...) إنّ سيادة بغداد [في عهد هارون الرشيد والأمين والمأمون في القرن التاسع الميلادي] على تونس زمن زيادة الله بن الأغلب لم تكن إلا وهما محضا. وحتى الفاطميون لم يجرؤوا البتة رغم أصول مذهبهم الشيعي المشرقية على الوقوف ضد هذا التيار الامتصاصي الذي هو الدليل الجلي على قدرة البلد [المغربي] الإدماجية".

هذا في ما يتعلق بالجزء الأول من المسألة أي الجزء الذي تناول بعض أسباب قبول البربر بعدد من الوافدين مثل الفينيقيين والعرب وأغفل بعض الأسباب الأخرى ومنها إشراك العرب البربر في مغانم الفتوحات أي السبب الاقتصادي وهو قبول تولد عنه نشأة "الشعب المغربي". وعلينا، تتمة لهذا الكلام، أن نبين بعض أسباب رفض البربر قبول بعض الوافدين الأخر مثل اللاتين والجرمان.

سبب فشل"الزواج" البربري اللاتيني الجرماني ليس عقديا فحسب ولكنه عند الحمامي اقتصادي كذلك. فالوافدون، وهم قلة، رفضوا الاندماج والذوبان في الكثرة البربرية، مدفوعين إلى هذا الرفض بوهم التفوق الحضاري فاختاروا عوضا عن الاندماج إدماج الكثرة في القلة. ونحن نلخص كل ما يتعلق بهذه المسألة في شاهد واحد ورد في صفحة 27 من "إدريس":

"حكمت روما وبيزنطة أفريقيا الشمالية بطريقة احتفالية: شيوخ يجلسون على كراسي من عاج وقياصرة يكلل الغار جباههم وأباطرة متدثرون بألبستهم القرمزية الإلاهية يحملون بأيديهم صولجان العالم. لقد لمع سيبيون وماريوس وسيلا وقيصر وأوغسطس في ذلك لمعانا ساطعا سريعا. ونالت روما في أفريقيا كل ما شاءت: المدن ومقار السلطة وأقواس النصر والمسارح وحلبات المصارعة والمعابد

والحمامات المعدنية والقنوات المائية والثكنات والآثار التذكارية والتماثيل، أي نالت كل ما يمكن للحجر في نهاية الأمر أن يَهَبَ. ولكنها لم تنل شيئا آخر. فسياستها لم تكن من هذه السياسات التي يمكنها أن تجلب إليها قلب البربري. لقد صيغت القوانين الرومانية صياغة تمكن المستوطنين من اقتطاع العِزَبِ بالاستحواذ على أراضي المواطن الأصيل بغية ضمان ما يحتاجه الشعب–الملك من خبز ومن ألعاب سيرك حتى لا يبدي أنيابَه لطبقة الأشراف التي ولدت على أنقاض وعلى شقاء الأجناس المستعبدة. إن هذا تقريبا هو ما أمكن لأجداد إدريس أن يحصلوا عليه من السلم الرومانية."

إنّ تاريخ روما القديمة في بلاد البربر يشبه إلى حد كبير تاريخ الحكم الاستغلالي الاقتصادي العربي الأول الذي قاومه البربر قبل ولادة الشعب المغربي وسعيه إلى الاستقلال عن الدولة الأموية منذ القرن الثامن الميلادي فـ"ثورة الخوارج الكبيرة كانت موجهة ضد بعض مظاهر تعسف خلافة دمشق وانتهت إلى الانتصار" (صص137-138)، هذا السعي إلى الاستقلال الذي تكلل بالنجاح في القرن التاسع الميلادي عندما استقلت دويلات المغرب سياسيا عن الدولة العباسية. فإذا كانت المسيحية وأدواتها الرومان قد زالت فلأن الرومان أصرّوا على سياسة الإلحاق والإدماج. وإذا كان الإسلام وأدواته العرب الأوائل قد بقيا فلأن هؤلاء قبلوا التمغرب أي الاندماج ورفضوا، نتيجة لذلك، كل سياسة تهدف إلى إلحاق المغرب بالمشرق وهي سياسة تفترض إذابة الخصائص المغربية المتنوعة في دولتي الشرق الأدنى الأموية والعباسية.

وليس في إمكان المرء أن يفهم أبعاد هذه المسألة إن لم يعتبر أن من مرادفات "ثورة الخوارج الكبيرة" "وطنية" الخوارج إذ لا يتحرج الحمامي من استعمال مفهوم الوطنية الرأسمالي الحديث حتى عندما يتعلق الأمر بالحضارة التقليدية ما قبل الرأسمالية

ولسوف تتولد عن أخذ الحمامي بفكرة الخصوصية المغربية نتيجة خطيرة على المستوى السياسي هي اعتباره أنّ كل القائلين بالدمج الحضاري قديما وحديثا وسواء أكانوا رجال دين مثل القديس أوغستين (354-430) أم رجال سياسة مثل يوبا الثاني (52-24 ق.م) قديما، لا وطنيين في نهاية المطاف لتغليب الحمامي فكرة الوطنية على الفكرة الدينية وأن كل القائلين بالفصل الحضاري قديما وحديثا وسواء أكانوا رجال سياسة مثل يوغرطة (160-105 ق.م) أم رجال دين مثل دونات (ت 355) وطنيين لا بد من الانتصار لهم.

وما كان الحمامي ليذهب هذا المذهب في دعوته إلى القومية المغربية لولا إيمانه بأنّ الوطني يعلو على الديني ذلك أنّ الوطني خاص يختص بأمة معينة والديني لا يمكنه ذلك بسبب تعدّد الأمم في دين من الأديان ومن ثم تعدّد المصالح وتضاربها. وفعلا فقد قسّم الحمامي البربر القدماء إلى قسمين: قسم إدماجي مارق لا وطني ضم رجال سياسة ودين على حد سواء ومن أشهر نماذج هذا القسم الإدماجي البربري يوبا الثاني ورجل الدين أوغسطين، وقسم وطني محارب للإدماج ضم كذلك رجال سياسة ودين على حد سواء ومن أشهر نماذج هذا القسم اللاادماجي يوغرطة ورجل الدين دونات. كتب علي الحمامي عن القسم المارق وطنيّا صص 27-29:

"يوجد صنف لا يتّسع له صدر أجداد إدريس بوجه خاص. إنه صنف المرتدين وأدوات التصفية القومية الذين تخلوا، بعد أن وقع إدماجهم ولتينتهم (latinisation) ثم تنصيرهم، عن بلد آبائهم وقطعوا رابطة الدم. والقديس أوغسطين، ويوبا هما نموذجا هذه الفصيلة فلقد دار أسقف عنابة في مدار يختلف عن مداره الأصلي. وقد هيأته أورثوذوكسيته وإخلاصه لمبادئ دين أفقده مريدو الهيلينية (hellénisme) والعقيدة اللاتينية طابعه الشرقي إلى حد أصبح البربري غير قادر على استيعابه، هيأته أورثوذوكسيته قلنا، إلى مثل هذه الردة. على أنه ليس

تنصّر ابن القديسة مونيك (Monique) هو ما أفقد القديس أوغسطين شعبيته في أعين مواطنيه ولكن روميته (romanité) المبالغ فيها وحماس حداثة تنصره واندفاعه اندفاع المبشر. فهذه العوامل هي التي قادته إلى تفضيل مغتصبي بلده على أخوته في الدم وعرضته للشبهة في عيون أهله. إنّ هذا الذي كتب مدينة الله (La Cité de Dieu) قد ابتدأ بنسيان مدينته. أما يوبا الثاني الذي نصبته روما أميرا على موريتانيا القيصرية (أي تونس الحالية تقريبا) فكان يفكر أنه في إمكانه أن يبهر أسياده باستعراض ثقافة مفرطة في التهذيب لم تحقق له قطعا مزيدا من التقدير. لقد كان متزوجا من أميرة (...) ولدت من علاقة حب درامية بين مارك أنطوان وكليوباترا. وقد تبناه أوغست (Auguste) وربّاه فكان يقلد تقليدا أخرق أبهة أوغست القيصرية فتكدّست على رأسه اللعنات والشتائم ورمى به البربر ببساطة لا مزيد عليها في الحُرّاق (orties)."

ومن يقرأ بترِوّ رواية علي الحمامي "إدريس" فسوف يلتقط في مواضع عديدة إشارات إلى ساسة مغاربة سلكوا في القرن العشرين إزاء فرنسا وأسبانيا سلوكا يذكر بما وصف به الحمامي الملك البربري يوبا الثاني في القرن الثاني قبل الميلاد.

أما القسم الوطني من البربر فقد عدّد الحمامي خصاله فكتب عن السياسي يوغرطة:

"لكن سقوط قرطاج لن يفت في عضد البربر فقد تسلّم بطل قومي العلم الذي انفلت من الأيدي القرطاجنية وبرز يوغرطة في الميدان مستعملا وسائل نضال جديدة. (...) إنه ما من شك في أن أجداد إدريس الذين تملكتهم الدهشة والمفاجأة في آن واحد قد سمعوا كلمات الاحتقار التي وجهها القائد النوميدي الكبير صوب روما من أعلى ربوة الجانيكول بعد أن جلب إلى صفه مجلس الشيوخ بالثمن المتفق

عليه وبعد أن فضح مكائد مبعوث الوالي: 'أيتها المدينة القذرة كل شيء فيك يباع'."

وكتب عن رجل الدين البربري دونات (ص 31):

"ينتمي دونات أسقف قرطاج، على الرغم من انشقاقه، إلى كنيسة أفريقيا. كان مثل القديس أوغستين بربريا ولكنه على عكس أب الكنيسة الشهير لم يرتد عن أصوله ولم تمنعه صفة وظيفته الكهنوتية من تمييز الفروق التي تفصل بين الدين والسياسة. كان يعيش بين المؤمنين التابعين له يقاسمهم الآلام والآمال لأنه كان أقرب إلى روح الأناجيل من مواطنه الشهير. وعندما اقتنع دونات بتقصير الكنيسة المتعمد وبأن المظالم الاجتماعية تلقى تسامحا من البابوية ومن الأسقفيات رفض الخضوع للتوجيهات البابوية. لقد تعرض لحَرْم الكنيسة وامتحان الكنيسة والملكية. ولكنه تعزى عن ذلك بأن نفث في انتفاضة مواطنيه قوة روحية اضطرت الكنيسة إلى أن تقف وجها لوجه أمام مسؤولياتها. وكان ذلك هو أصل نضال ال'سيركونسيليون' ضد التعسف الروماني."

ومن يقرأ بتروّ رواية علي الحمامي "إدريس" فسيلتقط في مواضع كثيرة إشارات الى رجال دين ورجال سياسة مغاربة ما كان لهم أن يحظوا بما نالوه من حظوة لولا حسهم الوطني الحاد (ابن تومرت في القرن الثاني عشر الميلادي وعبد القادر الجزائري الذي تصدى لغزو لويس دي بورمون الجزائرَ سنة 1830 ومحمد بن عبد الكريم الخطابي في القرن العشرين مثلا).

هذا التعلق بخصوصيات المغرب حتى على مستوى الدين وهذا النفور من التيارين القومي والإسلامي هما اللذان دفعا الحمامي، بعد أن فرغ من الحديث عن سمة

التميز البربري على المستوى السياسي أي الوطنية ورفض أي سياسة إلحاقية سواء أكانت شرقية أم غربية، إلى محاولة البحث في ما تتصف به "الذهنية" المغربية من صفات تميزها عن غيرها من الذهنيات أي البحث في السمة النفسية العقلية. وهذه السمة الثانية أكثر تعقيدا من السمة الأولى لأنها تفترض أن يقنعنا الحمامي بأن السمة النفسية العقلية البربرية قديما والمغربية في العصرين الوسيط والحديث هي سمة يتميز بها المغربي عن غيره من المنتمين الى الأمم الإسلامية الثلاث: العرب والفرس والترك.

لا يتعرّض علي الحمامي في "إدريس" لما يتصل بهذه المسألة عند الترك والفرس إذ يحصر المقارنة في المجالين البشريين، المجال المشرقي والمجال المغربي فيقابل بين الثلاثي المشرقي ابن حنبل (780-855) (ضمنا أي من خلال محمد بن عبد الوهاب (1703- 1792) والغزالي (1058-1111) من ناحية والثلاثي المغربي ابن تومرت (ت 1130) والوليد بن رشد (1126-1198) وعبد الرحمان بن خلدون (1332-1406).

عندما نلقي بأبصارنا بعيدا في التاريخ، أي إلى القرن التاسع الميلادي، نلاحظ أن مرجع دعاة النظرة الميتاتاريخية أحمد بن حنبل الذي يكثر أنصاره من الاستشهاد به دينيا قد حدد في بعض الجمل القاطعة تصوره لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين مختلف الأمم الإسلامية انطلاقا من مرتبية سياسية تتنزل العائلة الهاشمية فيها منزلة المركز وتتنزل فيها بقية الأجناس الإسلامية منزلة الأطراف أي أنه أسس لإسلامية مركزية، دفعته نظرته الميتاتاريخية إلى أن يرى فيها ما يشبه "نهاية التاريخ" إذ كان يرى أن: "الخلافة في قريش ما بقي في الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها، ولا نقر لغيرهم إلى قيام الساعة" مما يفسر أن بعض من يعارضون هذا المذهب (المتوكلي مثلا) قد اشتدّ في الرد على مثل هذه المركزية العربية

الإسلامية فنظم ما يذكر اليوم بالصراع الإيراني العربي:

فقل لبني هاشم أجمعينَ	هلمّوا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكمُ عُنوةً بالرماح	طعنا وضربا بسيف خذم
وأولاكمُ الملكَ آباؤنا	فما أن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز	لأكل الضِّباب ورعي الغنم

وهذا الموقف الذي عبر عنه المتوكلي تحاربه المصنفات الإسلامية والعروبية باعتباره موقفا "شعوبيا" متناسية أنه كان ردة فعل صادرة عن معبرين عن أمم غير عربية مثل الترك والفرس والمغاربة كانوا يفصلون بين اعتناق الإسلام الأول وضرورة الخضوع للعرب المسلمين مثلهم الذين تحكمهم، شأنهم في ذلك شأن كل البشر، مصالح ودوافع ليست دائما مصالح ودوافع "نبيلة". ومن بين هؤلاء الرافضين للنظرة السياسية الحنبلية في القرن العشرين علي الحمامي الذي حرص على التأكيد أنه، منذ القرن التاسع الميلادي، أي بالذات منذ زمن ابن حنبل اختار المغرب نهجه الخاص به في فهم الإسلام، أي هذا النهج الذي يخدم مصالحه القومية ذلك أن "المغرب لم يبد البتة استعدادا كبيرا للقبول بالتخلي تخليا صريحا عن استقلاله لا بعد الإسلام ولا قبله." (صص 137-138).

ولم يقتصر الحمامي على رفض الحنبلية التي تميّزت بمعاداة التعقيد الفلسفي المميز لخصومها من المعتزلة بل تَعَرَّضَ للغزالية التي إن حافظت على نواة التفكير السياسي الحنبلي فقد أوغلت في هذا التعقيد. ولذلك نراه يكاد لا يتوقف عند الغزالي عندما تحدث عن التحاق الداعية الديني السياسي المغربي إبن تومرت بالمشرق طلبا للعلم.

وعلى العكس من هذه الإشارات الخفيفة إلى الغزالي حرص الحمامي على رسم صورة غير مشرقة للداعية النجدي محمد بن عبد الوهاب، الامتداد الأشهر لابن حنبل فيكتب في ص 92:

"استحوذ في نهاية المطاف ابن عبد الوهاب في بداية القرن [الثامن عشر] على سلفية ابن حنبل وأعطاها في صحراء نجد بدعم آل سعود هيأتها وطابعها الحالي. ولكن الوهابية والحق يقال ليست إلا مجرد حالة نفسية عكسها تعصب ولد في بيئة قبلية وعبّر عن أكثر ما فيها من غريزية وبدائية وابتذال."

ولو أردنا أن نلخّص ما سبق أن ذكرنا في ما يتصل بإلحاح الحمامي على وجود ذهنية مغربية خاصة وربطنا ذلك بما سبق الفترة الإسلامية من تاريخ المغرب لأمكننا القول إن الذهنية المغربية تتميز إجمالا بالسمات التالية:

1– تميل هذه الذهنية إلى ما هو طبيعي وتنفر مما هو اصطناعي فهي ذهنية تقول بـ"البراءة" ولذلك نبذت رجل الدِين البربري القديس أوغسطين لأنه كان تعبيرا عن "دين أفقده مريدو الهيلينية (hellénisme) والعقيدة اللاتينية طابعه الشرقي إلى حد أصبح البربري غير قادر على استيعابه" وتبنّت الإسلام الأول لأنه كان في البداية شبيها بالمسيحية الأولى التي تتميز بـ"البراءة" أي أنها كانت "مجموعة معتقدات أنبجست من قلب راع من الجليل البعيد وجد في الفوضى الاجتماعية التي مثلت أساس البناء الروماني ميدانا مذهلا للعمل (...) إنها فكرة تتضمن في جوهرها شذرة من هذه العدالة الثابتة التي يعثر عليها المرء في كل مكان وعلى الدوام عندما يظهر أن القوة انتصرت على الحق" (صص29-30). فإذا كانت الذهنية المغربية، إذن، ترفض الحنبلية على بساطتها فمردّ ذلك إلى نظرة ابن حنبل السياسية الإلحاقية وإذا كانت ترفض الغزالية فمردّ ذلك الى هذا التعقيد الذي يميز تفكيره الديني

الفلسفي الذي يذكر بالقديس أوغستين إذ يلتقي المفكران في نقطة سياسية واحدة هي خدمة دولة غير مغربية بغض النظر عن صبغة هذه الدولة الدينية.

2– هذه الذهنية المغربية تميل إلى اعتبار فكرة العدالة الاجتماعية فكرة مركزية والى اعتبار ما عداها من قبيل الحواشي. ومثل هذه الفكرة كثيرا ما تبلغ مداها الأقصى عندما يكون الدين في "رحم" قوم من الأقوام. ذلك أنّ هذا الدين أو ذاك يتبع في نموه وشبابه وكهولته مسارا يناقض باطراد "براءته" الأولى أي يصبح بلغة "النفط" دينا مكرّرا. فمسيحية القديس أوغستين في القرن الخامس ولافيجري (Lavigerie) في القرن التاسع عشر وإسلام ابن حنبل والغزالي ومحمد بن عبد الوهاب هما دينان مكرّران. ولم يحدث أن رأى البشر قوامين على "شركات نفط" يجتهدون لوجه الله. ذاك هو شأن رجال الدين قديما. وهو شأن المنظرين السياسيين اليوم في نظر الحمامي. فإذا رأيت منظرا دينيا أو سياسيا فبادر بالسؤال: من المحرك القابع وراء الستار؟

3– هذه الذهنية المغربية مضمخة برائحة الجنس البربري المغربي وبرائحة التربة المغربية ولهذا فمن حق المغاربة أن يصوغوا الإسلام صياغة مغربية. وليس من حق العرب أو الفرس أو الترك أن ينصبوا أنفسهم قوامين على هذا الإسلام المغربي ذلك أنه لا وجود لسلفية إسلامية واحدة فقد "كان الخوارج سلفيي الإسلام الأول. أما الحنبلية وروافدها فهي سلفيات أخرى. وهنالك مدرسة ثالثة خاصة بأفريقيا الشمالية ولدت تحت رعاية الفلسفة الإسلامية الكلاسيكية: إنها مدرسة ابن تومرت وهي متشبعة بذهنية مغربية خاصة تحدد ملاحها." (صص 93-94).

إنّ إسلام ابن تومرت الذي نزّله الحمامي هذه المنزلة الرفيعة والإسلام المغربي بصفة عامة هما اللذان كتب فيهما محمد عبده (1849-1905) الإنجليزي الهوى في لهجة

لا تخلو من الازدراء حتى لا نقول من العنصرية:

"إنّ المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود (...) فقد حملت كتب الإمام الغزالي إلى غرناطة وبعدما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت السنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله فجمعت تلك الكتب خصوصا نسخ "إحياء علوم الدين" ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت."[4]

هذا الإسلامي الإلحاقي لم يفهم، بسبب قيام تفكيره على نظرة ميتاتاريخية إلى الأشياء أن لحادثة إحراق "إحياء علوم الدين" أسبابا سياسية علاقتها بالإسلام واهية. ولذلك كان يطالب بأن يكون الإسلام المغربي مجرد نسخة من إسلام مشرقي مكرر أي مقيسا لا على إسلام أول (إسلام النزول) ولكن على قياس. ومثل هذا التفكير لو تبنته الموريتانيات مثلا أي بنات شنقيط الصنهاجيات العريقات في الإسلام أي حفيدات المرابطين والمرابطات، ومنهن زينب النفزاوية (ت 1071) التي دفعت زوجها المرابطي يوسف بن تاشفينت (ت 1106) إلى بناء مراكش، لبادرن إلى تبني الحجاب المشرقي ولقد كن منذ القديم وإلى اليوم عاريات الوجه مستورات الجسد في حين كان أزواجهن يلبسون الحجاب (اللثام) ولا يستنكفون، من نسبة أبنائهم إلى النساء (ابن تاشفينت، والتاء علامة على التأنيث في البربرية).

إنّ ما سبق هو ما دعا الحمامي إلى القول بالذهنية المغربية التي عبّرت عنها حضارة مغربية خاصة هي الحضارة الموحّدية التي قامت على سلفية خاصة بالمغرب و"هذه السلفية الموحدية العقلانية على النقيض من السلفية الحنبلية الوهابية التسووية

[4] محمد عبده، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، الجزائر، 1987، ص 159.

ولكن المعادية للتطور وللمجتمع أمكنها أن تلد حضارة رائعة خصبة." (ص 94).

هذه الحضارة "الرائعة الخصبة" ليس في إمكان الباحث أن يكنه حقيقتها الا باكتشاف الخيط الرفيع الذي يربط بين ابن تومرت وابن رشد وابن خلدون وخاصة بين ابن تومرت وابن رشد اللذين يبدوان للعين السطحية متناقضين ذلك أن علي الحمامي يرى على نقيض الكثيرين ممن يركزون على امتحان الدولة الموحدية ابنَ رشد أن العين النقدية النافذة يمكنها أن تعثر على خيط دقيق ورفيع يصل هذين العلمين ببعضهما البعض:

"مثلما تولد الاعتزال المتفتح العلمي عن المذهب الخارجي الذي هو تقريبا الوجه الفكري المعبر عنه فإن الرشدية الأندلسية تولدت من السلفية الموحدية. إن مجموعة الظواهر الغائية وعلاقة خاصة بين العلة والمعلول تهيمنان على هذين التيارين الفكريين وتربطان بينهما وتضعانهما معا على عتبة أصل واحد يهدف عن طريق تعديلات متكررة إلى تحرير الفكر الإسلامي عضويا واجتماعيا. فبقراءة متمعنة لـ:"المرشد" و"التوحيد" اللذين ألفهما الداعية الشمال أفريقي الشهير يمكن للعين المتمرسة أن تتبين بوادر علامات مؤكدة ونوعا من التجسيد المسبق الدقيق يعثر عليهما المرء فيما بعد في كتابات ابن طفيل وابن رشد." (ص 95).

وإذا كان ابن خلدون يقع خارج إطار الدولة الموحدية الزماني فإنّ هذا لم يمنع الحمامي من إدراجه ضمن هذا الثالوث القدوة بل قد يكون هذا التأخر الزماني هو الذي دفع الحمامي إلى أن يرى في ابن خلدون تجسيدا "الجدل بين مبدأين متناقضين يصعب أن يلتقيا" (ص 137).

لقد انتهى الأمر بعلي الحمامي وهو يقاوم نزعة إلحاق بلاد المغرب ببلاد المشرق

سياسيا (شرفاء مكة، حكم دمشق والعراق) إلى دعوة المغاربة إلى تنشئة أبنائهم تنشئة وطنية مغربية:

"هكذا تمكنت أفكار ابن تومرت التوحيدية من المغرب. لقد أكمل ابن تومرت، مع ابن رشد وابن خلدون، الثالوث الأروع الذي سيرى فيه إدريس مركز تاريخ وحضارة بلده ورمزها. فقد اعتمد إدريس هذا الثالوث مثلا يحتذى (...) كان إدريس يأسف أن يكون أمثال هؤلاء الصقور قد حلقوا فوق الأطلس من دون أن يسقطوا أي بذرة. أما في عبد المؤمن وفي الخلافة الموحدية فسيتبين إدريس المستوى الباهر لخصال جنسه الخلاقة. إنّ عصر المغرب الذهبي عندما كانت قرطبة في بالغ أَلَقِهَا سيكون له الأثر الأكثر نفعا في إدريس. ولسوف يقارن، عندما يحين الوقت، بين هذا القرن المبارك وقرون بيريكليس والمأمون ولويس الرابع عشر (...) إن إدريس سيتبين في الإمبراطورية الموحدية التي تشير إلى أوج المغرب حصيلة القوى الحرية بأن تكون قاعدة ومثالا للقومية المغربية: الوحدة العقدية (وهذا أمر لم يعد ضروريا بعد انتصار الإسلام) والوحدة القومية، وعلى هامش هذا التأثير المتبادل، الازدهار الفكري الذي يرسّخ بناء الأمة ويمكنه من أسس صلبة." (صص 38-39).

يلخص الشاهد المتقدم كل مقومات القومية المغربية عند الحمامي:

"الوحدة العقدية والوحدة القومية والازدهار الفكري". فلا بد عندئذ من التوقف بإيجاز عند هذه المقومات الثلاثة حتى تتحقق المنفعة من هذا البحث.

إنّ الوحدة العقدية قد تحققت منذ أن ولد الشعب المغربي في القرن التاسع الميلادي على أساس من المذهب السني المالكي ممثلا خاصة في سَحنون القيرواني (ت 854) المعادل المغربي للبغدادي ابن حنبل (ت 855) الذي توفي بعد سَحنون

صاحب المدوّنة بسنة. ولقد كان سَحنون في المغرب خادما سياسيا للأغالبة الرافضين الحكمَ الهاشمي العباسي في حين كان ابن حنبل خادما للهاشميين من بني العباس. فلا حاجة حينئذ للمغاربة في أن يعيدوا النظر في هذا الأمر الذي حسم فيه منذ القرن التاسع الميلادي ولذلك كتب الحمامي: "وهذا أمر لم يعد ضروريا بعد انتصار الإسلام" (ص 39).

أما الوحدة القومية المغربية فلقد تحدثنا عنها مطولا في غضون هذا البحث ورأينا كيف اجتهد الحمامي في بيان عناصر الوحدة بين البربر قبل الإسلام والمغاربة بعد تكوين "الشعب المغربي" مثلما اجتهد في بيان عناصر الاختلاف بين الأمة المغربية وغيرها من الأمم وخاصة الأمة العربية.

يبقى المقوم الثالث من مقومات الوحدة المغربية أي الازدهار الفكري في حاجة إلى التحديد فما الذي يقصد الحمامي بهذه العبارة؟ يجيب الحمامي في ص 280 عن هذا السؤال على النحو التالي:

"إن الشعب (المغربي) وقد تعرض للفتح ووقع تحت تأثير الاستعمار مهدد بالموت إن أعوزته الثقافة الاجتماعية وقد يطول استعباده إن بقي على هذا الجهل، لذا عليه أن يرد الفعل (...) ولكن بأية وسائل: بالكفاح المسلح أم بتربية الشعب، بالمنصور أم بابن خلدون؟"

من المنطقي أنّ علي الحمامي الذي كتب روايته في بغداد سنة 1941-1942 أي قبل تجذّر الحركات الاستقلالية في بلاد المغرب سيختار تربية الشعب. وأول شرط من شروط نجاح المدرسة هو غرس الإيمان بالقومية المغربية ومرجعها الدولة الموحدية وثالوثها الرمز ابن تومرت وابن رشد وابن خلدون. وما أبعد ابن خلدون

الذي يقوم تفكيره على مزج عجيب (وقبل ظهور هذه المصطلحات) بين النظرتين التاريخية العقلانية والتاريخية المادية إلى الأشياء عن ابن حنبل والغزالي ومحمد بن عبد الوهاب الذين يقوم تفكيرهم على نظرة تقليدية إليها.

محمد الناصر النفزاوي
أستاذ الحضارة الحديثة والمعاصرة
في الجامعة التونسية (تونس 1)

إلى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطّابي
تقديرا وإعجابا

تولّد

في الجنوب ترتفع قمة تيزران التي يعلوها طوق من شجر الأرز يرقى عمره إلى آلاف السنين. هذا المشهد جميعه يكوّن ضربا من القباب تتلون في الفجر الوليد بلون أدفاق نور أرجوانية. أما في المساء، فإن الغسق يحلّيها بوفرة في الألوان بدءا من اللاّزوردي وصولا إلى الوردي الباهت. إنه لبلد عجيب والليل فيه ليل إلهي. فلم يحدث في زمن ما وتحت أية سماء أن كانت قبة السماء أكثر مما هي عليه هنا صفاء أو كان الفضاء في جلاله أكثر مهابة. فلكأنّ القمر اختار أن يتخذ منها منزلا إذ يظهر سحره في منتهى السخاء عندما ينشر أشعّةَ نورِه وبسماته في قنن جبال الأطلس. ولهذا السبب، ما من شك في ذلك، كان البربري القديم يرى في ذيل جونون إلاها خيّرا يعبده ويخشاه من دون أن تكون له معرفة به. وفي أشهر الصيف التي يغيب عنها القمر ويطهّر النسيم المنعش الآتي من المرتفعات الجوّ من فوحان القيظ الذي رسب فيها نهارا ويلذّ للفكر، وقد تحرر من غمّ الحياة اليومية، أن يهيم في ثنايا هذه الخفايا، يعتقد الفكر، إن صدقناه، أن لا وجود في الأرض لسماوات بمثل هذا البهاء وهذه الحمية. وللشتاء أفضاله أيضا. فعندما يَخْطِمُ الثلج الذُّرَى بطلائه يبهو الجبل ببهاء يعتقد معه المزارع أنّ في إمكانه أن يدرك فيه لا أدري أيّ ضرب من ضروب الانتشاء بمجد عابر.

وفي الأعلى يحيط وشاح أبيض الغابات بثنياته الدائرية التي تنفلت منها هنا وهناك مَطْرَات زُمُرُّدية رَيْحانية تتقزّح في الأطراف وتتنامى فتنة الألوان عند المنحدر والممرّات في سَبْكة لامعة. حتى إذا ما انضاف إلى ذلك البرد القارس جدا لم يعد في

مستطاع الكَفَن الواسع الناصع البياض ألاّ ينفذ إلى أعماق الفظّ الغليظ من الناس يدربه على سحر شبيه بهذا السحر.

أما في الجنوب والشرق فهناك الساحل الذي تتكاثر على طول شاطئه من تطوان إلى مليلة الجُوَينات والخُلجان والجزر الصغيرة التي تشرف عليها الجبال المزيّنة بالبلّوط والعوسج والمُصْطَكَّا. ويتسلل عدد من الأعِقّة التي تخترقها أودية ذات تحاريق ضحلة بين جدران الجبال النضيدة مثل الحُنشان بين قصب مأسلة. وتشق أنهار مارتين ولاو وتيقيساس والمثل وأورينقا والنكور هذه السبحة بأوهد يزرع فيها المزارع شعيره وخَضْرَاوَاته في حين ترعى أمعُزُه الشّوك الذي ينبت بين باقات الصبَر والدفلى.

هذه الخيوط المتقلبة مثل الرياح التي تهب على المرتفعات إنما هي شقيقات كل وديان وأنهر أفريقيا الشمالية. إنها، وإن بحجم أصغر، السبو والشلف ومجردة. وهي، تماما مثل روح المزارع المحارب الذي تسقي أراضيه، تنتقل فجأة من حالة الساقية البسيطة التي تنقل مياهها الوحلة بين الحصى الملساء في مجرى بلا ماء إلى حالة سيل تضطرب فيه الأمواج المزبدة التي كونتها أمطار الربيع وذوبان الثلوج.

وفي مصب كل نهر ما زالت أبراج عسّةٍ تقع على تلال منكمشة عن الشاطئ أقامها البرتغاليون قديما تنصب أطلالها المتداعية وتذكّر عابر السبيل بشبح ذكرى عن التاريخ الماريني.

وبين الجبال والبحر تلتف رَمْلَةٌ ساحلية بَزَرت فيها كَوْمات من الطحالب والصدفات حول قرى من الحجر والقشّ يسكنها صيّادون ومهرّبون ينحدرون من قراصنة الأمس. وبالقرب منها قوارب وجِذعيات شدتها القلوس إلى اليابسة فتأتيها الأمواج لتموت في هدوء. وينتهي الموج الصاخب غالبا في شكل هدير لا يكاد يتميز عن هزيج

الغابات المجاورة. أما العواصف فهي نادرة. كما أن هناك قلة من الحشفيات والصخور. ولا يلاقي المرء مَكْسَرات الموج في غير المناطق البحرية وأجوليات الريف.

وتؤبد قاع أسراس وتيقيساس ومثال ومستاسا وجزيرات فيليز والحسيماء أسماء قديمة تبدو كأنها تتوارى نهائيا في النسيان.

أما الشمال فهو امتداد للجبل. إنه الأرض الأم وهو الوطن الصغير الذي تتكون فيه وتتحلّ من دون تغيير يذكر منذ العصور الإنسانية الأكثر إيغالا في الماضي أجيال خشنة. وهو المصعد إلى جبل العلم، أحد ذرى البلد. وهنا، وفي أبعد نقطة يرقد في ضريح قديم ذي مَنْوَرَاتٍ تتخللها قضبان حديدية في نعش مُنَجَّدٍ بديباج مزين بالزخارف مولاي عبد السلام، جد السكان الذي يطلق اسمه على المكان. وقد شكلت غابة صغيرة من العَفْصِيَات ذات الورق المائل إلى الزرقة ما يشبه السور المقدس المهيأ لاستقبال قبور المفرطين في التقوى ممّن ماتوا محاطين بهالة من القداسة. وتحيط بالمكان من كل جهة مقبرة ذات مظهر ريفي تبدي زهدا متعمدا يلائم ما تقتضيه العادات القديمة التي فرضتها على الإسلام خرافات الورعين.

إنّ البصر ليمتدّ بعيدا جدا من جبل العلم الذي يمكن للمرء أن يلقي منه نظرة إعجاب في أكتوبر أثناء فصل الحرث بدوران عقبان الأطلس الرمادية وهي تترصّد طيران الزيغان الباحثة عن مرعى. ويتبين المرء بسهولة عندما يكون الجو صاحيا خط الروابي التي حفر هرقل بينها المضيق الذي وصل، وهو يفصل قارتين، بحرين وفتح المحيط على غارات الأسطول المستمرة المنتصرة في نهاية المطاف. ومن حافة المضيق حيث يمكن للمرء أن يتنبأ بطنجة التي يحجبها عن النظر بوهاشم، الشبيه في تجعّده بظهر الضبع والذي يخيّله الهُدْبُ اللازوردي الملتصق بصخرة جبل طارق، يمثّل جبل العلم مرصدا تمتزج فيه الإستراتيجيا بالجمال والصمت الباعثين على

التأمّل فلا يسعه أن يدفع عنه إحساسا كئيبا بجسد قديس الجبل الذي يرقد في سكينة مطمئنة والذي يبدو أنه يشرف من جبل أولمب مثل هذا على مباراة المياه المتلاطمة التي تندفع هاجمة على الشاطئ قبل أن تختلط بمياه البحر.

وهناك، في الشرق، صفّ الذرى المتصلة المكسوة اخضرارا داكنا. وفيها تتنضّد في غزارة استوائية دغال التجأت إليها آخر أصناف الخنزير والشيهم. إن التدرَج والحجل ودجاجة الأرض والسُّمْنَة واليمامة تغزر في هذا المكان. وكذلك الأرنب. إن البلد فقير ولو أنّ الحياة فيه أكثر حفاوة نسبيّا مما هي عليه في الريف المجاور. ولا ينتج الجزء الشمالي من الجبل وهو أكثر وعورة وتعرضا لفعل التيّارات الباردة التي تتدفق من الشمال، كثير شيء. والعنب والتين يعطيان ثمارهما في الخريف. وهي تمثل، بعد أن تجفف، جزءا هاما من غذاء المزارع. إن هذا تقريبا هو كل ما يمكن للبستان أن ينتج. أما زراعة البقول فهي تقتصر على البصل واللفت والكُرمب والجُلبان والفول. وهذان البقلان الأخيران خاصة يدخلان، بعد أن يجففا ويُجَرَّشا، إضافة إلى الزيت وإلى توابل معينة. في إعداد الصحن الوطني: البيسار.

أما الزيتون، فلا يعثر عليه المرء إلا في قبائل ما وراء جبل تيزران، وهو، في هذه الحالة عبارة عن غابات حقيقية تنمو على جبال تتجه تخطِّيا نحو وديان ورغة وإيناون الخصبة. والغلال والخضراوات على اختلاف أصنافها تبدأ هنا في التكاثر. والطبيعة هنا مضيافة والمناخ أقلّ تعرّضا لقسوة تقلّب الجو. وبظهور الزيتون ظهر الحصان والخروف. ومن البداية تعلن قطعان مواش مسنّة في مراع ذات عشب غزير طريّ عن اقتراب مناطق الرخاء. إنّ الأسواق في هذه المناطق أكثر نفاقا والمبادلات التي تخطت القاعدة المشتركة بين سكان الشمال التي يفرضها الاقتصار على الضروري بدأت تشمل المكمّلات وحتى غير الضروري. في هذا الإطار الجديد بمحاورة ريفية تتنزل المرحلة الأولى من مراحل حياة إدريس.

* * *

تنحدر عائلة إدريس منذ آلاف السنين من هذه الجماعات البربرية الأولى التي لا أحد الآن يعرف لا من أين أتت ولا كيف جاءت لتستقر في هذه الزاوية من المغرب. فمنذ عصور سحيقة سابقة على الفتح الإسلامي ظل الجبل، باستثناء بعض الأماكن الساحلية، مغلقا إغلاقا تاما في وجه كل دخيل أجنبي. ولم تجرؤ أية أمة فاتحة على النّيل منه. فلقد كان المزارع يراقب بانتباه من شِغَاف أبواب هرقل المتقدمة منافذ أرضه. وكان غالبا ما يغير بدوره على متن قَوَادِسَ شراعيّة صغيرة على سواحل إيبيريا.

وما من شكّ في أن أجداد إدريس عرفوا ثلاثيّات المقاذيف القرطاجية عندما كانت تزوّدهم من قرطاج التي سمعوا عنها العجائب بِحِزَمِ بضائع كان يبيعها بالمُفَرَّقِ تجار مهرة ذوو لِحىً مضفورة في محلات صغيرة مسّورة استأجروها.

كانوا، تماما مثلما يدهش الجبلي المتسكّع في أسواق فاس اليوم لرنين اللّهجات الأجنبية، يدهشون لسماع لغة ذات مسحة شاذة نوعا ما. ولكنهم بعد ذلك سيكتشفون بواسطة المترجمين البرابرة الذين كانوا يرافقون التجار القرطاجيّين أسرار هذا اللسان الذي كان يفوق لسانهم تطورا، علاوة على أنه كان قابلا للقراءة على البَرْدِيّ بواسطة رموز صغيرة لم يكونوا يفهمونها. كما أنه لا شكّ في أن أجداد إدريس تردّدوا على الوكالات التجارية المبثوثة على الساحل في المواقع نفسها التي تقوم فيها في أيامنا هذه أهم مرافئ مراكش.

لقد تعوّدوا سريعا على سياسة قرطاج التجارية التي كانوا يستحسنون أخلاقها

السلميّة وعزوفها عن كل نزعة عدوانية عنيفة. وبما أن البربري كان ينزّل العرق منزلة الدين فهو لم يشعر في بداية الأمر إزاء الفنيقيين المستفرقين إلا بنوع من التعاطف المستسلم. غير أن قادة البربر الأكبر والأكثر فطنة والذين تمكنوا في الشرق من تأسيس إمارة تتجاوز مستوى القبيلة التقليدي وتمدّنوا شيئا ما عند اتصالهم بمدينة القضاة[5] كانوا يدفعونهم من جهة أخرى إلى الحدّ من تحفظهم إزاء أبناء عمومتهم المشارقة.

في هذه الفترة كان البربري قد بقي على الهيئة التي شكّلته عليها الطبيعة في بداية تكوّن المجموعات الإنسانية الأولى. كان يعيش عيش القبيلة وسواء أكان حضريا أم بدويا، مزارعا أم راعيا، فإنه لم يستقر في الأرض إلا نادرا.

هو لا يمكن أن يكون قد عرف الجمل، وسيلة حياة التيه ورمزها. ولكن كل شيء يدفع إلى الاعتقاد أن ثروات البلاد المتنوعة لم تكن لتغريه إغراء يبلغ حدّ دفعه إلى إنشاء حضارة شبيهة بالحضارات المزدهرة في آسيا وفي أفريقيا.

لقد سبق، عندما بدأت قرطاج حربها على روما، أن اختفت حضارات عظيمة أو كانت في طور الأفول ذلك أن سومر وعيلام وأشوريا والبَابِلِيّن وميديا وسلالات طيبة وممفيس لم تعد غير أساطير مجيدة.

حقا لقد كانت مدن أتيكا تبرز من قوقعة هيلاد ولكن بلاد البربر بقيت على حالتها الأولى.

---

[5] Suffètes، كلمة بونيقية تعني كبار القضاة في قرطاج.

والبربري الذي هو فردي رغم خضوعه لقوانين العشيرة وفوضوي مزاجا وسجية كذلك ومتعلق بالحرية حتى أنه ليفضّل بسببها مخاطر الحياة البدائية على الوفرة وعلى أمن المجتمعات المنظمة، ظل يعيش حتى ظهور الإسلام من دون نظام ومرتبيّة. هذا طبعا على وجه العموم. هو وثنيّ لم يحدث له أن يؤمن حقا بأي شيء ولا أن يخشى أيّا كان. وهو طبيعي في غير وضوح، متفرّج غير مكترث على الظواهر التي تحيط به، مندفع حذر لم تتمكن حياته الدينية البتّة من أن تتجسد في نسق منتظم ولو قليلا. وإذا كان قد تقرّب إلى الأوثان بالأضاحي أو عبد صورا من الطبيعة فإن يقينه لم يكن على رسوخ يمكّن علم الأثريات المعاصر من أن يمدّنا بشواهد ملموسة على تقواه. ومع ذلك فإنه يبدو أنه قد تبنّى رموز قرطاج وقدّم البخور تحت الأَرْدِيَة التي كانت تقي جذعي تمثالي بعل وتانيت. وهذا في حدّ ذاته كان أمرا ذا شأن.

وفي الزمن الذي نحن بصدده كانت حالة تشنج تهزّ بلاد المغرب هزّا. وكان أجداد إدريس على الرغم من أنهم لا ينتسبون إلى سيفاكس وإلى ماسنيسا، أميري نوميديا البربريين المتشيّعين للسياسة البونيقية، يمجّدونهما، تعصّبا دمويّا، ويميلون إلى عقد حلف تضامن أفريقي يصدّ كل خطر أجنبي ممكن.

لقد حدث هذا بعد انتفاضة المرتزقة التي قمعها هاملكار بيديْن من حديد فتأثر لذلك البربر أيما تأثر.

لقد كان الجيش البونيقي من حيث التجنيد والعدد والإطارات والسلك الإداري الثانوي بربريا وكذلك رؤساء الخيالة والمستخدمون في قذف المنجنيق وفي قيادة جماعات الفيلة.

وعلى عهد بركة العائلة الأكثر تأفْرُقًا في الطبقات الأوليغارشية القرطاجية كان

الأسطول المكوّن من نوتيّة وقع تخيّرهم بعناية من ضمن العناصر الصافية في السلالة الفينيقية يستقبل، هو نفسه، وحدات لا يستهان بها من الأمازيغ.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يمارس فيها البربر نشاطا في البحر.

لقد انتهت الحرب البونيقية الأولى بمضرّة قرطاج فخسرت صقلية. وكان الشعور بالخيبات العسكرية البحرية يفسد حياة القرطاجيين الذين كانوا يتوجّسون خيفة من إمكانية مشاهدة هجمة رومانية على أي كان من مناطق المغرب في أيّة لحظة.

كان أجداد إدريس، شأنهم في ذلك شأن الآخرين، يحسّون بحالة الخوف الجماعي هذه. وعلى الرغم من أنهم كانوا بعيدين فقد شاطروهم أيضا هذه الرغبة التي لا حدّ لها في ردّ الفعل.

ولقد كان ثمة قرطاجيّ شاب في الثالثة والعشرين من العمر أدهش شعبه بجرأته ونفوذه ونبوغه المبكّر. إنه ابن هاملكار. لقد رافق، وهو طفل تماما، أباه في حملات عسكرية كثيرة قادها ضدّ روما. ولقد أشرب، في المهد، الحقد على الاسم الروماني وأقسم على جذع بالاديوم الآلهة السامية أمام كبار كهنة بعل المُرْتَدِين اللباس الطقسي الحاملين على طبق من ذهب الأردية بعد أن نزعوها مؤقتا عن كتفي تانيت أن يدمّر رومة وأن يبقي المتوسط في حفظ المغرب وحده. لقد دخل حنبعل مسرح الأحداث. ولأول مرة حدث أن غمر أجداد إدريس إحساس غير معهود، قبل ذلك، عند قبائل بلاد البربر.

إنّ الحرب البونيقية الثانية كانت ترجمة للوطنية الكامنة في القبائل الشمال أفريقية التي اتخذت هيئة تيار قومي أكيد فسارعت جموع القبائل المغربية ترفع راية الحرب

القرطاجية. كذلك، ولأول مرة، حدث أن تركزت آمال المغرب حول شخصية بطل قومي وأي بطل! وعندما وصلت الخيّالة النوميدية التي تتقدّم الحملة إلى المغرب الأقصى كانت القبائل في حالة غليان: كان التجنيد على أشدّه. ولقد تملّكت جدّ إدريس، وهو المحارب الذي لا مثيل له المتدرّب على الحرب الجبلية المصارع ذو العضلات الفولاذية، فورة فرح لن تشبهها إلا فورة الفرح التي ستتملك، فيما بعد، أحفاده وهم يندفعون تحت راية الإسلام، هذه المرة، للفتح سالكين خطوط السّير نفسها تقريبا.

لقد جاز البربر المضيق بسرعة تحميهم القوادس البونيقية الجائلة في البحر. وسرعان ما تتالت، بلا انقطاع، أخبار ألهبت مشاعر جماهير شمال أفريقيا. ورفع البربري الذي كان منذ قليل متمردا على كلّ شكل من أشكال الخضوع، وقد طار حماسة، حنبعل إلى منزلة إله يخصّه بجُشْوَاتٍ[6] تنتصب في أفريقيا الشمالية من أدناها إلى أقصاها. وهكذا سمع الناس باحتلال ساغونت وبهروب بول إميل خشية من طعنات الرمّاحين النوميديين. وسقطت البيريني ووقع اجتياح بلاد الغال الجنوبيّة من دون مقاومة. واتجهت غنائم هائلة وقوافل من الأسرى صوب أفريقيا. وكان يرى جنود يروون، إثر عودتهم من أوروبا، للحشود المذهولة، مآثر أبناء جلدتهم وهزيمة الجحافل الرومانية. لقد زيّنت العقبان التي وقع الاستيلاء عليها في ساحات الوغى المعابد المكرسة لعبادة مولوخ[7].

ومع ذلك وجب التحفظ. ذلك أن جبالا أعلى من تيزران لا مداخل إليها يجلّلها الثلج وتوشّحها جَلَدَاتٌ تخطف البصر كانت تمنع المرور على الجيوش الأفريقية المعتادة على الحركة في أماكن أكثر خلوّا من الموانع. وكان الوقت يمرّ.

---

[6] Tumuli

[7] إلاه كنعاني وفينيقي.

بدأ أجداد إدريس ممّن تربطهم قرابة بالجنود المحاربين في أوروبا يغتمّون. لقد تناقصت الأخبار. وكانت تعليمات البونيقي العظيم المحتاج إلى كل أفراد جيشه تلزم إلزاما صارما الجنود بالبقاء في الجيش. ولكن أنباء أخرى وصلت فنشرت الجذل في أفريقيا. لقد استولت الأرتال الطائرة التي تتقدمها الفيلة عَنْوة على جبال الألب بقيادة هسدريبال. وكان الجيش يلتحق بها عبر الممرات الضيقة في سلسلة الجبال الهائلة. ثم توضحت الأخبار بدقة.

لقد اندفع الجيش المغربي كالإعصار في وادي بو واجتاح لمبارديا وفاجأ العدوّ الذي لم يكن يتوقع مثل هذه الجسارة، من الخلف.

عرف المغرب على هذا الشكل انتصارات ترازِمين وتريبي حيث فوجئ فلامينيوس نيبوس، القنصلُ الذي كان موضع ثقة مجلس الشيوخ الروماني، وهزم وقتل. لقد أطلقت روما، وقد استولى عليها الهلع، صرختها "إنّ حنبعل على الأبواب"[8] التي شابهت "رقصة المذبوح"[9]. وأخيرا، عرف المغرب كان حيث سقطت التشكيلة المربعة الأخيرة في الجحفل تحت ضربات السيف الأفريقي. لقد تملكت البهجة بلاد البربر. فيا له من نصر رائع! إنه انتصار فنّ الحرب الكامل الذي سيصبح التخطيط فيه والتنسيق الفذّ بين الاستراتيجيا والتكتيك مثالا يحتذيه كبار قادة التاريخ. إن فريدريك الثاني ونابليون ومولتكو وشليفن ولودندورف سيصوغون، فيما بعد، خططهم القتالية ولكنهم سيقتدون بحنبعل وبمناورته العظيمة في كان لقيادة جيوشهم إلى النصر.

---

8 Hannibal ad portas
9 Chant du cygne

غير أن الأخبار بدأت تتباعد ولم يعد في مقدور أحد أن يعرف ما الذي كان يحدث في كايو التي تحولت إلى خمارة سيبير أنهى فيها أسود أفريقيا، نتيجة تخطيط واحد مثل فابيوس كونكتاتور، مهمتهم في أحضان نساء روما الجميلات اللائي قبلن، وطنية منهن، بدور العاهرات.

ثم وصل خبر رسوّ الأسطول الروماني في أفريقيا وتبعه خبر طلب عودة حنبعل بسبب ردة ماسينيسا. لقد كان لنكبة جاما دوي مفجع ردّدته أصداء الجبل الصائتة. ثم مرّ زمن بين انتصار سيبيون وتدمير قرطاج. ولكنه بتحقق أمنية كاتون[10] خبر البربر نير العبودية. مرت ثمانية قرون رأت فيها عيون أجداد إدريس المندهشة مثلما يرى المرء دوران الظلال من خلال بلورة مشكال أحداثا كثيرة لم يشاركوا فيها.

لقد حكمت روما ثم بيزنطة أفريقيا الشمالية بطريقة احتفالية: شيوخ يجلسون على كراسي من عاج وقياصرة يكلل الغار جباههم وأباطرة مدثّرون بألبستهم القرمزية الإلهية يحملون في أيديهم صولجان العالم.

لقد لمع سيبيون وماريوس وسيلا وقيصر وأوغست في ذلك لمعانا ساطعا سريعا ونالت رومة في أفريقيا كل ما شاءت: المدن ومقار السلطة وأقواس النصر والمسارح وحلبات المصارعة والمعابد والحمامات المعدنية والقنوات المائية والثكنات والآثار التذكارية والتماثيل، أي نالت كل ما يمكن للحجر في نهاية الأمر أن يهب. ولكنها لم تنل شيئا آخر. فسياستها لم تكن من هذه السياسات التي يمكنها أن تجلب إليها قلب البربري. لقد صيغت القوانين الرومانية صياغة تمكن المستوطنين من اقتطاع العزب بالاستحواذ على أراضي المواطن الأصيل بغية ضمان

---

[10] Delenda Cartago: لا بدّ من تدمير قرطاج.

ما يحتاجه الشعب-الملك من خبز ومن ألعاب سيرك حتى لا يبدي أنيابه لطبقة الأشراف التي ولدت على أنقاض وعلى شقاء الأجناس المستعبدة.

إنه ما سينقشه فرجيل في مدخل المدينة الخالدة:

"انك أيتها الأمبراطوريّة الرومانية ستحكمين الشعوب دهرًا!"[11]

إنّ هذا، تقريبا، هو كل ما أمكن لأجداد إدريس أن يحصلوا عليه من السلم الرومانية. غير أن سقوط قرطاج لن يفتّ في عضد البربر إذ تسلم بطل قومي العلم الذي انفلت من الأيدي القرطاجية. وبرز يوغرطة في الميدان مستعملا وسائل نضال جديدة. كان حينا يحارب فيالق ماريوس ويهزمها وكان حينا آخر يلجأ، عندما تحتم الظروف ذلك، إلى ما تتيحه دبلوماسية فائقة. وانتهت به براعته في الجدل ومعرفته بالأخلاق الرومانية إلى تكوين حزب في قلب مجلس الشيوخ مرتبط به مصالح وفي أغلب الأحيان مجدا.

لقد روى ذلك ساللوست في تاريخه المدهش. إنه ما من شك في أن أجداد إدريس الذين كانت تتملكهم الدهشة والمفاجأة في آن واحد قد سمعوا كلمات الاحتقار التي وجهها القائد النوميدي الكبير صوب روما من أعلى ربوة الجانيكول بعد أن جلب إلى صفه مجلس الشيوخ بالثمن المتفق عليه وبعد أن فضح مكائد مبعوث الوالي:

"أيتها المدينة القذرة كل شيء فيك يباع".

[11] Tu regere populos, imperio romane, momento!

لقد بنيت المدينة الخالدة، بحق، على أسس من الفساد والجبن. وعندما كبر إدريس وفهم معنى الأشياء عن طريق دروس التاريخ سرعان ما تفطن إلى الأسباب التي تدفع كل أشباه لويس برتران[12] في الأرض إلى أن يمجّدوا، في الوقت الذين يشوّهون فيه تشويها منظما صورة الشرق، حضارة فاجأ سقوطها العمودي الكثيرين أكثر مما فاجأهم ترقيها وألقُها العابثان.

لقد فهم إدريس لم لم يحرك التألق والعظمة الرومانيان في البربري ساكنا فلم يكترث بهما.

إن الثقافة اللاتينية لم تكن لتلامس إلا نفرا قليلا في أجزاء صغيرة منعزلة من السكان البربر الذين بقوا في غالبهم رافضين كل محاولة إدماج. إن جبال خِمِّير[13] والأوراس وجرجرة والشلف بقيت صامدة لا تتزعزع. فلا جوبيتير ولا المسيحية لقيا فيها موطنا يعتدّ به.

كان أجداد إدريس يميّزون، ضمن الأرومة المدمجة، بين صنفين جدّ متناقضين.

لقد ظل الصنف الغالب عددا متشبّثا بأفريقيته وذلك على الرغم من أن عددا من أفراده تمكن من تقلد المناصب العالية. فسيبتيم سيفير، إمبراطور تشريع الشغل[14] المنصف لم يكفّ، وهو يعيش في القصور الرومانية الفاخرة عن تذكّر ليبتيس[15]،

---

[12] روائي فرنسي أكثر من كتابة الروايات التي تمجّد أعمال المعمّرين التّمدينيّة.

[13] Kroumirie وجبال خِمّير هي التسمية التي توصّل اليها المعرّب بعد بحث.

[14] Laboremus وما ينسبه الحمامي إلى هذا الإمبراطور هو من إنجاز المشرّع بابينيان.

[15] Leptis Magna: هي اليوم لبدة شرق طرابلس (ليبيا).

مسقط رأسه. ولم يتمكن أريج أيك نهر التيبر من أن يسلّيه عن الواحات ذات الشذا البري التي كانت مسرح ألعابه أيام الصبا.

لقد كانت أفريقيا، بتولّيه، تبسط على روما يدا طالب كاتون سابقا ببترها.

أما كَاركَلا فقد فاق أباه تجديدا جريئا إذ فرض على الرومانيين إقامة الشعائر لحنبعل وأمر بتشييد نصب نصفيّة للمنتصر في كان يؤدي تحتها الكهنة الشعائر القربانية.

ويوجد صنف آخر لا تتّسع له صدور أجداد إدريس بوجه خاص. إنه صنف المرتدّين وأدوات التصفية القومية الذين تخلّوا، بعد أن وقع إدماجهم ولتينتهم ثم تنصيرهم، عن بلد آبائهم وقطعوا رابطة الدم.

والقديس أوغستين ويوبا هما نموذجا هذا الفصيل، فلقد دار أسقف عنابة[16] في مدار يختلف عن مداره الأصلي. وقد هيأته أرثوذوكيسيته وإخلاصه لمبادئ دين أفقده مريدو الهيلينية والعقيدة اللاتينية طابعه الشرقي إلى حد أصبح البربري غير قادر على استيعابه، هيأته أرثو ذو كسيته قلنا، لمثل هذه الردة. على أنه ليس تنصّر ابن القديسة مونيك هو ما أفقد القديس أوغستين شعبيته في أعين مواطنيه ولكن رُومِيته المبالغ فيها وحماس حداثة تنصّره واندفاع المبشر. فهذه العوامل هي التي قادته إلى أن يفضل مغتصبي بلده على إخوته في الدم وعرضته للشبهة في عيون أهله. إن هذا الذي كتب مدينة الله قد ابتدأ بنسيان مدينته.

---

[16] أو بلد العناب والنسبة إليها عنابي.

وقبل القديس أوغستين ظنّ يوبا الذي نصبته روما أميرا على موريطانيا القيصرية[17] أن في إمكانه أيضا أن يبهر أسياده باستعراض ثقافة مفرطة في التهذيب لم يحقق له قطعا مزيدا من التقدير. لقد كان متزوجا من أميرة مشرقية ولدت من علاقة حب درامية بين مارك أنطوان وكليوباترة. وقد تبناه أوغست وربّاه فكان يقلد تقليدا أخرق أبهته القيصرية وكان أن تكدّست على رأسه اللعنات والشتائم.

كان أجداد إدريس، وهم الذين تعوّدوا على الحياة الحرة المستقلة، يراقبون عن كثب تتابع الأحداث التي يعرفون كيف يقيّمون أهميتها. ولم يكن الإسلام قد ظهر فيرسم خطّا فاصلا بين ماض متقلب ومستقبل أكثر تقلبا ولكنه سيحجب العصور السابقة بحجاب من النسيان كثيف. ومهما كانت أزمنة ما قبل الإسلام مظلمة فإنها، مع ذلك، بقيت منقوشة في ذاكرة البربر. ذلك أن البربري إذا كان قد أجلّ أسماء حنبعل ويوغرطة، بطلي الحريات الوطنية، وإذا كان قد نظر بعين مسلّية ولكنها متعاطفة، إلى قرارات واحد مثل سبتيم سيفير المزاجيّة وإلى مبادرات كَارَكَلا الجريئة فإنه، وعلى العكس من ذلك، لا أحد سمح لنفسه بأن ينخدع بطعم شروح القديس أوغستين العالمة وهو الذي شارك من حيث أراد الارتقاء من الوطني إلى العالمي، أعداء وطنه ذاته مصالحه.

أما في ما يتعلق بيوبا فقد رمى به البربر ببساطة لا مزيد عليها في الحرّاق.

كانت المسيحية تنتشر في العالم. ولقد وجدت هذه المجموعة من المعتقدات التي انبجست من قلب راع من الجليل البعيد في الفوضى الاجتماعية التي مثّلت أساس البناء الروماني ميدانا مذهلا للعمل. ولكن الفترة البطولية، فترة سراديب

---

[17] تونس الحالية وشرق الجزائر.

الأموات[18]، مرّت وانتهى الصليب الى التغلب على كل العوائق. فلا جنون نيرون الدّموي ولا تفنيد واحد مثل مارك أوريل الفلسفي تمكّنا من أن يظهرا على فكرة تتضمن في جوهرها شذرة من هذه العدالة الثابتة التي يعثر عليها المرء في كلّ مكان وعلى الدوام عندما يظهر أن القوة انتصرت على الحق.

لقد تكونت الكنيسة في كنف قسطنتين. غير أنه وجد إكليروس كان يتنزل منزلة الواسطة بين الله والشعب. وولدت الإمبراطورية البيزنطية باضطراباتها التي لم تستطع أن تضع لها حدا. كان الروحي ينحني للدنيوي وكان ملاذ هذا العالم، منذ ذلك الوقت فصاعدا، مقدّما على ملاذ العالم الآخر. ولم يعد أمراء الكنيسة غير بارونات الإمبراطورية. أما الرقّ الذي كان تحريمه هو الغاية الاجتماعية من المسيحية فقد استعاد، وقد بدا أن الحقيقة أصبحت لبسا، كامل قواه مثلما كان عليه الشأن في عزّ أيام تيبروس.

ولقد كانت كنيسة أفريقيا من هذا النمط.

إن بربر المقاطعات الرومانية الخاضعين، هؤلاء الذين أملوا أن يروا في نجاح العقيدة الجديدة وسيلة للانعتاق من الرق الذي فرضته روما الوثنية عليهم، سرعان ما ثابوا إلى رشدهم وظهرت لهم الخيبة، بعد أن تبدّد السّراب، في تمام مرارتها. لقد بدا أن روح غولغوتا[19] تعادل روح الكابتول.

في هذا الوقت بالذات ظهر دونات. ينتمي دونات، أسقف قرطاج، على الرغم من

---

[18] Les Catacombes

[19] بالآرامية مشهد آلام المسيح وصلبه في الجلجلة.

انشقاقه، إلى كنيسة أفريقيا. كان مثل القديس أوغستين بربريا، ولكنه، خلافا لأب الكنيسة الشهير، لم يرتدّ عن أصوله ولم تمنعه صفة وظيفته الكهنوتيّة من تمييز الفروق بين الدين والسياسة.

كان يعيش بين رعاياه يقاسمهم الآلام والآمال لأنه كان أقرب إلى روح الأناجيل من مواطنه الشهير. وعندما اقتنع بتقصير الكنيسة المتعمّد وبأن المظالم الاجتماعية تلقى تسامحا من البابوية ومن الأسقفيات، رفض الاستمرار في الخضوع للتوجيهات البابوية وأصبحت علامات انشقاقه جليّة. لقد تعرض لحرم الكنيسة وامتحان الكنيسة والملكيّة ولكنه تعزّى عن ذلك بأن نفث في انتفاضة مواطنيه قوة روحية اضطرت روما إلى أن تواجه مسؤولياتها.

كان ذلك هو أصل نضال السيركونسيليون ضد التعسّف الروماني.

وهكذا شهد المرء البربر، وثنيين ومسيحيين، وقد تصدّوا في حميّة، جنبا إلى جنب ودفاعا عن حريّاتهم، لكنيسة لم تتردد، أخذًا منها بالاستعباد وسيلة للهيمنة[20]، في الاقتران بامبراطورية متداعية. فمنذ القرن الرابع كان دونات يجيب الكردينال لا فيجري، أسقف قرطاج ذاتها الامتثالي[21] الذي سيعرض أطروحاته المتهوّرة، على الرغم من أنه كان يعرف أنه لا يمكن أن يوجد توافق بين الأطروحات الروحية في رسالة دينية ونقيضاتها البرغماتية في إمبريالية أيّامنا هذه.

---

[20] pro dominatione Omnia Serviliter

[21] في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد عاش شارل لا فيجري بين 1825 و1892 وكان كبير أساقفة الجزائر (1866) وقرطاج (1884) وسيم كردينالا سنة 1882. وهو مؤسس "الآباء البيض".

أما الغزو الوندالي الذي اقتصر على موريتانيا القيصرية فلم يشدّ إليه انتباه أجداد إدريس كثيرا. وكذلك كان شأن السّيطرة البيزنطية. ففي أعين البربر كان الرومان والجرمان واليونان سواء. وجبليّ الأطلس لم يكن يهمّه أن ينفذ إلى ما يميز الشريف الروماني من بارون جنسيريك أو من قاضي جوستينيان إذ أن كل هؤلاء لا يمثلون، بالنسبة إليه، غير آفة لا تقل ضررا عن اجتياح الجراد الذي كان ينقضّ، دوريّا، على حقوله وسهوله. إنه يعرف، وهو الضحية الأبدية لهذه الغزوات الأجنبية، فتكها الذّريع.

لقد كانت أخلاق الإمبراطورية الرومانية المسيحية وإفلاس المسيحية وفجر عصر وسيط غامض رأت فيه الشعوب نفسها تردّ، رغما عن صليب حاكم نظريا، إلى عصر غزوات الأقوام الرحّل والنّهب المنظّم، كل ذلك كان ينذر بتغيير جديد ما في الأفق.

كانت الدّعارة في بيزنطة تدثّر كتفي تيودورا العاريتين بالأرجوان الإمبراطوري وكان الخصيان يحرسون شوارع القصور ومداخل الكاتيدرائيات.

ولقد تحوّل الإيمان إلى مناظرات مثيرة للسخرية وانتهى ما تبقى من ثقافة كلاسيكية إلى مجادلات طويلة عديمة الفائدة حول طبيعة الملائكة وأشكال العرش الإلهي.

كان الواحد ينهب ويسرق ويكيد ويقتل ويسمّم ويسجن وينفي ثم يلقى رداء من تسامح على كل هذه الفظائع تزكّيه، تواطؤا، مجامع الكرادلة والمجامع الدينية.

ولقد تخطت أفريقيا عتبة القرن السابع وهي في توجّس من نذير بمثل هذه القتامة.

تردّدت أخبار مدوّية عبر الشرق تنبئ بتحولات آتية. وكشّرت الشعوب الخاضعة

لوصاية قيصر بيزنطة عن أنيابها. والجماهير المستعبدة في الإمبراطورية اجتهدت، وهي ترى الكنيسة في عجز عن الوفاء بالتزاماتها، في أن تتبيّن، في كلّ انتفاضة، الأمارة الحاسمة على إمكانية تحرّر.

ولقد كان راعٍ في قلب الجزيرة العربية يعلن، تماما مثل الجليليّ ذي الروح السامية منذ وقت قريب، عن مجيء عصر ينبني على العدالة الاجتماعية وعلى المساواة بين الشعوب والأعراق.

إنه ميلاد الإسلام.

وكان محمد، رسول الله، بعد أن خاض معركة ضارية ضدّ الآخذين بالوثنية العربية القديمة، يقيم النظام الإسلامي في الجزيرة ويصدر تعليماته إلى أنصاره كي يواصلوا، عبر العالم، الرسالة المخلّصة التي أقام مقدّماتها بنفسه.

وفي أقل من عشرين سنة تهاوت الإمبراطوريتان العظميان اللتان سادتا قبل ذلك. وبدأ الإسلام، بعد أن تجاوز نطاق الجزيرة، ينتشر، في سباق سريع، عبر آسيا وأفريقيا وأوربا.

وفي هذه المرة، كان الدّين من سبكة سامية شرقية لم يشوّهها جدل الرهبان البيزنطيين الضبابي. كان لبساطته ولنبوغ تَشَكّلَ قياسا إلى الذهنية الشعبية، يعلن، بوضوح، عن مبادئه، خارجا من هذا الهامش من الأسرار الذي سيغلّف الإسلام، فيما بعد، بغلاف سميك من الشعائر والنّحل الموروثة عن عقائد باطنية.

كان على الإسلام، إذن، أن يحظى، في بلاد البربر، بتعاطف مسبق. ومع ذلك فإن الأمر

لم يكن، كليّا، كذلك، إذ حالت دونه، في البداية، أسباب قاهرة. وكان على السّيف أن يتدخّل في الأمر. كان البربر يحيون حياة بسيطة أبوية. وفي ما وراء الأهداب الساحلية أو حول بعض حصون الداخل حيث مازالت تخفق الراية البيزنطية لا تكاد تظهر حتى نزعات غامضة إلى السلطة الإقطاعية.

فبلاد البربر كانت تتوارى في غبار من الجمهوريات الصغيرة القبلية. ولم يكن الأمغار، بالضرورة، رئيسا وراثيا يختص بنفوذ لا يقبل المنازعة. لقد كان، وهو الذي يعيّن مندوبا عليهم ما بقي يحظى بثقتهم، قابلا لأن يقاضى. وإذا ما حدث، في حالة خلاف، أن تملّكته فكرة إبداء هنية من المقاومة، فإن السّيف يصبح، عندئذ، هو الفيصل. وإذّاك يتغلب عموما قانون القبيلة على الدوافع الفردية.

كانت هذه الديمقراطية المساواتيّة العاتية تحدّد الحياة الاجتماعية البربرية وتسمّرها في وضع فوضى لا مزيد عليها عندما ظهرت الطلائع العربية في أفق سيرت.

لم يكن أجداد إدريس يعرفون عن الإسلام شيئا. ولم تسعفهم غريزتهم التي كان من المفروض أن تحدس في هذا الدين شروط عدالة إسلامية بما فيه الكفاية فتثنيهم عن اللّجوء إلى القرارات الحاسمة. ثم إن اندفاع عقبة لم يكن من شأنه أن يبسّط من معطيات القضية. فباستثناء زناتة صولة بن وزمار الذي رضي بالإسلام من دون تحفّظ زمن الخليفة عثمان، تكتّلت الأغلبية الساحقة من البربر أولا حول كسيلة وبعد ذلك حول الكاهنة. ومن الأوراس إلى الريف لم يتخلّف أحد عن أداء الواجب الذي يفرضه عليه قانون الانتماء الوراثي حتى الموت. دامت الحرب نصف قرن. ولقد أنهاها، بعد أن بدأت مع عمرو، ابن نصير بوصفه قائدا عبقريا مكّنته دبلوماسيته ونظرته البعيدة من أن يفهم كل الفائدة التي يمكن أن يجنيها الفتح الإسلامي من شعب له من البسالة ما لسكان شمال أفريقيا.

بهذا، إذن، أمكن للمرء أن يشهد ملاحم الفرسان في إسبانيا وفي بلاد الغاليين. إن انتصارات الإسلام في أفريقيا الشمالية هي التي حسمت في أمر سمات التركيبة الإثنية والثقافية التي ميّزت ولادة شعب مغربي جديد. فحيث فشل الرومان والإغريق وحيث لم تنجح قرطاج، أيضا، إلا بمقدار تمكن العرب، عن طريق الإسلام، من تحقيق عملية اندماج باهر. لكن علينا ألاّ ننسى أن الإسلام وحده هو الذي انتصر في نهاية المطاف. والبربر، أنفسهم، أسهموا في هذا البناء: المرابطون والموحدون والمرينيون والأمراء الزناتيون في الفترة التي تلت حكم عبد المؤمن. يحي الليثي وابن تومرت ومجموعة المؤرخين والكتّاب المغاربة من أصل أمازيغي: المراكشي وابن طفيل وابن بطوطة والأفرني وابن بشكوال والوزّان (ليون الإفريقي) والقبائل الكبيرة من موالي السّلالات المغربية الأولى. لم يكن يوجد معارضون، فالدخول في الوطن القومي الجديد كان، تقريبا، محل رضاء الجميع.

وقد سلكت السّلالات والقادة العرب المسلك نفسه. فهم تأفرقوا تماما مثل الفينيقيين. ومن دون أن يفقدوا المزايا الأصلية المميزة لجنسهم أصبحوا مغاربة راسخين خالصين. لقد اندمج أمراء قرطبة والأغالبة والأدارسة والرستميون في تاريخ المغرب اندماج المرابطين والموحّدين. وعندما أسس عبد الرحمان الثالث خلافة المغرب لم يفعل أكثر من تأكيد هذا التقليد.

وهذه أيضا كانت سياسة المنصور. إن سيادة بغداد على تونس زمن زيادة الله بن الأغلب لم تكن إلاّ وهما محضا. وحتى الفاطميون لم يجرؤوا البتّة، رغم أصول مذهبهم الشيعي المشرقية، على الوقوف ضدّ هذا التيار الامتصاصي الذي هو الدّليل الجليّ على قدرة البلد الإدماجية.

على أن ثمة عنصرين مقلقين: سياسةُ وُلاة القيروان وفتنة الفهريين في إسبانيا. وكلتاهما تظافرتا على أن تجعلا من الشرق الإسلامي أرضا خاضعة لقانون السّيف.

لقد أنهى مجيء عبد الرحمن بن معاوية، في قرطبة، حالة الاضطراب التي تلت سفر ابن نصير وقوّاها جشع الزّمر التي سعت إلى فرض الخوّة على أراضي الإسلام، أي بعبارة أخرى، ارتدّت إلى عادة الابتزاز والغرق في المتع الحسيّة التي خنقها محمد في مكة ومكّن عجز الخليفة عثمان وشحّة نظر الخليفة عليّ السياسيّة، معاويةَ ومروانَ من بعثها منذ أن فاءت الراية البيضاء. كانت هذه السياسة، في المغرب، السبب الحاسم في اندلاع تمرد الخوارج الكبير في القرن الثامن.

لقد سبق أن أسلم أجداد إدريس عندما أعدّ طارق حملته الشهيرة على إسبانيا. وبعد أن شارك البربر في النضال من أجل استقلال بلدهم مثلما فعلوا وسيفعلون دائما، انخرطوا بكثافة في الكتائب التي كان ابن نصير يعدّها بغية الزحف على بيزنطة تمهيدا لاجتياح إيبيريا وتَوَقّلِ جبال البيريني.

لقد تحولت بنية أفريقيا الشمالية العرقيّة على إثر تأسلم شعوبها وتعرضت هيئة توزيع القبائل لتغييرات عميقة نتيجة توافد العرب. وسيتواصل، هكذا، وفي نسق متنام، وحتى مجيء حشود بني هلال، التمازج العربي البربري على النحو الذي رسمته المدوّنات الخلدونية تقريبا.

ينقسم شمال مراكش، بلد إدريس، إلى جزئين كبيرين من البربر البرانس:جزء صنهاجة الذي يسكن شريط شبه الجزيرة الغربي إلى حدود أرباض فاس حيث يختلط بمصمودة وبكتامة وجزء غمارة الذي يشمل مجال سكناه المناطق الشرقية من تطوان إلى وجدة ويتخلّله، في الجنوب، عدد من العناصر الزناتية البتر.

أما الريف فهو غماريّ. هذه التقسيمات ما تزال قائمة إلى أيامنا هذه. ولكن بنية الجبل تغيرت تغيرا جذريا. وكان على طريقة عيش أجداد إدريس وحسهم أن يتغيّرا هما بدورهما نتيجة هذا التشابك.

هذا التغير اقترن، قبل كل شيء، بظاهرة تعريب جزئي. ذلك أنه عندما اندفع "العر-بر"[22] نحو أوروبا، كان المدد القادم من المغرب والمشرق يسلك طريقا وحيدة. فكان الجنود والمستوطنون المسلمون يسلكون، انطلاقا من مجاز وجدة-تازة، إما الطريق الساحلية متشعّبين شرقا نحو تيزران، وإما سبحة الدروب الضيقة التي تتشرّج عبر المرتفعات الدّغليّة بمحاذاة جبال الشمال حتى مرافئ الشحن التي هيأها موسى على منحدر المضيق الشمالي: طنجة والقصر الصغير وسبتة.

لقد عبرت هذا الممرّ، من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر، أدفاق بشرية متصلة فكان هو الطريق الوحيدة التي تصل، إذاك، بيتيكا القديمة بالقارة الأفريقية فأصبح، لموقعه الاستراتيجي والتجاري، نوعا من ملتقى طرق وشريان حيويّ نمّت فيه الحياة عن نشاط جدّ كثيف. لقد كانت أعمدة هرقل تقفله من جبل كالبي في الجنوب إلى جبل أبيلا في الشمال أو، إن شئنا، من جبل موسى إلى جبل طارق. وعلى أية حال لم يكن الممرّ واسعا إلى درجة تمنعه من الحدّ من أهمية التجارة البحرية والسماح للجبل بالانتفاع بموقعه الجديد.

وبما أن مقتضيات الاقتصاد والاتّصالات المتولّدة عن الفتح تهيّء الفرد للتعرض لإغراء الثقافة الأقوى فإن الجبل تعرّب باكرا في حين بقي الريف المجاور بسبب

[22] Arabo-berbères والنحت للمعرّب.

بعده، نسبيا، عن طرق المواصلات، بربريا أساسا.

هذا الفاصل اللغوي مايزال موجودا. فمن خطّ يرسمه مصبّ الأورينقا وجزيرة فيليز الصغيرة في غمارة إلى منخفض البورد تتحدث اليوم قبائل منحدرة من أرومة واحدة بألسنة مختلفة. إن العربية تنتهي عند وادي سوادا الذي تبدأ منه التْمَازيغْت التي تنتهي بدورها عند الحدود الجزائرية بين ندرومة ووجده.

أما بقية شمال أفريقيا فهي لم تتعرّب إلا بعد الحملة الهلالية وخاصة بعد عملية الإدماج التي اضطلعت بها سلالتا الخلافتين البربريتين المرابطية والموحدية.

***

كان أجداد إدريس، إلى جانب طارق والغافقي في كاسيريس وبواتيي. والكثيرون منهم غطّوا بأجسادهم طريق الانتصار التي تقدّمت بالإسلام من سهول الأندلس إلى أغياض لاتورين وأنجو. لقد أدّوا، ببسالة، واجبهم تحت الرايات المحمدية بمقدار ما اشتهر أجدادهم في كان وترازيمين. ثم إنهم تراجعوا مع الإسلام من ضفاف لالوار إلى مناطق بيرن وفيما بعد اجتازوا البيريني ثانية واستقرّ جزء منهم في قرطبة في حين عبر الجزء الآخر من جديد المضيق وعاد إلى بلده الأصلي بين بوهاشم وتيزران.

إن تاريخ المغرب سيتعاقب، منذئذ، في غير انتظام. لقد سبب سقوط خلافة دمشق في أفريقيا، سقوط عمّال القيروان وتراخت الروابط السياسية بالمشرق قبل أن تنقطع. وتحضّر المغرب سريعا في ظل سلالتيه الأولين وفي ظل رستميي تيهرت وتهذّبت الأخلاق وأصبح المهاجَم الأبدي، بدوره، مهاجِمًا. لقد احتلت جزر المتوسط ووقع اجتياح فرنسا وإيطاليا. وكان على روما، وقد انقضّت عليها الجيوش الأغلبية،

أن تدفع ضريبتها الأولى. ودخل الفاطميون حلبة الصراع. لقد وحّدوا أفريقيا الشماليّة تحت اللواء الأخضر. ولكن ملكهم لم يميّزه أي عمل على نطاق واسع. وعلى الرغم من أنهم كانوا خصوما لأمويي إسبانيا، فقد حافظوا، بصرامة، على وحدة المغرب وطابعه الاستقلالي. ولم يتمخض تشيّعهم عن أي تأثير جدّي في نفوس سكان متشبّعين بالروح الفردية إلى حدّ يحول دون شغفهم بعقائد باطنية. إنّ روح أتباع عليّ الرجعية نسبيا ما كانت، إجمالا، بقادرة على أن تجد بين قبائل أفريقيا الشمالية أرضا ملائمة لازدهارها مثلما كان الشأن في فارس وبلاد الرافدين. ولذلك كان على خلفاء المهدي أن ينتقلوا إلى موضع آخر يحاولون فيه أن يلقنوا مؤمنين بإلاه واحد أسرار التجسيد والتقمّص وأن يخوّلوا أنفسهم حقوقا في التّأليه مُشْبهين في ذلك أباطرة رومانيين بسيطين.

ومع ذلك فإن من المبالغ فيه أن يدّعي المرء أن ملك أبناء فاطمة لم يخلّف وراءه أي أثر في أخلاق البلاد. ذلك أن الطرقية وتكاثر سلاسل النّسب الشريفيّة المزيفة تدل حقّ الدّلالة على الرّغم من مرور ألف عام، على أن روح الدجل التي بثّت بمقادير كبيرة لم تختف تمامًا.

لقد كان نقل مقر الخلافة إلى القاهرة بداية غروب النفوذ الفاطمي. فلم تصمد بعده العقائد الشيعية. وطغى المذهب السني ذو الطقس المالكي على أفريقيا الشمالية. لقد كانت صرامة شروح إمام المدينة تلائم، بما فيه الكفاية، أفريقيا. وفي إسبانيا سرعان ما أزاح هذا المذهب مذهب الأوزاعي. لقد أصبح الصنهاجيون، نتيجة ردة فعل سياسيّة، زعماء هذا المذهب. ولقد نشره سَحنون ولكنه لن يتجذّر في البلاد إلا بعد أن أسس عمر بن ياسين الرباط المرابطي على أساس من مسلّمات المذهب المديني.

إن المالكيّة بقدر ما كانت سابقا في إسبانيا، أصبحت اليوم طقس الشمال أفريقيّين الوطني بلا منازع. فباستثناء عدد من جيوب الخوارج المحصورة في ميزاب أو على حدود طرابلس وعدد من أقسام المدينيّين ذوي الأصل التركي المقيمين في الجزائر وفي تونس الآخذين بالحنفيّة الماتريديّة، يقول المغرب جميعه بالعقيدة المستمدة من الموطّإ.

إن انتقال الفاطميين والانتفاضة الصنهاجيّة حددّا فصلا رئيسيا في التاريخ المغربي. ثم جاء الاجتياح الهلالي. ولقد كتب ابن خلدون عن هذا النزوح صفحات لامعة. لقد أرسل الخليفة المستنصر على شمال أفريقيا قبائل عربية كاملة تنحدر من عدنان[23] كانت تخيّم في مصر العليا[24] وتزعج حياتها المشاغبة الخليفة المستنصر. كان ذلك في القرن الحادي عشر فاجتاز الهلاليّون والسّلميّون[25] في قوافل متراصة تصطحبها النساء والأطفال والدوابّ والعبيد الصحراء اللّيبية وتوجهوا نحو تونس والجزائر حيث استقرّ أغلبهم في الوقت الذي تقدمت فيه بسرعة قبائل أخرى نحو شرق مراكش ووسطها.

هذه القبائل من زغبة وجشم والمعقل والثعالبة وبَرَاز والهمامة انسابت في ضواحي فاس وفي مدن الساحل الأطلنطي واختلطت فيما بعد بالقبائل البربرية المنحدرة من صنهاجة ومكناسة ومصمودة ومغراوه وإفرن فعجّلت بتعريبها. وقد صعد عدد من أقسامها شمالا فامتصّهم لاحقا سكان الجبل. وعندئذ اتّخذ الامتزاج نسقا

---

[23] العرب، حسب المؤرخين القدامى، وأسطوريا، إما جنوبيون (قحطان) وإما شماليون (عدنان).

[24] الصعيد.

[25] والنسبة هي هلالي وسُلَمي وسُلمي مثل قُرشي (من قريش) فزيادة الياء خطأ ولهذا نقول في تونس السَّلمي بنصب السين.

متسارعا.

إنّ المغرب عرف، بعد هذا التاريخ، ملحمته بمجيء المرابطين والموحدين وامتزجت الأمجاد العسكرية بفتوحات فكرية ضمن حضارة لا مثيل لها. هكذا اكتسب البلد شخصيته الكاملة. لقد بلغ المغرب مع ابن تاشفين[26] وعبد المؤمن[27] أوج عظمته وتبلور الوعي الوطني باطّراد على الرغم من ترسّبات الكتل القبليّة. لقد ازدهرت العلوم والفنون من ضفّتي التاج إلى وادي السّبُو ومجردة.

في البداية كان الرباط هو الذي انتصر.

لقد هرع المرابطون بعد أن حققوا الوحدة المغربية، زمن حكم يوسف العادل، إلى نجدة إخوانهم في ما وراء المضيق عندما استغاث بهم أمراء إسبانيا الذين ضيّق الخناق عليهم جند قشتالة وفي مقدمته شخصية السيد كامبيادور المشؤومة. فتطوّع أجداد إدريس ممن مكثوا في أفريقيا للمرة الثالثة في صفوف الجيش واجتازوا ساعد البحر ونزلوا في إسبانيا وألحقوا الهزيمة في خلنج سيمانكاس (الزلاقة عند الإخباريين العرب)، بالملك ألفونس. وفي الآن نفسه ثبطوا حماسة الحملة الصليبية التي استظلت بالقديس جاك دي كومبوستيل. لقد ناضل أجداد إدريس في الجبل وكتائب مشاة الأطلس ومتطوعو البوكسيراس، جنبا إلى جنب، في الوقت الذي كان فيه أبناء عمومتهم في غرناطة يحملون خلف أمير اشبيلية، المعتمد، على سرايا ملك قشتالة المدرعة.

---

[26] الزوج الرابع لزينب النفزاوية (ت 1071) ومؤسس الدولة المرابطية ومدينة مراكش.

[27] التلميذ المفضّل لإبن تومرت مؤسس الدولة الموحّدية.

ولقد دارت عجلة التاريخ فاختفى المرابطون بدورهم مفسحين المجال للموحّدين المصامدة وظهرت، عوضا عن علم تفسير تشتم منه رائحة هرطقات الانحرافات الكلامية المغالية بتأثير يكاد يكون إيقونيا من الآخذين بالتجسيم، أي من هؤلاء الملثّمين الغربيين، عقيدة تستلهم الإسلام الأول. وعلى هذا النحو تمكنت أفكار ابن تومرت التوحيدية من المغرب.

لقد أكمل ابن تومرت، مع ابن رشد وابن خلدون، الثالوث الأروع الذي سيرى فيه إدريس مركز تاريخ بلده وحضارته ورمزه. فلقد اعتمد إدريس هذا الثالوث مثالا يحتذى. وكان غالبا ما يأسف، عندما يثيره عقله الجسّاس على شيوخ القرويين عديمي الجدوى المتحذلقين الذين يلقون جزافا، بعد قرون من هذا الثالوث، بمفاهيم كلامية عفّاها الزمن وغاب منها كل مضمون عقلي كان إدريس غالبا ما يأسف أن يكون أمثال هؤلاء الصقور قد حلّقوا فوق الأطلس من دون أن يسقطوا أيّ بذرة. أما في عبد المؤمن وفي الخلافة الموحّديّة فسيتبيّن المستوى الباهر لخصال جنسه الخلاق. إن عصر المغرب الذهبي، عندما كانت قرطبة في بالغ ألقها، سيكون له الأثر الأكبر نفعا في إدريس. ولسوف يقارن، عندما يحين الوقت، بين هذا القرن المبارك وقرون بيريكليس والمأمون ولويس الرابع عشر، محافظا على إعجاب بالعلوم الإنسانية ليس في إمكان أيّة فكرة مسبقة أن تضعفه. إنّ إدريس سيتبيّن في الإمبراطوريّة الموحديّة التي تشير إلى أوج المغرب، حصيلة القوى الحَريّة بأن تكون قاعدة ومثالا للقومية المغربية: الوحدة العقدية (وهذا أمر لم يعد ضروريا بعد انتصار الإسلام) والوحدة القومية. وعلى هامش هذا التأثير المتبادل، الازدهار الفكري الذي يرسّخ بناء الأمة ويمكنه من أسس صلبة.

لقد حكمت الممالك الزناتيّة التي انبثقت من رماد الخلافة المؤمنيّة بعد ذلك شمال أفريقيا مدفوعة بنزعات إقليمية تمكن مقارنتها بالطائفيّة الأندلسيّة. ومع

ذلك فإن المرينيين والزيانيين والحفصيين لم ينقطعوا، حتى وهم يضعفون الأمّة ويمهدون الطريق لاستعبادها في المستقبل بتجزئة مجالها قبل الأوان، عن مواصلة تنمية دور الحضارة الإنسانية الموريسكيّة في أفريقيا. وهكذا عرفت فاس وتلمسان وتونس عصرها البهيّ وأصبحت مراكز ثقافة لا تقل في شيء عن ثقافة بغداد ولا عن ثقافة قرطبة. وماذا كان يوجد آنذاك في فرنسا؟

لا شيء تقريبا.

إنّ القوم مازالوا عند رواية الوردة[28] هذه التي شرع فيها غيليوم دي نوريس وانتهى الأمر بجان دي مونق إلى إتمامها. إذّاك لم يكن قد مرّ غير وقت غاية في القصر على وضع فيلهاردوان وجوانفيل مخططي الوقائع. أما فيّون فإنه لم يولد بعد.

وفي الميدان العسكري أبان تاريخان هامان عن هذه الفترة: انكسار الحملة الصليبية الثامنة على أسوار تونس وهو انكسار أنقذ أفريقيا الشمالية من خطر قاتل ونكبة الإسلام في إسبانيا. لقد سقطت غرناطة، آخر قلعة محمدية، وقد تخلى عنها الجميع وذلك في زمن كانت فيه مراكب كولومب السريعة ذات الصواري الثلاث أو الأربع ترسو في الأرض الجديدة وعلم الصليب يصوّت فوق كَوَاثِلِهَا.

غادر بنو عمومة إدريس، بدورهم، قرطبة بعد أن دفع عدد منهم للمدينة ضريبة الدم التي لا جدال فيها. لقد شنّوا آخر غارة لهم إلى جانب موسى بن أبي الغزّان حتى يتيحوا للتعيس أبي عبد الله أن ينسحب إلى الساحل لينتظر هناك، وهو يفحص بلا جدوى أمواج البحر، المدد الذي وعدت به فاس واسطنبول. لقد كان ذلك جهدا

[28] Le Roman de la Rose

بلا طائل: فالمدينة استسلمت وأغلب أقرباء إدريس الإسبانيين عبروا المضيق للمرة الأخيرة. ولقد استقرّ عدد منهم قرب طنجة وهاجر آخرون إلى ما هو أضرب في الغرب، نحو البورقراق. وسلك عدد آخر منهم، من جديد، الطريق إلى تيزران حيث انصهروا، من جديد، في وطن الأجداد. كانوا، جميعهم، على ما تقول الأسطورة، يحملون، في أمتعتهم مفاتيح بيوتهم الأندلسية، على أمل أن يعودوا إليها في يوم من الأيام.

عقب تصفية السيطرة الإسلامية في إسبانيا، عن كثب، غزو المسيحية أفريقيا. كانت وصايا إيزابيل تعرض، على غرار أمر مطلق، مُسَلَّمَة حملة صليبية جديدة وضّحتها محكمة التفتيش بواسطة أمثال سيسنيروس وتوركيمادا في دعوات بدت شبيهة بالأحكام القاطعة.

وفي الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تتدثر بثوب من الصرامة الرهبانية وتُسَيَّف أُخَوِياتها مثل فرسان القديس يوحنا، كان الإسلام، في أفريقيا، يتعرض للهجوم في عقر مُحْرِزه. فوقع الاستيلاء على سبتة ومليلة وفيليز والحسيماء والجزر الجعفرية، ورفع الصليب، في أعلى كل قلعة، على ِوضْعَة لا شيء فيها من الرسولية.

وتعرّضت وهران والجزائر وتونس لعمليات إنزال صاحبتها محاولات احتلال لم تثمر، لحسن الحظ. لقد نجا الإسلام في وسط المغرب وشرقه، في الوقت المناسب، بفضل تدخل العثمانيين فطرد باربروس الإسبانيين من تلمسان والجزائر وأتمّ القراصنة، فيما بعد، ما تبقى[29].

[29] الفكر السياسي المغربي لا يقف من العثمانيين موقفا معاديا مثل موقف أغلب الشوام وعدد من المصريين منهم.

في مرّاكش، آذن التخلي عن قرطبة برحيل المرينيّين. ذلك أن إهمالهم حطّ من قدرهم في عيني الأمة حطّا لم يستطيعوا معه أن يعيشوا في حالة العار هذه طويلا خاصة أن البرتغاليين نزلوا على الساحل الأطلنطي، مستغلّين هذا التغيير السريع في الوضع، واحتلوا طنجة وأصيلا والعريش والرباط وموغادور في الوقت الذي اجتهدوا فيه، عبر وادي لوكوس في الاستيلاء، من الوراء، على فاس وتحويل مراكش إلى جزء من هذه البلاد الأفريقية المسيحية التي طالما حلم بها معرّفو الملوك الكاثوليك.

في هذا الوقت ظهر السعديون بدورهم. وسيكون بلد إدريس، هذه المرّة، الشاهد الفعّال على حرب تحريرية. وفعلا فإنه، وفي سفح الجبل وفي هذا الموضع الذي يخترق فيه وادي لوكوس مدينة الكازار أي في ضواحي هذه القصبة حيث تمتزج، مثل ما هو الأمر في كل امتزاج موفّق، كلّ تناقضات الشخصيّة المراكشيّة أي الجبلية والسهلية والمدينية، وبين تجاعيد المنحدرات حيث تمتد أدغال الناردين في وادي المخازن، تبارز الإسلام والمسيحية في مبارزة قصوى.

هنا تقرّر مصير أفريقيا الشماليّة، كلّها، في ظرف ساعات ولحقت بأوروبا هزيمة فظيعة. فسقط ملك البرتغال سيباستيان وأغلب فرسانه قتلى. كان فيهم برتغاليون وإسبانيون وألمانيون وفرنسيون وإيطاليون. ولكن لا أحد منهم نجا. ومن تحاشى الموت منهم وقع في الأسر ووجّه نحو المدن الداخلية. وهكذا اتجه كونتات إسبانيون وبارونات ألمانيون وفرسان فرنسيون، خاضعين، إلى فاس.

لقد مات السلطان عبد الملك، مؤسس السلالة السّعدية أول أيام الحرب. ولكن وقع، دفعا لخور ممكن، التكتّم على خبر موته في البداية. وبما أن خبر مرضه كان معروفا فقد حمل جسده في سرادق أسدلت عليه الستائر جال ميدان القتال من أوّله إلى

آخره وكأن القصد من ذلك هو أن ينعش حضوره المحاربين الملتحمين، جسما لجسم، بالعدوّ. ولم يقرّر السلطان أحمد الذهبي[30] أن يعلم جنده بموت عمّه إلا عندما ألقت بقايا الجيش البرتغالي بأسلحتها وأوتي بأجساد الملك وأهم أتباعه إليه.

كانت الغنيمة عظيمة. ولكن ما كان أعظم منها هو الانفراج الذي رافق هذا النصر. وقد سارع العدو، فورا، إلى الجلاء عن تراب المغرب باستثناء هذا العدد من الحصون التي احتفظت بها إسبانيا منذ ذلك الحين على الساحل الشمالي.

عاد أجداد إدريس إلى حيث كانوا، محمّلين بغنائم من كل نوع وفيها مناجل تتدلّى في أعجازهم أنجزت، لأن المحاربين الجبليين أجادوا استعمالها، عملا شاقّا أثناء المعركة. إن مفاتيح المدن الأندلسية ومناجل الكازار وموت السلطان عبد الملك الدرامي شيئا ما، هذه هي المواضيع الأثيرة التي هدهدت طفولة إدريس والتي كان أبوه الذي يعرف تاريخ المغرب مثلما روته أناشيد البطولة، يحكيها له في كل مرة يبدي فيها شيئا من الوداعة.

لقد رأى إدريس من هذه المفاتيح والمناجل العشرات في بيت والديه. المفاتيح خاصة. وهي غليظة وغاية في الثقل. كان عدد منها ماهر الصنعة ولكنه قد يقوم، إذا حتمت المناسبة ذلك، مقام دبوس أو فاقئ عيون. وتوجد مفاتيح أخرى، وهي أقل جودة تغطيها هي أيضا نقوش تدلّ على ذوق نادر بما فيه الكفاية عند ابن الجبل. غير أنّ إدريس لم يتمكّن البتّة من أن يقنع نفسه بأصلها التاريخي. وهذا، مع ذلك، لا

[30] أحمد الذهبي (1578-1603) أعظم سلاطين السلالة السعدية التي خلفتها السلالة العلويّة (1664- إلى اليوم).

يفقد الحكاية شيئا من سحرها.

إن تحرير مرّاكش وعبور الصحراء واستعمار بلاد الزنج الذي عقبه تأسيس تومبوكتو كل هذا جدير بأن يكتب بأحرف من ذهب في قائمة المآثر السعدية. أما العصر العلوي فكان عصرا باهتا رتيبا[31]. وقد قنع، لأنه قليل الميل إلى التجديد الاجتماعي والجرأة السياسية، بحياة متجمدة يومية منغلقة لا حميّا فيها ولا ألق. وباستثناء ثلاثة أمراء متميّزين هم سيدي محمد بن عبد الله ومولاي إسماعيل ومولاي الحسن، بدا حكم أفراد هذه السلالة شبيها بضوء خافت يلائم هذا النوع من جراثيم التحَلّل التي تنخر حتى الموت الدول والمجتمعات. وقد عرفت مراكش، أثناء حكمهم، عصر انحطاط تُلزمُ إزالتُه، عموما، باللجوء إلى الوسائل الحاسمة. ومع ذلك فهم لم يكونوا، هم وحدهم المسؤولين عن هذا الأذى إذ كان المرض يجاوز حدود قدراتهم. وفضلا عن ذلك فإن مشهد بلاد المشرق المتفسّخ، يدفع المؤرخ إلى النظرة إليهم بكثير من التسامح. هذا العصر كان هو العصر الذي استشرت فيه قوى الشرّ أي هذه الأخويّات المزعومة مثلما يكون الشأن في أرض مفضّلة فانحطّت أخلاق البلد ومعنويّاته وعكست الفضائل والنقائص والعيوب والخصال أدوارها وارتخى عنان الشعوذة التي كانت تترصّد أصغر علامة مؤذنة بقرب وقوع المرض وأغمض إشارة حريّة بأن تكشف عن انخِماص صحة البلد لتسرّع مهمتها الإفسادية بل إنه وقع الرفع من شأن الشعوذة ففرخت الحمادشة والعيساوية والهداوة وكذلك قذف الجراثيم فوق دمل في تمام العفونة. كان البعض منهم يستسلم، باسم الإسلام طبعا، للاختلاجات الأكثر غرابة ولأنواع من الشذوذ لا يقدر عليها غير البهلوانات الأكثر خفّة، وكان البعض الآخر يعلّم مريديه، بوحي مما لا يعرف المرء أيّ شرارة إلاهية، كيفية ابتلاع أفاع وعقارب تبّلتها مسامير وكسرات قوارير. أما الثالث فكان

---

[31] قد يكون موقف الحمامي من العائلة العلوية من أسباب إهمال تعريبه في مراكش.

ينذر، رافعا قميص يوسف بعد أن انتزعه من زبله الرمزي، نذر قذارة ويوزّع وجوده البئيس بين التسول والفقر المدقع. وعلى هامش هذه الاخويّات المعدمة تبيع أخويّات أخرى أكثر براغماتية ودهاء الشعب التمائم والسبح وتبيّن له، مثلما كان الآمر زمن صكوك الغفران، الطريق إلى الفردوس. لقد رفع حول مراكش، سور صينيّ فمرّ القرنان الأخيران الطافحان بالأحداث الكونية والدروس بالقرب منها من دون أن يلمساها.

وحتى حكم مولاي الحسن[32]، وهو جدير بالاهتمام في أكثر من جانب، لم يسفر، لسوء الحظّ عن أية نتيجة. لقد حاول، وهو المولى الحازم ذو الخصال الرجولية الذكيّ العادل النشيط، أن يفهم أسباب الداء الذي يشتكي منه وطنه وأن يداويه، على الرغم من زردات شبكة الدسائس الأجنبية والرجعية الضيقة التي ضايقته على نحو يمكّنه من استعادة قوته فاصطدم بعقبات منيعة إذ انعدمت الوسائل المادية الضرورية في مهمة تتطلب نفسا طويلا. ثم إنه كانت توجد عقبة أكثر منعة من الوسائل المادية وهي محيط مرّاكش الاجتماعي الذي كان متخلّفا عن عصره إلى درجة أن كل محاولة تحرّر جديّة كان يمكن أن تتسبّب له، بالتأكيد، في متاعب يمكن لمناورات القوى الأجنبية التي كانت تراقب، عن كثب احتضار هذا الرجل المريض الثاني، أن تضاعفها بواسطة من ترعى من الدّمى المحلية.

ثم كان الاحتلال الفرنسي الاسباني والحماية.

[32] هو الحسن الأول (1873-1894) الذي سيتحارب وَلَداه من أجل الحكم. أما الحسن الثاني فهو معروف عند القرّاء.

* **

لقد استقر أجداد إدريس الذين تبعوا الغافقي في أوروبا في جنوب اسبانيا، في غرناطة. ولقد مكثوا فيها حتى سنة 1498 وتأثرت بذلك طريقة عيشهم وتحولوا من جبليين إلى مدينيين وتخلوا عن المعزقة والمقضب الصغير ليشتغلوا في المهن اليدوية. وقد شغل عدد منهم وظائف في الإدارة وفي الجيش. وكثير منهم التحقوا بجامعة قرطبة. وقد لعبوا أثناء فترة الطوائف أدوارا عديدة ثانوية في بلاط الباديسيين ثم في بلاط بني الأحمر. ولكن لا أحد منهم، في ما يعرف إدريس، طفا فوق المستوى العام حتى يمكن للتاريخ أن يحتفظ باسمه. وكل ما أمكن لإدريس أن يحتفظ به من قصص هو أن أقرباء عائلته الغرناطيين وقفوا في صف المنصور في السنة الألف تقريبا وأنهم ساعدوا، عند زوال الأمويين، العامريين في التنافس على عرش قرطبة. وهذا، على كل حال، لم يكن أمرا غاية في السوء إذ من الأفضل أن يعقب سلالة محتضرة أبناء بطل الإسلامية في أوروبا.

وقد وقفوا، فيما بعد، ضد ابن رشد ولم يبالوا، وهم المخلصون للمذهب المالكي، بالسلفية التومرتية التي تسربت إلى أوروبا بعد الموحّدين. ثم إنهم لم يتردّدوا، تأثرا منهم بخصوم الرشدية، في المساهمة، بدورهم، في حملة الافتراء التي ستعمّم اللعنة التي أصدرها المسجد على فيلسوف إسبانيا الإسلامية الكبير. لقد انقضت الفوضى الطائفية، بدورها، في ما يشبه الظلمة القيامية فسقطت إشبيلية وقرطبة ورأى حي البيّاسين الذي كان مستقر أبناء عمومة إدريس الاسبانيين، طيلة أكثر من قرنين من الزمان، أجيالا تتعاقب في هدوء حياة لا نتوء فيها. وقد انشغل كثير من أبناء العمومة هؤلاء، من البنّائين والرسّامين والنجّارين والفسيفسائيين الذين كانوا فخر مدينة البوكساراس في بناء قصر الحمراء، هذه التحفة الرائعة الخالدة

الدال على حضارة بهذا الجمال. فكأنّ الإسلام، وهو يعجّل ببناء هذه العجيبة الثامنة من عجائب الدنيا وقد تهجّس بقرب رحيله عن هذه الأرض القديمة النبيلة، كان يريد أن يترك للأجيال القادمة علامة ساطعة على عظمته الماضية.

ثم كان الغروب!

أصداء الجبل

هكذا كان، بإيجاز، تاريخ أجداد إدريس. ولقد كان له بهم شبه رجوليّ عندما كان يذهب، وهو صغير بعد أن يقضّي اليوم في المْسِيد[33] حيث كان مؤدّب يردّد على مسمعيه في صوت أجشّ رتيب سور القرآن، للاستلقاء تحت شجرة تين عجوز بين الكروم المثقلة حجنا، شارد البصر، مستنشقا بملء منخريه الهواء البليل الآتي من قمم تيزران في حين يرسم رفّ طيور الكروان، من فوقه، أشكالا حلزونية سريعة رشيقة. كان منذ العاشرة يبدي علامات نضج مبكر. وكان قد حفظ القرآن، غيبا، ومازال، بمقتضى العادة، يواصل، لعدم توافر ما هو أفضل، اجترار سور الكتاب المقدّس[34] في ألواح خشبية إلى جانب التلاميذ الآخرين ويقوم، عند غياب الفقيه، بدور المدرّب.

كان المْسِيد بيتا صغيرا بني بالحجر وغطّي بقشّ السقوف. وكان مظهره قديما. وهو لصيق بالمسجد ويقوم، أيضا، مقام الملجإ للقرويين أثناء العواصف المتكررة في هذه الأراضي المرتفعة المشجّرة. وفيه تقام الضيافات أي هذه الاحتفالات الشعبية بمناسبة هامة في حياة السكان. فيبدو إذّاك نهم الجبليّ، بعد أسابيع وغالبا بعد شهور من الكفاف الجبري، طليقا، وهو يرى أمامه غزارة اللّحم ووفرة مسكرة من

[33] الكُتّاب وهو مازال في الجزائر مثلا يطلق على المدرسة الابتدائية، ونحن ننصح القرّاء بأن يقارنوا بين هذا الفصل وما تضمّنته سيرة طه حسين من وصْف للكتّاب المصري . فبمثل هذه المقارنات وحدها تعرف خصائص الشعوب.

[34] هو يقصد القرآن، ولكننا نحافظ، عمدا، على ما يستعمل من ألفاظ.

الشاي المنعنع. ويقوم المْسِيد، أيضا، مقام معرض للجثث يغسل فيه الميت قبل قبره. كان البناء، عموما، أسود من السخام. وأثناء الشتاء تحرق، في خزانة، في طول أحد الحيطان، جذور العرعر وإبالات من خشب ميت تذهب النساء لالتقاطها في الغابة. كما تلقى فيها بيعان من السرخس. ويجرّ الرعاة وراءهم، في بعض الأحيان، عند عودتهم من المرعى، أشواكا وزعارير كاملة تحشر فيها بعثاكيلها وهي تقطر تُوتَ عُلَيْقٍ.

أما استعمال المدفأة فلم يكن معروفا فيه.

كانت الروازن محكمة السدّ. وكانت ألسنة المحرقة تلحس، بلا انقطاع، الجدران والسقف والباب وتترك عليها طبقة من الفسالة تتلون، بتتالي الأيام، بلون سبج ذي لمعان فسفوري. وعلى الأرض بسطت حصائر بالية من النخل ملطخة بالشحوم متآكلة خرقتها الثقوب والمزوق. ويسدّ الجزء الأسفل من شقة جدار المْسِيد مرتفع من التراب المطرق: إنه الدكانة التي يجلس عليها المؤدب ليملي السورة التي تقررت كتابتها على اللوحة وليتابع قراءة الصبية الفاترة.

كان المعلم فقيها جبليا في سن النضج ذا قوام فارع، عظميا، متغضّن وجه شاحب يظهره في مظهر مالك الحزين المضطرب الذي ألجأته العاصفة إلى هنا. وكان شعره الأشيب مشربا بالشقرة. أما عيناه المتعبتان فكانتا على زرقة خزفيّة. وتعصّب عصابة[35] من النسيج الموصلي الأبيض رأسه مسفرة عن قذال عار شبيه بالإكليل الكبير. وخلافا لغيره من الفقيهين[36] الآخرين الذين تجبرهم العادة على ارتداء جلابة[37]

---

[35] razza

[36] الفقيه يعني المؤدب فلا علاقة للفظ، إذن، بعلم الفقه.

من الصوف الأبيض الخام، كان معلم إدريس يلبس جلابة سوداء قصيرة تزينها ورود وزخارف من حرير متعددة الألوان.

وتوجد في زاوية من المسِيد كومة من القصب الطويل وأعواد المصطكا والأسل يستعملها الفقيه، عند اللزوم وعند غير اللزوم، ليسترعي فوج أطفاله للنظام والانضباط. وعن هذا القصب وعن هذه العيدان تعرف رأس إدريس شيئا ما. لا لأن إدريس كان خبيثا إذ العكس هو الصحيح. فطبيعته الحالمة الوديعة كانت تبعده عن كل خبث. نعم، هو، طبعا، يجب أن يستغرق في اللهو. ولكن بعد الدرس. على أنه كان، على الرغم من ذهنه اليقظ كسولا شيئا ما. وكان يبدو، دائما، من فرط ما يستغرق في التأمل، نائما على لوحته. وهذا أمر يغيظ الفقيه العصبيّ الانفعالي.

إنّ هذا كان يمكن أن يكون هيّنا لأن الحالات المشابهة التي يتعرض فيها إدريس للتأديب كانت نادرة. فضربة مفاجئة في قمة الرأس لا يمكن أن تكون غاية في الجسامة إن لم تتكرر باستمرار. والحال أنه كان لإدريس جيران سيّئُون. فلقد شاءت الصدفة أن يعيّن مجلسه وسط التلاميذ الجالسين في شكل دائري على الحصائر الممزّقة بين رفيقين من أكثر الرفاق تشويشا. كان أحدهما أسمر اللون[38]، في سنّه، ابن غماريّ هجر قبيلته بعد أن قتل، لخصام قديم، أحد أفراد الجماعة. أما الآخر فكان ابنا لأحد أقربائه البعيدين، جسيما، ممتلىء الخدين[39]، صافي البشرة، ذا عينين كبيرتين سوداوين، بليد الذهن، يقضي وقته في نصب الشراك لصيد العصافير ولا يحضر الدرس إلا لإثبات الحضور. فالمثابرة لم تكن موضع اهتمام بالغ. وهكذا نَعِمَ

---

[37] الجلابة: لباس فوقي يعلوه رأس يلبسه المراكشيون.

[38] Noiraud

[39] Joufflu

الصغيران الشَّغِبَان بهذه الحالة. فلقد كانا عندما يحلان بالمْسِيد واللوحة تحت الجلابة يتربعان، محيطين بإدريس، على الحصير ويضعان اللوحتين على ركبتيهما ويردان الكبوشة إلى الوراء ثم يشرعان، اختلاسا، في إزعاجهما وهزلهما. وكان سي عبد السلام (كان هذا اسم الفقيه) قد قلاهما وركز عليهما، هما حصرا، رقابته فكان لا يحوّل عنهما نظرا. لذلك كان يلزمهما بالقيام بكل الأشغال المرهقة في المْسِيد. فهما اللذان كان يكلفهما بتزويده بالقصب وعصيّ الأسل. ولكم كانا على معرفة بالدغل!

وعندما يخترق القسم صوت أو ضحكة مكبوتة أو صوت محاكاة للعصافير كان سي عبد السلام يمسك بقصبته ويهوي بها، بكل قواه، ومن دون أن يتجشم عناء السؤال عن ماذا أو عن من، على دماغ الأسمر أو دماغ ممتلئ الخدين. فهو لم يكن يتحمل أيّ اعتراض إلا إذا دلّ أحد التلاميذ، بدافع الوشاية أو حبّا في الإنصاف، على المذنب الحقيقي. ومثل هذا يندر إجمالا.

وعندما يفتح الباب والمنورات، في أوقات الصحو، فيغمر الضوء المْسِيد ذا الجدران القاتمة، يوزّع الفقيه، بإنصاف، تأديبه اليومي على الشقّيّن. ولم يكن ليخطئ الهدف. وعند ذلك، لاخوف على إدريس. ولكن في الشتاء، وفي الأوقات المضبة، عندما يكون المْسِيد على الرغم من محرقتّه المضطرمة الخانقة، غارقا في غبش لا يساعد على تقوية ألق عيني سي عبد السلام الرافتين، تئز الضربة فوق الرؤوس وتقع، على غير هدى، في اتجاه الزاوية التي يكونها الأسمر وممتلئ الخدين وإدريس فيتلقى إدريس ضربات قاسية.

لقد تدرَّب المشاغبان على هذه المباراة فكانت عيونهما لا تفارقان البتة الفقيه الذي كان هو بدوره يراقبهما عن كثب. فما أن تسعى يد سي عبد السلام إلى

الإمساك بالعصا حتى ينعطف رأسا العفريتين يمينا وشمالا. وفي لعبة التخبئة هذه، يتلقىّ إدريس، وهو الغارق في الحلم أو العميق الشعور ببراءته ليتحرك، الضربة على الدماغ أو الراسل.

أصبح هذا الأمر، لتماديه، مزعجا. وقد طالب إدريس مرات بتغيير مكان جلوسه ولكن المعلم اعترض على ذلك. فسي عبد السلام، إذا كان يتغاضى عن موضوع المثابرة، لا يلين عندما يتعلق الأمر بالنظام. ولذلك لجأ إدريس إلى حيلة. فكلما شقت ضربة الهواء كان يرفع لوحته فوق رأسه وينجح بفضل هذه الحركة الوقائية في التوقي منها أو التخفيف من وقعها عليه. هذه اللقية فتنت الأسمر وممتلئ الخدين فقلداها. فكانت الألواح ترفع على الأدمغة، غريزيا، عند أول تقطيب للحاجبين. كان سي عبد السلام تتملكه، حينئذ، نوبة من الغضب، فيتجه، بعد أن يرمي بعصاه ويدوس القصب وأعواد الأسل والمصطكّا، إلى حجرته الملاصقة لساحة الوضوء ويعود منها متقبض الشفتين مرتجف الأذنين مثلما يحدث لضبوط وهو يرى خرنقا نفرته رعونته، جارّا في يده هراوة قدت من فرع بهشية سيئة التهذيب ولكنها قادرة على أن تكسر فقار ظهر البغل الأكثر صلابة عند القبيلة.

وهكذا تكون الفلقة.

يبدو هذا التأديب كأنه حفلة. فإذا كان التلميذ الذي وقع عليه اختيار سي عبد السلام موضوعا للتعذيب يتراخى من الهلع لمجرد التفكير في مثل هذا العقاب فإن الآخرين، على العكس من ذلك، تتملكهم نشوة من أغرب النشوات. ولا يحتاج الفقيه إلى البحث عن متطوعين لإعانته. فالأيدي تمتد تبرعا.

وتتمثل الفلقة، قبل كل شيء، في تقييد رجلي التلميذ العاصي. كذلك تشد يداه إلى

الظهر ثم يرفعه، بعد ذلك، رفاق كرماء في الوقت الذي تثبت فيه أيديهم العقبين وأصابع الرجل فإذا هو يعرض، وهو مقيد على هذه الهيئة، أخمص القدمين لضربات الجلاد الجيدة التوقيع. كانت هراوة سي عبد السلام تسمى رحيمة. ولم يحدث البتة أن خالف الاسم المسمى مثلما هو الأمر هنا. لقد كان المعلم هو الذي يستعملها عندما يكون عليه أن يؤدب أحد العصاة المشهورين. ولقد كان، بحقّ، ضليعا. كان قبل مباشرة الضرب، يصدر، مثلما يفعل رجل عارف بما يفرضه عليه الإنصاف الصارم من واجبات، حكمه ويحدد عدد الضربات المقررة. وهي تتراوح بين خمس وعشرين وثلاثين ضربة. وعادة ما يبدو المعلم متسامحا بالنسبة إلى المبتدئين والعصاة الاتفاقيين فيخفض العقوبة إلى عشر ضربات أو خمس عشرة ضربة. أما بالنسبة إلى الارتداديين فهي تصل إلى خمسين وأحيانا إلى خمس وسبعين. والوحيدان اللذان فازا بالمائة هما الأسمر وممتلئ الخدين وكانا يعدّان ذلك من مآثرهما.

كان جسم سي عبد السلام، أثناء أداء وظيفته، ينقبض. وكان سي عبد السلام يرتجف وعيناه تتوقدان ويتلوّن نظره الأزرق المترنح، وقد أغشاه البخار، بلوينات متقزحة ساطعة وتشعث لحيته المبعثرة ذات اللون الأصفر الكبريتي وجها يتوسطه أنف قليل التسطح يبدو كأنه يزيد في خنسه. ويعينه في هذه المهمة تلميذ وظيفته عد الضربات هو الأسمر، عادة، الذي كان يطالب بدور مساعد الجلاد فيظفر به في الغالب. غير أن وظائف المساعد انحصرت، بعد أن جمع هو وممتلئ الخدين أكثر من تسعة أعشار الفلقات الموزعة بقليل، في تدخلات نادرة.

كان للأسمر نزعة مؤسفة هي الخطأ في إحصاء الضربات ولكن دائما في مضرة المعذب. فالعادة تقتضي أن يذكر بصوت عال عدد الضربات حالما تشرع الهراوة في عملها. ولكن الحقود كان ينتقص، عندما يبلغ الضرب نقطة ما، من العدد من دون أن يقع التفطن إلى الحيلة ثم يستأنف العد إلى النهاية. كانت الزيادة تتراوح بين

خمس عشرة وثلاثين في المائة. وأحيانا تضاعف هذه الممارسة العدد الذي حدده حكم الفقيه. غير أن هذه الخدمة الإضافية كانت تتوقف على درجة تقدير الأسمر زميله وخاصة بالنسبة إلى من يمكنه، عند الاقتضاء، أن يقوم في مقامه في مثل هذه الوظائف الدقيقة عندما تقود صدف سلوك الأسمر الشَّغَّابِ في القسم إلى استبدال دوره قاضيا بدور المقاضى.

تلقّى إدريس الفلقة مرة واحدة. وحتى هذا كان بسبب نوع من سوء التفاهم. وهو لم يعرف البتة السبب الذي دفع بسي عبد السلام إلى أن يحكم بها عليه.

استحوذ ضحك عام مديد على المْسِيد كان سببه محاكاة مواء قطّ تجيده، بالمناسبة، حنجرة الأسمر أيما إجادة.

حاول إدريس في البداية، وقد جرفه تيار الفكاهة أن يتمالك نفسه. ولكنه لم يتمكن من أن يقاوم فورة الضحك التي استحوذت على التلاميذ جميعهم. وكان الأسمر الذي يمتلك مواهب مَقْمَاقٍ يواصل من دون أن يبدو شيء على وجهه، لعيبة الإيماء البريئة. وكل واحد منهم نفّس عن نفسه تنفيسا.

نهض سي عبد السلام يائسا ساخطا على موجة العصيان المفاجئة هذه موجها عينيه إلى المحفل الصغير المجتمع على قدميه وحدّق في الأسمر. لم يعد هذا غير مومياء مسمّرة في وداعته التي لا يقدّر أحد قدرها ثم التفت نحو ممتلئ الخدين. كان القديس الصغير، وقد سحب الإسكيم إلى الخلف، يتهزهز في هدوء لا مزيد عليه وكأنه يراجع درسا سبق أن حفظه. واصلت عين الفقيه دوريتها الدائرية. وفي اللحظة التي همّ فيها بأن يردها إلى الأسمر الذي كان يتحجر أكثر فأكثر في وضعته الجامدة، باغت نظره في وجه إدريس تقلصا في الشفتين قريبا من البسمة. ولقد كان هذا

كافيا.

قفز سي عبد السلام خارج المسيد واجتاح صمت القبور القسم وتحولت وجوه التلاميذ إلى أقنعة كرنافال.

انبعثت المومياء انبعاثا قليلا ورسمت الرأس حركة جدّ دقيقة نحو اليمين ثم استعادت، للتوّ، هيأة انجذابها الكهنوتيّ.

أما الإسكيم فقد انتفض، لحظة، وأسفر عن زوجي عين لا معين يحدجان بنظرتيهما موقع الباب الذي يؤدّي إلى المسجد وكأن الرأس التي تسكنه كانت ترتب هروبا ما. ولكنها ارتدت، فورا، وقد عدلت عن هذا الرأي، في وداعة كلها فلسفة، إلى اللوحة.

آب سي عبد السلام ورحيمة تتدلّى في يده اليمنى وأسند ظهره إلى الدكانة وتابع نظرته الخاطفة المستقصية. كان دفق من اللعاب يقطر من شفتيه. ودب تنمُّلٌ في بواطن الأقدام وارتعشت الأكفال وملأ صمت كامل الغرفة التي كان يضيئها قدر من أشعة نور شاحب. كان التلاميذ يختلسون النظر إلى بعضهم البعض فلا همسة ولا سَعْوَلَة. ولم يتمكن أزيز جعل من كسر الهدوء المأتمي إلا قليلا.

إدريس، قف!

ما كاد ينطق باسم الضحية المرشحة للكفارة حتى انتصب الأسمر وممتلئ الخدين على ساقيهما وقد وسّع صدريهما شعور مضاعف بتنفّس الصعداء وبالفرحة. وتقدمت زمرة من صغار الكسالى على وقع بوق غير مرئي. فحوصر إدريس وقبض عليه وقيّد. وعبثا تخبط وسبّ وقنطر ورفس وسدد إلى وسط أنف ممتلىء الخدين الذي كان يحاول

أن يفهمه محاسن الرواقية لكمة قويّة ترنخ منها. كلّ هذا كان جهدا بلا طائل. فك الأسمر مسبحة الفقيه التي كانت تتدلى من وصلة مسمّرة في الحائط واستعد لعدّ الضربات واتخذ له، بشكل احتفالي، موقعا قرب المعلم. مزقت الرحيمة الهواء فهزّ صوت شبيه بصوت الآنية المكسرة الآذان. واحدة! صرخ الأسمر في حين بدأ الإبهام والسبابة يفرطان حبات البيدق: اثنتان! ثلاث! أربع! خمس!

كانت الرحيمة تروح وتجيء.

أحس إدريس من أول ضربة بألم مبرّح. فكأن شفرة موسى كانت تنغرز في اللحم. ومع ذلك فهو لم يتحرك واستعاد هدوءه وتقبض على شفتيه وتماسك حفاظا على كرامته المهانة وأقسم بأن لا يطلب أي حِلم.

أصبح الألم عند الضربة الثانية أكثر حدة. وتحمل الثالثة والرابعة. وعند الخامسة أحس بقواه تخور. وقسطت رجلاه وخيل إليه أن الأصابع والعرقوب قد غيّرا من موضعيهما. وثقلت ركبتاه وحصل لديه انطباع بأن نوعا من الشفرات المحماة يخترق جسده من جهة إلى أخرى. ورزح بطنه تحت ما يشبه ثقل كيس من الرصاص.

عند الضربة السادسة بدأت أذناه تطنان، وأثارت أعصابه تموّجات صوت زيز حصاد ثاقب في حين قلصت تشنجات عضلية لا تقهر صدغيه.

كانت نار شديدة تلهب حنجرته. واكتسى لسانه بمادّة بيضاء وانتفخ لسانه بين فكيه.

سبع، ثمان، تسع... عشر! صرخ الأسمر برباطة جأش وهو يرفع المسبحة إلى مستوى

صدره حتى يقتنع إدريس الذي كان يصارع الألم وعيناه نصف مغمضتين، أن قواعد القرع بالعصا وقعت مراعاتها بدقة.

إحدى عشرة، اثنتا عشرة، ثلاث عشرة... عشرون... خمس وعشرون! كانت رحيمة تهتز من دون توقف. كاد إدريس أن يصرخ ولكنه تذكر عهده وتحولت الصرخة التي كبتت في الوقت المناسب إلى تمتمة خفيفة نائحة.

تصلّبت عضلاته وتقبض جسده وغمر العرق جبهته وعاد طنين زيز الحصاد الذي أثار أعصابه منذ قليل إلى أذنيه وأحس أنه سينفجر.

ست وعشرون، سبع وعشرون... واحد وعشرون!

إن الشقي انقص خمس ضربات من الضربات التي على إدريس أن يتلقاها. تفل سي عبد السلام في أصابعه وعركها وعاودت الرحيمة تطايرها. حومت الهراوة في الهواء و... وقعت على رأس النزق الغشاش.

ثلاثون! هتف الأسمر وهو يرفع يده إلى رأسه حيث انتصب تورم في حجم البيضة على الصدغ الأيسر.

ثلاثون! إحدى وثلاثون!

رنت بلا شفقة ضربة ثانية على الرأس ذاتها وأعاد الأسمر يده من جديد إلى جبهته ليتحقق، في غم، من انتفاخ تورم ثان فوق الصدغ الأيمن هذه المرة.

ست وعشرون، سبع وعشرون... ثلاثون.

عادت الرحيمة، بعد أن أجبرت الأسمر على سلوك أكثر مطابقة لقواعد الحساب العشريّ، إلى دغدغة قدمي إدريس.

كان المعذب يبدي علامات ضعف وأصبحت، الآن، رجة تهزه. وكان الجعل الذي طردته الضوضاء التي عقبت تقييد أعضاء إدريس من المسْيِد قد عاد فأضاف صوت مروحته إلى صفير الدبوس.

انبجس الدم من باطن القدم اليسرى ودلت حركة متقطعة على ازدياد الألم. لقد انفلق ظفر إبهام وكان عقب الرجل اليمنى ينزف وعتمت دائرة سوداء متورمة وَظِيفَ مُشط القدم اليسرى.

عندما استعاد إدريس حواسه كان ممددا على الدكانة ورجلاه ملفوفتان في قماش مبلل بماء ساخن. كانت يداه اللتان فكت عنهما القيود تؤلمانه. وكانت حمى على قدر من القوة تَهِيجُ أعضاءه. وتملكه غثيان شديد فنهض ليتقيّأ.

على هذه الصورة حصل إدريس على تعميد... الدم. كان التلاميذ ما يزالون متحلقين وكان سي عبد السلام يتهيأ بعد أن أسند الرحيمة إلى زاوية في المسْيِد، لاستنشاق قبضته من التبغ، في هدوء.

***

تبغ النُّشُوقِ ملذة من ملذات الجبل. والطبقة الميسورة تجيز لنفسها، من دون ملامة

ضمير، وهي التي تركت استهلاك الكيف لعامة الناس، هذا العيب الصغير.

ومن جهة أخرى فإن ضرره محدود. وإذا غضضنا النظر عن خدش الجمالية وعادة العطس المستهجنة التي لا يعود في إمكان المرء أن يتخلص منها، فإنه ليس في عملية حشو المنخرين بكمية من التبغ المدقوق المعطر بأفضل أشذية الغابات شيء يستدعي الملامة. والأخلاق لا تستاء من ذلك. ومن النساء اللائي يتتمين، فلنقل، إلى نخبة البلد الاجتماعية من لا يرفضن تعاطيه في شغف دال على سذاجة مؤثرة. وبالمقابل فإن الكيف هو آفة البلد. إنه النظير الشمال الأفريقي للحشيش المصري والأفيون الصيني والأفسنتين الفرنسي والفودكا الروسية والكوكايين العالمية. والمخدرات، في كل مكان، وسواء أشربت أم دخّنت أم مضغت أم حقّنت تتساوى. ومع ذلك ففي التبليد درجات. والاختلاف بين السّيدر والأفسنتين يناظر، مع الفارق، الاختلاف بين التنفيحة والكيف. ذلك أن الكيف الذي يتكون من خليط حبات القنّب الهندي ذات الخصائص المنوّمة القوية وأوراق التبغ التي تمدّها بالشذا، مخدّر مقيت. ومن يتعلق به فهو، بالقوة، كائن لا أمل في شفائه. إنه، وهو المرشّح للسلّ المعرّض، دوريّا، لسورات الهذيان، يهدم، منذ وقت مبكّر، قواه وصحّته.

والكيف يدخّن بواسطة البيبة. والبيبة المرّاكشية، أي السبسي، هي غليون هندي يتراوح طوله بين عشرين وثلاثين سنتيمترا. ويعلو الغليون المقدود من خشب الأرز أو الجوز أو بلوط الخَلَنْجِ، أحيانا، مَحرق تبغ من طين مشوي محمر. والسبسي هو، في الآن نفسه، ماعون الشغوف بالكيف وصديقه. ولهذا السبب غالبا ما يمثل السبسي ثروة صغيرة.

والسبسي الذي تطوقه خيوط من الفضة طليت بطلاء خزفي يحمل سليسلات كثيرة

من المعدن ذاته تربط طرفي الساق. ومن هذه السليسلات تتدلى حُلَيَّات قديمة وقطع نقود من كل بلاد الأرض منها ما هو حري، بالتأكيد، بأن يثير غبطة علماء المسكوكات وأحجارُ ياقوت أحمر وزمرد غالي الثمن وأحجارُ عَيْنِ الهِرّ ومسامير من العنبر مزخرفةُ الرأس وأحيانا قطعةٌ ذهبية وسَكِّينٌ بال رسمت عليه طغراء ذاك الخليفة التركي ودَبْلُونٌ عليه صورة ملك من ملوك أسبانيا وجنيه يحمل تاريخ ضرب سكة أحد ملوك بيت هانوفر.

على أن الكيف لا يفتك فتكا ذريعا إلا بالفئات الفقيرة في المدن وفي عدد قليل من القبائل. فالعامة، كما هو الشأن في كل مكان، هي التي تستهلكه وتتأذى منه. ومن سوء حظ الجبل أنه عرف هذه العاهة على الرغم من أن الريف المجاور يكاد لا يعرفها. أما القبائل الأخرى فهي لم تصب بها بعد. ولكن في إمكان المرء أن يكون على يقين من أن مراكش مازالت بسبب احتكار إنتاج الكيف وبيعه اللذين أقرتهما فرنسا بواسطة إقامتها العامة واللذين يؤمنان لها أرباحا مجزية، بعيدة عن التخلص من هذه العاهة الاجتماعية.

إنّ استهلاك تبغ النشوق أقل خطرا. ويحصل عليه بسحق أوراق التبغ التي تنتشر زراعته في الجبل انتشارا كثيرا بعد قطفها ونشرها بعض الوقت على سقوف أكواخ القش حيث يعجل أوار شمس المتوسط بتجفيفها. وهي تدق، بعد ذلك، في أجران من الحجر.

ويجمع المسحوق الحاصل المغربل في بسط بيضاء رفيعة وتضاف إليه أعشاب معطرة مجففة مسحوقة، هي أيضا، أو مواد أخرى عطرية مثل المسك الذي تعد رائحته المدوخة من أفضل الروائح المستحسنة. ويدق كل هذا، مرة ثانية ثم يصر في أقماع ورقية ترتب في علب حماية له من فعل الحرارة والرطوبة المذيب.

ولناشق السعوط الذي يحترم نفسه مسعطه مثلما أن للمدخن سبسيّه. والمسعط نوعان: القصبة والجوزة. والأولى، مثلما يدل على ذلك اسمها العربي، أنبوب من القصب يتراوح طوله بين عشرة سنتمترات واثني عشر سنتيمترا مجهز بسدادة من الفلين أو، ببساطة، بقطعة قطن مندوف محزومة. إنه ماعون الفقراء أو الهواة الفاترين شيئا ما. وناشق السعوط الذي يستعمل القصبة لا يحظى، بين أمثاله، بالكثير من التقدير. ويسمح في الجبل حيث يعد الرخاء استثناء، بخرق هذه القاعدة. والناس، جميعهم تقريبا، يستعملون القصبة.

أما الجوزة فهي أكثر غلاء وأكثر أناقة وأكثر ارستقراطية. إنها، وهي التي اقتطعت من أخشاب نبيلة، تتطلب عملية نجارة أو صياغة من الدرجة الأولى. وهي، في مقابل ذلك، تمد مالكها بشعور بالفخر مشروع. على أن هذا الشعور مشروط بجودة الخشب ومهارة الصنعة.

كان سي عبد السلام يملك جوزة أكسبته، أكثر بكثير مما أكسبته خصاله البيداغوجية وامتلاك الرحيمة، شهرة تمتد إلى عشرة فراسخ في جميع الجهات. فلقد صنعها، بناء على طلبه، أحد النجارين في فاس عندما ذهب للدراسة في القرويين. لقد صعد، قبل أن يذهب إلى العاصمة، حتى قمة تيزران. وهناك، وبعد أن شق له طريقا في أكاليل الثلج الأخيرة التي كانت تغطي الذروة، قطع، بمساعدة أحد القرويين، فرعا من واحدة من الصنوبريات الضخمة التي كانت فَنَاَدَاتُها، تَفْرَعُ في هذا المكان في الزمن الذي مر فيه حنبعل غير بعيد من هنا قبل حوالي عشرين قرنا. ومن الفرع المبتور الملقى على الثلج اقتطع حطيبة تَلَوَّنَ شكيرها بازرقاق دائري. وعندما وصل إلى فاس، اقتيد إلى نجار قريب من باب السجمة حيث كان نقاشو خشب مسنون، كلهم منحدرون من الصناع المهاجرين سابقا من إسبانيا، يعالجون الأرز والأكاجة

والآبنوس فسلم واحدا منهم قطعة الأرز المقتطعة من لحم الشجرة الألفية المختلج. وفي مقابل ريال حسني واحد قدم له الآبنوسي، في أقل من ثلاثة أيام، معجزة صغيرة في الجمال سيذهب بها إلى صانع مزخرف في الدوح لإتمام العمل فيها.

لقد طليت الجوزة، وهي ذات شكل بيضوي وشبيهة بجوز صنوبر ذي جُولٍ محدّب الوسط ومحاطة بأقواس متراكزة، بادئ ذي بدء، بطبقة خفيفة من الطلاء الخزفي الأسود أكسبها إشعاعا انعكاسيا جميلا. ولقد غطى الصائغ، وهو تشيليني مراكشي حقيقي، الرأسَ بسلسلة فضية تغطي جزءها الأعلى حول العنق وتزخرفها زخارف ذات خطوط متعرجة غاية في كمال الصنع. ويعلو العنقَ مسمار من الفضة ذو سليسلات تقوم مقام القنية. وفوق القنية زهيرة صغيرة مثلثة القُدّةَ طلب سي عبد السلام أن ترصع بثلاثة ألْعَالٍ صغيرة.

كان سي عبد السلام، دائما، يحمل جوزته ملفوفة في منديل كبير أحمر رسمت عليه زهور زرقاء وخضراء، كان يضعها في أحد جيوب زعبولته أي هذا الخرج الطويل من الجلد اللين ذي الأحمال المتدلية الذي يلبسه كل جبلي والذي يستعمله، في الآن نفسه، مستودعا ومخزن مؤونة. إضافة إليها تحتوي علبةٌ صغيرة من الجوز (إذ أن سي عبد السلام كان متعلقا بأخلاق سيباريس) عطورا متنوعة: مثل لبان جاوة والصندل والمسك والشب مع مُجْمَرَةٍ جدّ صغيرة يحرق فيها، بين الفينة والفينة قبضة من البخور. فكان يمرر، عندئذ، جوزته فوق الدخان، وقد تاه بصره في أحلام شهوة تكاد أن تكون دينية واشرأب منخاره تماما مثلما يفعل ابن آوى عندما يمر على مَشَمٍّ منه نسيم عليل خالطته رائحة طريدة غير مرئية.

وخلافا للأوروبي الذي ينشق ممتصا قبضته من التبغ يتصرف سي عبد السلام، مغربية منه، بطريقة مغايرة تماما. فهو يبدأ بإخراج منديله من الزعبولة ويبسطه

ويتناول الجوزة بحيطة جديرة بعاشق حنون ويمسحها بتمهل بمنديل وكأنه يبتغي أن يزيد من مظهرها البراق. كان وجهه وهو يتربع على البورياء أو على الدكانة جاسا مسعطه يبدو على هيئة وجه ناسك مجذوب يقف أمام بعض الإيقونات المعجزة فيحمر خداه الشاحبان.

كان يسحب الأنبوبة ويرد كمّ جلابته الأيسر ويذر من المعطس المقلوب الذي أصبحت مؤخرته في الهواء ظاهر يده الممتدة وقد رفع إبهامها وبسطت سبابتها أفقيا وعطفت بقية الأصابع نحو الراحة على غرار إشارة موجهة إلى الصم البكم. وعندما يكون قد ملأ بالتبغ الحيز بين المعصم وآخر سُلَامِيٍّ في السبابة، يضع سي عبد السلام الجوزة على المنديل ويكّون، بخنصر اليد اليمنى، جَشَمَةً صغيرة يتراوح طولها بين خمسة وستة سنتيمترات ولكنها تحوي لا أقل من أربعة إلى خمسة غرامات من التبغ. ثم يرفع اليد اليسرى إلى مستوى الصدر. وعندئذ يتحول لون الوجه الأرجواني إلى لون قرمزي فاقع ويغشى البصر بفعل البخور وتسيل دموع على طول الخدين (مما يبكي الأسمر، أيضا) وترتجف الشفتان وتعلن الفم المنفرجة عن شهوانية لا تتناسب مع الأنف الأفطس التعيس المزروع في وجه الملاك المتمرد هذا. وينزل سي عبد السلام، عندئذ، وهو منبسط، الأنف على اليد ويُسْفِط بالمنخر الأيمن في غطيط شبيه بغطيط ضَيْوَنٍ عجوز يستريح بعد مغامراته الليلية، نصف الجشمة ويقلب وجهه ليقذف، بسفطة جديدة، ببقية التبغ إلى قعر المنخر الأيسر. بعد ذلك يركز نظره على حفل الأطفال فتشيع ابتسامة خفيفة دالة على مستوى الغبطة الذي بلغه الجذل في فكيه. لا شك أنه كان أيضا، إذا ما حكمنا عليه من خلال حالة الخدرة التي تلفه بصمت النواويس، يحلق في عالم من الغبطة والنعيم وفي النيرفانا.

كان التلاميذ يراقبونه وكان الأسمر يتابع، ويداه حول ركبتيه، تحولات سحنة معلمه بفضول شيطان مكبّل. كان ذلك يفتنه. وعندما يستحوذ سي عبد السلام، بعد

نزوله من الجنة، على المنديل الأحمر ليجفف عرق وجهه، كان الأسمر هو الذي يطلق عطسة صاخبة تبهج الأولاد وتفر منها عصافير الدُّورِّي الحاطة على حافة العوارض. ذلك أن الفقيه، وهو العريق المحنك في أخوية فرسان البودرة السمراء، لا يعطس بتاتا. وجهابذة ناشقي السعوط يتخلون، بطيبة خاطر، عن هذه المظاهر المنخرية للجهلة والمبتدئين.

على أن الفقيه لا ينشق السعوط إلا عندما يضطرب مزاجه إذ كان الهدوء يبقيه في رزانة ربانية. ولهذا السبب التجأ، بعد أن ضرب إدريس ضربا شديدا متواترا إلى الدكانة. وفي حين كان الأسمر يتحسس حَدَبَتَيْه والأطفال يدلكون رجلي إدريس طلب سي عبد السلام، في الحال، نجدة جوزته.

***

يتعاطى سي عبد السلام، غالبا، بين درسين ومن دون أن يغادر التلاميذ القسم، الخياطة، أو إذا شئنا، صنع الجلابيات والقشابيات. وليس يمكن لفقيه جبلي، إن لم يجمع عددا هائلا من المهن، أن يتجاسر فيسعى إلى الحصول على هذه الوظيفة. إنه قيم منزل حقيقي. ولذلك عليه أن يجمع عددا كبيرا من المعارف التي ترغم الجاهل على ألا يساومه البتة في ضريبة الإعجاب الصادق. كان سي عبد السلام معلم مدرسة وخياطا وبرادعيا وجزارا. وكان حائزا، في علم النبات وفي الطب وعلم البيطرة على معارف مثيرة للاهتمام. صحيح أن عياداته يمكن أن تقود إلى الجبانة مثلما يمكن أن تقود إلى أسفل شجرة الخروب العجوز التي يقوم ظلها مقام مكان النقاهة بالنسبة إلى المرضى المتماثلين إلى الشفاء. ولكن لا أحد يبلغ به الأمر إلى حد الاعتراض على مواهبه العلاجية. لم يكن تشخيصه المرض، طبعا، صائبا دائما. وكذلك علمه التشريحي. كانت يداه تتحسسان المِعى عندما يشتكي المريض من المعدة أو

الرئتين عندما يكون القلب هو الذي يبدي أمارات ضعف. وكان يعالج النزف بالفصد. أما أنواع الصداع فلا يذهب بها في نظره، غير كَيٍّ صارم للراسِلَيْن. ويتحسن الأمر عندما يتعلق بتمشية البطن. ذلك أن سي عبد السلام اهتم، في فاس، بدراسات ابن البيطار وعرف بأنه كان طويل الباع في علم المفردات. كان يوم الجمعة، وهو عطلة، يجول في رفقة عدد من التلاميذ (وكان الأسمر وممتلئ الخدين اللذان يعرفان حق المعرفة الطوبوغرافيا الدغلية في عدادهم) عبر الجبال، شديد الانتباه، يقطف ويصنف عددا ضخما من النباتات التي يحسن تقدير خصائصها الإمساكية والمسهلة والمسكنة. وتضم قائمته الصيدلية صنفا كاملا من المخدرات والإكسيرات التي يعلم الله وحده وهو وَصْفَتَهَا.

وهو، باعتباره جراحا، نسيج وحده في معالجة العظام المنخلعة أو المنكسرة. ويذكر الناس، في جميع الجهات، عدد الظنابيب والتَرْقُوات التي أعادها إلى حالها الأولى. وتتميز طريقته في علاج الأسنان بالشدة. آه. لا. انه لا لجوء إلى كلاّبة الأسنان ولا إلى طرق التبنيج. كانت هناك كتيفات قديمة نشلها بعض لئام الأطفال من بيطار القرية مغطاة بالصدأ والدم معلقة باستمرار في جدار غرفته، فوق باقول يحوي عددا لا يستهان به من الأضراس والأنياب. وعندما يحضر المعالج في القسم يرسل الفقيه من يحضرها.

وبعد أن يجلس المريض ويتأكد من السن المُتَسَوِّسة يولج ملقطي السرطان الحديدي الضخم الصغيرين في فكي التعس الذي يحدق، وقد نسي فجأة مرضه، بعينين مذهولتين في هذا المطبّب الممارس الغريب. وما إن ينطبق فرعا الأداة على السن حتى يقوس سي عبد السلام، بقوة، ذراعه ويبرز الكتيفات ترافقها صرخة المريض والدم الذي ينبجس من النُّخْرُوِب المفرغ، وفي طرفها سن يعرضها الفقيه في فخار بَاسِمٍ على الصبية المنذهلين.

وأحيانا يخطئ سي عبد السلام السن المريضة ويكون، وقد بضع على وجه الخطأ، قد قلع، ببساطة تامة، ضرسا رائعة لا تحمل أي أثر للتسوّس. انه لا بد، عندئذ، من تكرار العملية. وليس للزبون أن يغتاظ لأمر تافه مثل هذا فسي عبد السلام حريص في هذا الشأن على سمعته. وعند أقل مقاومة يمسك التلاميذ، نزولا عند إشارة المعلم، بالمريض ويفتحون فكيه وكأنه تمساح صغير السن اصطيد في البحيرة يجبر على ابتلاع أكلته اليومية. ويتحقق سي عبد السلام، بتحسس سبابته السنين المحيطتين بالنخروب الدامي، من السن الأكثر زرقة ويمسك بها بين الملقطين اللذين يقطران دما وأكسيدا وبشدة خاطفة يطيح بها في الهواء وسط سيل من الرشاش المتورد فيتراخى المسكين، وقد أطار الألم عقله، على الأرض. وعندئذ يسرع الفقيه بإحضار غلاية صغيرة ينصبها على موقد تحترق فيه قضبان كَرْم. وما إن يبدأ الماء في الغليان حتى يخرج من أدراج علبة قليلا من السعتر المزعفر ويحضر منه نقيعا يصبه في قدح يضيف إليه قدرا ضئيلا من مسحوق الكافور والشب فيتناول المعالج هذه النقاعة الباخرة ويمضمض فمه ثلاث مرات أو أربعا. ولهذه النقاعة، حسب بحوث طب سي عبد السلام التطبيقي، مزية توقيف النزيف والوقاية من كل انتفاخ في اللِثَّة. فهي في نفس الآن، على ما يبدو، مصرّف دم ومُطَهِّر جراثيم. غير أن أكسيد الملقطين يفسد الأمر على كل هذا التطبيب المتهافت.

***

اشتهر سي عبد السلام بوصفه جزارا، بأنه يستعمل الشفرة ببراعة كبيرة. وعملية السيطرة على كبش أو تيس وتقييدهما وتمرير حد الشفرة على الحلقوم لا تستغرق إلا دقيقة سريعة. كان، يعلق الحيوان، مستعينا في ذلك بالأسمر الحاضر في كل مكان باستثناء الاشتغال بلوحته، على أولى شجرة تين تصادفه. وفي أقل من ربع ساعة

يكون قد سلخه وأفرغ كرشه وقصبه وسلمه ورديّ اللون داميا منتفخا لحما وشحوما شهية لأول طباخ مكلف بالشيّ أو بالطهو في الهواء الطلق. وهو يقبض إجباريا ثمنا لذلك الرأس والقوائم والجلد. وله الحق، أيضا، في عشاءين مقتطعين من الزردة.

ولكن سي عبد السلام لا يعرف كيف يبين حقا عن مواهبه العلمية إلا بوصفه خياطا خاصة. والثمن الذي يقبضه من خياطة الجلابات والسلاهم (وهذا هو الاسم المراكشي للبرنوس الجزائري) يمثل أهم موارده. هذا الصنف من اللباس يسمى في الجبل، البُرْشمَال. وهذه المهنة اليدوية تدخل ضمن مجموع الدروس التي يتلقاها الطلبة. وعلى المرء ألا يتعجب من ذلك. فكثير من طلبة السوربون لم يكونوا، في ذلك الزمن البعيد الذي طغت فيه روح الأكليروس في باريس ما قبل النهضة، يفعلون غير هذا لضمان خبزهم المنقوع اليومي.

كان سي عبد السلام، في القسم، يصنع جلاباته. والجلابة يمكن أن تصنع من الصوف أو من قماش قطني أو من الحرير. والمراكشي حائك ماهر. ونول نسيجه، مهما كان بدائيا، ينتج قماشا يتصف بجودة لا تمكن، على الإطلاق، الاستهانة بها. وفي القبائل، ومن ضمنها الجبل، ما زال الناس يستعملون، في النسيج، المغزل. والمرأة هي التي تغزل الصوف، بواسطة عمود مغزلي الشكل، بعد أن يغسل ويخلص من وَشَله. وهي تنجح في إنتاج قماش متين صميم يباع في السوق أو يستعمل في البيت. هذه الجلابات بيضاء أو سوداء أو ذات خيوط مشبوكة تشكل رسوما جغرافية.

ويعمد سي عبد السلام، وهو خياط الدشرة الأول، عندما يهم بخياطة الجلابة إلى قياس قامة الحريف، قبل كل شيء، مستعملا الذراع والشبر. إن هذه ليست بطريقة حسابية دقيقة ولكن سي عبد السلام لا يخطئ البتة قيد بوصة. ومن ناحية أخرى كان غندور القرية، دائما، راضيا عن نخسات إبره. وكان لباس واحدة من هذه

الجلابات الجميلة السوداء المحشاة بأشرطة مرشقة وبزهور من الحرير، يبعث، حقا، على الغبطة. كان سي عبد السلام، بعد أن يفصل قماش الصوف، يجلس على الدكانة ويشبك ساقيه وينادي الأسمر أو تلميذا آخر ويعهد إليه بتثبيت البورشمال. وهو يباشر عمله على النحو التالي. كان يغرز في مخدته دزينة من الإبر التي خرقت عيونها خيوط طويلة من كتان أبيض تتآتى من بكرة صغيرة وضعت على جانبيه ثم يتناول بكرات أخرى من خيوط الصوف الملون اشتراها من بائع جوال يهودي كان يتلقاها من مزود من تطوان ويحلها، قاطعا خيطين أو ثلاثة أو أربعة خيوط متساوية الطول مختلفة الألوان مسويا بينها ويربط في أطرافها جديلة من سعف النخل الجاف أو قبشة من السوحر يكون على من يجلس قبالته أن يجيز بينها أصابعه. وفي آخر الأمر يثبت في الجلابة أطراف الخيط المتقابلة ويشرع في عمله. وفي كل نخسة كان التلميذ الذي يمسك بالأقواس المكونة من جديلة سعف النخل أو قبشة السوحر، يحولها بالأصابع من يد إلى يد أخرى. وهكذا يبدأ الفقيه بتثبيت أجزاء الجلابة ثم يخط خطوطا في أهداب البرنس في الأكمام. وبحكم هذا التقاطع الموقع ترسم الخياطة سليكات تتراوح غلاظتها بين سنتيمتر وسنتيمترين. هكذا يتم صنع البرشمال.

وعندما يتم صنع البرشمال يحضر سي عبد السلام علبة فيها خيطيات من الحرير ذات ألوان فاقعة: حمراء وخضراء وبرتقالية وصفراء أو زرقاء ويثبت على الخطوط المتراكبة باقات صغيرة تكسب الجلابة من بعيد رونقا جميلا من البرقشات اللماعة. هذه الجلابة قصيرة. فالحياة، في الجبل، تقتضي أن لا تتجاوز إلا نادرا الركبتين. ولونها يقترب من فوارق المروج ومن ريش ديك الخلنج وهو هذا الديك الذي اختير في عصور المغرب القديمة الوثنية رمزا للجنس. ويلبس الفتى الجبلي، فوق القشابية والتشامير والسروال، هذه الجلابة ذات الزركشات اللامعة. وتتدلى تحتها الزعبولة بعفرة جدائلها الجلدية المقصوصة ويغطي رجليه زوج بلغة مضاعفة النعل ذات اصفرار فاتح صنعت من جلد محبب محيطا رأسه بخيط متقلدا في هيئة عسكرية

البندقية الحجرية أو بندقية حرب السبعين أو قربينة المانشستر: إن هذا هو غندورنا قاطع الأدغال مخترق الأجراف كأنه قنطورس شاب أفلت من عرينه.

***

يصفف التلاميذ ألواحهم، بعد انتهاء الدرس، في مشكاة في المْسِيد فلا فروض عليهم في المنزل. ومن الممكن جدا استظهار ما حفظ من السور في المدرسة أو، عند الاجتماع، حول الفقيه، بعد صلاة المغرب، ترتيل فقرات طويلة من القرآن مراعين توقيع المقاطع بتغيير فاتر في طبقات الصوت. ويعود التلميذ الذي قضى ليلته في استظهار السورة التي حفظها بالأمس، في الصباح، إلى مكانه في الحلقة ويعيد، واللوحة على الركبتين، سرا، سلسلة الآيات. وعندما يتأكد من أن الدرس حفظ جيدا، يقترب من الفقيه ويستظهر، في صمت عام، بسرعة، السورة. فإذا نال الاستظهار رضاء سي عبد السلام وإذا لم ترتكب أخطاء نطق ولا وقفات جد طويلة، فإنه يُهَنِّي، التلميذ ويطلب منه محو لوحته وإلا فإن كل شيء يعاد ويتلقى التلميذ، جزاء على ذلك، ضربات على الظهر متصلة قوية.

وعندما يتلقى التلميذ أمرا بغسل اللوحة يذهب إلى ساحة المسجد الصغيرة ويملأ من البئر التي توجد فيها سطل ماء يغطس فيه لوحته ويمسحها بقطعة من الصلصال ويعرضها للشمس أو للهب نار من التبن حسب الفصول. وبمجرد أن تجف اللوحة يسلمها التلميذ الفقيه الذي يكشطها ليذهب عنها الغبار ويخط عليها بظفر إبهامه خمسة عشر خطا أفقيا على الوجهين ثم يشرع في إملاء سورة جديدة. عندئذ يخرج التلميذ من جيبه دواة صغيرة من البلور سدت بقطعة خرقة أو بقصاصة من الورق ويتناول قلمه ويتهيأ للكتابة. وعلى المعلم أن يهجو الحروف. ذلك انه من الصعب على طفل الكتاب، حتى لو حفظ القرآن عشر مرات، أن يكوّن فكرة عن الرسم إذ لا

يوجد وجه شبه بين المْسِيد والسنوات الأولى في مدرسة ابتدائية حديثة. ولن يبدأ التلميذ الجبلي بالتدرب على اكتشاف خبايا النحو وتركيب الجمل إلا في وقت لاحق عندما يلتحق بجامعة القرويين ثم يلتحق، بعد ذلك إن شاء الله (وهذا أمر نادر) وإن توفرت الإمكانات، بتونس أو بالقاهرة لإنهاء وإتمام تعليم ابتدأ على هذا النحو السيئ جدا.

ويحصل على الحبر بهذه الطريقة: يحرق شيء من الصوف حتى احتراقه التام وتسحق الألياف المسودة بعناية ويخلط المسحوق المستخرج منها بعد ذلك بالماء الفاتر وتسكب لاحقا في قوارير أو أوعية صغيرة من الصفيح حيث يحتفظ بها طيلة بعض الوقت بعد أن تحرك جيدا. هذه الطريقة القديمة شيئا ما تمكن من الحصول على حبر أصفر عسلي يستعمل للكتابة على الألواح وكذلك على الورق.

أما ريشة القصب فهي نوع لا يكاد يقل ملاءمة عن ريشة الأوز التي مكنت رابلي وفولتير من كتابة أعمالهما الرائعة. ويقصّ سيدي عبد السلام من قصبة جافة أقلامه الطويلة ويقرض أطرافها لتتخذ بدقة شكل الريشة الفولاذية المثلثة أو الإصبعية. وما أن يتم تلميذ حفظ السورة حتى يلزمه سي عبد السلام بالخاتمة الصغيرة. وهو لذلك يتناول قلمه ويرسم على اللوحة نجمة أو على الأصح خاتم سليمان الذي أصبحت دمغته شارة المخزن الرسمية. ويشب، بعد ذلك، بإصبع موفق الخاتم بكمية من الدوائر والمعيّنات وذلك يعني أن السورة قد حفظت. وتختتم نهاية حزب بخاتمة متوسطة. وهذا ما يدعو أولياء التلاميذ إلى إقامة مأدبة لا مفر من أن يحضرها كل جيش الطفيليين الذين يترددون على المسجد. ولسي عبد السلام، ومن دون أن تنص على ذلك شروط العقد بشكل صريح، الحق في بعض المكافآت العينية الإضافية من الزبدة والزيت والبيض والشاي والسكر أو الشموع. وإذا كان أَبَوَا الفائز من الأغنياء فإنه ينضاف إلى الهِبات الاعتيادية، في هذه

المناسبة جدي أو زوجا دجاج أو قماش صوفي. أما إذا كان التلميذ، على العكس من ذلك، فقيرا فإن المعلم والتلاميذ يشتركون، بدافع من تقاليد التضامن المرعية في بلاد المغرب، في الاحتفال بالفائز المحتاج. وحتى متطفّلو الحي يأتون إلى المأدبة، وهذه عادة مؤثرة، وأيديهم محملة بالهدايا.

ويحدث، أحيانا، أن ينجح الأسمر في امتحاناته. إن هذا لنادر ولكنه قد يحدث في نهاية الأمر. ذلك أنه، وهو المولع بالفلسفة سواء ما كان منها براغماتيا أو تأمليا، لم يكن ينظر إلى التربية غير نظرة ازدراء متعال. لقد ولد، وهو ابن تيزران، ليعجب بذرى الجبال العالية وتحليق العقبان المهيب، هذه العقبان الجَسُورة المتعَاظِمَة رمز اللانهاية. ولكنه يبذل، عندما لا يشرد تفكيره بعيدا، ما في وسعه أن يبذل وخاصة عندما تتوقف عيناه اللتان لا تكفان عن الطواف طواف المشائين، على هذا العزيز ممتلئ الحذين ويشاهد البرنس الصغير وقد استغرق في نهاية المطاف في كلام اللوحة المبهم.

وتبلغ المأدبات التي تقام تكريما للأسمر درجة قصف حقيقي تسود فيه ِمتْعِيَّةٌ حقيقية فيأكل المرء بشره. لقد كان الناس يحبونه لأنه كان يشبه إلى حد ما وكيل إدارة المسجد ومضحك الحي ومساعد الفقيه ويميلون شيئا ما إلى نسيان هرجاته: فتنفخ الحياة في الزردة وتبلغ روح الدعابة مستوى غير معهود. وتنتشر التورية والغمز بين صفوف المولمين. وبما أن الناس في الجبل يتوفرون على رهافة في الذهن فإنهم يطلقون لأهوائهم العنان فتسود البشاشة إلى النهاية.

وعندما تنتهي الوليمة الفاخرة يتوزع الجمع في الحدائق حاملين المواقد وأطباق الشاي. وفي حين تدور طاسات صغيرة ينبعث منها بخور النعناع والقرنفل أو الليمون في كل الجهات، يستدر موسيقيٌّ مرتجل (والجبلي، وهو ابن عم الأندلسي، موسيقي

جبلة) من قمبره، أنغام موسيقى ساحرة. فتنبعث شكاوى وأناشيد وأغان عاطفية صيغت على نحو حزين عذب من هذين الوترين اللذين داعبتهما يَدُ هَاو لا تنقصه الموهبة. إن طبيعته لتعبر عن ذاتها وهو أمر شبيه بسنفونية بويسون. هي موسيقى من دون علامات موسيقية ولكنها على جمال آخذ. وهي لا تخضع لنظام نغمي ولكنها ساحرة بتلقائيتها وباستحضار تجارب حزينة عيشت أو تجارب بهجة دائمة. آه، لو مر موزارت من هنا! إنه كان يمكنه، بالتأكيد، أن يلتقط في هذه الترانيم الحية عناصر تستأهل أن تدرج في هللويا ثانية. إن المأدبة ستتواصل، من دون أن تفقد شيئا من هذه الأدفاق التي غالبا ما تتحول إلى مآدب زحلية الساعة تلو الأخرى. ويدور السبسي بين الأفواه نافثا في ضوء القمر نفحات تتلاشى حلزونيا وذلك حتى مطلع سحر باهت ينقض من جهة البحر ليعلن عن الشروق فتضطرم السماوات وتلوّن تشكيلة من الألوان لا تعد ولا تحصى، عوضا عن النجوم الشاحبة، غابة النيران المتوهجة. وعندئذ تطلق القُبّره بوقسانها الصباحي في حين يبث الشحرور والسمنة أغنياتهما بين عطور الغابة الممتزجة بطل الفجر.

إن الجبل يستيقظ.

حوار المصلى

هذا هو الوسط الذي افتتح فيه إدريس حياته. كان كل ما حفظه في الثانية عشرة بعد أن تردد على المْسِيد منذ أربع أو خمس سنوات لا يزيد عن استظهار القرآن من دون أن يفهم منه شيئا. إنه الببّغائيّة المبكّرة. وعندما غادر المدرسة، بعد الفلقة، لم يعد عنده ما يضيف إلى زاده المكتسب. ومن حسن الحظ أن أب إدريس كان ذكيا جدا موهوبا قد أكثر من السفر. وتهيؤ مثل هذا سمح لإدريس بأن يسد جزءًا من الثغرات الواسعة في تعليمه. وفعلا فلقد كان الحاج علال بن حازم على مستوى ثقافي أعلى من مستوى مواطنيه ولو أن الذكاء، في الجبل، لا يقتضي غير قليل من التربية حتى تبرز إمكاناته الوافرة. فلقد كان إدريس ينتمي إلى بلد لعب دوره في الماضي وسيضطلع، أكيدا، بهذا الدور في المستقبل. ولا يدل كسوف هذه الأزمنة الأخيرة الذي لم ينجح، مع ذلك، في أن يذهب بشجاعته وصلابته، على الإطلاق، إلا على هذا الوهن العابر الذي يصعب حتى على الأجساد الجد مكينة أن تتفاداه. كان الحاج علاّل، هو أيضا، فقيها. وكان، بوصفه فقيها وابنا للجبل، يجيد، تقريبا، مجموع المهن الضرورية للصراع من أجل الحياة في بلد لم تلامسه، بعد، الحضارة الحديثة بقدر كاف. كان خياطا وبناء وجزارا ونجارا ومبيطرا وتاجرا. كان، أيضا، مثل سي عبد السلام، طبيبا وطبيب أسنان وعقاقيريا.

وكان، وهو الصيّاد الأصيل، مقدم الطائفة وشيخ الرماية الذي يبت أثناء تمارين الرماية في كل ما يحدث من نزاعات تتصل بالحياة العسكرية وفن الصيد في القبيلة. وكان يعرف أدق خبايا الجبل فلا غيل أو خيس أو فرج غابة أو ثِنْيَة شَجِرَة، لا شيء

من هذا أفلت من بحوث مدونته. كما أنه لا يوجد دغل أو وجار أو جحر لم يتعرض لتفتيشه وللتصنيف في ذاكرته الاستثنائية. وكان يستعمل، بمهارة لا شبيه لها، كل البنادق. وتتكون مجموعة أسلحته من موستيكي قديم هو تذكار عائلي يرقى إلى أواخر الفترة السعدية ومن لوفوشو ذي طلقتين ومن قرابينة موزر كانت مستعملة في الجيش الإسباني. وقد حصل، فيما بعد، على مسدس لوبيل وعلى مسدس أوتوماتيكي مما أكسبه مزيدا من التقدير عند مواطنيه الأغنياء شجاعة ومهارة الفقراء سلاحا ومالا.

لقد سافر الحاج علاّل كثيرا فحج إلى مكة ثلاث مرات وعرف مصر وفلسطين وسوريا. وباستثناء رحلة واحدة كانت عن طريق البحر، كان عادة، يسلك الطرق البرية. ولذلك نفذ إلى خبايا جغرافية أفريقيا الشمالية. لقد استقر بعض الوقت في منطقة وهران بل إنه تزوج فيها امرأة أنجب منها أطفالا لم يعرفهم إدريس البتة. كان يعرف بلاد القبائل وسطيف وقسنطينة. وقد درس القرآن في واد الزناتي وسحرته تونس طيلة سنة كاملة. ثم إنه عاد إلى الجبل بتأثير هذا القلق الشمال أفريقي الخاص بامتياز: الحنين إلى الوطن. وفي الفترة التي كان فيها إدريس يتابع، كئيبا حالما، دروس سي عبد السلام، عزم الحاج علال، مدفوعا دائما بشغف الترحال، على القيام بحجته الرابعة التي ستقوده، هذه المرة إلى القسطنطينية. فعاد إلى تونس أي إلى فاس البحر مثلما كان يسميها. ومن هناك تابع سيره إلى طرابلس ثم اجتاز برفقة مجموعة من الحجاج الشمال أفريقيين ذوي الربلات الفولاذية والأكتاف الهيرقلية سيرت وبلغ برقة ثم اجتاز في قافلة الجبل الأخضر وتوغل في صحاري برقة وبلغ مصر السفلى عن طريق ممرات بحيرة مريوط. ولقد كان الحاج علال يعرف هذه الطريق منذ فترة طويلة فكان يعلن، سلفا، عمّا فيها من محطات.

ظهرت الإسكندرية فدخلتها القافلة من الغبّاري وبلغت، وهي تجانب أنهج الميناء،

رأس التين جوار مسجد سيدي عبد الله المغاوري الذي كان يتردد عليه منذ قرون حجاج بلاد المغرب، فأقام فيها الحاج علاّل أسبوعا زار أثناءه مسجدي البوصيري وأبي العباس. إلا أنه لم يظهر أمام قبريهما أي نوع من أنواع التقديس. لقد كان أب إدريس يقدر الحقائق التي يدعو إليها الإسلام حق قدرها ولكنه كان ينفر من كل أشكال التصوف. كان يؤدي الله ما لله ويقوم بواجبات العقيدة الخمسة وينحني، إذا تطلب الأمر ذلك، تقديرا لذكرى رواد الدين الكبار. ولكن إيمانه يقف عند هذا الحد. فالحاج علاّل سلفي ولكنه كان على سلفية عقلانية متنورة. هو لم يكن، بالتأكيد، قد قرأ أو سمع شيئا عن العقائد الخارجية ولا عن مناظرات علماء الكلام أو الاعتزال ولا عن أطروحات الإسلام الأول مثلما يستفاد من عقيدة ابن حنبل وشروح ابن تيمية. وفي مراكش حيث بلغت عبادة القديسين والدجل المتولد عن الأنساب الشريفيّة المزعومة أقصى ما يمكن أن يبلغا، يكاد الحاج علاّل لا يسمع شيئا عن عقيدة ابن تومرت الموحديّة. ومع ذلك فإنه، ومن دون أن يتعمق ولو قليلا في فنون الجدل هذه كان يلتقط، بذكاء، المعنى منها.

لقد أفاد الحاج علاّل جيدا من ضيافة المغاربة فكان يقضي كل يوم عند واحد منهم فيغدق عليه الطعام. وكان مسكنه مضمونا ودعوات مواطنيه لم تكن لتنقطع: مراكشيون من الجبل والسوس وتافلالت وجزائريون من منطقتي وهران والقبائل وتونسيون من تونس العاصمة وبلاد الساحل. لقد عرف الحاج علاّل، إذاك، جيدا ماذا يمكن أن تعنيه كلمة الوطن. فحيثما انحلت الروابط التي نسجها الدين إلى حد الانقطاع تماما تنامت قوة العلاقات الناشئة عن وحدة أرض النشأة تناميًا أصبح مع الزمن غير قابل للتلف بفضل تحفيز متولد من عظمة تأثير الأرض والوراثة. وفي الخارج، وحده، يتعلم المرء أحسن تعليم كيف يعرف بلاده، هذه الأرض العجوز حيث يرقد الأجداد وحيث يتلفظ اللسان الطليق بأول لفظ وحيث تلتقط العين أول ألوانها وحيث يشرع الدماغ، وقد بلغ النضج، في تفهم حبكة الأفراح والآلام التي

نسجت تاريخ العائلة الكبرى التي إليها ينتمي بكل ما في الجسد من ألياف وما في الروح من أوتار.

تجوّل الحاج علال في الإسكندرية برفقة واحد من مواطنيه من مراكش كان قد استقرّ في المدينة منذ سنوات طويلة. لقد أعجبه الميناء الكبير الذي كان، على الرغم من طابعه الكوسموبوليتي الغالب قد حافظ، مع ذلك، في عدد من أحيائه وضواحيه على مظهر المدينة الإسلامية والشرقية. لقد تسكع بمحاذاة الميناء الذي يؤدي، من قصر رأس التين، إلى كازينو أنفوشي القديم وكله إعجاب ببحر على زرقة لا تتبدل. وقد استغرق في التأمل وهو يقف أمام أطلال قائد باي التي تحافظ، بركام ردومها، على قدر من التاريخ المصري: آثار قذائف نيلسون وبرويز وقنابل سيمور.

كان المشهد العام يخطف بصر الناظر من ردوم الحصن المتوردة. ويكون الميناء والرصيف والإفريز دائرة واسعة. كانت عين الحاج علاّل تتابع خط الرصيف المقوس إلى التقاطع الذي يكشف ساحة محمد علي في شارع الرملة. وكان منحدر واقع بين صف من البناءات القديمة شيدت في القرن الأخير والرصيف يجانب أرضا عارية شاسعة يلطمها موج مضاعف: موج البحر وموج آخر، أكثر خطرا، هو موج المضاربة.

وتمتد من هذا المكان إلى سيدي جابر ومعهد فكتوريا سلسلة لا نهاية لها من الأحياء الأرستقراطية: فيلات غارقة في نسيج من الخضرة حيث تتخاصر، في تناغم مدهش، النباتات المتوسطية وأنواع النباتات الاستوائية وقصور مرمرية يقضي فيها يونانيون أثروا من تجارة القطن ومضاربات البورصة أياما سعيدة في جو من الرخاء لا يليق إلا قليلا جدا بأبطال هومير وخط مترصع من شطآن مطابقة لروح العصر ومقاه ومشارب جعة بذخة وهذه المحطات الرائعة التي ترن أسماؤها في الأذن وكأنها تود أن تؤكد كوسموبوليتية مدينة البطالسة الخالدة: الشاطبي وكامبوتشيزاري وباكوس

وبولكيلي وشوتز وقليمينوبولي وسيدي بشر وأبو قير. إنها نقطة التقاء المشرق بالغرب. إن لوتي، وهو يذهب إلى فيلي، لا يمكن أن يكون قد تنبّه جيدا لهذه المدينة. وقد يكون، لأنه كان غارقا في انطباعيته، صنفها، ببساطة، ضمن أشاكل المشرق. لم يتجه الحاج علاّل نحو الشاطئ ولكنه استدار نحو ساحة محمد علي. وبعد أن أجال طرفه، طويلا، في تمثال مؤسس العائلة الخديوية الخَيَّالِيّ تابع سيره نحو البورصة فسلك، برفقة دليله، وكان صموتا مثله، نهج شريف باشا وهو الشارع الرئيسي في المدينة حتى مفرق الطرق الذي يقطعه نهج روزيت ثم انحرفا، يمينا، ومرا تحت حصن كوم الدكة حيث يرفرف اليُونْيِنْ دجِاك[40] لصلاة العصر في المسجد المجاور للنبي دانييل.

عادا إلى البيت عند هبوط الليل فأقيمت ضيافة تكريما للحاج علال ورفاقه. ومثلما هي العادة كان الكسكسي بالخروف والشاي المنعنع موضع ترحاب. وقدم مزابي حاملا معه ملء سلة من الغْرَيْبَة. وأمتع سوسي من تيزنيت، ولد في مراكش، الحضور بأغان من البلد. كان يعزف على القمبري عزف موسيقي ماهر حتى إذا ما أخذ منه التعب تناول جزائري من بوزريعة كان عازف ماندولينة جيدا القمبري فإذا بأغان عاطفية لطيفة تلمسانية ومن الجزائر العاصمة، تلي، بدورها، أنغام فاس والرباط فيستولي الصمت على المكان، وتتجمد الرؤوس المعممة الملتحية. كان الأطلس يتدثر في مخمله اللؤلئي الزمردي. وكانت مدن المغرب المغبرة المضطرمة تتزوبع في الذكريات وكأنها همرات من حبور: أُمُّ الربيع والكتبية وسهول الحوز وفاس ومياه السبو المسكونة بالأرواح وغيضات تلمسان وبساتين المتيجة وأرواح جُرْجُرَة والجزائر البيضاء وتونس الخضراء ومنقبات الجنوب والواحات الخمس. إنها الصورة الوطنية جميعها التي تتجلى تدريجيا لأذهان غمرها سحر موسيقى تنقل في أنغامها فيضا عذبا

---

[40] عَلَم المملكة المتحدة.

من الحنين.

كانت الدموع تسيل على الوجوه السمراء وكان قسنطيني عجوز ذو لحية بيضاء سبق أن حارب في القرم وشارك في غارة مالاكوف واشتغل بصفة مراقب مساعد أثناء حفر قناة السويس واحتك بليسيبس وعرف الخديوي إسماعيل، يبكي بدموع حَرَّى. لقد تزوج من مصرية أنجب منها أطفالا جعلوا منه، هم بدورهم، جدا. ولكنه لم يتمكن البتة من نسيان وطنه الصغير المعلق على هيئة عش عقاب فوق مياه الرمل الصاخبة. لقد سبق أن هلك جيله فلم يتبق منه غير حطام أنهكه العمر ينتظر، في سلام البيت والمسجد، الساعة المحددة لزيارة الملك عزرائيل.

كان فيلالي، عجوز هو أيضا، ذو عينين حولاوين منزو، في البيت، يتابع الموسيقى خافضا رأسه إلى ركبتيه وقد حفر خديه مخْرٌ من الدموع. كانت سماته لا تخلو من نبالة. ولقد لخصت حياته البسيطة جدلا كاملا حول التاريخ الاستعماري في أفريقيا الشمالية فعبرت عما كان فيه من مظاهر الإكراه ووشت، ببلاغتها الحزينة، بالظروف الحالية المتولدة عن الغزو الأجنبي وعن استعمار المغرب. بدأ الفيلالي مع الحاج علال حديثا كان ينقطع ويتواصل حسب الوقفات الموسيقية. كان الاثنان، معا، مراكشيين، أحدهما من الشمال والآخر من الجنوب. وكان الاثنان، معا، قد عاشا في هذا الغرب الجزائري الذي أصبح عبارة عن مصب طبيعي لمراكش تزداد اكتظاظا بالسكان. وكانا، معا، قد عاشا هذه الحياة الاستثنائية التي تقرر أن تكون حياة الشمال الأفريقي. ومع أنهما كانا ينحدران، هما الاثنان أيضا، من القاع الشعبي، فإنهما أحسا بآثارها بنوع من الفهم الفطري.

لقد أمضى الفيلالي جزء كبيرا من حياته في البليدة حيث مكنته مواهبه، بوصفه بستانيا، من بعض اليسر. كان ابن قائد معية في جيش مولاي عبد الرحمان قتل على

ضفاف وادي إيسلي أثناء المعركة المشهورة، وكان قد عاش حياة على قدر من الصعوبة في تافلالت فنزح إلى فاس فوجدة فعين تيموشنت، ثم انتهى به الأمر إلى الاستقرار في سهل متيجة حيث اكترى بستان برتقال. هذه العملية لم تنجح لأن مالك الأرض، وهو قبائلي، كان محل إزعاج المكتب العربي في المنطقة الذي كان يحرص على أن يحصر ملكية الأرض في المستوطنين الآتين من كل زوايا أوروبا، وحدهم. وبما أن زراعة الحمضيات في المنطقة كانت تدر على المزارعين أرباحا طائلة فقد كان من البديهي أن يخلي المكان للمستوطن. وهذا الأمر يتناسق، من جهة أخرى، تماما، مع هذه السياسة الاستيطانية التي قامت عليها الهيمنة الفرنسية في شمال أفريقيا. وما كان يحدث في البليدة، كان يحدث، فضلا عن ذلك، في كل المغرب. ارتد الفيلالي، عندئذ، إلى زراعة البقول وإلى الغيطنة واكترى، مزارعة، قطعة أرض صغيرة من أسباني من أليكانت أرسى، حديثا، في أفريقيا وأصبح، بين عشية وضحاها، مواطنا فرنسيا يتمتع بكل حقوقه بفضل الورق المدموغ في ساحة الحكومة، مقابل عشرين فلسا. هذا الاسباني الذي أصبح مالك مربع من الأرض صغير من دون إجراءات مفرطة كان سكّيرا فرّ من اسبانيا بعد أن سرق بضعة الآلاف من البيزيتاس من مشغله. إنها ثروة صغيرة. وباستثناء قطعة الأرض التي حصل عليها بثمن زهيد وبأقساط دفع تمتد إلى استحقاقات طويلة الأجل تبخر ما تبقى من الخُلْسَة وراء زنك ماخورات البليدة والجزائر العاصمة. فأجر، وقد أصبح صفر اليدين، الفيلالي أرضه في الوقت الذي كان فيه، باعتباره مستوطنا صالحا وفرنسيا حديثا، يقضي وقته في التسكع في أزقة القصبة ويداه في جيبي بنطال مخملي قديم وعلى الرأس المتشعثة بوليرو ملطخ بالشحم والرجلان متفرعتان في زوج حذاء قماشي.

كانت زراعة البقول والزهور مجزية. وقد تمكن الفيلالي، وهو شغال ومقتصد على غرار المراكشي عموما، من أن يكون، بعد بعض الوقت، مبلغا هاما بما فيه الكفاية يسمح بشراء قطعة أرض الاسباني. أما هذا فقد غادر، بعد أسبوع من العربدة والمشاجرة

في محلات سيئة السمعة في الجزائر العاصمة وآخر قضاه في السجن، نهائيا، "وطنه الجديد". لقد عاد إلى بلده حاملا، مع تذكرة الإياب، زوج حذاء ضخم ومنديلا من الحرير ربع بالأحمر ودزينة من علب السجائر وِقرْطَ موز وعددا من الأوراق المالية من صنف العشرين فرنكا.

وفي البحر، وعندما أشرف المدرج الذي تنصب فوقه مدينة الجزائر مراقيها الرائعة على التواري، أخرج الاسباني شهادة تجنسه ومزقها تمزيقا وبصق عليها بعد أن أتى حركة فاحشة في اتجاه صورة المرأة البذارة التي تظهر على زخرف الطوابع البريدية الملصقة ورمى بسيل الورق من أعلى السفينة. أعاد الكافر بالنعمة، بعد أن أتم فعلته، البوليرو على جبهته وشخر بقوة وبصق، وهو يلتفت إلى المدينة المنبثقة من وراء ستار ضبابة، من جديد. ثم اتجه في خطى غير ثابتة وكأنه ما زال يخمر نبيذ عشية الأمس صوب كوثل السفينة القديمة العائدة به إلى اسبانيا. فبدا الأرعن لمن يراه عن كثب شبيها بشبح انفلت من رواية تهريجية من روايات السيد لويس برتراند.

نمّى الفيلالي، وكان يبذل جهدا شاقا ويربح مالا وفيرا، أرباحه وبدأ يتطلع إلى امتلاك عدد من الأراضي المُفَرَّزَة الملاصقة لبستانه. وكان مستوطنون قدموا من الأرياج من محبي باخوس مثل ناجي أليكانت يفكرون، هم أيضا، في بيع قطعة الأرض التي حصلوا عليها من الإدارة مجانا. لقد ثلثوا ثمنها. ولكن ذلك لم ينفر البستاني المراكشي الذي كان يرى أن للزراعة الكثيفة مستقبلا يبشر بخير جم. ولم يكن يوجد منافسون. ذلك أن طرق إعادة توزيع الأراضي القابلة للاستعمار التي تحددت على أساس من انتزاع الملكية من الجزائريين وعلى إعادة إعمار البلد بالفرنسيين كانت تتجنب المضاربة على الأرض عمدا. ولذلك فلا عقود ولا نقول إلا بموافقة الإدارة. وهي حازمة في هذا الأمر. وذلك لسبب بديهي. إن على الإدارة، وقد تقرر تحريم

إعادة بيع الأراضي إلى الجزائريين فعلا، إن لم يكن قانونا، أن تكون متيقظة بشكل خاص في ما يتعلق بهذه النقطة الأساسية. فلا يمكن التنازل عن أية قطعة أرض كانت من نصيب الاستعمار لمسلم يطمح إلى امتلاكها.

فمنذ الأب بيجو كانت القاعدة "بالسيف والمحراث" تطبّق بدقة[41].

ذات يوم استدعت دار إدارة البليدة الفيلالي وأبان له وكيل البلدية الأول، تحت نِصْفَية ماريان[42] ممتلئة الخدين كبيرة الثديين في فرط ابتسام وتربيت ودّي على الكتف، عن رغبته في أن يشتري منه بستانه بثمن لائق.

رفض الفيلالي، مثلما هو متوقع، العرض فضاعف الوكيل الثمن الأصلي. ولكنه قوبل برفض جديد. مرت أسابيع وكان الصيف أدرك نهايته وبدا كأن عروض الوكيل قد طواها النسيان عندما زاره، وكان إذاك يَعْرِقُ، وهو مُقْعٌ، مربع مبقلة، يهودي من دبدو[43] كان قد استقر في الجزائر منذ أمد طويل ويمتهن مهنا كثيرة متفاوتة الشرعية. طلب اليهودي، قبل كل شيء، طاس شاي ثم ذهب، من تلقاء نفسه، ليقطف باقة من القرنفل قال إن عليه أن يقدّمها للمدير المساعد ورئيس مكتب فرع الإدارة. ومن هناك تقدّم، والباقة في يديه، ليجلس على بورياء مخرمة كان الفيلالي قد فرشها تحت شجرة رمان. وحمل فتى عربي طقم الشاي وإبريقي ماء بارد من الفخار وعددا من الأوعية المثقلة وردا وقرنفلا. تربع سليل إسرائيل على البورياء ووضع بابوجيه

---

[41] Ense et aratro

[42] كناية عن الجمهورية الفرنسة.

[43] موقف الحمامي من اليهود، لا من اليهودية، قاس. وهذا هو في نظري سبب آخر للعتمة التي أحيط بها لما اشتهر به القوم من تنقيب عن كل الآثار المغربية.

جانبا ثم انطلق، وهو يسترخي على ظهره، في تسبيح ذكريات مراكشية قديمة كان فيلالينا ينصت إليها بأذن مرتخية. وكان، من حين إلى أخرى، يفرغ، في جرعة واحدة، كأسه من دون أن يكلف نفسه عناء ترشفها مثلما جرت على ذلك العادة. وتناول بعد ذلك القرنفلة وأمرّها، باغتباط، ، تحت منخريه الأشعرين المبرنقين بتأثير التبغ وزحف في حركة ردفية نحو البستاني وقال له، بصوت خافت وكأنه كان متخوفا من وجود شخص ثالث، إنه جاء بناء على طلب المدير ليحدثه في موضوع ملكه. واجتهد في ثنيه عن كل نوع من أنواع الممانعة مضيفا، وكأنه لا يخاطب شخصا معينا، أن كل عناد سيساء فهمه أو ينظر إليه بعين غير راضية. وعرض عليه مبلغا مغريا ووعده، إن قبل بالتخلي عن بستانه وظيفة ديرة[44] أو رخصة فتح مقهى عربي. وأكد اليهودي له، في اعتدال وتلميح، أنه سيكتفي، في كل هذه القضية، بعمولة صغيرة لا تتجاوز خمسة في المائة من الثمن المقبوض. وألح عليه بأن يبرم العقد ووشوش في أذنيه مرة ثانية، وهو يبتلع جرعة ثانية من الشاي في سرعة خاطفة أنه يخشى أن يلجأ السيد المدير، في حالة الرفض، إلى حجج أكثر إقناعا.

استمع الفيلالي، من دون أن ينبس بكلمة، إلى جدلية يهودي دبدو الماكرة. ولكن شفتيه لم تتحركا. كان بيّن الضيق، ثم إنه أمسك، وهو ينهض، بباقة القرنفل التي قطفها مبعوث الإدارة وسلمه إياها. وبحركة من اليد، أنهى هذا المونولوج المضجر.

بعد ذلك بيومين استدعي الفيلالي إلى المكتب العربي واستقبل ببرودة متعمدة. أشار المدير عليه، وقد بدا متعاليا مرتجف اللحية، بحركة من الذقن، بكرسي. كان المدير أحمر الوجه جاء من مقاطعة بريطانيا ليتيه في مؤسسة محشوة بالكورسيكيين والألزاسيين. وكان شعاع معدني يومض من عينيه. واستهل الحديث بعربية تشوهت

---

[44] فارس تابع للمكتب العربي.

إلى حد أصبحت معه تشبه، مثلما يشبه أخ أخاه، الفرنسية التي يرطن بها رعايا خورنية لندرنو. حاول المدير أن يوبخ ببعض العنف البستاني. ولكن الحوار سرعان ما توقّف. فالفيلالي لم يكن بقادرعلى أن يفهم البروتون المحرف ولا المدير العربية القصورية. لذلك بعث بالدايرة ليجيء بيهودي دبدو الذي وصل لاهثا والعرق يتصبب من جبهته فنزع، عملا بسلوك قديم فرض على اليهود منذ الموحدين، بابوجيه عند الدخول إلى المكتب وارتمى على الضابط المدني فقبّل يديه وانحنى أمام البستاني وجلس على منضدة خفيفة جيء بها من خارج المكتب. لقد ظفر المكتب بمترجم حقّا. ولكن القضية لم تكن من هذه القضايا التي يمكن أن يبتّ فيها بشفافية. فروائح النخاسة المنتنة التي تنبعث منها تزكم الأنوف. وابن الملاح يملك، في مثل هذه العمليات، مواهب حقيقية. وإذ كان لم ينجح في بستان الفيلالي، في تصفية الوضع فهو، هنا، وبالقرب من المدير، وتحت حامل معطف تتدلى منه كيبية تحمل شارة السلطة الفضّية (وهو ابن عم لح لقبعة قسلار) وسوطٌ، ، يكاد أن يكون على يقين من الفوز بل حتى من الترفيع في نسبة سمسرته المائوية.

أفهم المدير الفيلالي أن عليه أن يختار بين حلين: إما أن يبيع ملكه بالثمن الذي يحدده له وإما أن ينتزع منه، حسب الأصول، ويبعد، وهذه نتيجة طبيعية، في الحال، إلى بوذّنيب وأمهله مدة أربع وعشرين ساعة للتفكير في الأمر وحذره، رأفة به، من كل محاولة للجوء إلى خدمات محام لأن ذلك يساوي تنفيذ التهديد بطرده من أراضي المنطقة المدنية الجزائرية. همّ الفيلالي بإبداء اعتراض ترجمه اليهودي في غمغمة شبهها بالفرنسية شبه نعب البوم، تقريبا، بشدو العندليب. ثم إن المدير نهض، عند هذا الإخطار الرسمي، وتناول، ببطء، السوط ورتب كيبيته وخرج.

وفي هذا المساء نفسه أرغم الفيلالي على الإقامة الجبرية. وكان ديرة يتولى الحراسة أمام بستانه. وفي الأثناء، كان اليهودي، داخل البيت، ينهي، وهو جالس حول طبق شاي

وقد شكّ فوق أذنيه قرنفلة، إقناع البستاني الذي سَلَّم، وهو أقل سعادة من طحان خليّ البال، بعملية نزع اليد التي ستطال ملكه لأنه كان متأكدا من استحالة وجود قضاة منصفين لا في البليدة ولا في الجزائر العاصمة ولا في باريس. وعند هبوط الليل صرف الغيورَ على إسرائيل معلنا أنه سيذهب إلى مقابلة المدير صباح اليوم التالي.

في التاسعة تماما كان الفيلالي يدخل إلى المكتب وكان اليهودي قد سبقه إلى ذلك. وقد استقبله رئيس الفرع، هذه المرة، بوجه باسم وحمل إليه طسا من القهوة وحاول، في ضيق ظاهر، أن يقنع الضحية الشقية بمزايا بيع بستانه. لقد عاد إلى العينين الزرقاوين هدوؤهما وكفت اللحية الأرموريكية عن اهتزازها.

لقد كان من الممكن الخلط بين رأس المدير هذه، لما أحاط بها من هالة، وصور تماثيل المسيح التي لا تعد التي تنتصب بأكاليل الشوك وبصولجان من القصب على طريق القديسة آن دوري. ذلك أن هذه الرأس تعبر في أوقات عديدة، عما فيها من حيرة مؤلمة. هذا الموظف في الإدارة الجزائرية كان يمكن، لو بقي راعيا، أن يقضي وقته في رعي أبقاره، في سلام، في ظل دُلْمِنٍ ألفيّ العمر وعلى وقع زمارة القربة. وكان يمكن لو تخرج خوريا أن يخدم خورنيته برقة قلب الإكليروس البروطوني. ولكنه، هنا، أصبح، بِشَارَة السلطة التي يحمل وبتزويق ما يلبس وبما يضطر إليه من حمل السوط، وهو علامة الطغيان، ومن اكتساب نظره الذي وجد للتضرع إلى العذراء، بريق حقد، أصبح قلنا عبدا لنظام قائم على القوة والعنف إذ المطلوب منه أن يظهر قاسيا، خاليا من الرحمة وأن يجهل كل شعور بالعدالة والإنصاف. إنه لم يعد غير لعبة في نظام سياسي لذلك فضل على الفيلالي النزية الذي كان يعيش من عمله اليهودي الباحث دوما عن فلسه القاتل. لقد انتهى الأمر بهذا الكاثوليكي الورع المنحدر من أرض الدرويد القديمة، ومن دون تلاعب بالألفاظ، إلى أن يستبدل مسيحه بباراباس. أعلم الفيلالي القوم أنه مستعد للتخلي عن ملكه وطلب، بعد أن

فقد الإحساس بالأمن في بيئة مثل هذه، أن يمكن من جواز سفر إلى المشرق فوعده المدير بذلك ثم ذهب ثلاثتهم إلى موثق العقود.

***

كان موثق العقود بورقينيونيا مرحا أشقر ذا وجه أحمر متكرشا شُوَيَّة أكربت عينيه نظارتان بطوقين ذهبيين. كان محبا للخمر، وهذا يظهر من وجهه ومن حديثه المرح الخالي من الهموم. وكان يحب نساء الآخرين. ولقد سبق أن جلب إليه ذلك الانتباه العام. كان، أيضا، يحب المال وكان في هذا الموضوع يطبق بدقة قولة فيسبازيين المال لا رائحة له[45] كان قبل مجيئه إلى أفريقيا يشغل وظيفة في مركز قضاء دائرة من دوائر مقاطعته. وكان قد تزوج من ريفية متينة من الماكوني إن لم تكن جميلة ولا ذكية فقد كانت وريثة ثروة مهمة استطاع أبوها وهو أب قراندي عادي، أن يحافظ عليها كاملة وسط هذه الزوابع المالية زمن الجمهورية الثالثة التي ألحقت بالتوفير ضررا كثيرا.

كانت السيدة موثقة العقود الصموتة المجاملة تغض النظر عن كل ما يأتيه زوجها من ضروب المجانة لا تتعرض لها البتة. ونادرا ما كانت تخرج من بيتها. وكانت تحافظ في الفيلا الأنيقة التي استبنياها في ضاحية البليدة على عادات القروية البورقينيونية القديمة. كانت تلال المتيجة تذكّر بتلال وادي الصون. وفي هذا مبعث سرورها.

لقد بشّرت الوظيفة التي اشتراها موثق العقود، في بورقونيه ببدايات سعيدة ودرّ

---

[45] non olet pecunia

عليه عدد من القضايا التي سفسفها، ضاربا عرض الحائط بالقوانين الوراثية المعمول بها، في البداية، مبالغ ضخمة. ولكن الأمر انكشف. وكاد اكتشاف السر أن يؤول إلى فضيحة لولا تدخل برلماني متنفّذ من المنطقة في الوقت المناسب. ومع ذلك فقد تكررت الحادثة مثنى وثلاث مما سبب انزعاج الولاية وتوجيه تقارير بالخطر إلى باريس فاقترحت عليه نقلة إلى باريس ولكن أزمة سياسية خطيرة كانت تهز العاصمة.

كانت الجمهورية في خطر فماك ماهون كان قد حلّ البرلمان. وكان النائب حامي موثّق العقود من ضمن كتلة الـ363 الذين انضموا إلى حزب السيد غامبيتا والحال أن النائب، وهو الخلية الفاعلة في كلّ ديموقراطية منظمة يحتاج قبل كل شيء، في الفترات المتأزمة، إلى كبار ناخبيه. وموثقنا لا يمت إلى المتعصبين بصلة. كان، وهو الذي لم يكن خطيبا ولا حائك خطط، يتجنّب، مدفوعا بنوع من تبرئة الذمة، الكلمات الضخمة، والحركات على طريقة هومي[46] وكانت وظيفته ومَيْله إلى الكسب، لأنه تابع لنائب انتهازي ذي ميول لائكية واضحة، ينزعان به إلى مداراة الحساسيات الدينية عند سكان خورانيته بل انه كان، على ما يقول مغتابوه في مقهى التجارة في المقاطعة الفرعية، يحافظ على علاقات سرية بالأسقفية. وهو لم يكن يذهب إلى القداس وكان يسخر من طقوس الدين ورموزه. ومع ذلك فقد كان يعلق مصلوبا فوق فراش الزوجية. وكان يدّعي، مظهرا شيئا من الفلسفة التي تفوح منها رائحة عفونة القرن الثامن عشر، أن ليس له أن يتدخل في قضايا الآخرين. وهذا لم يكن يمنعه، يوم الاقتراع، من أن يقود قطيعه إلى صندوق اقتراع الحزب الجمهوري.

[46] A la Homais وهومي هو شخصية روائيّة من شخصيات فلوبير في "السيدة بوفاري" تمثل الحماقة البورجوازية.

كان اللائكيون والخوارنة يغتاظون لذلك. ولكنه يمكن للمرء، إنّ وضع يوم المحنة هذا جانبا، أن يجد فيه وسيطا جيدا يضطلع بدور الساعي المريح الكتوم بين محافظي البلد والنواب المغازلين لليسار الثوري في البرلمان. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت قائمة الفضائح تغتني بانتظام متجدّد حتى أن النائب الصديق اعتبر ذات يوم، وقد تمكن من الحصول على منصب نائب كاتب دولة في وزارة السيد غامبيتا الكبرى، أن تلميذه قد تجاوز الحدود. لقد طفح الكيل. فزار، مستغلا جولة له في المقاطعة، موثق العقود وطلب استدعاءه للعشاء. وما أن شرع في الأكل حتى وضع إصبعه في موطن الداء. إن العلاوات لم تكن، بالتأكيد، محرمة في جمهورية رفاق خاصة إذا كان الأمر يتعلق بأشخاص قادرين على توجيه الناخب الوجهة المطلوبة، زد على ذلك أن هذه الفترة كانت عشية باناما. ولم تكن الفضائل الجمهورية على قدر من التألق حَرِيّ بان يدفع بموثق عقود ريفي مسكين إلى أن يؤاخذ نفسه على عدد من حالات النقص في الأمانة في زمن كان فيه وزراء وشيوخ ونواب بالطبل ضاربين بل إن الآذان المتنبّهة بدأت تلتقط أصوات صخب مشابه متأت من قصر الإليزي وتشيع منذ هذه الفترة أخبارا عن تحيّلات صهر السيد قريفي الصغيرة. إن الأمر كان يقتضي التصرف بحنكة. ولكن يد موثق العقود كانت، لسوء الحظ، ثقيلة ومستعجلة.

اعترف النائب لمضيفه، بشكل قاطع، أن وضعه في بورقونيه أصبح لا يطاق وأن تقارير الوالي التي يدعمها رأي الجمهور ألحقت بسمعته ضررًا تستحيل معه المحافظة على وظيفته من دون مخاطر. فاليمين الذي انهزم في الانتخابات كان يتحرك. ومن المتوقع أن تنشط أحزاب المعارضة طلبا للثأر. ومن المنتظر كذلك أنها ستستغل كل الفضائح الصغيرة التي يمكن أن تكشفها حتى تربك الحكومة التي تخشى، إضافة إلى ذلك، من جناحها اليساري إذ كان كليمنصو الذي مازال على عواطفه اليعقوبية الأولى، يبشّر بالبساطة والتضحية في أرجاء العالم الجمهوري الأربعة. ثم إن السيد كاتب الدولة المساعد كان يحرص على الحفاظ على علاقاته صيانة لمستقبل كان

يبدو أنه ينحو نحو آفاق مشرقة.

لم يكن موثق العقود يخشى، ماديا، شيئا من كل هذا إذ سيعوض عنه بأكثر من الكفاية. فما يعرض عليه إنما هو ببساطة الإثراء. وهذا مشروط بأمر واحد وهو أن يهاجر من بورقونيه إلى مستعمرة بعيدة يبلغ فيها نزع اليد والبيع الجبري حدودا يتعذّر تصورها. لذلك أشار عليه وكيل كاتب الدولة بتونس بوجه خاص. فلقد كانت بلدا احتلّ حديثا وأراضيها جيّدة وماؤها غزيرا ومناخها يلائم الزراعات المتنوعة. وكانت الحماية تتيح للإدارة تجنّب كل العراقيل. فبالإمكان تحويل مجرى العدالة (بحرف التاج) بكل الطرق الممكن تصوّرها. وهناك برلمانيون كثيرون من أصدقائه كانوا يطلبون منذ وقت مبكر، بإلحاح، موافاتهم بالتقرير حول الميزانية التونسية وكل واحد منهم يأمل في أن يقتطع له فيها إقطاعة صغيرة على نفقة البرنوس. وإذا لم تكن له رغبة في تونس فهناك الهند الصينية حيث تمكنت مدافع الأميرال كوربي من حمل الصّفْر على التوبة. صحيح أن الهند الصينية كانت بعيدة وتفصلها عن فرنسا بحار ومحيطات ولكن المِرَزَّات تغزر فيها. وفيها يزرع المطاط وينتج الدغل الاستوائي أدهانا غالية الثمن وتؤمن الِشّجَارة ثروات ضخمة وسريعة وتمارس فيها أيضا تربية الماشية. فالحصول على وظيفة موثق عقود في تونس أو في الهند الصينية إنما يعني بكل بساطة الترشح للمليون. آه، إنه ليمكن للأب فيري أن يغتبط لذلك: لقد أدى إلى فرنسا بفتح هذين البلدين خدمة أكثر إفادة من مشروعه الوهمي، مشروع خط ال(الفُوج) الأزرق.

كان موثّق العقود، شأنه في ذلك شأن كل الفرنسيين، لا يعرف الجغرافيا جيّدا. هو، حقا، قد قرأ في جريدة ديجون الإكليلور حكايات ماجنة حول تونس والهند الصينية واستمتع بألوان النقد اللاذع الذي كان محررو الصحيفة الجمهورية يرشقون به، دوريا، سكان خُمّير ومنطقة التونكين. وهو يتذكر، كذلك، خطب روشفور المدوّية

التي كانت تندّد بهاتين الغزوتين الاستعماريتين وتنشرها كل صحافة فرنسا ونافار المسمّاة بالطليعية. ولذلك فقد ارتسمت على وجهه، عند سماع اسم فيري، تقطيبة خفيفة. لكنه عزم، وهو ينصت إلى صديقه يضخم له الرخاء الاستعماري والمال الذي يمكن الحصول عليه من دون ثمن تقريبا، على الإقدام على المغامرة لا سيما أن مقدماتها تبدو واعدة.

هكذا بلغ الحديث غايته وعبّرت خدّا موثّق العقود وضَهْوَتَا موثّقة العقود عن غبطة بالغة. كان بطناهما يتململان تحت الطاولة.

وأخرج سعادة الوكيل من محفظته، وهو مسترخ في كرسيه، علبة جميلة كستانية اللون تربطها أشرطة حمراء وذهبية مدّها إلى موثق العقود الذي سارع في تناولها وهو ينطق بسيل من كلمات الشكر المختلطة. كانت علبة سجائر هافانية جاءت من المدارات الأمريكية فلقد وزّع وكلاء تجاريون متجوّلون في شركات مجهولة صندوقات منها على محترفي السياسية. وهؤلاء بدورهم، ولأنهم أصحاب أثيرون جيّدون، لم ينسوا وكلاءهم في المقاطعات.

أحضرت الخادمة قهوة يمنيّة فشربا، بعد التحلية، قنينتين أخريين من الشمبرتين كُتب على سِدَادَتيهما تاريخ يرقى إلى بداية الإمبراطورية الثانية. وما أن وضع الطبق بطيسانه المذهبة الباخرة على الطاولة حتى قطعت الأشرطة وفتحت العلبة بحيطة كبيرة وانبعث بخور مضاعف مدَوَّخ من القهوة ومن السجائر المُمَدَّدة في غُلُفها الشفافة مثل أحِبّة. أخذ كل واحد سيجارته وقطع طرفها بسكين مائدة وغرسها في منقاره وسحب منها، وكأنه مؤاكل صادق لابيقور، نفخات كبيرة تصّاعد نحو السقف راسمة أشكالا من الدخان حلزونية رشيقة.

كانت موثقة العقود جالسة في هدوء ترشّف قهوتها وعلى الشفتين ابتسامة مُجَمَّدة دالة على جودة الهضم. كانت تلبس فستانا من الساتان متموّجا يحصر بشدة قامتها. كانت جسيمة عجزاء كبيرة الثديين ممتلئة الخدّين حمراء الوجه وفيرة شعر جدل سحب على الرقبة على منوال صدفة بحرية. فهي تذكّر بصورة هؤلاء الفلاماندیات السمينات ذوات اللحم العنبري اللائي يدهش لَهُنّ المرء في لوحات روبنس. إنها مثلهن، شديدة الحمق، بلهاء شُوَيّة. ولقد كانت تتابع الحوار من دون أن تتدخل فيه. لقد علقت في واحد من جدران غرفة الأكل خريطة قديمة لفرنسا تضم المتوسط وأفريقيا الشمالية ورثها موثق العقود عن أبيه وكان رائدا قديما في كتيبة الهندسة. وبعد أن سحب موثقنا نفخات كثيرة من سيجارته ركّز نظره على الخريطة طيلة دقيقة كاملة ثم أعلن، من دون مقدمة وهو يردّ النظر إلى سعادته، أنه يقبل بما يقترح، لكنه طالب، نظرا إلى أنه لا يرغب لا في تونس ولا في كنتون (هكذا نطق، وقد أفقده اللحم والنبيذ الصواب، بتونكين قالبا المقطعين اللفظيين) بالجزائر. وحدّد، وهو ينطق بذلك، بإصبعه، الموقع على الخريطة. وانتهز وكيل كاتب الدولة الفرصة فتوجه نحو موثق العقود وحنى نصف جسمه الأعلى خلف كتف مضيفه اليمنى وأغمض عينًا وتابع، وكأنه يصوبها إلى هدف، اتجاه السبّابة الممدودة إلى أفريقيا البليدة والمدية ومليانة. إنها المتيجة.

— يالك من محظوظ، صاح فيه سعادة الوكيل. وأنا الذي كنت أظنّك مُغفّلا. إنه يظهر لي أنك كنت، منذ وقت طويل، تخطّط للأمر. المتيجة. ولكن، إن هذه لجنّات عدن شمال أفريقية. وإذن، فلتتّكِل عليّ. انك ستتسلّم، ما أن أعود إلى باريس في ظرف أسبوع على الأكثر، رسائل توصية ممضاة من وزير الداخلية شخصيا. ومن ناحية أخرى، لا تقلق. فمستخدمي(المقصود هو غامبيتا) ليس له من أسنادٍ في مجلس النواب أكثر إخلاصا من نواب الجزائر. إن غاستون تومسون هو رجلنا هناك. ثم إنني سأقول كلمة في شأنك لوالي الجزائر. إنه زميل قديم في معهد لُوي–لُو–قران.

إن هذا لأفضل، الآن، من البقاء في مقاطعتنا بُورْقُونيَة.

لقد قال مقاطعتنا مع أن قدماه لم تطآ أرضها البتّة قبل أن يمكّنه مؤسس الجمهورية الثالثة من دائرة مريحة للغاية. فلقد كان وكيل كاتب الدولة فلامنْدِيًا ذا منبت متواضع ولد في مدينة صناعية من مدن مقاطعة الشمال مشطورة جغرافيا بين فرنسا وبلجيكا. كان من هالْوَن الجزء الفرنسي من المدينة. ولكن بيت الولادة كان ملاصقا، بنهج، للجزء البلجيكي. كان من مِنين. انه شيء ما شبيه بفرنسي ينقصه خمسة عشر مترا. ولقد درس الحقوق في باريس ولفت إليه الأنظار بالكتابة في صحيفة تبدي، حسب تقلب المِحَرّ نزعة جمهورية طليعية فقاوم ماك ماهون وأتباع قلب يسوع الكاثوليكيين وانتهى به الأمر في أحضان ساكن جاردي. كان يطمح، وهو الذكي الطموح، المتضلّع في فنّ الأرقام، إلى المهنة البرلمانية. وقد مكنه غامبيتا الذي كان يخشى من تقلبات الرأي العام الريفي لصالح الرجعية من هذه الدائرة البرغونية. فلمثل هذه الأشياء كان الخطيب الكبير الجمهوري يوظف أفضل أتباعه في المقاطعات ذات الأغلبية الريفية. ولهذا الأمر، كذلك، كان يحرص على ألا يفقد الرصيد الانتخابي في القرى بسبب مفاسد من عيار مفاسد السيد موثق العقود.

بعد أيام ركب موثق العقود، وقد تسلم رسائل التوصية وتخلّص من وظيفته وأجّر أملاكه، القطار، صحبة نصفه الحلو، إلى مرسيليا فتعرّفا إلى البحر. وبعد رحلة ميّزها هدوء مطلق نزلا في الجزائر. وقد استقبلهما الكاتب العام للحكومة وأكد لهما فائق عنايته بهما ونصحهما بزيارة الوالي. وهذا، بدوره، استقبلهما استقبالا يناسب موظفا ساميا انتدب في أفريقيا لا لمواهبه ولكن لتشجيع الاستعمار والاستيطان الفرنسي بكل الوسائل التي في حوزة سلطة القوة التي يمثِّلُ. كان قد ولد في بوجولي. وعلاوة على ذلك كان لامارتينيا وملاّكا هو أيضا. وهو مغتبط، على ما صرّح به لهما، أن يرى سكّان الأوطان يقدمون لتخصيب الأرض الأفريقية. وامتدح لهما مفاتن

الجزائر ومحاسن المتيجة والتسهيلات الكبيرة لإثراء المستوطن الفرنسي. ومن جهة أخرى، فإنه، إذا احتاجوا إلى ذلك، لم يعيّن في أفريقيا إلا لهذا الغرض. ولقد دلّ زوجا ابتسام على أن كل شيء قد فهم حق الفهم. ومن الغد افتخر سكّان البليدة بالتحاق وحدتين ممتازتين بهم.

استقبل وكيل الوالي، من جانبه، الزوجين وراق له طيلة نصف ساعة كاملة، أن يلقي على موثق العقود درسا تطبيقيا في الاقتصاد الاستعماري. فلقد كان هذا المدير الشاب، وهو حامل شهادة من مدرسة الحقوق ومستمع قديم في مدرسة الفلاحة في قرينيان ومستشرق شُوَيّةَ ومساهم في كثير من الشركات ذات المسؤولية المحدودة في أفريقيا أو التي لها فروع أفريقية وصحفي بل مؤلف حلقات في أوقات فراغه، كان ينتمي إلى هذا الجحفل من الموظفين الاستعماريين الذين كان عليهم، بين 1885 و1918، أخذا باتجاه السيد أوجين إتيان والسيد ستيفان بيشون، أن يخضعوا السياسة الاستعمارية لمطلب الإثراء الشخصي وأن يخلطوا الأسباب الممكنة في رسالة بعشوائية المغامرة. وقد أكّد وكيل والي البليدة، مثلما فعل الكاتب العام والوالي، دعمه التام للضابط العمومي. وجازف، وهو يستشعر الخيط الذي يربط وكيل كاتب الدولة بموثق المدينة المقبل، بأوراق لعبته آملا في حظوظ هذه السلطة.

هكذا كانت السياسة في أفريقيا!

حصل موثّق العقود على وظيفته واستقر في الجزائر ولم يتمهل في طلب الإثراء. وفي ظرف ثلاث سنوات عقبت نزوله الجزائر أصبح يملك فيلا أنيقة ومزرعة وبستانا كرم رائع واسطِبلاً يُرْجَنُ فيه نصف دزينة من البقرات الحلوب من أصل سويسري ومَلْبَنَة نموذجية. بل انه بدأ يهتم باستحداث حظيرة، في الهضاب العليا، تشتمل على

عيّنات من المِرينوس المستوردة من استراليا والموقوفة على الاصطفاء الطبيعي البلدي.

وبالاختصار فإن توثيق العقود في الجزائر يدرّ ربحا. وربحا جسيما!

بدأ، هو أيضا، وعلى هامش إثرائه، يتشبث بالسياسة. كان غامبيتا قد مات. وكانت الجمهورية، بعد أن فقدت قبل الأوان زعيمها ومؤسسها، تتجاذبها إغراءات مختلفة. وقد حاول وكيل كاتب الدولة، بعد أن حرم من حاميه، أن ينضمّ الى حزب فيري غير أنّ الرّشَاشَ المنبعث من بالوعة باناما طاله ففقد ثقة منتخبيه وتعرض نتيجة لذلك، لهذا النوع من أنواع الخسوف الذي غالبا ما يقتل صيّادي النيابات.

كان موثق العقود، وقد أثرى وحقق النجاح حريصا على تمتين صلاته بمقر وكيل الوالي فكان، عندما تقتضي أعماله أن يذهب إلى العاصمة، يحُلّ في قصر الحكومة أهلا وينزل سهلاً. وأصبح الناس، الآن، يتحدّثون عن ترشّحه للمجلس العام وهو الخطوة الأولى نحو البرلمان. لقد بقي مخلصا للانتهازية الجمهورية، وهذا الأمر لا معنى له خارج فرنسا. ولكنه كان يجيد استغلال انتسابه الليبرالي أفضل استغلال. وكان يزور رئيس الأساقفة. وغالبا ما كان يستضاف، أثناء زيارات مركز الولاية، على طاولة سيادة رئيس الأساقفة في الجزائر العاصمة.

كان رصيده البنكي يتزايد. وكان رأسمال يجسد عليه لا يكُف عن التراكم نتيجة مدا خيل جديدة وفوائد مضاعفة.

لقد كان موثق العقود على هذا النسق الحياتي المُتنَعّم المستأمن عندما حضر عنده المدير والفيلالي واليهودي حتى يعالج قضيّة لو حدثت في أيّ مكان آخر لاضطربت

لها، يقينا، كفّتا ميزان تيميس[47] ولكن في البليدة، أُنهيت القضيّة على الفور. فقد نسخ عقد البيع الذي حرّر باسم الفيلالي ومساعد البلدية الأول، وهو فرنسي، يحمل اسما مالطيا ذا مضمون برَازِيّ، في نسخ كثيرة ووقّع ثم صدّق عليه المدير متصرفا باسم البائع وباعتباره ضامن عقد تَخْلِيَة الملكية. واحتفظ موثق العقود، من العقد، بالمُسَوّدَةِ وتسلّم المتعاقدون منه الأصول في نسخة مضاعفة. تسلّم اليهودي واحدا ونصفا في المائة من ثمن البيع وقبض الفيلالي أكثر من ثلاثة آلاف فرنك بقليل. وبعد يومين حصل على جواز سفره.

هذه هي، بما ألجات إليه الضرورة من تغيير[48]، قصة البستاني الفيلالي في البليدة مثلما قصها على الحاج علال في هذه الأمسية الموسيقية التي كانت فيها قلوب بسيطة تخفق في تساوق عندما كانت ألحان القمبري تستحضر الوطن البعيد، لذكرى أرض الميلاد القديمة.

***

بعد غد ركب الحاج علال القطار، صحبة جزائري من تلمسان، متجها إلى القاهرة التي لم تتح له فرصة زيارتها في رحلاته السابقة فبلغاها بعد أربع ساعات وحملهما "لاندو" من محطة كبري الليمون إلى باب الخلْق.

وإذا كانت تونس قد سحرت الحاج علاّل فإن القاهرة بهرته. فعاصمة الفاطميين القديمة ذات الطابع الأكثر شرقية من الإسكندرية والأكثر مهابة وذات التضاريس

[47] آلهة العدالة في الميتولوجيا الإغريقية.

[48] Mutatis mutandis

المتميزة أثارته.

لقد عمل تاريخ حضارتها القديمة والثقافة الإسلامية الباهرة التي تخبّئها تحت جدرانها المثقلة أعواما ومجدا والأهرام والقلعة والفسطاط والأزهر وشوارع ساحة الأوبرا الحديثة والأحياء القديمة من الفترة المملوكية الغُورية، عمله فيه بعمق وكشف له أسرار أشياء جديدة.

ذهب من باب الخلق إلى الفهّامين. والفهّامين هو الحي التجاري الذي نصبت فيه أفريقيا مخازنها. انه، إذا صحّ القول، امتداد نحو الشرق لأسواق فاس وتلمسان وتونس. ففيه تجد دكاكين يباع فيها الشاي الأخضر والسكر والتوابل الأثيرة في المغرب وفيه حوانيت جَوّاخين تعرض، أمام تاجر فاسي يلبس الجلاّبة الوطنية، أقمشة مصدرها شمال أفريقي. وفيه مطاعمُ حقيرةٌ تنبعث منها روائح عفنة للكسكسي والشكشوكة وبوزلّوف. وفيه دكاكين حلوى صنعت على الطريقة التونسية. وفيه مقاه مجهزّة بموقد بني في الحائط، رأسًا، يستعمل لتحضير الشاي التقليدي والقهوة المُحمّصة المخلوطة باللوز والقِرْفة عملا بوصفة حافَظَ عليها ذُرّية بارباروس الأفارقة.

إنّ المسافة الفاصلة بين الأزهر والفهّامين ليست كبيرة. هي لا تتجاوز دقائق معدودات. ولقد ذهب إليه الحاج علال مرفوقا بشيخ جبلي يدرس في الجامعة العتيقة وقدّمه لطلبة المغرب فحظي باستقبال أخوي في رواق المغاربة.

كانت مصر في هذه الفترة تتعرّض لأزمة نموٍّ. فالإسلام الذي تعرّض لهجمات الغرب أحس بتضييق الخناق عليه. وكانت الإمبراطورية العثمانية التي قلّد سلطانها منصب الخلافة وكان يمثّل، فعلا، مربّع مقاومة الشرق الأخير، تبدي، مع تقادم الزمن،

علامات تحلّل لا يمكن إنكارها. وكانت محاولات إصلاح مستمرّة تخترق العالم الإسلامي. ولقد كانت مصر مركز هذه الإفاقة النشيط. فمنذ التنظيمات في تركيا وما عقبها من تجربة حكومات دستورية اجتهد مفكرون ومصلحون سواء على المستوى الاجتماعي أو السياسي، في البحث عن كسر لهذه الحلقة المفرغة التي كانت تتخبط فيها شعوب الإسلام فكانت النظريات والأفكار والاتجاهات تتصادم في مناظرة لا يقرّ لها قرار وكانت نواد تولد وتختفي فتخلّف أو لا تخلّف وراءها آثارا.

ومع ذلك فإن نهاية القرن التاسع عشر أشارت إلى أحداث واضحة للعيان تدل على فَزَّةٍ متأخرة. وفي هذا التاريخ الذي زار فيه الحاج علاّل الأزهر كانت مصر قد قطعت أشواطا هامة في طريق التقدّم. ذلك أنه إذا كان جمال الدين العظيم قد مات منذ نحو عشر سنين وكان محمد عبده تلميذه ومُكمّله قد مات هو أيضا منذ وقت قصير فإن جدران القاهرة لم تكف عن ترديد كلمات الشاب مصطفى كامل النافذة الحارة. كما أن جريدتين كبيرتين في المدينة شبيهتين بصفيحة حسّاسة تسجّل بانتظام الموجات الإشعاعية، كانتا تنشران، يوميا، أخبارا عن وضع العالم الإسلامي. وفعلا فإن المؤيّد واللواء كانتا تحلّلان في أعمدتهما، انطلاقا من مزاج مدير كل واحدة منها، ومن الاتجاه الشعبي الذي يترجم عنه، مجمل القضايا التي كانت تشغل بال مصر والشرق.

لقد كان مستوى التعليم العام يتّخذ شكل منحَنًى تصاعدي. ولقد كان للخديوي إسماعيل، وهو عقل حديث ومثقف، الفضل في تبيّن ملامح روح القرن التي كانت تقضّ، لا شعوريا، مضاجع شعبه وفي السير على منواله. ومهما كانت الأخطاء التي تنسب إليه فإنه، على أية حال، تمكن من تبيّن أهمّية دور التعليم في الحياة الاجتماعية.

وهكذا أمكن لمربّين نابغين أمثال علي مبارك ومحمود الفلكي وحفني ناصف أن يتنزّلوا منزلة الأبطال في ميدان نشر ثقافة مجدّدة. فأنشئت المدارس وتطوّر التعليم الابتدائي والثانوي. وإضافة إلى المدارس التي أنشأتها الحكومة، أكثر التعليم الخاص، من جانبه، من إنشاء مؤسساته مستفيدا من إعانات وزارة التعليم العام المالية فهزّت البلاد منافسة كبيرة واستولت عليه حمّى معرفية. إنّ التعليم الابتدائي، ومن دون أن يصبح مجانيا أو إجباريا، عبّدت الطرق إليه قلّة تكاليف التمدرس وإعفاء التلامذة المعوزين منها.

ولقد أحدث التعليم العالي وأصبح الناس يتحدّثون، منذ هذه الفترة، عن تأسيس جامعة. إن هذه الفترة لم تخل، ما من شك في ذلك، من خيبات وأحجار عثرة وخلافات مبدئية واتجاهات مثلما هو الشأن، دائما في كل مكان، عندما يسعى التجديد الضروري إلى فرض مقوماته على الجمود السائد. ولكن العقبة الخطيرة وقع تخطّيها.

لقد كان اللورد كرومر، وهو إذاك في أوج قوته، يستنكر حركة التحرر الفكري الباهرة هذه التي كان يرى أنها متعجّلة سابقة لأوانها. ولقد أسهم دخول الحزب الوطني الذي وضع كل ثقله في الميزان، بقدر كبير في دعم ارتياب الحاكم الطاغية الشهير. على أنه علينا أن نقول على الفور، إن هوة واسعة يصعب ردمها كانت تفصل بين انتهازية الإنجليز الذكية التي ترك، رغما عن تقاليدهم الإمبريالية، للشعوب الخاضعة لوصايتهم مجالا جد فسيح من حرّية التعليم وأساليب الفرنسيين الظلامية المُدَنِّقة المخادعة.

لقد حصل المصريون على جامعتهم. ولقد كانت هذه آخر فرحة نوّرت قلب مصطفى كامل إذ كان عليه أن يموت بعد بعض الوقت وقد خطفه المنون وهو في

رَيِّق الشباب. كان عمره أربعا وثلاثين سنة.

في هذه الفترة كان هربرت سبنسر تعبيرا عن ذوق العصر. وكانت المناقشات حول البيداغوجيا المقارنة تشغل حيزا هاما من نقد الصحف. وكان الحديث في الاجتماعات الخاصة يدور عموما حول أفضل برامج التعليم وحول الطريقة الأكثر عملية لتطبيقها. فعرّب بيستالوتزي ووقعت متابعة محاولات أحمد مولوي خان في أليغار باهتمام متزايد في حين كانت الآذان المصغية كل الإصغاء حتى إلى ما يجدّ وراء الأطلنطي تبدي إعجابا بمجهود البيداغوجي الأسود واشنطن ت. بوكر الذي تمكّن، بدعم من الرئيس تيودور روزفلت ورغم إنذارات رقّيي الجنوب المستعْصين الإرهابية، من تأسيس معهد توسكيجي في آلاباما.

لقد كان الأزهر يتعرّض للأذى نفسه. إن الزمن الذي كان فيه واحد مثل الشيخ عليش، مدير الجامعة العتيقة المطلق السلطة، يعارض فيه نصائح الخديوي ويصرّ على الإبقاء على برامجها وطرق تدريسها قد ولّى تماما. فلقد قلب نَفسُ جَمال كل شيء. وكان محمد عبده وتلامذة الثوري الأفغاني الكبير يهزّون، من دون شفقة، السنديان النخر ويعوضون، بشكل غير محسوس، النظام القديم المحتضَر بنظام دراسة أكثر ملاءمة لمفاهيم التعليم في القرن. كان التفكير يتحرّر من قيوده القروسطية، وكان الزمن هو الزمن الذي أرسل فيه مفتي مصر الكبير إلى تولستوي، بعد أن تعرّض لِحَرْم المجلس الأعلى للكنيسة الروسية، برقية تضامن تردّدت أصداؤها في زوايا العالم الإسلامي الأربع مثلما تردّد أصداء دقّة جرس مؤذنة بعصر جديد.

على أنه، وبموازاة هذا التجديد في التعليم، كان الأزهر يحسّ باستفاقة تقاليد سلفية. فلقد كانت هذه المؤسسة القديمة، وهي بؤرة الإسلام السنّي، تتصدّى لكل مبادرة. وهي لم تكن، كذلك، تتقبّل، تماما مثل صوربون القدّيس طوما الأكويني، أيّة إضافة

إيديولوجية إلى ما حدّده أئمة العقيدة نهائيا. لا شكّ أن تاريخ الفلسفة الإسلامية كان، حقّا، مدرجا في مقدّمة البرنامج الجامعي وأنه كان يمكن تحليل مدوّنة الملل والنحل وإخضاع آرائها لنقد منحاز إن كثيرا أو قليلا ولا يخلو من مسحة من العقلانية ولكن كان لا بد من الوقوف عند هذا الحدّ. أما المفهوم الليبرالي الجديد فكان يمكّن الفكر من تحليق أكثر تحرّرا ويسمح بتقصٍّ في البحث أكثر جسارة وبنقد أكثر شمولا.

إنّ السلفية في الفلسفة الإسلامية هي العودة إلى الأصول الإسلامية الأولى بغضّ النظر عن الإضافات الشعائرية والمذهبية التي حصرت الإيمان والعقيدة الأصلية وقانون الإيمان الأساسي في طبقة من المذاهب المعقّدة الحشوية. وهي لا تجيز، وقد استبعدت كلّ شيء وضربت صفحا عن كل مظاهر التجديد التي عقبت الفترة المحمّدية والراشدية، غير القرآن. إنها، روحًا، ضرب من البروتستانتية. وهي تنقسم إلى مدارس كثيرة أهمها هذه المدرسة التي نتجت عن التعليم الذي مكّن له في القرن التاسع أحمد بن حنبل، أحد مؤسسي المذاهب السنية الأربعة في الإسلام.

والحنبلية التي هي أقل إطلاقا في تفسيرها وأكثر ميلا إلى تبسيط العقيدة ومعادية لكل تجديد تتبيّن فيه، قبليا، إمكانات إفساد لتصوّر التوحيد في الدين، تدعو، في نطاق القرآن والسنة، إلى وحدانية الله وتطمح إلى إيقاف دورة التأويل والتفسير نهائيا. وهي، علاوة على ذلك، تطالب باستقلال اللاهوت ممّا كلّفها عداوة العبّاسيين. وفي القرن الرابع عشر أخذ ابن تيمية الذي مات في السجن، ثانية، بهذا المذهب (لأنه كان كذلك على الرغم من نفي الآخذين به) الذي بقي مبعدا شيئا ما بسبب قلّة الحظوة عند النظام الاستبدادي السائد. ثم ابن القيّم الذي عرضّه مماليك مصر لما تعرّض له من سبقوه من اضطهاد. وقد استحوذ، في نهاية المطاف، ابن عبد الوهّاب، في بداية القرن الماضي، على سلفية ابن حنبل وأعطاها، في صحراء نجد، بدعم من آل سعود، هيئتها وطابعها الحالي. ولكن الوهابية، والحق يقال، ليست

إلا مجرّد حالة نفسية عكسها تعصّب ولد في بيئة قبليّة وعبّرعن أكثر ما فيها من غريزيّة وبدائيّة وابتذال.

كان الخوارج سلفيي الإسلام الأوائل. أما الحنبلية وروافدها فهي سلفيات أخرى. وتوجد مدرسة ثالثة خاصة بأفريقيا الشمالية ولدت في رعاية الفلسفة الإسلامية الكلاسيكية. إنها مدرسة ابن تومرت المُشْبَعة بذهنية مغربية خاصة تحدّد ملامحها. لقد كان ابن تومرت البربري المصمودي مثل يحي الليثي مشيع المالكية في اسبانيا وحافر قبر الأوزاعية، واحدا من أنبه تلامذة الإمام الغزّالي ونوادي المتكلمين الذين سعوا، في بغداد حوالي نهاية القرن الحادي عشر، إلى حماية الدين من هجوم العقلانية رافضين في الوقت ذاته، من ناحية أخرى، تطاول العقيدة على حرّية المؤمن الفكرية. وكان الغزالي المولع بالمعارف الكلاسيكية العالم بالأفلاطونية الجديدة المعجب المتحفّظ بأرسطو المتضلّع في نظريات ديموقريط المادية، مِنْطيقا خطرا استعمل ضد الفلاسفة أسلحة الفلسفة ولم يتردّد في مهاجمتهم في عقر دارهم. ووطّد معاقل الدين المهدّدة بأن قلب على خصومه القاعدة التي ستسمح، فيما بعد، لباسكال بالسخرية من ثالبيه من الكهّان.

لقد جمّع، عوضا عن الأئمّة، ضد التفكير الحرّ، البرهان تلو البرهان. ولكنه أعاق، بالضربات القاتلة التي سدّدها، انطلاق الفكر الإسلامي وساهم، وقد يكون ذلك عن غير قصد، في خنق جرثومة النشاط المتعقّل. ولقد أفاد ابن تومرت من مناهج الغزالي ومن صرامة المبادئ التي أملت عليه حياته لإطلاق الحركة المُوَحّديّة. ولقد كان توحيد المغرب وتحرير اسبانيا على يدي تابعه عبد المؤمن في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يدحر، في حطّين، الحملة الصليبية الثانية من النتائج الأولى السياسية لذلك. ذلك أن هذه السلفية العقلانية أمكنها، وقد توطّنت في قرطبة، على نقيض السلفية الحنبلية الوهابية التسوَوِية ولكن المعادية للتطوّر والمجتمع، أن

تلد حضارة رائعة خصبة. ومثلما تولّد الاعتزال المتفتح العلمي عن المذهب الخارجي الذي هو، تقريبا، الوجه المعبِّر عنه، فإن الرشدية الأندلسية تولّدت من السلفية الموحّدية. إن مجموعة الظواهر الغائية وعلاقة خاصة بين العلّة والمعلول تهيمنان على هذين التيارين الفكريين وتربطان بينهما وتضعانهما، معًا، على عتبة أصل واحد يهدف، عن طريق تعديلات متكرّرة، إلى تحرير الفكر الإسلامي عضويا واجتماعيا. فبقراءة متمعّنة للمرشد وللتوحيد اللذين ألّفهما الداعية الشمال الأفريقي الشهير، يمكن للعين المتمرّسة أن تتبيّن بوادر علامات مؤكّدة ونوعا من التجسيد المسبق الدقيق يعثر عليهما المرء، فيما بعد، في كتابات ابن طفيل وابن رشد.

وهكذا فقد ولدت النهضة العبدوية والسلفية الحنبلية والسلفية الموحّدية بين جدران الأزهر التحفّظية واستحوذت، مثلما هو الشأن في كل حَمْلٍ عسير، على العقول المسكونة برغبة محمومة في الدرس والتمثل. ولم يكن الحاج علاّل المواظب على حضور مجادلات طلبة الأزهر المغاربة ليفهم منها كثير شيء. ولكن كان اتفاق الآراء حول إدانة الخرافات السائدة في الأخلاق الإسلامية وتحريم عبادة القديسين واستنكار عمل الأخويات الدينية والتشهير بعدد من ضروب الدجل الشريفيّة يستهويه بدليل أنه عرف، على ارتباكه إزاء الآيات والعبارات التي تقع في مَسْمَعَيْه، أن الأساسي يتمثل في الحذر من كلّ هذه المظاهرات التديّنية الكاذبة التي كانت تَهِيجُ فيه عقل الجبلي السليم الصلب.

كانت حياة القاهرة النشيطة، من جهتها، تؤثر فيه. فلقد كانت روح الحرّية التي تهزّ أرض النيل القديمة وتدفع بها نحو مسالك جديدة وكان النشاط والازدهار اللذان حلاّ محل عادات الكسل القديمة والقناعة القسرية يثيران فيه، أيضا، رغبات مخنوقة في التحرّر أوجب على نفسه أن يُثبِّتها، لاحقا، في إدريس.

***

غادر الحاج علاّل القاهرة متّجها إلى مكّة بعد موت مصطفى كامل بعدة أيّام. وكان الفرنسيون قد نزلوا في الدار البيضاء والشاوية يتصدّون، وقد خذلهم مخزن مهزوم، للغزاة بأسلحة غير متكافئة. نزل من الباخرة في جدّة. وهي مدينة رمادية لا ماء فيها قاحلة رتيبة رتابة كئيبة. وانقضّت عصابة من المطوِّفين الذين اتخذوا من الحجّ وسيلة سلب على ظهر السفينة مثلما تنقضّ أَرْجالٌ من العقبان. كانوا يلبسون لاوِياتٍ طَويلة ذات أكمام واسعة وعلى رؤوسهم طرابيش من القشّ زرعت فيها مربّعات صغيرة متعدِّدة الألوان غُلِّفت بعمائم مَوْصليّة بيضاء. وفي اليد اليسرى من الواحد منهم سبحة من العنبر وعن شفتيه تصدُر تمتماتٌ لا يفقه المرء مضمونها. أما اليد اليمنى فقد استقرّت على كتف الحاج مثلما تتقبّض مخالب ضَبُعٍ على الجيفة التي تتمكّن من تعريتها. فعلى هذه الصورة ظهر مشعوذو الأماكن المقدسة، من جديد، لعيني الحاج علاّل.

كان أبو ادريس يعرف جدّة. ولذلك عرض على مواطنيه أن يكون دليلهم بين أزقة البلدة المُضْجِرة. وفي اليوم التالي التمسوا منه زيارة القبر المنسوب إلى حوّاء وهو ضرب من القبور المتهدّمة ذو طول لا يصدّق (طوله خمسة عشر مترا) يغطّي رفات من يزعم أنها أمّ شرور الجنس البشري. ولكنّ الحاج علاّل رفض أن يتّبع هذه العادة بل انه توفّق إلى أن يثني عنها كثيرا من أصدقائه. لقد كانت اعتقاداته تتطهّر وبدأ، بعون من التجربة والفضول، بالتخلّص من ركام الأساطير التي أسهمت في تشويه الإسلام.

ومن بعد الغد غادروا جَدّة، إثر صلاة الفجر، راجلين وكلّ واحد منهم يحمِل على ظهره حقيبة ظهر، ويده مسلّحة بهراوة متينة. كانت الطريق من جدّة إلى مكة تسلك واديا

طويلا ضيّقا كثير الحصى تتكدّس فيه، على حصى يكوّن طبقة سميكة تغطّي الأرض، كدسات من الحصبات الملساء تجمّعت هنا منذ قرون. وعلى ضفّتي الوادي سلسلة متوالية من الجبال البازالتية ذات مظهر كئيب موحش. وتشخّص أشواك نادرة أحرقتها شمس حامية هذا المَمَرّ الحزين الذي سبق أن كان شاهدا على العصور التوراتيّة. ومن وقت إلى آخر تضيف بركة ماء آسنة استقرّت في تجويف منحدر صخري أو وسط منخفض أرض صغير، انعكاس نورها الباهت إلى تلوّنات السراب التي تلاحق سير القافلة المسترخي. وتنغّص عزلة هذه الأماكن المنسية أكثر مما تبهجها نخلات نادرة ذات سويقات ملويّة مغطّاة بقنازع ذات لون أخضر كامد زرعتها هنا أياد مجهولة. وتنْتَصِبَ فوق شغاف على امتداد طريق القوافل ملاجئ دفاعية تركية يعلوها العلم الأحمر ذو الهلال الفضي. إن المسافة بين جدّة ومكّة ليست غير حوالي مائة من الكيلومترات يقطعها المرء على مرحلتين بعد استراحة في بَحْرَةَ.

وصل الحاج علاّل وفريقه، بعد مغادرة جدّة بستين ساعة، إلى مكّة وتسلّقوا، وهم يقتربون من المدينة التي ما زال يحجبها عن عيونهم مُدَرَّج جبال، ربوةً تعلو الطريق التي تنفذ إلى جَرْوَل ذات هيئة حجرية. وفجأة تبدّى مشهد المدينة المقدّسة لعيونهم المنبهرة. انه لا شيء، والحق يقال، يبعث على الدهشة في هيئة هذه الجبال الصخرية المقطعة التي لا أثر للنبات فيها والتي تحُدّها جدران محترقة في لون الصدإ تشقها أخاديد تميل إلى الخضرة. بل ان كل هذا يبعث في النفس شعورا بالضيق ونوعا من الانزعاج ويبعث لا أدري أي نوع من الشعور بالحزن والكآبة. ثم إنه، وكلّما تتالت الذكريات التاريخية واسترجع المرء، بطريقة الوراثة، طباع الأجداد استرجاعا مشبعًا تديّنا وُلِدَ معه واندغم فيه وملكته ذكريات مبهمة بثتها فيه أجيال متعاقبة، يحس نوعا من الانفراج ويختفي الانطباع الأوّل مفسحا المجال لحب اطلاع متعاطف.

كان الحاج علاّل يدلّ رفاقه من المرتفع الذي خيّموا فيه على الأماكن الأساسية في

مكّة وأوّلُها، وقريبا منهم جدا، ثكنة جرول. وهي بناء ضخم مستطيل الشكل ذو تخطيط مستقيم يتضمن ساحة تمارين وميدان تدريب. وعلى اليمين وفوق ربوة جعاد المحاطة بصخور غرانيتية، ينتصب حصن بني حديثا على هيئة تستوحي مخططات فوبان الهندسية التي تبدو كأنها تصمد في وجه التقدّم الذي تحقّق في ميداني علم القذائف وفن صنع المتفجّرات. وفي إمكان المرء أن يصل إليه عبر مِرْقاة لولبية منحوتة في الصخر رأسا. وتشرف أسوار، عموديا، على منحدرات الربوة التي تغرقها، في هذه الساعة، أشعّة الشمس التي تِرشق الصخور الزرقاء المُبَشَّبة مغَرًا بنور شديد الشحوب.

وهناك جرول وجعاد! وهما اسمان جديران بأن يحفظا في تاريخ الإسلام! فبين هاتين الهضبتين على الطريق المجعّدة، كان محمد، وهو طفل، يلهو بالمقلاع أثناء رعي قطعان عبد المطلب، جدّه وأوّل وصيّ عليه. هذه الالتواءات الصخرية المتّجِهة نحو الداخل الممتلئة رملا وحطاما تقف شاهدا على الخطوات الأولى في حياة مؤسس الإسلامية. ولا يبدو أنّ شيئا قد تغيّر منذ ذلك الحين. فقد بقيت الأشياء، تقريبا، على ما كانت عليه طيلة أربعة عشر قرنا. وهذه المنبسطات الكئيبة التي تسمّرت في قوقعتها الطبيعية تكاد لا تهتمّ بقوانين التطوّر. ويسود في كل مكان مبدأ الجمود سيادة مطلقة.

وينتصب، قُبُلا، جبل قُبَيْسٍ الذي يعلوه مسجد ذو مئذنة صغيرة والذي حدّد فيه التاريخ موضع المغارة التي التجأ إليها محمد وأبو بكر اللذان جَدَّ القرشيون في طلبهما واللذان وقاهما، في الوقت المناسب، من الأسر ومن القتل وجود حمامة كانت تسجع في هدوء في مدخل الفتحة وكذلك بيت عنكبوت في المكان نفسه بقي سليما لم يمسسه أحد. وبعيدا جدّا، وعلى اليسار، تكشف ذروة ذات تجاعيد جبلية ولون أخضر داكن، عن تلّة مكوّرة ينبثق منها بياض صريح يمكن للعين أن تميّزه بوضوح. إنه

جبل حِراء، جبل الأولمب الإسلامي. وجبل حِراء يتنزّل في الكتلة الجبلية التي تطوّق مكّة منزلة متميّزة. ففي هذا المكان وفي مغارة صالحة لهذه التأمّلات المنعزلة التي تلائم النسّاك والمفكّرين، كان النبي الذي بلغ الرشد يخلو إلى نفسه لينصرف إلى الصلاة ويتقرّب، فكرا، إلى الله.

فمن هذا المرتفع الملهم الذي بدت عزلته المهيبة متحدّية أسرار الخلود بلّغ الراعي المتواضع، بواسطة الملك جبرائيل، بالقرآن حتّى يُنشَر في شعوب الأرض! وتقع بين جبل حِراء ومكّة مقبرة المُعلّى اللصيقة بالمدينة. وهي مقبرة كبيرة قديمة في سفح منحدر صخري يرقد فيها رفات عدد من أقرباء الرسول وكثير من الصحابة وتابعي الجيليْن الأوّل والثاني.

وبين جرول وجعاد وجبل قبيس والمعلّى تنبسط مكّة المُكَبَّلَة وسط جدران صخرية عالية على هيئة جداريّة تحصرها بألوانها الباهتة. إن رتابة البنايات التي لا لون لها ومظهر الضواحي الموحش هما، حقّا، من جنس الطبيعة والمُناخ القاحل إلى أبعد الحدود. هي مدينة ضائعة وسط صحراء صخرية.

ومن مجموع كل هذا ترتفع خمس مآذن استلهمت خطوطها وهيئاتها، على الأصحّ، من الهندسة المعمارية الإسلامية التركية. وتُزَنّر الزوايا مصطبة دائرية ذات شكل خماسي.

إنها الحرم.

وفي وسط الحرم ينتصب أثر مكّعّب مكسو حريرا أسود نقشت عليه من كل جهة نقوش من ذهب. إنه الكعبة.

وعند رؤية الحرم الذي لا يظهر منه لرفاق الحاج علاّل، من المرتفع الذي هم فوقه، غير الغِماء، خرّوا سُجّدًا في حميّة دينية عفوية. لقد بلغوا القصد من حجِّهم الطويل. وأحسّت أنفسهم، في بساطتها المؤثّرة، أن ضربا من ضروب السحر الذي يستولي على الإنسان عند رؤية أو ملامسة ما هوّ خارق للعادة، يغمرها.

ها هي خمسون قرنا من التاريخ البشري تتجسّم هنا، قدّامهم، في هذا الصرح الصغير المُغَلَّف بالسواد. فما هو يا ترى؟ إنه بيت الله! المعبد الذي أقامه في سالف الزمن، إبراهيم تمجيدا منه للأزلي وبيت قربان الجنس السامي الذي اصطفي لإقامة شعائر الخالق وإرباك عظمة الأوثان. وهو المسجد الذي أقيم فوق نبع زمزم المعجز الذي انبجس من جوف الأرض ليرتوي منه إسماعيل وليدعو جرهم إلى عبادة إله واحد!

تلا الجمع الفاتحة ونزلوا ثانية من التلّ متجهين الى المدينة. إنها متاهة من الأزقة التي لا أرصفة فيها ولا تبليط تزدحم فيها حشود الكلاب الشاردة وتصطفّ حوانيت نافقة السلع ولكن تبدو، سلفا، أنها قد طردت منها كلّ نظافة. وفيها أقيمت مقاه في أبهاء المنازل وفي ممرّات اصطِبِلاّت وفي حظائر بلا غِماء. وعجّت حشود من الناس تتحاكك، في ما يشبه برج بابل حقيقي، وتتصادم أكثر الأجناس اختلافا في العالم الإسلامي من شواطئ الأطلنطي إلى اليانغ تسي، ومن سهوب التركستان إلى السباسب الأفريقية كل ذلك وسط تباين في اللباس يمتدّ من المعاطف المبطّنة بالصوف ذات الرقاب المصنوعة من فَرْوِ القَرَكول التي يلبسها سكّان المناطق المتاخمة للقطب الشمالي إلى وِزرات زنوج خط الاستواء الرثّة وتباين بين الضباط والجنود الأتراك وشيوخ البدو ذوي الألبسة المزركشة المتوهِّجة إلى جانب قوافل جمال تُقِلّ في محاملَ من الأغصان والحلفاء المجدولة حجّاجاً نعّستْهم حركات القافلة

المتمايلة.

شقّ مغاربتنا، وهم متوتّرو الأعصاب مشدوهون لهذا الكمّ من الألوان اللاذعة، طريقا لهم، حتى بلغوا كُونَاك الحميديّة، مقرّ ولاية الحجاز. ومن هناك انعطفوا نحو جعاد حيث استقبلهم في بيته مرّاكشيٌ من سافي كان الحاج علاّل يعرفه.

***

بعد أن توضّأ الحجّاج ونالوا قسطا من الراحة، خرجوا في موكب نحو مكّة. كانوا محرمين على ما تقتضي طقوس الحج. وكان الوقت ليلا والأزقة المضاءة بالأسِيتِيلين والمقاهي المزوّدة بمصابيح بترولية مكتظة بالمستهلكين والقوافل تتوافد على المكان محمّلة بالبشر. وكل هذا، مع موجات الصخب الليلي المتصاعدة، يذكّر ببعض المشاهد المنبعثة من حكاية شرقية قديمة. خرج المُطوّفون إلى الشارع وهم يردّدون نشيدا قديما: لبّيك! اللهم لبّيك! وكان المطوّف الذي يتقدّمهم، وهو مكّي ذو بطن مرتخية ونظرة باهتة، يؤكّد بصوت جهير على الكلمات التي يردّدها الحجّاج بطريقة منتظمة.

توجّه الحجّاج نحو السور. ومن باب الصفا دخلوا إلى الحرم. وظهرت لهم الكعبة. انه لمشهد عظيم مؤثر. كان الحرم ينتصب أمام الأعين المنذهلة المربكة في فناء مبلّط بالرخام. وكان المعبد المغشّى بالسواد يبرز من خلفية داكنة لا تكاد تضيئها الأضواء الهاربة المنبعثة من مصابيح تدلّت من شبكة خيوط غير مرئية. وكانت قبّة زرقاء غاب عنها القمر تغربل نورًا بدا كأنه ينزل من كواكب نجوم نزول سهام ملتمعة. وكان الهواء المشبع نداوة عقبت تصعّد النهار القائظ يزيد من فتنة المشهد ومن تحمّس نفس المذنب التائقة إلى فيض من التأليه واللانهاية.

إنها لمملكة أرواح لا يقرّ لها قرار ثبّتت في تخوم الخَيَالِيِّ والمَهيب.

بلغت الكوكبة ضواحي المعبد وانضمت إلى الحلقة المتراصّة من الحجّاج وهم في دوراتهم حول المعبد.

إنه الطواف.

وتتمثّل هذه الشعيرة في دوران الحاج حول الكعبة سبع مرّات وهو يرتّل آيات من القرآن أو يستظهر دعاء موافقا للمقام مجاريا في ذلك أداء الدليل. وتشاء العادة أن يعمد، أخيرا، إلى تقبيل الحجر الأسود المدمج في زاوية من زوايا المعبد.

والطواف ليس عادة يختص بها الإسلام. فهي تضرب بجذورها في ليل العصور التوراتية. ولقد كانت جزءًا من حفلات إسرائيل قبل أن يهدم الهيكل مرارا فيضطر عَبَدة يَهْوه إلى بكاء الحائط الذي عوّض الطّواف الدائري. فالمرء يتذكّر دورات يشوع السبع حول أسوار أريحا. إن هذا التقليد تواصل، ببساطة، عبر تعاقب الديانات التّوحيدية المحكومة بعقائد تكاد أن تكون متشابهة.

ذهب الجمع، بعد الطواف، إلى المصلّى. وهو موضع منفرد تحت المرزاب فيه نذر إبراهيم الصّرح بصلاة قربانية للعلي القدير. ومن المصلّى اتجه الجمع نحو زمْزم. إنها عين من الرخام تغطي المنبع الألْفِيّ حيث يجلب الماء، بواسطة الضخّ الامتصاصي، إلى حوض محدود الاتساع ليعاد توزيعه بصنابير يبعد الواحد منها عن الآخر نصف متر. هذه المياه ذات طعم أُجَاجٍ. وقد دلّ التحليل الكيمياوي على أنها تحوي كمّية من الأملاح القِلَوِيّة. وإذا ما حكمنا عليها من خلال المراقبة الصارمة التي تفرضها

المَحاجر الصحّية المقامة في مجموع العالم الإسلامي وفرض وجوب تعقيمها باعتباره شرطا للسماح بدخولها، فإنه يمكن افتراض أن مياه زمزم ليست خالية من عدد من البكتيرات العضوية التي قد تفسّر الأوبئة المائية التي انتشرت منذ عهد ليس بالبعيد والتي ما زال عدد منها اليوم في حالة الفردية.

كان الحجّاج يتناولون منها عددًا من الجرعات في طيسان من النحاس المُنَكَّل في حين كان آخرون يبلّلون بها رؤوسهم تَيمُّنًا. وفي هذا، هنا أيضا، شبه أكيد بالاستحمام على ضفّتي الأردن وبالنضْحِ بالماء الطهور اللذين تأسس عليهما التعميد المسيحي.

ما أن انتهى الطواف حتى غادر الطائفون الحرم والتحقوا، عبر باب إبراهيم، بنوع من الجَوَادّ صغير ومغطّى تكتنفه حوانيت على جانبيه وتنتهي برُدُوبٍ أغلقتها الحيطان. إنّ هاهنا الصفا والمروى. وهما موضعان من أمِّ القُرى القديمة كانا شاهدين على أزمة ضمير هزّت أول أنبياء إسرائيل. فلقد ظهر إبليس لإبراهيم، في الحلم، متنكّرا في ثوب مَلَك الرحمة وأبلغه رسالة مفادها أن الخالق يطالب الشيخ الجليل، امتحانا له، بأن يهبه ابنه قربانا. وعندما كان إبراهيم يهمّ، استجابة منه لإخطار وسيط الوحي، بالتضحية بإسماعيل، أرسل إليه الله، وقد أحاط علما بدجل إبليس، كبشا رائعا من المراعي السماوية حتى يقوم مقام الضحيّة التكفيرية. ففي اللحظة التي همّت فيها الشفرة بالزلق على حلق الابن أوقف الملَكُ جبرائيل اليد الطيّعة وأشار إلى إبراهيم بالقربان. فجدّ الأب والابن، وقد فُرِجَت عنهما هذه الكربة، في مطاردة المجترّ الجميل ذي الصوف المُجعَّد. وبعد كرّ وفرّ تمكّنا من الإمساك به ونحره علامة على الطاعة.

إن الطواف الراكض بين الصفا والمروى يخلّد هذه الحركة القربانية كما أن ذبح

الخروف في عيد الأضحى يكرّس ويخلّد طقسا تعَبّديّا احتفل به مرضاة لله.

عاد المغاربة إلى البيت بعد أن أقاموا كل هذه الشعائر. وفي الغد زاروا مقبرة المعَلّى. وقد اكتفى الحاج علاّل، لطبعه الميّال إلى تبسيط الأشياء، بتلاوة الفاتحة من دون أن يستسلم لفَوْرَاتِ تقوى في غير محلّها. ثم إن ثقافته المحدودة ومعارفه العامة الناقصة شيئا ما لا تسمحان له باستعادة ماض مجيدٍ استعادة شاملة ولا بتأمّل يتغذّى من أنوار فلسفيّة. لقد تفكّر طويلا، وهو أمام قبري آمنة وخديجة، واستحضر ملحمة الإسلام البطولية مجتهدا في أن يستخلص منها عددا من الدروس التي تفيد الأخلاق وانتقل إلى أضرحة أخرى. كان يلتقط، في غير وضوح، عبر هذا الصفّ من القبور شيئا ما ينْضَحُ عظمة وروحانية. وتوقف عند قبر العبّاس، أحد أعمام الرسول الذي تمكّن أحفاده، فيما بعد، من تأسيس خلافة بغداد. واستغرب أن يراه، هنا، يجني، هو أيضا، قسطه من التكريم بعد الوفاة وهو الذي حارب الإسلام في وقعة بدر وأسِر أثناءها وبقي على عدائه له حتى سقوط مكّة. ومع ذلك فقد تمتم دعاء لروحه بالراحة ثم انه خرج، وحيدا، وتاه بصره في أشياء ذاهبة بعيدة. كان الوقت منتصف النهار تقريبا. وكانت شمس ساحقة تلهب الجو. وكانت الجبال التي إليها يستند سور المقبرة الكبيرة تطلق سخونة مفرطة. وكانت الحجارة المحترقة ذات اللون الأدكن تتلاشى في التماع الألوان المتوهّجة فيتناوب بنفسجي مفجع وأزرق أكسيدي ويتحرّق المدرّج العملاق الذي يحيط بالمدينة بالأنوار المنعكسة الكئيبة ذاتها. وفي السماء كانت صقور تشقّ الهواء بطيران لا رشاقة فيه فتحوّل الحاج علاّل عنها وأشار البعض، وهو يجوزُ جرول، إلى جُشوةٍ من الحجارة. انه القبر التذكاري أو ما يشبهه حيث يرقد أبو لهب، أحد أعمام النبي الذي مات على وثنيته في وقعة بدر. مكث في المكان لحظة في انتظار رفاقه ثم عاد جميعهم للعشاء.

قضى الحاج علاّل أربعين يوما في مكّة قبل أن يصعد إلى جبال عرفات.

***

ذهب أبو إدريس منذ الأسبوع الأوّل إلى دكاكين كُتْبِيّ باب السلام. كانت رفوف الكتب وخزاناتها تكتظ بكتب واستهلاليّاتٍ زوّدتها بها مطابع القسطنطينية والقاهرة ولاهور وجامعو الكتب فيها. وكانت، في معظمها، كتبا في اللاهوت والفقه الإسلاميين. وهي تُبْلِغ، بأوراقها المصْفَرّة وأساليبها المهجورة وتنضيدها السطري الذي تجاوزه الزمن، عن أشياء قديمة. لا شكّ أنه كان هناك معاجم وكتب رحلة ودواوين وخاصة هذه المصنّفات الضخمة المتعدّدة الاختصاصات التي تميّز الأدب العربي القديم ولكنه لا يوجد فيها شيء من البحوث الحديثة. وفضلا عن ذلك فإن رقابة السلطان عبد الحميد، وهي صارمة في هذا الأمر، كانت تحرص على ذلك.

وهناك، وعند مكتبي من لاهور مُسَخَّمِ السَّحْنَة حامل نظارات ذهبية، منتمٍ إلى هؤلاء البنجابيين الذين برعوا جيّدا في التوفيق بين حب الله وحب المال، عثر الحاج علاّل على رحلتين تهمّانه جدّا. إنهما رحلتا ابن جبير وابن بطوطة. كانت معارف الحاج علاّل في التاريخ والجغرافيا جدّ محدودة. كذلك لم تكن لغته العربية لترقى الى مستوى اللغة الفصحى رقيّا يساعده على فهم المؤلّفين. غير أنه أمكنه، وقد تعرّف على أزهري من مصر وأكثر من التردّد عليه، أن يتابع معه، بفائدة، رحلات رحّالتي مغرب العصر الوسيط الكبيرين.

ينتمي ابن جبير إلى القرن الثاني عشر وكان أندلسيا. وقد اهتمّ، وهو معاصر الموحّدين وابن رشد الذي كان خصما له، بقضايا فكرية كثيرة وتنزّل ضمن كوكبة الكتّاب والمفكّرين الذين ازدهروا في هذه الفترة، منزلة ممتازة. وتعدّ رحلته سواء من وجهة النظر الأدبية أو من وجهة النظر التوثيقية عملا رائعا.

أمّا ابن بطوطة فقد عاش في القرن الرابع عشر وهو مرّاكشي ولد ومات ودفن في طنجة. ورِحْلَته إذا كانت من جهة الأسلوب ومستوى التعبير دون رحلة ابن جبير فإنها تفوقها درسا وملاحظة.

ورحلة ابن جبير تقتصر على بلاد الإسلام في حوض المتوسّط. أمّا رحلة ابن بطّوطة فهي تطال الهند والصين. وسياحاته تكرّر سياحات ماركو بولو وتصوّر، قبل الأوان، رحلات الطواف البحري حول القارات في القرن السادس عشر. ورحلة الرحّالة الطنجي المعاصر للمرينيين ولابن خلدون (الذي لم يكن يُكِنّ له كثيرا من التقدير وهذا أمر ليس مستغربا إذ لم يكن صاحب المقدّمة يقدِّر أحدا) تتنزّل، من وجهة النظر العلمية، ضمن أفضل مصنّفات العصر الوسيط المتأخّر.

كان أبو إدريس مشغوفا بهما. وقد أقبل، بعد أن شرح له صديقهُ الأزهري فصولهما الأساسية وفسّر له عددا من الفقرات المبهمة، على قراءتهما وإعادة قراءتهما فأصبحا، مع المرشِد لابن تومرت كتابيه المفضّلين.

كان يقرأهما في كلّ مكان، في بيت الضيافة، وفي المقهى وفي الحرم. وكان عندما يذهب إلى المعبد يجلس تحت الظُّلَّةِ الرخامية المخصّصة لأتباع المذهب المالكي ويتناول، أثناء انتظاره صلاة العشاء وعندما تلطّف الشمس الآفلة من أثر حرارتها في الجوّ، هذه الرحلة أو تلك ويلتحق بالرحّالتين في المحطّات التي غادرهما فيها عشيّة الأمس. كان ابن جبير يُحمِّسه. وعندما تمكّن من فهم الكتاب جيّدا تحوّل تحمُّسه إلى إعجاب. فما كان الرحّالة يرويه عن قرنه وما كان يتعلّق بحياة مكّة، حينئذ، من فجور سكّانها ومن نفاق سائد ومن اتّجار بالمقدّسات ومن جشع جامح يميِّز البدويّ ومن غريزة لا يكبح جماحها قيد، كل ذلك كان يراه ويحسُّه، هو، ويستنكره بعد أكثر من

سبعة قرون.

كان ابن جبير وهو الموحّدي الخالص المغربي الأصيل يكنّ لصلاح الدين إجلالا يفوق الحدّ. وكان يشبّه بطل الحروب الصليبية المسلم والملك الرحيم العادل الذي تعجبه حياته وأفعاله بعبد المؤمن الكبير. وبقدر ما كانت أخلاق سكّان الجزيرة العربية تسوؤه، وهو في نقده فوضى مثل هذه ينهج نهجا قاسيًا عنيفا، كان يرفع من مزايا المنتصر في حطّين ويعظّمها. لقد كان الحاج علاّل يعاين هذا الانحطاط حوله. فلا شيء تغيّر منذ ذلك الوقت بل إنه ليبدو أن الأمر ازداد سوءا.

إن ابن جبير جاء المشرق في منتصف القرن الثاني عشر تقريبا. وكان صلاح الدين متقلّدا الحكم في حين كانت طلائع الترك العثمانيين الأولى تظهر على تخوم الهضبة الأناطولية. وكان الخلفاء العرب دُمًى متحرّكة وصُوَرا مشوّهة عن الرشيد والمأمون، يذوون في بغداد في قصور لا فنّ فيها وسط جمع مشبوه من المَحْظِيَات والغلمان ذوي الوظائف المريبة.

***

كانت الفوضى على أشدها وكان الكسوف الفكري تاما ولم يتبق من الفترة المشرقة زمن الخلفاء الأوائل أو زمن البويهيين والسلجوقيين غير ظاهر داكن. وأصبحت الخلافة، هذه الراية التي تشوهت، لا تخبئ غير تفلّت أهواء خسيسة لم يعد للأخلاق فيها أي تأثير. لقد انبعث التهتك البابلي. وعندما كان ابن جبير يجيل طرفه في هذا المشهد الحزين كان الموت منذ ذلك الوقت يترصد فريسته. فالإمعة قبل الأخير كان يختم في حريمه المحمر وبين خصيانه وغلمانه حكما فاسدا باهتا لا مجد فيه. ولسوف يخلف، بعد بعض الوقت، المستعصم المستنصر الذي مات موتة لا يعرف أحد عنها

شيئا. ثم ظهر تاتار هولاكو. لقد عاشت بغداد واختفت من المسرح بمثل ما اختفت به سدوم وعمورة.

كان الحاج علاّل كلّما قرأ فصلا هاما من الرحلة يرفع رأسه ويحدّق في الكعبة ويفكر مليّا ويطوف بنظره في الجموع المطوّفة أو الجالسة حول الحرم متمعنا في سحنانها ساعيا من خلالها إلى استخلاص نتائج. كان أغلب الحجاج ينتمون إلى الفئات الشعبية السفلى وكان يوجد عدد من الأفراد الميسورين المتعلمين، على ما يظهر، يختلفون عنها مظهرا وتصرفات. وقد حصل لأبي إدريس، وهو يلاحظ هؤلاء الناس، انطباع بأنهم ينجزون طقسا آليا. ذلك أن التقوى لا تثبت، تماما، وجود رأي متنور واع واجباته الدينية. وباستثناء نخبة قليلة، فإن هذه الكتلة تأتي إلى هنا لتلتمس أشياء مباركة وتلتمس مكافآت وتطلب الرحمة ولكنه يكاد يغيب عنها الشعور بإنكار الذات. وإن هذا لمصير كل الديانات التي تشهد، بهذه الطريقة، تشويهها عندما يصيب التلف الفلسفة المتعالية التي تنعش العقيدة باتصالها بالجماهير المتشابهة.
وفي أحيان أخرى كان أبو إدريس الذي يذهب، بانتظام، إلى الكعبة ساعة قبل صلاة المغرب، يحمل معه رحلة ابن بطوطة. وإذا وضع المرء جانبا الأسلوب والتحليل النفسي فإن سحر رحلة المسافر الطنجي يتمثل في طول الرحلات ووصف البلدان البعيدة بدقة غالبا وبطريقة مدهشة أحيانا، وصفا يبعث في النفس شعورا بالانجذاب إلى الأشياء البعيدة المجهولة. وابن بطوطة، على ما كان يسعى إليه من صدق، لا يخلو من هذا الغلو في الخيال الذي يلاحظه المرء، تقريبا، عند كل الإخباريين المسلمين في العصر الوسيط. ومن ناحية أخرى، فإنه لم يكن في إمكانه أن يتجنّب هذا النسق الفكري! وعلى الرغم من ذلك فإن وصفه واستحضاره الماضي يبقيان فاخرين. لقد كانت الجزيرة العربية وفارس والهند والصين ومناطق الهيمالايا المسكونة بالأرواح قادرة على أن تفتن عددا كبيرا من الرؤوس. ولكن بيزنطة مثلما تظهر في اللوحة العجيبة التي رسمها ابن بطوطة، كان لها من السحر ما لا يضاهيه

سحر آخر.

بيزنطة! انه لاسم سحري يبعث في الخيال مشاهد مذهلة. كان ابن بطوطة قد قام برحلته في القرن الرابع عشر. وعندما شقت السفينة بجؤجئها أمواج مرمرة الخضراء المزرقّة لم يكن الهلال إذاك يرفرف فوق قباب القديسة صوفيا ولا محمد الثاني قد ولد بعد. ولقد كان الترك الذين سبق أن تمكنوا من وضع أقدامهم في أوروبا قد رسخوها في هضاب آسيا الصغرى. كانت بيزنطة شبيهة بجزيرة صغيرة يجتاحها المد الإسلامي في حين كانت قرطبة، في الطرف الآخر من عالم المتوسط تبدي صورة حرز صغير تضربه الأمواج المسيحية الصاخبة. وتماما كما كان الشأن في مدينة البوكساريس اكتظت بيزنطة بالوثائق. وكان أمراؤها الذين هم نسخ باهتة من هؤلاء الملوك النابغين مثل قسطنطين وجوستينيان قد بلغوا، هم أيضا، من الفساد القُرَارة في قصور آوت من ضروب انحلال الأخلاق ما لا يمكن أن يوصف. وكان سوترس وسيباستوكراتوس يضطربان حول قيصر نصّب للزينة مثلما كان المنتصر والمستعين وأشباههما يقلدون تقليدا قرديا أمويي العصر الزاهر.

ولكن ذلك لم يمنع بيزنطة من الاحتفاظ بألق سيتمثله الإسلام المنتصر. وهكذا كان الحاج علال يتخيل ما كان يرويه ابن بطوطة عن العاصمة العظيمة، من دون عناء، في مشهد استانبول المسلمة.

ويذهب أبو إدريس، بين الفينة والفينة، ليجلس تحت البناء الصغير الشافعي برفقة صديقه الطالب الأزهري. لقد كان الأزهري شاعرا متضلّعا في دراسة التاريخ واللاهوت. وكانت شروحه العلمية المتعلقة بأصول الإسلام تسحر الحاج علاّل. هو سلفي لكنه من مدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده التقدّمية. ولذلك كان يخضع التاريخ لتحليل نقدي خلّصه، من دون رحمة، من سلاسل خرافاته. وكان

عقلانيا. ومع ذلك فقد بقي على وفائه لخط التقاليد السليمة. كان الحاج علاّل يحسّ، أثناء اتصاله به، بأنه مرتاح. كان يتعلم منه الكثير. وكانت معتقداته تتصفّى وتتجلّى بفعل كلامه المبين البليغ. وذات يوم، وبينما كان الاثنان يستنكران محادثة نفعية جرت بين مطوّفين (كان الأمر يتعلق ببيع أمتين في قلب الحرم) لذّ للأزهري، وقد لاحظ سخط أبي إدريس، أن يلقنه درسا مختصرا في التاريخ فتوجه إليه بهذه الكلمات:

"هذه الطقوس وهذه العادات تعارض، في أغلبها، روح الإسلام وتعاليم الإسلامية معارضة قطعية. فهي ليست في حقيقة الأمر، غير عادات وثنية تستميت في البقاء متدثرة بدثار دين تمثل فيه الوحدانية والعدالة الاجتماعية الجوهر والرمز. لقد كان الإسلام، مثل كل ديانة منزلة، مثل اليهودية والمسيحية مجبرا، في خمسيات الأزمنة البطولية الماضية، على أن ينزل من عليائه الأخلاقية حيث كان يقيم الى هذه الممارسات التي ازدراها النبي والخلفاء الأوائل وحاربوها. فلقد كان الإبقاء على الكعبة، بعد إزالة الأوثان وإلغاء الوظائف الكهنوتية المتصلة بها، يطابق الرغبة في التسبيح لله من دون غيره.

"والحال أنه إذا كانت الأوثان قد اختفت، فإن الكعبة أصبحت عند هذه الجماهير (وأشار الأزهري بإصبعه الى جموع الحجاج المُطَوّفين) ضربا من التصعد اللاهي على المرء أن يَخُصّه بما يعارض بالخصوص ما خصّه به الرسول. ومما يدمي الفؤاد أكثر هو أن جنس المرائين الذي قضى عليه الإسلام انبعث من رماده. وهو اليوم يُفَرّخ على هيئة أكثر جشعا ومكرا وحقارة مما كانت عليه أيام عبد شمس وأبي سفيان.

"أفلا ترى، أضاف الأزهري، وجوه الضباع هذه التي تتناقش، على وقع تسبيح السبحة، في أمر بيع هاتين الزنجيتين التعستين اللتين تَسَرَّيا بهما، على الأقل، طيلة

عدد من الأسابيع؟ أفلا تلاحظ هذه النظرات المريبة وهذه الحركات المخادعة؟ وإذن، فإن هؤلاء ليسوا غير المحافظين المخلصين على أولئك الكهان المزيفين الذين كانت قريش تخصهم بوظيفة القيام على شؤون الآلهة الوثنية في هذا البيت ذاته الذي أقامه إبراهيم سابقا لعبادة الله.

"أفلا ترى هذا المعبد؟ إن عمره عدة آلاف من السنين. ففي هذه الأزمنة الغابرة، بعد الكوارث الطبيعية التي سببت انقراض عادٍ وثمود، حلت بهذه المناطق قبائل عربية من فرع العمالقة واتخذت منها مواطن سكن واستقر عدد منها، وهو جرهم وقطورا، بها وبنوا أوّل منازل أم القرى. لقد أبقت الأساطير للأجيال اللاحقة على اسمين منها هما مداد والسميدع اللذان أسّسا المدينة التي تضارع بفخامتها إرَمَ ذات العِمَاد. إنها الفترة الأكثر قدما إذ نبتت على ضفاف الفرات أولى الحضارات الإنسانية. إن بابل لم تكن قد ولدت بعد، لكن عيلام وسمّر وعقاد كانت منذ هذا الزمن ممالك منظمة تقول بآلهة لها معابدها وأحبارها. أما معتقدات داخل الجزيرة العربية فكانت أكثر بساطة. وكانت الآلهة المعبودة فيها أكثر خشونة. عند ذلك قدم إبراهيم. لقد وصل إلى هذه الأنحاء صحبة هاجر وإسماعيل هاربا من بلاد الرافدين حيث لم يسمع إلى تبشيره. فاستقر بها وصاهر، على ما كانت عليه العادة، الجراهمة بأن زوج ابنه من بنت أحد رؤسائهم ثم إنه استمالهم إلى التوحيد وأطاح بالحجارة المؤلهة وبنى هذا المصلى الذي أصبح اليوم حرم الإسلام.

"إن هذا الأمر لم يدم طويلا إذ سرعان ما عاد العرب الذين كانوا يفتقرون، على الدوام، إلى النزعة الروحية إلى أخطائهم الوثنية. ومرت قرون فحلّت خزاعة محل جرهم ونظم عمرو بن لُحَي عبادة الأحجار المنحوتة تنظيما تكيف مع الوثنية القديمة السائدة في أرض كنعان. وقد التجأ عمرو، سعيا منه إلى ترسيخ هيمنة خزاعة، وهي قبيلة من الجنوب، على عشائر الحجاز، وأغلبها من أصل مُضَري، إلى الدين. لقد

كانت القبائل تعيش، مثلما هو شأنها اليوم، منفصلة عن بعضها البعض فلا علاقات تضامن تربط بينها. وكانت كل مجموعة عشائرية تعيش عيشة مستقلة وتخضع لشيخ واحد وتعبد الاهها الخاص.

"لم يكن يوجد معبود حام للجنس. ولقد فكر عمرو في توحيدها بواسطة قوة مؤالفة مستمدة من الشعور الديني فاستقدم من بلاد الرافدين، في موكب عظيم، وثنا مشهورا هيئ للاضطلاع بدور إله أعلى في هذا المعبد الذي تحول إلى ما يشبه بانتيون الأمة العربية. كان هبل تمثالا من القرانيت ذا منشا كلداني رصع بالياقوت الأحمر والأزرق وكان مقطوع الذراع فعوّض مقومو الأعضاء في ذلك العهد الذراع الضائع بذراع من الذهب المُصْمَت. فالإنسان إذاك، مثلما ترى، كان هو الذي يخلق إلاهه ويدبّر أمره.

"إن هبل مثل أشور ومردوخ في بلاد الرافدين وأمون في مصر وبعل عند الفينيقيين وجوبيتير في روما، أصبح، بفضل خزاعة التي نزّلته المنزلة الأولى في المرتبية الوثنية، إله الجنس الأكبر الذي يخضع الآلهة الثانوية لحمايته.

"وقد أنشأ عمرو طبقَةً كهنوتية وتخيّل مجموعة من أشكال الطواف ومن الصلوات وأقام سورا ثقب فيه أبوابا جهّزها بمفاتيح ومصاريع ثقيلة ثم أحدث أصنافا من المناصب الكهنوتية أسندها إلى عليَة القوم في المدينة وفي القبائل المجاورة حتى يربطهم به وفرض، بعد ذلك، على القبائل وعلى القوافل الوافدة على مكة ضرائب طواف وأجبرها على تقديم القرابين للأوثان. كانت الضرائب تغذي خزينة المدينة وكانت خزاعة حامية آلهة البيت هذه تكتسب بهذه الطريقة بمقتضى الكهنوت الذي فرضت، نفوذا بدا كأنه يسعى إلى تحقيق مطامع أوسع.

"كانت مكة، تماما كما هو شأنها اليوم، تكتظ بالطفيليين الذين كانوا يتفننون في انتزاع أهم مواردهم من المؤسسة الدينية. وتكونت فيها طبقة أرسطوقراطية نزّاعة بشكل واضح إلى الحَبْرية انتهى بها الأمر إلى أن تجعل منها سببا لوجودها".

توقّف الأزهري عن الكلام حتى يسترد أنفاسه فاقترب الحاج علاّل من الطالب الشاب وقد سحرته هذه الديالكتيك التي إذا كان يسمعها لأول مرة فإنه كان يكنه منها الأساس الذي تقوم عليه.

"لم تحتفظ خزاعة، واصل الأزهري، بالحكم طويلا. ومن جهة أخرى فلقد كان الأمر، بالنسبة إليها، مستحيلا. فلقد كانت قحطانية الجذور وكانت تعتبر في مكة دخيلة شيئا ما. إن الذهنية العشائرية هي نقطة الضعف عند العرب. ولقد كانت وحدتهم القومية معجزة تعزى لعبقرية الإسلامية. ولذلك كانت مشروطة ببقاء هذه الروح. ولقد انتهى، منذ أن مات الرسول والخلفاء الأربعة المختارون، أمر هذا الخليط الذي فرض عليهم فرضا أكثر مما قبلوا به عن طيب خاطر. فأمويو الشرق لم يكتفوا بالتمتع بثمار جهود الآخرين ولكنهم اتخذوا من هذه الوحدة وسيلة لاستغلال الشعوب التي حررها الإسلام تحريرا لا رجعة فيه فاستبدلوا العدالة بالمنفعة المادية والقرآن بدفاتر الحسابات ورسالة الخلاص الكوني بمسألة النفوذ والهيبة.

"لقد اقتدت قريش، إذن، بخزاعة. كانت قريش عدنانية من فرع مُضَر ولقد حققت رغائب عرب الشمال المناوئين لعرب الجنوب. إن للذهنية العشائرية، أي وحدة الأنانية القبلية، أحيانا، عددا من المحاسن. ولكن لها مساوئ كذلك. ولقد ندد بهذه المساوئ، بالذات، سابقا، واحدا من مشاهير الغرب الإسلامي أي مواطنك الشهير ابن خلدون.

"حافظت قريش على المؤسسات الوثنية وطوّرتها وخوّلت نفسها امتيازات جديدة. ولقد استغلّت، نظرا إلى قوتها التي كانت تقوم قبل كل شيء على تجارة القوافل وعلى الربا، تأثيرها لتعزيز وصايتها على سكان مكة. كانت قريش تتكون من أقسام كثيرة: أمية وهاشم وتيم ومخزوم وعُدَيٍ وأسد وزُهر ونوفل. ولقد انتقلت السلطة، بعد فترة قصيرة من إدارة مخزوم إلى بني أمية الذين كانوا فريقين: عناباس وإياس.

"كان قصيّ الذي أطاح بخزاعة وكان أول مشرِّع عربي معروف ينتمي إلى الفريق الأول. وقصيّ هذا لم يكن شخصية هزيلة. لقد عاش بين القرنين الرابع والخامس من التاريخ المسيحي ولقد كانت الجزيرة العربية، في هذه الفترة، محفوفة بحزام من الإمارات الصغيرة الخاضعة للهيمنة الأجنبية. ففي الشمال كانت هناك إمارة الرقيم النبطية الشهيرة التي تمتد من جبل سيناء إلى ضفاف الأردن وتشمل ضمن حدودها البتراء.

— إني أعرف هذا البلد، صاح الحاج علال. فلقد اجتزته مرتين أثناء حِجَجِي السابقة، ولقد مررت بمقربة من دير نحت في الصخر رأسا كان يعيش فيه رهبان عيشة النسّاك.

— هو هذا، أجاب المصري ثم استطرد في كلامه:

"...وكانت توجد شمال الرقيم الإمارة الغسانية التي تخضع لسلطتها قبائل سوريا حتى الفرات الأوسط. كان أمراؤها رؤساء قبائل بيزنطيي التبعية. لقد تنصّروا وأصبحوا يقلدون أخلاق بيزنطة، حاميتهم، تقليدا كاملا. كذلك رفعت مدينة النخيل الواقعة بين سوريا وبلاد الرافدين العليا إلى مكانة إمارة كانت في بداية الأمر تابعة لروما. ولقد حكمت هذه المدينة ذات مرة أميرة تعتبر، عن حق، لبؤة الصحراء: إنها زينوبيا الجريئة. فلقد كانت الوحيدة التي عبّرت عن خصال رجولية من بين هذه

الجمهرة من الأمراء المستعبدين.

"وفي وادي دجلة كان الفرس هم الحاكمون وكان لهم، أيضا، أتباع من العرب: إنهم أمراء الحيرة الذين كانوا زرادشتيين احتكوا بالثقافة الإيرانية وكانوا يدورون في فلك ملوك بيرسيبوليس.

"في الجنوب لم يكن الوضع أفضل مما كان عليه في الشمال. وإذا استثنى المرء سيف بن ذي يزن فإن تُبّعَ حِمْيَر الأخيرين لم يكونوا غير دُمىً متحرّكة ينتقلون، بالتناوب، بين الخضوع لنجاشي الحبشة وسيطرة ساسانيّ أكباتان.

"وتوجد في الوسط جمهوريتان صغيرتان قامتا على نواة من الديموقراطية البرلمانية إحداهما هي نجد الخاضعة لربيعيّ كندة والثانية وهي مكة، كانت تخضع لأحبار قريش.

"أسرع قصي الذي كان يستشعر خطر تدخل أجنبي ويخشى، بحق، تصدّع اتحاد القبائل الحجازية التي لا تكاد تشدها إلى بعضها البعض وحدة الشعور الوثني بصياغة عدد من الإصلاحات الكفيلة، في نظره، بإضفاء مزيد من المرونة على وصاية قريش وبتحويل مكة إلى مركز استقطاب في إمكانه التأثير في الشعب العربي فسنّ تشريعا استمدّه، انتقائيا، من شِرْعَةِ حمورابي ومن القوانين الإغريقية واليونانية التي ما زالت معمولاً بها، إما كثيرا أو قليلا، في شمال الجزيرة. ولقد" أوهم " العرب، سعيا منه إلى فطام المكّيين وموالي قريش من العرب أو عابري مكة عن الضرائب التي كانوا يجنونها والقرابين لآلهتهم، بحق مواطنيّة عليهم أن يمارسوه بالمشاركة في مداولات برلمان يعقد جلساته علنيًّا. إنه دار الندوة.

"على أنه إذا كان للحياة السياسية أن توسّع، بهذه الطريقة، من نطاقها فإن الأخلاق انحطّ مقامها. وتجددت المفاسد عند موت قصيّ. وزادت نسبة الربا عشرة أضعاف وأصبحت الطقوس مصدر أرباح غير مشروعة. وظهر يهود خيبر، هم بدورهم، على مسرح الأحداث. وانضمّت الدعارة إلى الموكب وانتهى الأمر بالحرم إلى أن يصبح الشاهد الشريك على عدد لا يحصى من ضروب التهتك الليلي. ولقد احتفظ التاريخ باسمي آساف ونائلة اللذين اتخذا منه حِمًى يتذوّقان فيه حبهما الحرام على مرأى من آلهة المعبد التي كان عليها، هكذا، أن تلْتذّ بمشاهد ليس فيها كثير مما يمكن أن يهديء من غضبها. لقد أصبحت مكّة، إذن، مَفْسَقَةً مخيفة بدليل أن الأمر انتهى بالقوم إلى أن يروا في إبادة البُنَيّاتِ نوعا من الواجب الأخلاقي.

"هل سمعت عن عادة وأد البنات التي أبطلها محمد واستنّ ضد الآخذين بها عقوبات صارمة؟ إن هذا الأمر يرقى الى الأزمنة الجاهلية. إن هندا أم الخليفة معاوية لم تكن، على ما يبدو، مستثناة ممن اتّصفن بهذه الأخلاق التي لا رِضَى عنها. ومن الإخباريين العرب من لم يخشوا أن يصل بهم أمر استهجان سلوكها إلى حدّ إنكار نسبة مؤسس خلافة دمشق. ولكن النقد الحديث لم ير أن عليه أن يتبنّى مثل هذه المزاعم نظرا إلى أن هؤلاء المؤرّخين الرسميين ينتمون إلى الفترة العبّاسية. وفي هذه الفترة كان دأب القوم الطعن على الأمويين.

"كان المجتمع الوثني يعيش على هذه الشاكلة. وكان الوثن يُثبِّت هذه العادات بحمايتها. وهناك، أمام الكعبة، كان ينتصب هبل محاطا بآلهة ثانويّة تمثّل بالآدْيومْ قريش. هناك، قرب الحجر الأسود...

— الحجر الأسود، قاطعه الحاج علاّل في الكلام للمرّة الثانية، وهل كان إذاك موجودا؟

— نعم، أجاب الأزهري، لقد كان موجودا. ولم يكن يوجد حجر واحد وإنما، على الأرجح، عشرات منه. ويمكنك من هذا الحصن الذي ترى قريبا جدا منّا (يتعلّق الأمر بحصن جعاد) أن ترى سلسلة جبال طويلة مُزْرَقّة. إنها الغرانيت. وكثير من ذراها تمثّل رؤوسا مُسَطّحَة. إنها فوّهات براكين هي اليوم منطفئة. ولكن هذه الجبال كانت في أزمنة بعيدة، ولنقل إذا شئت قبل الطوفان، تتمثّل في موادَّ ملتهبة نتجت عن عدد من الظواهر الجيولوجية الكيمياوية ليس يمكنني أن أفسّرها لك...

— لقد سمعت حديثا عن هذه الجبال النارية، قال أبو إدريس بخجل.

— ربّما، واصل الأزهري. وعندما تحدث هذه الظواهر ينشط البركان فجأة وتستبدّ بكتلة المعادن التي يخبّئها الجبل حركة احتراق تصهرها صهرًا تنبئ به، قبل كل شيء أصوات داوية ودفْعَاتٌ نَفَثِيّة ثمّ سيلان مواد مدبّقة سوداء تنبعث منها أبخرة كَبْريتية. هذه المادة تنفلت من فوهة البركان وتنتشر. وهي تنساب في منحدرات الجبال، عبر الممرّات الجبلية والوديان. إنها الحُمَمُ. وهي تتكثّف بعد أن تبرد في وقت ليس بالطويل وتتخذ شكل هذه الصخور البركانيّة التي يمكنك أن تراها في كل مكان تقريبا على الطرق الكثيرة الحصى التي تلتفّ حول هذه الجبال العالية. إن النحّاتين العرب القدماء كانوا يستحسنون جدّا جودة هذه الحجارة التي توفّر لهم، عن طريق صنع الكثير من الآلهة منها، مَوْرِدَ رزق. فالنصب والطواغيت، أي هذه الأوثان المصنوعة على شكل مَرْكَعٍ أو مُصَلّى صغير، كان يفضّل صنعها من هذه الصخور البركانية. وحمدُها، اليوم، إنما يعني، بكل بساطة، إعادة مظهر وثني طرده الإسلام من الباب ليدخل من النافذة. على أن التقليد كرّس ذلك. ومن التقاليد ما يجب احترامه.

— لقد امتنعت عن تقبيله واكتفيت بتلاوة الفاتحة عندما اضطررت إلى التوقف

عنده.

— لكن الأمر لك في هذا، قال الأزهري، على أن هذا لا يمنع أن لا يستفيد من انبعاث الخرافات الشائعة غير هذا الجنس من القذرين الذي خلقه الله لعنة للإنسان. وأشار المصري بحركة من الذقن، إلى المكّيين الاثنين اللذين انضمّ إليهما ثلاثة خصيان سود. إن هذا الجنس وجد دائما. وكل الديانات، من دون استثناء، عانت مما ألحَقَه بها من ضرر".

توقّف الأزهري من جديد وأخرج من جيبه منديلا جفّف به عرق جبهته. كانت السخونة شديدة وكانت الشمس قد مالت بسرعة وبدأت الصقور ترسم في طيرانها دوائر واسعة فوق الحرم قبل أن تحطّ على أهلة المآذن فاقترب الشيخ علاّل أكثر من الأزهري وقد ازداد تعلّقا بهذه التفسيرات التاريخية التي استمع إليها لأوّل مرّة.

"ينطلق من مجموعة الأوثان التي يكوّنها هبل وتوابعه، واصل نصير الأفغاني، خطّان متراكزان من الأوثان. واحد منهما ينطلق من هنا، وأشار بسبابته إلى البناء الشافعي الصغير والآخر من المُصَلّى الى البناء الحنبلي الصغير. وهناك، إلى الوراء قليلا، تنتصب آلهة أخرى بوجوهها الطليقة المُحَيّا. فهناك الأصنام والأزلام والأنصاب والطواغيت أو الأنصاب. وللوثنين الأوّلين وجه إنساني ذو وِضْعَةٍ تختلف من وثن إلى آخر. وإذا كانت الأصنام قد نحتت من الحجر فإن الأزلام نحتت من المعدن. أمّا الأنصاب والطواغيت فقد كانت صروحا صغيرة مثلما تدلّ على ذلك الكلمة العربية: أنصاب.

"كانت قريش تعبد الزهرى ثم إنها، بعد أن تخلّت عنها لقبيلة غطفان، ادعت أن من حقّها أن تقدّمها قربانا لهبل. وكان وثن قيس هو الشعرى ووثن أسد هو عطارد

ووثن قضاعة هو هذيل. أما معبود الأوس والخزرج في المدينة، وهما القبيلتان اللتان كانتا، عند الهجرة، نواة الأنصار الأساسية، فكان مناة. وكانت ثقيف تعبد اللات وهوازن تسجد لياغوث وخزاعة تبخّر للعُزّى. أما كلب فقد كانت تنحر لذي الكَفّين.

"لقد كان هذا الأُولَمْب يخفي أسوأ المظالم ولكنه كان بالنسبة إلى القُرَشِيّين مصدر ثروة. ومحمد لم يقف، باسم الإسلام، ضدّ هذا المعبود الجامد الذي لا حياة فيه وضد هذه الوسيلة المضحكة، بقدر ما وقف ضد الجَوْر الذي كان يجسّده. ولهذا السبب كان الإسلام ثورة اجتماعية عظيمة.

"انك لا شك، تعرف، إما كثيرا أو قليلا، تاريخ الإسلامية، أنهى الأزهري كلامه: رسالة محمد وردّة فعل قريش وسلبيةّ العرب وما امتحن به أنصاره الأوائل وإيمان الصحابة المبكر أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ والهجرة والكفاح المسلح والانتصارات والهزائم في بدر وأُحُد والخندق وصلح الحديبية وانتصار محمد وحُنين وعقاب ثقيف والدخول إلى مكة والإطاحة بالأوثان باستثناء الحرم الذي أعيد، بعد أن جرّد من مجموعة تماثيله، إلى وظيفته باعتباره مكان تعبّد للواحد في حماسة ملؤها الشكر والتهليل.

"لقد كسّر الصّحابة، وقد تملّكتهم فورة سخط حادة، هذه الآلهة المصطنعة التي سبق أن عبدوها فهدم خالد العزّى وأطاح طفيل بذي الكفّين وضرب سعيد بن عبيد عنق مناة وكسّر عمرو، فاتح مصر في مقبل الأيام، هذيل تكسيرا إضافة إلى عدد آخر من الأوثان.

"لقد كان يجب، بعد أن وقع القضاء على الحجارة المُؤلهة، أن يتعرّضَ من استفادوا

منها للعقاب نفسه. ولكن محمّدا كان رحيما تجاه المهزومين. وفضلا عن ذلك فإن حياة النبي جميعها لم تكن غير قصيدة من السخاء بليغة سامية. ولقد كان هذا، تاريخيا، غلطة. ففيما بعد، بعد اغتيال عمر وتولّي المُسِنَ عثمان الخلافة، استولى قدماء تجار الأوثان الذين كانوا آخر من أسلم وبكل ما كان يتوجّب من حيطة، على مقاليد الأمور وأعادوا تشكيل الإسلام على شاكلة ما كانوا عليه من زيف. وكلّ الناس يعرفون نتيجة ذلك. لقد أُفرغ الدين من مضمونه الاجتماعي والإنساني واستغرقت عقيدته في صراع المذاهب والملل وبنيت على أساس من البديهيات البسيطة ادعاءات دقيقة ومغالطات منطقية لا أساس لها أخضعت القرآن لصراع المصالح والأهواء ونحلت الأحاديث مثلما تضخّمت شروح الكتاب المقدّس. فكل جنس وكلّ شعب وكل خليفة وكل مغامر استبدّ به الطموح إلى الحكم وضع له أحاديث تخدم غرضه من دون أن يسْهُوَ عن نسبتها، من دون حياء، إلى النبي.

"إنّ القرشيين، وسواء أكانوا أمويين أم عباسيين أم علويين لم يمتنعوا البتّة عن تشويه الحقيقة. إنني بالتأكيد، لا أطعن لا في هذه السلالة أو تلك فكلّ الخلافات أدّت، عموما، إلى انتشار الإسلام وإلى الحضارة وإلى الثقافة الإسلامية، خدمات لا يكون المرء منصفا إن ضرب صفحا عنها. ثمّ إن ما يجب أن تعرفه هو أن تاريخ الإسلام إنما هو كتلة واحدة. وفي إمكان المرء أن يحلّله وأن يخضعه لنقد مدقّق لا أن يجزّئه أو ينظر إليه من وجهة نظر متحيّزة. ومثل هذا الأمر لا يمنعنا، مع ذلك، من أن نتذكّر أن غالبية القرشيين شوّهوا، لسوء الحظ، الإسلام بأن وظفوه لأطماعهم وشقاقاتهم. والخرافات، شيئا ما، تولّدت من هذا الأمر. وإنني أكرّر أن الباطنية والإيمان بقدرة السحر وعبادة القبور وشعوذة الزوايا الدينية والعدد الذي يحصى من الأنساب التي تزعم أن لها رابطة بعائلة النبي، إن كل هذا ليس غير نسيج من الدجل والتعسّف...

— ما كان يجب الاعتقاد في هذه الكمية الكبيرة من البدع، قاطع الحاج علاّل

الأزهري. وأفضل اختيار هو العودة إلى السلفية.

— لا يتعلّق الأمر بأن يكون المرء سلفيّا، ردّ الأزهري ببعض الحَمِيّا، إذ لا بدّ من معرفة ما هي السلفية. إننا نعيش في عصر يختلف عن العصر الذي بعث فيه الله النبي لخلاص عالم هالك. وإذا كانت المشاعر باقية فعلى الأفكار أن تتغيّر وتتلّين وتتكيّف مع قوانين الزمان والمكان. انه ليس في إمكان العالم أن يتجنّب هذه المعضلة: التطوّر أو الانقراض. والإسلام نفسه ظاهرة تؤكّد هذه القاعدة القديمة. فركود المجتمع الإقطاعي القديم وقصور اليهودية والمسيحيّة إثر سقوط الإمبراطورية الرومانية ودجل قريش النفعي الممزوج بشيء من القَبْلانية، كل ذلك استدعى محمّدًا وسهّل عليه رسالته. إن الله الذي هو جوهر هذا العالم وغايته ومنبع الرأفة والعقل الأسمى، يمكنه، في أية لحظة، أن يتدخّل لتعديل ما تعطّل في هذا الكون إذا ما هدّد عيب ما نظامه وتدبيره.

"لقد كانت السلفية ردّة فعل على الهرطقات والنحل التي هزّت أسس التوحيد وأنهكت ما في الإسلام من قوى فكرية واجتماعية. على انه لا بدّ من التمييز بين سلفية وأخرى. وكل حركة تهدف، بحجّة تجديد الحياة في شعب أو مجموعة إسلاميين، إلى الإبقاء عليها في طور متخلّف، إنما هي حركة تستوجب الاستهجان شأنها في ذلك شأن المذهب التي تسعى إلى القضاء عليه. وإن الوهّابية الحالية هي، من جهة أخرى، نحلة. فهل تكون سمعت حديثا عن تعاليم ابن عبد الوهاب؟

— نعم، ولكن من دون أن أفهمها جيّدا. أجاب الحاج علاّل.

— إذن، فهاك حقيقتها. يوجد، وإذا شئت، يمكن تبيّن اتجاهين في هذا السياق. أولهما، وهو أبسط ما ثمّ، ولد في مخّ بدوي حاكَكَ مناظرات كلامية وتراوحت تجاربه

الوحيدة بين ما عاينه في المجتمع العراقي حيث يسود التشيّع وحياة الصحراء البطريركية البسيطة. إنّ مقاومة التشيّع لا تعني ضرورة تبني السلفية وفقا للوهّابية. ذلك أن على كل تغيير في الأفكار أن يحسب حساب قوانين التطور المعاصرة. وإلا فإن الأمر لن يكون غير تضحية بسيطة للخواء.

"على أنه يوجد، أيضا، ضرب آخر من السلفية مشبوه وقبيح. انه ذاك المتمثل في استخدام السلفية سلاحا ضد الخلافة. إنني، طبعا، لن أكون أنا الذي لا علم له بعدد من الأمور التي تؤاخذ عليها سياسة يلدز. ومع أنني أرى في عبد الحميد مسلما حازما صادقا وحاكما نابغة فإنه ليس في وسعي أن أنفي حقيقة وجود عدد من العادات المُضَمِّرَة التي نفذت حتى إلى سراي السلطان. فلقد بسط نوع من الإكليروس المجاهد الغريب عن الإسلام والذي يتعيّش من الاتجار بالدين على السلطان الخليفة، لسوء الحظ، شبكة من الدسائس تبعث على الخشية على مستقبل الإمبراطورية والخلافة. إن رؤساء زوايا ومعلّمي أسرار تتفوّق المهارة عندهم على الإلهام هم بصدد إثارة يلدز على الباب العالي بسبب ما يرتكبون من حماقات وما يأتون من جشع. إن ذكاء عبد الحميد حاد. وهو يعرف ماذا يريد وإلى أين يذهب. وهو يستفيد، بوصفة حاكم إمبراطورية شائخة، مكوّنة من قطع متنافرة تجمّدت في عادات هي في نهاية المطاف بالية وفي إيديولوجيا تخلّفت عن مسيرة الزمن، هو يستفيد من كل ما في إمكان يديه أن تطالا. إن مسؤولياته بالغة الإرهاق وهو، بإمبراطورية مثل هذه، يتصدّى لأوروبا طمّاعة ومتحالفة ضدّه. وهو يحارب ويُخاتل. وإذا كان يتحمّل تصرّفات الأوساط المعمّمة التي يحابيها ويبجّلها فإن قصده من ذلك، على الأرجح، استعمالها لأغراض سياسية عليا. وقد يكون مردّ ذلك إلى أنه كان يدور في حركة مفرغة. وعلى أية حال فإن هذا العاهل الذي استأثرت به الأسطورة منذ الآن، كان واقعيّا مجرّبا. وعلينا نحن، مسلمي هذا القرن ومهما كان تحفّظنا إزاء عدد من الممارسات التي تبدو أنها لا تتلاءم كثيرا مع روح الديمقراطية

في ديننا، ألا يَغرب، على الإطلاق، عن بالنا هذا اليقين الذي لا جدل فيه:إن الخلافة، وهي آخر معقل للإسلام، تهدّدها هجمة الغرب الإمبريالية القاتلة. ولقد سبق أن خضعت أغلب أجزاء بلاد الإسلام، إن لم يَكن كل الدول الإسلامية، لسلطة الأجنبي.

— إن مرّاكش التي هي أيضا آخر معقل في المغرب، قال الحاج علال في لهجة حزينة، تتعرّض هي بدورها، اليوم، للغزو. إن القتال يدور حول الدار البيضاء. وليس عندنا ما نقاوم به مدافع ورشّاشات الفرنسيين غير صدور أطفالنا...

"إنها غلطتكم، أكّد المصري. فلقد خصّصتم أفضل أوقاتكم لإفراط في تزمّت لم يطلبه أحد منكم. وبذلك انزلقتم على منحدر قاتل ووقعتم، مثلما حدث لكثيرين، في الإيمان بالشعوذة والسحر. لقد استحوذت الشعوذة التي لا تُعدّم البتة ضحايا، عليكم فَعَمُر بلدكم، وهو واحد من أنبل بلاد الأرض، بقبور تغطّي رفات مشعوذين وسَلْعيين وعبيد معتوهين. وجعلتم من هذه الحثالة قديسين وشهداء ورفعتموهم، بعد ذلك، إلى منزلة مؤتمنين في الأسرار الإلهية. وهكذا فإنكم بعثتم، وربّما من دون أن يخامركم شك في ذلك، الوثنية القديمة وتشوّه الإسلام بفعل هذا الخلط ويمكن القول انه أفرغ من جوهره الفكري والأخلاقي تماما. إن أخلاقكم، نتيجة ترابط صحيح بين القوانين البشرية، تخشّبت وانحطّت وهزلت وانتهى الأمر ببلد على هذه الرجولة والنشاط والمبادرة، مثل بلدكم إلى أن يستسلم لهذا الانحطاط الذي ينقضّ عليكم من كل مكان. إنكم لستم، بالتأكيد، الوحيدين الذين يعيشون هذا الوضع السيئ. فكل الشعوب المسلمة، تماما مثل شعوب أوروبا في العصر الوسيط، مرّت بهذا المَطْهِر. ومناقشتنا تتناول هذا الموضوع بالذات. ولكنّكم، انتم الشمال أفريقيين، تستحقّون اللوم أكثر من غيركم.

"ذلك أن الفكر الإسلامي تمكّن، بفضلكم، من بلوغ ازدهاره الكامل في فترة العصر الوسيط. إنكم تنتمون إلى جنس عدّ من أبنائه ابن تومرت وابن رشد وابن خلدون. وفي كنفكم لمعت قرطبة، أثينا الإسلام، لمعانا لا مزيد عليه. وتولّدت فيكم الروح والحركة الموحّدتان. ثمّ إنكم، وتماما مثل أنوار شهاب آيل بسرعة تحت القمّة الزرقاء إلى الزّوال، لم تبدوا مقاومة وأنتم تسقطون في العدم. وفي حياتكم الحالية لاشيء كثيرا، باستثناء الشجاعة والجلد، وهما صفتان ساميتان، بقي من تقاليد ماضيكم. وكم منكم اليوم يسمع بابن خلدون وابن رشد وابن تومرت؟ إنه لا بد من دراسة تفكير هؤلاء البشر المتفوّقين في ما كتب الأوروبيون لمعرفتهم وتقديرهم حق قدرهم. وأنتم، عوضا عن ذلك، ما زلتم في طور مباركة أشباه هذه النساعب ذات السّمات البشرية..."

وأشار المصري بطرف عينيه، مرّة أخرى، إلى المكّيين وإلى خَصّيْ الحرم الذين ما زالوا يتماحكون في الفناء.

"لقد فات الأوان اليوم شيئا ما. فالفرنسيون نزلوا بلدكم بعد أن احتلّوا الجزائر وتونس. إنكم تقاومون مقاومة الأبطال، نحن نعرف ذلك، ولا أحد يمكنه أن ينكر صفة الشجاعة فيكم، فأنتم محاربون جبلة. ولكن الشجاعة لم تعد، اليوم، كل شيء. لا بل إنها أمر طفيف في قرن الآلية والتنظيم الوطني. إنني أرى، على ما تكتب الصحف، أن لا وحدة بينكم. إذ يحكمكم سلطانان يتقاتلان على مرأى من العدوّ. ولكم مطالب بالعرش، هو الرّقّي الشهير، يخرّب البلد ويفقّره منذ زمن طويل. وقُيَّادُكُمْ[49] ومن تسمّونهم بالأشراف هم جميعا أو بما يقرب من الجميع مأجورون للأجنبي. إن مدنكم

[49] القائد، يطلق في بلاد المغرب على مأمور قضائي أهليّ يكلّف بالنظر في الأمور الأمنية والإدارية والضرائبيّة.

نهب للفساد. إنها، بالتأكيد، تضمّ سكّانا نشيطين وحاذقين ولكنهم مُنْشَغِلون قبل كل شيء بهمومهم اليومية. ومن جهة أخرى فإن الجهل، هذا السوس الذي عليكم أن تقاوموه وأن تواصلوا مقاومته دائما، يجعل من مدنكم مدنا غير مؤهلة لأي يقظة فكرية ولأي تحرّر اجتماعي ولأي تقدّم اقتصادي مثلما يتصوّر ذلك العصر ويقتضيه. وهذا الأمر خطير" خفّض الحاج علاّل رأسه وصمت لوقع هذه الأحداث التي ترنّ رنينا موجعا في أذنيه. كان سيل من المشاعر المتناقضة يتقاذفه وكانت أفكاره تبحث لها عن متنفّس عبر هذه الشروح. ومع ذلك فقد احتفظ بالبعض منها. وأضاف الأزهري بعد توقّف:

"وتوجد سلفيّة أخرى اتحادية عقلانية تحسب حساب الفكر والتقنية العصريين وتراعي النظام الذي تسنده الخلافة. وتلك هي سلفيتنا أي تلك التي دعا إليها جمال الدين وحلّلها محمد عبده ومدرسته. ولقد اتخذت منها الشبيبة المصرية راية ومرشدا إلى انعتاقها. نحن سلفيون في ما يتعلّق بالروح تقدّميون في ما يتصل بالمادة. ونحن نطلب تحرير الإسلام وتطهير عقائده وطرح ما أثقله من ركام التجديد الزائف وشوّهه. إننا بالمقابل، نراعي عددا من مؤسّساته التي تمكّن لوحدته الروحية والأخلاقية وترسّخ ما يقوم عليه سياسيا. إننا نتطلّب أن تتليّن أخلاقنا وتتكيّف مع دواعي الزمن. وعلى كل العوائق التي تسدّ طرق التقدّم أن تمّحي حتى لا تقع الإطاحة بها من دون رحمة. إننا نطلب الانعتاق الاقتصادي. ولا يجب أن تخيفنا الإصلاحات. ولقد ترك جمال الدين، في هذا الموضوع، مجموع قواعد جمعها تلامذته تفوق في حكمتها كل ما أمكن أن يرثه الناس من عظيم وكامل في الفلسفة القديمة. وقد صاغ محمد عبده، رَاكِحًا إلى هذه المعطيات، مجموعة إصلاحات نعتبرها مقدّمات لما سيؤول إليه الإسلام. فهذا التلميذ، وهو المفتي الأكبر في مصر، جدّد على أساس من النقد المحتشم، طرق تأويل العقيدة وسدّ الفجوات التي خلّفها شرّاح العصر الوسيط. لقد أقام، نهائيا، العقل في مقام التقليد وأحدث، بفأسه الصلبة، ثغرة في

السور المحافظ الذي كاد أن يخنقنا عبء أغلاطه وأخطائه. وهو لم يرتعب، لأنه كان رأسا صلبة، من التخويف ولم ينبهر لحظوة يلاقيها لدى الشعب.

"لقد جعل من التعليم، لأنه كان واثقا من تأثيره الحاسم، منطلق آرائه الإصلاحية ولكنه لم يتردّد، حيطة منه من عود ممكن للروح الرجعية التي كانت تشجّع عليها الأمم الإمبريالية دفعا للبس المتولّد عن رغبة في الأجنبي المسيطر في الإبقاء على الجهالة والفوضى الفكرية في البلدان الإسلامية التي يحتل، لم يتردّد في إخضاع النصوص المقدّسة لامتحان التأويل العقلي الجسور. كذلك فإنه أباح للمسلمين إيداع ما يملكون من أموال في البنوك وأن يقبضوا الفائض المستحق مبيّنا ما يميّز الفائدة المعقولة من الربا الذي حرّمه الإسلام من دون تخصيص..."

مدّ أبو إدريس رأسه عند سماع هذا التبرير. ولكنه، لأنه لم يفهمه حق الفهم، صمت.

"إن فائدة المال هي مبرّر وجود البنوك. إنني لا أدافع عن هذا النظام بل أكرهه. وأحتقره. ولكن عليّ أن أعترف بأنه ضروري خاصة بالنسبة إلى الشعوب السائرة في طريق البعث والتي ما زالت بنيتها الاقتصادية في حالة جنينية. ها هنا تكمن ضرورة البنوك. وهي تتسلّم مال المودعين وتوزّعه بحسب نسب فائدة يُمَكِّنُ الفارق بينها البنوكَ من الاستثمار ومن تنمية حجم رأس المال المستثمر. ذلك أنه لا بد من أن يتوفر لدينا المال والكثير من المال لتجهيز البلد وإنشاء مجموعة أدوات صناعية قادرة على استثمار الثروات الوطنية وتحريرنا من ثقل الواردات التي تمتصّ ذهبنا ونجدّد التجارة والفلاحة تجديدا أكثر ملاءمة لظروف الاستهلاك وتنظيم المبادلات. فلا أحد يمكن أن يودع فيها أمواله إن لم يكن متحقّقا، سلفا، من انه سوف يحصل على مكافأة تناظر فائدة معقولة.

"والبنوك، من جهتها، مثلما قلت، تؤجّر منشآت هذا المال فتتكلّف، بواسطة بناء المصانع وإقامة الورشات والتنقيب عن الثروات في باطن الأرض وتنظيم التجارة وتطوير الفلاحة، بتحقيق الازدهار الذي تستفيد منه الأمّة كثيرا. فأساس هذا النظام هو وجود المال: أي المنفعة. والحال أن علماء مدجّجين بعلم الشريعة ولكنهم يجهلون كل شيء عن الاقتصاد السياسي، حاموا، منذ قرون، حول هذه المسألة مكتفين بإصدار أحكام عليها خالية من كل حسّ عملي. ففضل الشيخ عبده الأكبر هو حلّ هذه المعادلة بإصدار فتوى في هذا الغرض. ولم يتمكّن إي اعتراض من أن يظهر على هذا القرار ذي الأهمية الجديرة بالذكر في التاريخ الإسلامي.

"إن تفكيره، وهو المسلم نصير الخلافة، كان يتجاوز، مثل أستاذه وصديقه جمال الدين، نطاق مصر، موطنه، ليشمل مناطق أوسع في العالم الإسلامي. هو لم يكن من دعاة الجامعة الإسلامية على غرار هؤلاء المُثيرين للفتن المفتقرين للثقافة ممن لم يوجدوا، من جهة أخرى، إلا في مخيّلة أوروبا منشغلة بزرع الفَزَّاعات تبريرا لتدخّلاتها العسكرية. لا. إن مبادئه في التضامن الإسلامي كانت، مثلما تؤكّد ذلك برقية تضامنه مع تولستوي العظيم، مدموغة بطابع مثل أعلى يقربه من الداعية إلى أخوة إنسانية أكبر. وإذا كان قد أولى الدفاع عن الشعوب الإسلامية عنايته، قبل كل شيء، فمردّ ذلك إلى أن الإسلام كان إذّاك هدف كل الأحقاد الإمبريالية.

"هذه هي السلفية الحقيقية، أنهى الأزهري كلامه، سلفية المستقبل والشرط الوحيد والأوحد لانبعاث الإسلام انبعاثا حقيقيا. وفي اليوم الذي تطبّق فيه مثل هذه الأفكار لن تصبح هذه الضباع وهذه الخنازير الخصيّة، قال ذلك وهو يلقي بنظرة شفقة أخيرة على المكّيين والخِصْيَة، غير حطام بشري محزن من مخلّفات عصر ولّى."

ونهض الجميع للصلاة. وبعد أسبوع كانوا في جبل عرفات.

***

بعد أن أنهت القافلة الوقفة أي الحفلة التي تكرّس الحج عاودت سيرها إلى مكّة. وعند الغسق توقفت في وادي المزدلفة حيث تقتضي العادة التقاط عشرات كثيرة من الأحجار الصغيرة، في الظلام، على الحاج، في اليوم التالي، أن يرجم بها المسلات الثلاث تذكيرا بالمرّات الثلاث التي ظهر فيها الشيطان وقد سكنه نزوّ قاهر إلى التفنّن في وسائل الدفع إلى التضحية بإسماعيل.

التقى الحاج علاّل في المزدلفة بصديقه الطالب الأزهري فترافقا في الطريق.

كان الوقت ليلا. وكان القمر ساطعا وكانت نجوم شاردة ترصّع سماء رطّبتها هبات نسيم ليلي تنحدر بسرعة بين جدران جبال متعرّجة. وكانت كتل من الحصى ومن حتات الحُمَمِ الحجرى تتساقط على طول المجرى الجاف الذي ينفذ بين جَنْبَتَيْ الوادي. إن حركة المِحَفَّات المعلّقة على ظهور الجمال والصمت الذي لا تكاد تكسّره وشوشة الراجلين ووقع الأقدام وهي تطأ الحصى ومواكب الحجاج بوزراتهم ورؤوسهم العارية وأرجلهم المنعولة وتخلخل ظلمة تشقّها تموّجات ضوء باهت تعكسه أعجاز الجبال المتعرّية، إن كل ذلك كان يسهم في إمداد هذا المشهد بسكينة تلائم الأحلام الهَلْسِيَة. لقد كان على القبائل الباحثة عن مأوى تزرع فيه خيامها زمن الآباء الأوّلين، أن تنحو هذا النحو في تنقّلها مستنيرة بنور القمر حتىّ تتجنّب سخونة النهار المضنية.

— لقد أنجزت اليوم حجّتي الرابعة. وأنا أتمنّى أن تكون الأخيرة.

— الرابعة؟ قال المصري متعجّبا. إن هذا لكثير. انه لا أحد طالبك مثل هذا الورع سيما أن هذا يتسبّب في أسفار ومصاريف مُجْحِفة. إن مرّة واحدة تكفي. وحتى هذه مشروطة بأن تتوفّر لديك إمكانات للحجّ، إضافة إلى أننا نعيش في أزمنة يتمثّل الإيمان الحق فيها في أن يكرّس المرء وقته، قبل كل شيء، لبلده الخاص، أن يكرّس المرء خالص وقته وموارده للرقي بوطنه الذي تتهدّده الجهالة والعبودية. إن هذا لهو الهدف المبين بالنسبة إلى مسلم أيّامنا هذه.

— نعم، إن هذا لحق، قال الحاج علاّل مزكّيا. إنني، الآن، أفهمك. ثمّ، وبعد صمت قصير:

— "إنني أنوي، قبل العودة إلى المغرب، أن أزور عاصمة الخلافة. إن استمبول، هذه المدينة الغامضة ما زالت منذ سفري إلى القاهرة تعمل عملها فيّ بطريقة مؤثرة. ولقد نذرت ذلك على نفسي.

"إن هذه لفكرة موفّقة، عدّل المصري. وهذه الرغبة تتسلّط علي أنا أيضا منذ وقت طويل. وأنا أتمنى أن أزورها بعد حصولي على العالمية. وهكذا فإنني سأرى بيزنطة القديمة واستمبول الإسلام ويكون لديّ، على عين المكان، متسع من الوقت لمعاينة حركات هذه المدينة حيث تتحدّد مصائر الشرق ".

في اليوم التالي، تجرّد الحجّاج بعد صلاة الصبح التي تعلن عن حفلة عيد الأضحى، من ثوب الإحرام الذي لبسوه منذ اقترابهم من شواطئ الحجاز ولبسوا ثيابهم العادية. وضحّى القوم بخروف وذهبوا إلى المسلاّت الرمزية التي قصفت بوابل من الحجارة الصغيرة التي التقطت في المزدلفة. ونال الشيطان حظه السنوي من الضربات

المُتّصِلَة انتقاما منه للحيلة التي لجأ إليها إزاء إبراهيم في هذا الوادي المنعزل. وقد تلاقى الحاج علاّل والأزهري قرب المسَلّة الكبيرة فأمكنهما، معا، أن يشاهدا من فوق هضبة صغيرة هجمة الحشد على أعمدة البناء التذكاري الصغيرة اللعينة. لقد اختتم الجزء الأول من الحج بالانتهاء من رجم الشيطان فعاد الحاج علال إلى مكة بعد أن استأذن من صديقه بالانصراف. وفي اليوم الموالي قام بطواف الوداع أي طواف الوداع حول الكعبة. وفي المساء ذهب إلى المصلّى فصلّى فيه طويلا وخرج من الحرم المقدّس عَبْرَ باب المسعى وبعد خمسة أيّام وطأت قدماه ينبع.

***

إنّ ينبع ميناء صغير اشتهر بمناخه الوخيم الذي حوّله إلى جبانة شاسعة. فالملاريا والزّحار كانا يجدان في هذه الأرض مرتعا خصبا لتفريخ بكتيرياتهما الباسيلية إذ أن بعوضة الملاريا فيها هي السيّدة. والحاج المسكين الذي يصل إلى هذا المكان وهو منتقص الصحّة يعد خروجه منه سالما معجزة. ولذلك فإن همّه الأول هو مغادرته بأسرع وقت ممكن. وقد غادره الحاج علاّل ورفاقه، بعد ثلاثة أيّام من نزولهم، في قافلة متجهة إلى مكّة.

إنّ طريق ينبع الى المدينة تسير، مثلما هو الشأن في كل دروب الحجاز الضيّقة، عبر أعِقّةٍ مُتَلَوّيَة متراكبة، بين جبال متخاصرة تنبت فيها باقات شجراتية احترقت بالشمس. وهناك عدد من برك ماء راكد هي بقايا مطرة، غير صحّية، أخّر تبخّرها تجعّد الأرض. ويُعَلّم الطريق خط تلغرافي صنعت أعمدته من الحديد. إنه لا أثر للحياة في هذا المكان أو هذا ما يعتقد على أيّة حال. ومع ذلك فإن هذه الجبال الموحشة تكتظ بسكّان يسكنون المغاور والكهوف. وهم هنا منذ بدايات الدهر الجيولوجي الرابع ويرتضون حياة سكّان الكهوف هذه. ومع أن الإنسانية تطوّرت

وانعتقت من قيودها الأولى وخضعت للقوالب التكييفية التي قادتها من إنسان جَاوَه إلى توماس إيديسون فإن سكّان هذه الأنحاء الحجرية بقوا يعيشون، على نحو نهائي، مرحلة الفأس الصوّانية. لقد مرّ الإسلام من هنا من دون أن يكون له أثر فيهم. فهل هذا لغز؟

مرّ القوم في اليوم الثاني بالقرب من بدر وهي بَرَاح صغيرة تقرّرَ فيها مصير الإسلام إذ أن انتصار محمد على قريش فيها ضمن انتصار الدين الجديد. وفي اليوم الخامس بلغوا المشاجر الصغيرة في المدينة وظهر لهم قبر النبيّ فدخلوها.

لم يتردّد الحاج علاّل في المدينة على غير القبر حيث كان يذهب يوميا للتعبّد. كانت هندسته تبدو، من الخارج، بسيطة. أما الداخل فكان، على العكس من ذلك، على أَلَق لا مثيل له: جدران غطّتها أكْسية تزيّنت برسوم تبرز على الطريقة الشرقية، صورا عربسية وزخارف تدلّ على فن متقن وطنافس ثمينة مكشكشة علقت على أعالي الأعمدة ومشاك ذات فروع منقوشة ذهبا في أطرافها كرات بلورية متعدّدة الألوان ومحراب كسي خشب أَرزٍ مُلَبّسٍ بحجارة كريمة ومنبر من خشب الأكاجو عليه نقوش قرآنية رسمت على شُرُطٍ عاجية وبُسُط من شيراز وإصفهان تغطي بلاطا ثمينا من رخام إيطاليا.

إن الضريح يضم رفات النبي ورفات كل من أبي بكر وعمر. كان أبو إدريس يحب أن يرى، مجموعين في الموت، هؤلاء الدعاة التي جمعتهم الحياة حول إيمان واحد وتعرّضوا لضروب من الاضطهاد وللنفي وأبدوا الشجاعة نفسها وأظهروا نكران ذات متطابق وأبانوا، في كل مكان، ودائما، عن الحزم عينه من دون أن يعمدوا البتّة إلى التعسّف وإلى القساوة. لقد بدت له حياتهم وموتهم كأنهما اكتمال للفضائل الإنسانية. وفكّر في نقاوة المثل الأعلى الإسلامي العادل البسيط الذي ثبت، من دون أن تشوبه

شائبة، حتى اغتيال الخليفة عمر.

يتضمّن الضريح، أيضا، قبر فاطمة بنت النبي وزوجة الخليفة عليّ. لقد عاشت، عن قصد، وهي البنت اللطيفة، والزوجة الوفيّة والأم المضحّية عيشة ظِلّيه. ولكن هذا لم يحل دون تحوّلها، بعد موتها، إلى جدّة لملايين الدجّالين من كل جنس وطبع.

زار أبو إدريس مدينة الأموات في البقيع، المرادفة المدينية لمقبرة المعلّى. وفيها يتجمّع عدد على جانب من الأهمّية من صحابة الطليعة. ولكن، هذه المرّة، للوقوف وقفة ترحّم إزاء رفات الإمام مالك. ثم إنه توقّف، مدفوعا بشعور بالفضول لا يستغرب من مغربي يعشق الأعمال البطولية والمنايا العظيمة، بالقرب من قبر حمزة، أحد أعمام النبي الذي مات شهيدا وهو يناضل في سبيل القضية الإسلامية قريبا من جبل أحد.

حدثت معركة أحد بعد معركة بدر. وفيها ألحقت الهزيمة الموجعة بالمسلمين. وقد قتل فيها كثير من متطوّعي الكتائب الأولى ولم ينج فيها محمد، نفسه، الذي جرحت وجهه ضربة رمح إلا لأنّه لم يوفّر شيئا من جهده القتالي حتى نهاية انسحاب جنده. لقد كسر خالد، وكان إذاك وثنيا، المقاومة الإسلامية بما سدّده من ضربات قاسية لكتيبة النبي. وكان أبو سفيان، اسميا فقط، يقود جيش قريش ذلك أن زوجته، هند الغضوب، كانت هي التي تقود طليعة المحاربين وتظهر استبسالا شرسا. وقد أوحت إلى عبدها، الوحشي، أن يقتل حمزة غيلة. وعندما أتوها بجثة الشهيد شقّت عن بطنه وتصنّعت، وهي تتناول بين يديها كبده، حركة افتراسها أمام نبلاء قريش.

لقد احتفظ التاريخ باصطناع هذه الحركة. وفيما بعد، وفي مكّة، ردّت، وقد جيء بها صحبة زوجها وأبنائها أمام محمّد المنتصر، على النّبي الذي سألها إن كانت هي حقّا

آكلة الكبد بهذه الإجابة المتعالية: كيف، أجابت صارخة، نبي وحقود؟ ولقد عفا عنها النبي.

وبعد اثنتي عشرة سنة، وكانت قد أسَنّت وإن بقيت على تعاظمها، شهدت، وقد أسلمت، معركة اليرموك التي تحدّى فيها خالد الذي أصبح هو أيضا القائد الأعلى لجيوش هذا الإسلام نفسه الذي ردّه بقسوة بالغة في أحد، قوات الإمبراطور هيراكليوس وأمير الغساسنة المتحالفة. لقد كانت تجيب، كلّما أوتيت بجثّة واحد من أبنائها الأربعة عشر وأحفادها وأبناء عمومتها أو عماتها أو أخوالها أو خالاتها: "فليذهب آخرون لتعويضهم".

اختتمت دورة الحج بزيارة قبر النبي فركب الحاج علاّل، عندئذ، القطار متجها إلى دمشق. كانت الرحلة طويلة فلقد دامت ما يقرب من أربعة أيّام عبر جزء من الصحراء العربية.

إن الخط الحديدي ذا السكة العادية يسلك سفح سلسلة جبال السراة البحري. إنها بقعة وعرة قاحلة تشقها كتل من الحصى الضخم وجملة مرتفعات جيرية وغرانيتية ذات لون رمادي يميل إلى الشقرة وصخور بزَلتية تشقها صدوع وتحيط بها وهاد وهُوى. ولا حياة على امتداد الخط وصفوف الأعمدة التلغرافية. وهذا، طبعا، باستثناء المحطات حيث يعلن مِلاك محدود العدد عن وجود عدد من الأشباح البشرية الضائعة في هذه المسافات الشاسعة الكئيبة. هي وادي موت. ويلذّ للطبيعة، وكأنها تريد أن تضيف مشهدا مُنَفِّرا إلى هذه السلسلة الطويلة من النجود العارية والسهول الخالية، أن تزيد من كُحُوضة كآبة المكان. فالجبال فيه تتشكّل على هيئة أشباح نحتت على صخور الجبال من كتلة حجر واحدة. وهناك سلسلة متوالية من كتل حيوانات متحجّرة وأحافير عملاقة ذات وجوه بشعة وأنصاب قبيحة

متكلّسة تعبّر عما لا يدري المرء إي فصل من فصول سفر الرؤيا. إنها سلسلة من اللوحات المنفرة والجدرانيات اللعينة والنقيشات الجنائزية تماما مثلما هو الشأن في الرؤى الجهنّمية. وهي بَستِيلَة عظيمة على طريقة دانتي تشخّص الرعب الكوني. انه لا وجود لشجرة أو نبتة أو حيوان أو علامة حياة. هي بانوراما مشاهد طبيعية هاربة تتتابع فوق كثرة من المنخفضات والشِعَاف وفوهات البراكين المسترخية في فُرُشٍ من الحُمَمِ المنضّدة فوق أجناب السلسَلة التي لا تنتهي. إنه عالم العدم الذي سبق أن أثار في هيرودوت إحساسا بالهلع قبل ألفي سنة.

كان الحاج علاّل يتابع، وهو جالس على حافلة من حافلات الشحن مكشوفة، هذا المنظر الرتيب المحزن بنظرة منذهلة. وهذا طيلة ثلاثة أيام طويلة. كانت سرعة القطار مخفّفة. وكانت المحطّات ممدّدة. لقد مرّت مدائن صالح وتبوك ومعان وبلغ القطار شرق الأردن، هذا الحزام القديم من المنخفضات التي تكوّن بلاد مؤاب. وعندئذ بدأ المشهد يتغيّر واتّخذت مظاهر الطبيعة، في اتجاه عمّان، هيئة إنسانية. فهناك بعض الخضرة وهناك سيقان متشَجِّرة تكتنف أعقّة وركام حصى يعلن عن مجرى بعض السيول الجافة. وبين الفينة والفينة يبدو حوض ماء انبجس من لا أدري أي طبقة مائية أو غزالة أو رألٌ أضاعته أمه أو رأس قنفد ملتفّة في حالة نوم أو طيران جِعْلانٍ يبشّر المسافر بأنه بلغ نهاية مسيره الغريب. كما تظهر وديان مزروعة وأشجار حقيقية وحقول قمح وبساتين وعيون وقطعان ورجال تسلّحوا بالمقاضب الصغيرة وبمقاص الشجر ونساء يحملن، على رؤوسهن، جِرَارًا، عل هيئة حمّالات القرابين الجذّابة.

على هذه الصورة دخل القوم بلاد كنعان وأخلت لوحات الموت المكان، من الآن فصاعدا، لمشاهد رعوية.

حاذى القطار ضفاف بحيرة طبرية وعبر حوران. وفي مساء اليوم الرابع دوّت صفّارة القاطرة معلنة عن الدخول إلى محطة دمشق.

***

كانت دمشق آنذاك مدينة في طور التجديد. وكانت تحافظ دوما، مثل مغناج عجوز على ظرفها الماضي. وكان بردى يسقيها سُقْيا نهر ذي جمال هادئ بمنسوب معقول لا يَهِيجه أي فيضان مفاجئ. وكان بحر من الخضرة النديّة يحيط بها من جميع الجهات. وكان جامع الأمويين يشرف عليها. كان الحاج علاّل يذهب إليه كلّ يومٍ قبل الشفق. فالسلام الذي يعثر عليه فيه كان يعمل عمله فيه ويحسّ أن ما يغمره من سيل أحاسيس، عندما يأتي ليسند ظهره إلى قبر القديس يوحنّا المعمدان (النبي يحي عند المسلمين) إنما هو الأحاسيس نفسها التي كانت تغمره، في المدينة، عندما كان يذهب ليجثو عند رفات النبي.

ثم إنه ذهب فجثا عند ضريح صلاح الدين. وبعد ذلك طوّف في دمشق جميعها من الصالحية إلى ضواحي الميدان والشّغور الشعبية وتسكّع بمحاذاة بيرقدار والأنهج التي تمتد على طول غياض الغوطة الفريدة. وإذ بلغه أن عبد القادر كان مدفونا في المهاجرين قرّر أن يزور الموضع الذي يستريح فيه واحد من أشجع مقاومي المغرب. ذلك أن ذكريات عائلية قديمة أوحت إليه بادرة مثل هذه فقد قتل واحد من أعمامه في إيسلي وشهد آخر معركة مقتة[50]. ثم إنه ودّع مدينة معاوية وصلاح الدين وأبحر من بيروت حاملا معه رسالة توصيه إلى تاجر جزائري في القسطنطينية، على متن باخرة تابعة للأسطول البحري العثماني بالذات كانت تعيد من اليمن إلى الوطن

---

[50] سنة 1835 بين عبد القادر والفرنسيين.

مجموعة من الجنود وقع تسريحها. وبعد ثلاثة أيام وقبل غروب الشمس بقليل كانت الباخرة تدخل مضيق غاليبولي. وعند هبوط الليل كان جؤجؤ السفسنة يمخر، في وضح نور جميل ينشره القمر، زبد بحر مَرْمَرَة المتورّد. وفي اليوم التالي، وفي الوقت الذي عوّض فيه ضوء المطلع خيط الفجر الأبيض المبهم، دوّت صفّارة السفينة وصعد الحاج علاّل إلى السطح. كانت القسطنطينية، أمامه، تبرزسافلتها الشاسعة من وراء ستار من الأبخرة تطردها نسمة، ببطء، إلى الجنوب. جحظت عينا أبي إدريس.

استامبول، مدينة الإسلام وعاصمة الخلافة وقلب المدينة ذات الألف قبّة وذات تاج المآذِن المُتَوثِّبَة، بفخارٍ، نحو سماء شهدت فيها بيزنطة، سابقا، تألق صليب من قادتهم النجوم إلى بيت لحم لعبادة المسيح[51].

استامبول التي أخذ على نفسه العهد، حين كان في مكة، أن يأتي فيراها وينهي، بوقفة نذريّة أمام قبر الفاتح وأيّوب، حِجّته الأخيرة!

والآن، ها هي استامبول هناك وفي متناول نظره.

كانت الأبخرة تتفرّق في سُجَفٍ عريضة تغرقها الشمس الطالعة في لُوَيْنات صدفيّة. وكانت السماء تبدي، عبر فتحات تتسع باطراد، حَنِيّتها اللازورديّة الباهتة التي لا تنسجم إلا قليلا مع زرقة الأمواج المُخْتَدِمة. كانت الباخرة تتقدّم. وكانت المدينة تتألّق والماء، وهو يتدفّق أَزْرَقَ شفّافا، كان يحيط بها من كلّ جهة. إنها لؤلؤة رصّعت في بناء من الفيروزج. ويرى المرء فيها غابات من صواري سفن من كل الحمولات

[51] Les Rois mages

ومراكب شِرَاعيّة وفُلَيْكَات بخارية وسفنا مروحية للنقل العمومي ومجدافيات وقوايق. والقوايق في القسطنطينية تتنزّل منزلة الغناديل في البندقية. وغير بعيد على اليمين وفي اتجاه برج كيز–كوليسي رسى الأسطول الحربي الإمبراطوري. وعلى بعد قليل منه، قرب ميناء دولمة باغستي يخت السلطان، الأرطغرل، ذو اللون الأبيض الناصع والصواري والمدخنة الصفراء الآخذة إلى الحمرة والحيزوم الرمادي الغامق.

حلّ وقت الاستيقاظ فاقترب أحد الجنود المسرّحين من الحاج علاّل وشرع، في الحال، مدفوعا بفرحة العودة إلى مدينة المولد، في وصفها له.

كانت رأس السراي تتقوّس مباشرة أمامهما بما تتضمّن من قصور قديمة حوّلت متاحف. وفي الوسط يحوي جناح ذو طراز تركي يشرف على روضة تمتدّ على طول الشاطئ، رفات النبي الذي اؤتمن عليه العثمانيون منذ عهد السلطان سليم. وعلى علو قليل ينتصب جسر جَالاتا الذي وضع على مدخل القرن الذهبية، بين نهج جالاتا وأمين أونو على عتبة انهج تجارية تؤدّي إلى ييني جامع. والى اليمين توجد أنهج جالاتا وبيرا الكبيرة الكسموبوليتية حيث تحتكّ أجناس أوروبا بمشارقة الإمبراطورية: يونانيين وأرمنيين ويهود وخِلاسيين متنوّعين ذوي أصول غير مؤكّدة. إنها مقر القنصليات والبنوك ومحالّ الأعمال. وفيها يرى عدد من الكنائس والمدارس التي تمارس تبشيرا لم تعد له صلة تربطه بمملكة السماء أو بحب الإنسان البسيط الخَيْري. وفي هذا المكان يوجد نزل توكاتليان. وفي موضع أكثر بعدا تقع ساحة تكسيم والضواحي التي تتجه هبوطا نحو الشيخلي والمدرسة الحربية.

وإلى اليمين، أيضا، وفي موضع أكثر انخفاضا وفوق تقبّت الأرصفة التي تفصل القرن الذهبيّة عن البوسفور ينتصب جزء من المدينة على هيئة مدرج يمتدّ حتى المرتفعات التي شغلتها القصور. وفيها تنتظم سلسلة من الأحياء ذات الأسماء التاريخية: توب

هاني ووليدة وبيشكتاش ونيشانتاش وفندقلي وبيبك. وفي الأعلى تقع يلدز، مقر إقامة السلطان. وفي الأسفل دولمة باغتشي، مقر إقامة ولي العهد.

وإلى اليمين، دائمًا، وعلى مسافة أبعد، تقع تركيا الأسيوية. إنها امتلاء أحياء غرزت فيها قصور ومساجد ذات بياض مَرْمَري. هناك، أوّلا، قاضي كيني ورصيفه وحيدر باشا ومحطته النهائية حيث تنتهي كل خطوط النقل الآسيوية ومدرسة الطب وأسكودار وشمليجة وشيبوكلي. وهناك، إيغالا في الصعود نحو البوسفور في البحر الأسود، أبراج حصار وكاواك البيزنطية.

ومن جهة ضفة البوسفور الأوروبية تنعقف الطريق التي تمتدّ من توب هني إلى بييك لتبلغ، وهي ترتفع على هيئة مراق فوق تلّ متموّج من الروابي، ضواحي بويوك ديري وتيرابيا (حيث شيّدت أوروبا سفاراتها ومفوّضياتها على طراز اجتهدت فيه كل أمّة في أن تظهر أكثر ما يمكن من البذخ حتى تبهر الشرق) ولتبلغ، قبالة الأطلال ذاتها الممتدّة على ضفاف آسيا، الضواحي التي تتوّجها آثار أبراج ومعاقل الروملي حصار التي ما زالت قائمة في مشهد قديم مُحَيّر. وعلى يسار جسر جالاتا، وفوق رأس القصر، تتدرّج المرتفعات التي تقود من توب كابو إلى القدّيسة صوفيا وتتبسط في اتجاه السلطان أحمد بمسجده ذي المآذن الكثيرة. وهناك المضمار التي تخفق عليه ذكرى سباق الكُدْرَيِجيات زمن الباليولوق والكومنين ومتاهة طرق المواصلات نحو الباب العالي وسيركيجي ومحطتها الأوربية ونورى عثمانية...

وفي البعيد سان ستيفانو. وعلى يمينه أحياء مزدحمة بالسكّان تعرف من هِدفَتها، وأغلبها من الخشب، الخِربة. وتحت ظُلّة من الضباب الذي يتمزّق في أفق ذي رسومٍ متباعدة تظهر سقوف قرميدية لا تكاد تتغاير وكتل أبنية مغموسة في ضبابة من للكٍ تار. ويتنبّأ المرء في هذا التكويم الفوضوي الشرقي، حصرًا، بوجود برج يني كولي

القديم المحاط بأساطير تستعصي على التناول.

ومن جسر جالاتا تبدأ القرن الذهبية. إنها خليج كبير وضرب من ضروب سواعد البحر يمتد على مسافة عشرة كيلومترات ويغور في الجزء الأوروبي من القسطنطينية فيشطّره شطرين متساويين. ويقوم عليه جسران. فمن ناحية الغرب تقع استانبول، المدينة التركية الصرفة. وإليها ينضمّ، في ما يثير الاستغراب، الفنار، هذا الحي القديم الذي كانت تقيم فيه العائلات البيزنطية القديمة والذي هو اليوم مقر البطريرقية اليونانية. أمّا في الشرق فتقع مجموعة الأنهج والأزقّة التي تُصعّد من ضواحي جالاتا وبيرة لتنتهي عند عقفة الخليج. وفي الخلف، وعند منعطف القرن، يقع مسجد أيّوب ومقابره المرصّعة بتلال تناسقت فيه صفوف السَّرْو والجُمّيْز.

أرست الباخرة على بعد أحضان من طرف السراي. وكان الحاج علاّل يتبيّن على الوجه الأكمل الحركة المستمِرّة فوق جسر غلطة حيث تنتقل جموع متحركة متشاغلة من ضفّة إلى الضفة الأخرى.

كان بانوراما عظيما ينشر نطاقه فوق المدينة. وتبدو، تحت سماء زرقاء، مساجد القسطنطينية الكبيرة. وعدد منها هو كنائس قديمة والأخرى استقلّت بفنٍ تحرّر من التأثير البيزنطي وتمكّن سنان، الفنان النابغة، من إنجازه بأن شاد فوق استانبول هذا التاج من الصروح ذات الخطوط الخالصة والأبعاد التامّة وأضفى على المجموع من التناسق ما به يُخيّل للمرء أنه أكربول مجنّحٌ. كان المشهد يفتن النظر. وكانت عينا أبي إدريس تتنقّلان، في صمت، من مسجد إلى آخر على امتداد المنظور الذي يحاذي مياه الخليج المُسَخّمة إلى النهاية حيث تبين بصعوبة، مئذنة أيوب. ومنها، في بداءة الأمر، القديسة صوفيا. إنها كاتيدرائية قديمة وضعت أسسها، على ما يروى، أثناء حكم تيودوز، ولم تكتمل إلا بعد نصف قرن نتيجة إضافات وتصويبات انتهت بأن

جعلت منها جوهرةً خالصة من الفن البيزنطي. ولقد بقيت المثال الكلاسيكي عليه. وهي ذات قياسات مرَبّعة الزوايا، ضخمة، تزيّنها قبة ذات نطاق محدّب يزنّره حائط ذو مشاكٍ. وهي مازالت تحافظ على حنايا بواباتها ذات الزجاجيات المخَرَّمة وإن حجبتها الإضافات التي تعرّضت لها بعد تحويلها إلى غرض آخر. وتحيط بها مآذن أربع. وهي تنتمي جميعها إلى الطراز الإسلامي التركي الذي تبين عنه المسحة السنانية. وقد أقيمت على قواعد اسطوانية محدّبة ذات خديْدات مستقيمة تحيط دائرة بموصلها ممّا يعطيها مظهر بعض الأعمدة الكورنثية المرفوعة في الهواء. وفعلا فإن الحافة المخصّصة لآذان المؤذِّن لا تخلو من نوع من الشبه بعمود أقنْتيّ. ولمسجد السلطان أحمد الواقع فوق مسجد يني جامع ما للقدّيسة من ترتيب تقريبا. ففيه العدد نفسه من المآذن وفيه القبّة نفسها. ثمّ يَلي مسجد السلطان بايزيد وبنايات سراس كريات الفخمة ومسجد سليمان العظيم: وكُنْيَتَهُ العظيم هي مثل كنية القانوني. ويقع، في قلب إستامبول، على ربوة أكثر علوّا، مسجد الفاتح الذي يخلّد ذكرى فاتح بيزنطة الذي يرقد رفاته تحت بلاطه. وتظهر، في الشمال الشرقي، وراء قناة الماء البيزنطية مئذنة إدرني كابو. وفي الخلف، على حَنِيّة القرن، مئذنة أيوب. وهي تنبثق من مدائن المقابر الإسلامية القديمة. ومن فوق الماء مجموعة صفوف الأحياء التي تمتد من أمين أونو ويميش إلى الفنار لترتفع حتى فريكوي وكياغت هاني وقُبُلاً، ومن الجهة الأخرى من الضفّة مرتفعات بيرا وبرج غَلَطة. وهو برج إنذار قديم حُوّل اليوم إلى عمود إشارات. هو يشرف على المدينة والميناء والأتلال المجاورة. ثم يلي ديوان حاني وقاسم باشا والترسانة وهاسكوي وهو غيتو القسطنطينية.

كان الحاج علاّل الذي استند إلى درَبزين السفينة ويداه على خدّيه، مستغرقا في تأمل هذه المدينة بعينين مفتونتين. فلا فاس ولا الجزائر ولا تونس ولا القاهرة بهذا الجمال الرائع الذي منحته الطبيعة، وهي سخيّة في هباتها عندما تقرّ النفس على العطاء، حاضرة قيصر بيزنطة التي أصبحت عاصمة السلاطين ومقر إقامة الخلفاء. كان الذهول

قد ارتهنه تماما عندما اجتذب الجندي الذي وصف له المدينة رفل جَلاّبته وقد بدأ في النزول من الباخرة. تثبّت الحاج علاّل من رسالة التوصية التي يحملها معه وهي باسم مغربي مقيم في القسطنطينية. كان هذا الشخص يملك حانوتا صغيرا في بويوك شارشو، البازارالكبير المغطّى في استانبول. وإذ كان من الصعب عليه أن يتبيّن طريقه في هذه المدينة المتاهة فقد عرض عليه الجندي المُسَرّح من اليمن أن يقوده إليه وذهبا إلى تحتا كالي حيث تعوّد الشمال أفريقيون في القسطنطينية على الاجتماع في مقهى. وهناك وجدا عددا كبيرا منهم.

كان أغلبهم من التونسيين. وكان عدد من هؤلاء مقيما مع عائلته والعدد الآخر، وهو مكوّن من تجّار نسيج من سوسة وصفاقس وجربة، يتردّد على هذه المدينة موسميا. وكان يوجد فيها، أيضا، جزائريون. لقد استقبل فيها الحاج علاّل بفورة فرح. أن يحلّ مغربي بإستانبول فتلك نعمة غير متوقّعة. أجلسه القوم وبدأت أنواع الاستهلاك تتداول من يد إلى أخرى. وفي الحال بدأت الأسئلة حول شمال أفريقيا تنهمر. وبعث في طلب التاجر الذي وجّهت إليه رسالة التوصية من دمشق. لقد كان قبائليا مُسِنًّا من تيزي وزّو حَلّ بالقسطنطينية عقب حَجّة، هو أيضا، وانتهت به مصادفات الحياة إلى أن يستقرّ فيها. كان يدعى الحاج بشير. كان مجيئه إلى استانبول يرقى إلى حكم السلطان عبد العزيز. ومنذ ذلك الحين امتهن التجارة وتزوّج وأنجب أطفالا. وفيها عرف رغد العيش. ولكن ذكرى أرض الميلاد استعصت على الامحاء من ذاكرته. إن مفاتن المدينة الخليفية والثروة المكتسبة والحياة الحرة لم تتمكّن من أن تُنسيَه ذرى جُرْجُرَة الوَعْرة المُعَمّمة بالثلوج. وصورة وطنه البعيد بقيت على الدوام نابضة في قلبه. وفي كلّ مرّة كان يبلغه نبأ مرور مغربي بالقسطنطينية يسرع في الحال إلى لقائه ويصطحبه إلى بيته حيث يحيطه بضيافة سخيّة حَفِيّة.

كان الحديث يدور حول المغرب عندما وصل الحاج بشير لاهثا عرقانا متعثّرا في جبّة

الحاج التركي التي كان يرتديها. كان مسنّا بما فيه الكفاية. وكانت لحية منثورة تطوّق خدّين ممتلئين حمراوين ترك فيهما جُدَري قديم آثار نُدَبه. وكان طربوش معمّم موصلي يغطّي رأسا مدوّرة قليلة الشعر. كانت قامته القصيرة وبطنه المكتنزة يشِيان بطبع جَذِلٍ بشوش.

عانق الحاج علاّل وجلس على كرسيّ مدّ له ونادى صاحب المقهى وهمس عددا من الكلمات في أذنه واستخبر بعد ذلك عن صحّة ضيفه الجديد واستعلم عن صديقه في دمشق وبدأ، وهو يدنو من الحاج علاّل، حديثا معه حول البلد. حمل صاحب المقهى طبقا نحاسيّا يحلّيه إبريق الشاي وكؤوسه الصغيرة. كانت باقة من النعناع الغضّ تنبثق من كأس ماء. ثم جيء بسلّة من الحلوى التركيّة. وبدأ الحاج بشير، وهو يشمّر كُمّي جبّته، في إعداد الشاي وفقا للعادة المرّاكشية.

كان يلقي في الإبريق بقبضة من الشاي الأخضر ويسكب عليها قليلا من الماء الفائر ويغسل بالماء المحتوى ثم يفرغه في كأسٍ. ثم انه يقحم باقة النعناع، بعد أن يشطرها شطرين، في الإبريق ويضع فيه قطعا كبيرة من السكّر ويسكب، من جديد، على المجموع ماء ساخنا يحدث، وهو يقع عليه، صوت شلال صغير. كان المغاربة يتأثرون لهذا المشهد. والوجوه التي كانت قبل قليل جدّ منتعشة هي الآن تتجمّد وتتابع، في صمت ديني، الحركات التي يأتيها الحاج بشير بوقار إمامٍ مستغرق في صلواته. إن رائحة الشاي المنعنع المُدَوِّخة واللهجة المغربية التي ترِنّ حول هذه الطاولة والجلابة المخالفة للمألوف بين البذْلاَت الأوربية والجُبب، كانت تَلُف هذا الركن الصغير من المقهى التركي بحنين يمكن فهمه من دون عناء.

اصطحب الحاج بشير ضيفه إلى بيته في الشيخلي فمكث فيه شهرًا قضّاه في زيارة عجائب استانبول الفخمة. كان في كل يوم يذهب لأداء واجباته الدينية في واحد من

المساجد الكبيرة في المدينة ثم انه صعد بعد ذلك نحو الضواحي الغربية حيث زار خرائب كولي ثم ذهب، في حجّة ثانية، إلى أيوب.

استقلّ من رصيف جسر غَلَطة واحدة من هذه السفن المروحية الموظفة للغرض واستغرق المسير أكثر من نصف ساعة ولم يخل من متعة. مرّ الحاج علاّل أمام الفنار حيث شاهد مقرّ البطريقية المسكونيّة وأعجب، في قاسم باشا، بنموذج الحي التركي حيث يحافظ الشرق الهائم الأبدي بالاختلاط على طابع بنيانه المختلط البالي. إلا أن ما أعجبه أكثر هو المئذنة التركية ذات الجذع الممشوق المتثوّب. فلقد تبيّن فيها هيئة رشيقة تختلف عن هذه الهيئة الدائرية أو المربّعة النزاعة الى الحنبلة التي تميّز مساجد المغرب. وبعد أن مرّ تحت قبب جسر أون كابان القديم ظهرت له العطفة التي بنى أيوب في منتهاها أسفل التلال المجاورة بمقبرتها الكبيرة وسَرْوها. وبقدر ما كانت السفينة تقترب كانت نفحات برودة تندفع في تواتر من جبال فيري كُوي بفعل تيارات البحر الأسود. كان الوقت ظهرا وكانت الشمس الهابطة وراء مساجد استانبول تلقي على منازل القرن وحدائقه أشعّة من نور خفيف. وكانت تمخر الشريط البحري فليكات وصنادل وقوايق. دوّى صوت صفير واقتربت السفينة من الرصيف الصغير فنزل منها الحاج علاّل.

تمتدّ صفوف من القبور القديمة المرمرية التي يعلوها نصب جنائزي ويغطيها المِشْوَذ (إذا كان القبر يَضُمُّ رفات متوفاة يخلو القبر من زينة الرأس) على طول غابات السرْو في حقل زرع خُنْثاتٍ. وتُبِين نقوش ذات خطّ متقن عن الأسماء وتواريخ الوفاة. وتوجد قبور كثيرة ضاربة في القدم انهارت لإهمالها فلفّها النسيان، لفقدان أقرباء أو أصدقاء، في كفن ثان. والموتة، في هذه المرّة، تكون نهائية. ومن القبور ما هو كبير وما هو صغير. ولا وجود هنا لنشْز ضريحي ولا لحُشوة على الطريقة العربية التي تطارد فيها البداوة التي هي شنيعة في ما سبق من الحياة، الإنسان، بشراسة، حتى وهو في

القبر. إن علاقة الأتراك بالأموات تبدو متطوّرة كثيرا على ما هي عليه عند شعوب الإسلام الأخرى. إن مقبرة أيوب ليست، بالتأكيد، على ما هي عليه مقابر أوروبا من صيانة بالغة ولا على ما هي عليه حقول القديسين في ايطاليا من إسراف في عرض مناظر العظمة عرضا يحوّل ساحة مأتمية إلى معرض للسناء الفني ولكن نَدَاوَتَها ونظافتها وهدوءها وأرضها المسوّرة وسروها وحمامها وزرقة القرن الذي يحيط بها كل ذلك يضفي عليها حالة من السلام التأمّلي الذي يحرّك الشعور في نفس المتوحّد الباحث عن الصمت والخشوع ويفتنها. وتدلّ الشواهد على أن عددا من القبور يرقى الى فترة موغلة في القدم. مرّ الحاج علاّل من وسط سرب جائل من حمام تعوّد على أن يحصل من الزائرين على زاده من الذرة، هذه الدراويش المجنّحة ذات الطوق المتفزّح أنّسها برّ يومي ميّز أجيالا كثيرة من الورعين. إنها قريبات حمامات القديس مرقص المسلمات.

دخل أبو إدريس إلى الضريح بعد أن ألقى بعدد من حفن الذرّة إلى الحمام. كان أبو أيوب، حامي المسجد، أنصاريا وواحدا من أنصار النبي بل إنه كان ذاك نفسه الذي استقبله في بيته، في المدينة، وكان قد أتاها فارا من اضطهاد قريش. وقد اشترك في كل حروب الإسلام. وقد كان، لمزاجه التوفيقي، واحدا من هؤلاء الذين خفّفوا أكثر من غيرهم من غُلواء سعد بن عُبادة رأس الأنصار عندما اقتربت المنافسات حول تولّي الخلافة في سقيفة بني ساعدة من أن تؤول إلى تنافس وإلى دسائس غاية في الخطورة. وفيما بعد انضم إلى الأمويين وعيّن قائد فيلق الحملة التي قرّر الخليفة معاوية أن تشنّ على بيزنطة والتي مات فيها أبو أيوب على أسوار هاته المدينة إثر وباء أهلك الفرق العربية. ولقد دفن في موقع المكان نفسه الذي لفظ فيه النفس الأخير وانخمص قبره الذي أبعد مع قبور أخرى إلى قطعة أرض صغيرة غمرتها مياه القرن شيئا فشيئا في الأرض التي دفن فيها. وقد أمر محمّد الثاني، بعيد انتصاره، أن تجرى أبحاث انتهت، بعد عناء شديد، باكتشاف القبر المغمور في حقل تردّد عليه

الحيوانات الليلية. وقد قام حول النشز الضريحي قبر ضخم تلاه مسجد وفي نهاية الأمر مقبرة كبيرة. وأصبح المكان الذي باركته من ناحية صفة أبي أيوب ومن ناحية ثانية غلبة الفاتح، محجّا للإسلام القسطنطيني الذي اتخذ من الأنصاري حاميا جديدا للمدينة. لقد كانت حالة من القداسة تفيض على هذا المكان وكان أمل كل تركي أن يدفن، في يوم من الأيام، في هذا الناووس الشهير. لقد كان خلفاء عائلة عثمان، قبل الجلوس على العرش، يأتون هذا المكان لتقبّل البيعة الرسمية وتكريس وظيفتهم وتمجيد ما آل إليهم من ملك. وأصبح اكتشاف القبور المنسيّة أو الضائعة تقليدا عثمانيا. كانوا يثابرون، تقْوًى كبيرة منهم وفخرا بصفة فاتحي العقيدة، على أن يعيدوا، في كل بلد فتح وضمّ إلى دار الإسلام، قبور عدد من أبطال الإسلامية الضائعة إلى حالتها الأولى. فأمر سليم الأوّل بالبحث عن قبر ابن عربي في دمشق وعثر عليه. ونجّى مُرَاد الثاني ما تبقّى من قبر أبي حنيفة من موج دجلة الفاتك. إن قبر ابن خلدون في القاهرة هو الاستثناء الوحيد إذ ما زال غير معروف إلى أيامنا هذه. وقد يكون ذلك نتيجة ما تجتهد فيه الطبيعة من ثأر من الفلسفة. فلقد كان صقر الأطلس، أثناء حياته، يحبّ المرتفعات الشاهقة والذّرى السَنِيّة حبّا لا يسع الموت معه، وهو تجسيد ما بعده تجسيد للغدر، إلا السعي إلى أن يَمحو في الأرض كل علامة مادية تُذكّر به. ذلك أن ابن خلدون هو فعلا الجدل بين مبدأين متناقضين يصعب التوفيق بينهما. خرج الحاج علاّل، وقد أدّى ما عليه من واجبات دينية، من المسجد، وذهب فجلس قريبا من قبر تزيّن حزازه ببزر الذهب. كانت الشمس الآن قد هبطت وسادت سكينة ضريحية لا يكاد يؤثر فيها هديل الحمام الشبعان قمحا. وكانت أشجار سرو مخروطية طويلة تلوّنت بخضرة داكنة تحرس المكان. وأبعد منها أشجار جمّيز. وكانت المياه الخضراء المزرقّة تَنْخَطِمُ، قُبُلا، بالزبَد حول قوائم أون كابان. وعلى جانبي القرن تَتَمَدّد المنازل في توتّر قوس نحو الآفاق التي تحدّدها ذرى مرتفعات غَلَطة. امتلك اطمئنان مطلق أبا إدريس. كانت مئذنة أيوب تنتصب بالقرب منه في سكون شبيه بهذا السكون الذي يفيض من القبور القديمة المتراصفة

حواليه. وتخيّل نفسه، وهو في هذه الحالة من الاستلاب والاستسلام، أمام جذب المكان، في عالم غبطة. واستدعى، من دون شعور، مقامات فردوسية تمتزج عنده بذكريات حنين إلى أرض الميلاد. وتذكّر في ما يشبه المنام بلده وقبيلته وأقرباءه وابنه. واستذكر مراحل سفره. ورفّ عليه ظلّ الأزهري. وبدأت نتف من خطاب المصلّي تطن في صُدْغَيْه. كان يجد، وقد نزلت عليه عظمة استانبول بكَلْكَلها، مثل فيلسوف هيمات الهارب من صخب أثينا، لذّة لا توصف في التمتّع بهذه الراحة في مجتمع الأموات. وقد رسخ هذا المشهد في ذاكرته مثلما ترسخ الصورة في صفحة العدسية المرئية المثبّتة: المسجد والمنارة والقبور والسرو والحمام والخُنثات وأزرار الذهب وأشعة الشمس المنعكسة على القرن وعجائب سنان والورد الهادىء في أرض الأموات المسوّرة. وفي ما بعد سيحكي لابنه مائة مرّة مشاهد هذه البستيلة الرائعة.

ولن يفوت إدريس، في فاس، وهو طالب في القرويين، بعد أن يكون قد تعلّم الفرنسية وأقبل بكدّ على الأدب الفرنسي وعرف لوتي وتذوّقه، أن يطابق بين ما أقامه ساحر الكلمة الكبير من علاقات رابطة بين الانطباعات التي أحسّ وانطباعات أبيه. وسيسعى، غالبا، كذلك، وبناء على الحكايات الأبوية إلى أن يحدّد المكان الذي كان عارف حِكْمَتْ يذهب فيه، بعد أن تخلّى عن سفينته، وقد أفقد الشُّبُق رأسه الصواب وطارده حلم المسافر المقتفي أثر الفتنة الشرقية، وحيدًا، في عزلة السرو، للارتماء في حضن أزيادي.

كانت الأمواج الشّفقية تُغْرق أيوب وكانت الغابة تتدثّر تحت الأنوار اللبنية الشفّافة المحتضرة في القديسة صوفية، في ثوب فضفاض من الصمت الذي يعمّره اقتراب الليل بجنِّيات شاردة. إنها الساعة التي على حواريّات البحر، أخوات أزيادي، أن يخرجن من أصدافهن فيفتِنّ بلطفهن وسحرهنّ هذه الأماكن.

***

وفي اليوم التالي امتطى قايقا وذهب إلى إسكودار فقضّى فيها ما بعد الظّهر وجزءًا من الليل. كان النظر يشمل، من المسجد الصغير الذي ذهب إليه لقضاء واجباته الدينية، أفقا رائعا. كانت ضفّة أوروبا تتنضّد أمام ناظريه على هيئة مدرّج ذي مَرَاق غير متساوية من مصب نهر البوسفور إلى مدخل القرن الذهبي. وكانت تواجهه، تماما، مجموعة الأحياء التي يشرف عليها قصر يلدز.

يلدز، انه مقر اقامة البادیشاه!

كان القصر الذي أقيم على رابية تتحكّم في مدخل ساعدي البحر، سلسلة من الأجنحة بُنيت رُكُوحًا إلى معطيات هندسة ذات طِرَازٍ مختلط. والمجموع كان أنيقا. وفي الأسفل يقع قصر دولما بهجتي الذي اقْتُدِيَ فيه بطراز النهضة وبني على الرصيف، رأسا، بأعمدته الرخامية ومسجده الصغير الفاتن الذي طَوَّلَتْه مئذنة مُنَمْنَمَة. كان المشهد يخطف البصر. وكان البحر قد اكتظ قوايق. فالوقت كان وقت التفسّح والنزهة البحريّة. التمس إمام المسجد، عملا منه بتقاليد الضيافة الإسلامية، من الحاج علاّل أن يشاطره الغذاء فنزل عند رغبته على الرغم ممّا كان ينتظر من لوم الحاج بشير لأنه كان يريد أن يمكث على سطح المسجد حتى الليل طلبا للمزيد من التمتّع بهذا المشهد. فتعشّيا فوق السطح ثم تناولا القهوة. ولكن المحادثة لم تَدُمْ طويلا لأنه لا أحد منهما تمكّن بما فيه الكفاية من أن يفهم كلام محادثه فبقي الحاج علاّل منفردًا، على السطح. وفعلا، فقد كان الليل جميلا. لقد دقّت الساعة التاسعة واكتست القسطنطينية بسنائها الليلي.

لقد ترصّعت القبّة الزرقاء كواكبَ والْتَمَعَ هلاَلٌ بِملء نوره فوق السراي وهبّت نسمة خفيفة من الشمال حاملة في ثناياها فوحان البحر. كانت الأنوار في كلّ مكان: حول المساجد وفي المنازل المنضّدة التي تنبثق من كل الجهات والتي تعطي أضواؤها التي يَعكسها شُفُوفُ المياه، المدينة الضخمة هيئة سِربٍ من الحُباحِبِ يضيء الليل بأشعته المتفَسفِرة ومن السفن الراسية في عرض البحر، ومن السماء المشرقة بنجومها اللامعة ومن آفاق بعيدة تقوّست خطوطا متوهِّجَة فوق أهلة القديسة صوفيا ومن حشد القوائق المنسابة على الأمواج انسياب هذه الزوارق الخفيفة ذات الحَيازيم التي تعلوها الصفّارات والتي كانت تركبها قديمًا أمازونيات بيزنطة. ومن يلدز، بالخصوص. لقد كانت الأرض والبحر والسماء، كان كل ذلك يتمَوّج أنوارا في ما يشبه جوّا من المجد حتى يبرز الباقة المتوقّدة التي تتوّج الصرح الإمبراطوري.

كان أبو إدريس الذي جلس شابكا يديه في ركبته قد استغرقه التأمل في هذا المشهد الأخّاذ. وأحيانا كانت أضواء المدينة التي حاصرها الظلام تبدو كأنها ترتفع فيبعث المشهد جميعه في ذهن المرء لا شعوريّا بتأثير ضرب من الوهم الخادع، الفكرة التي كوّنها عدد من الناس عن حدائق بابل. بعد ذلك اختفى الهلال وساعدت الظلمة التي عقبت الالتهاب السابق في مزيد من توضيح الأنوار المتلالئة في الفضاء. كانت همسات تتموّج في الهواء وكانت مجاديف القوايق تُسْمَعُ، في هبات الهواء، وهي تلطم خدّ الماء محدثةً صوتا شبيها بارتداد الأمواج عند اصطدامها بحاجز.

بقي الحاج علاّل في حالة الافتتان هذه وقتا متأخّرا إذ لم يتمكّن من أن يفطم نفسَه عنها. وعندما نزل من العَلياءِ متّجها إلى رصيف إسكودار كان عليه أن ينتظر وقتا غير قصير قبل أن يتمكّن من ركوب قايق كان ينقل، بالذات، سَهّارين إلى ضفاف أوروبا.

***

اصطحب الحاج بشير في يوم الجمعة التالي ضيفه إلى احتفال السلامليك إذ عبّر الحاج علاّل عن رغبته في ذلك مرّة بعد مرّة. كان يحرص، قبل أن يغادر القسطنطينية، على رؤية السلطان الخليفة الذي كان اسمه إذاك يجذب انتباه العالم الإسلامي والعالم. وذات يوم ذهبا قبل منتصف النهار بقليل، إلى يلدز عبر أنهج مصعّدة مبلّطة مجهّزة بدرجات عريضة. لم تكن المسافة التي يقطعها السلطان من قصوره إلى مسجد الحميدية كبيرة جدّا. إنها عدد لا يكاد يبلغ مئات الأمتار. كانت تقاليد الحفلة معقّدة وتتطلب مظاهر أبهة كبيرة. كانت قوى ضخمة تنشر للحراسة. وكان أصحاب الرتب العالية في الإمبراطورية يُشْرَكون فيها باللباس الرسمي وفق النظام الذي تقضي به طقوس البروتوكول. لقد أضفى بذخ الزركشات والزخرفات الخارق والتسلسل الصارم وصفوف عساكر الاستعراض المتّصلة وألحان جوقة البوّاقين وهتافات الجمهور وبريق عظمة عفاها الزمان ولكنها مازالت مدهشة، على الاحتفال مظهر هيبة يوافق تماما أبّهة الشرق الذابلة شيئا ما. لقد كان عبد الحميد، وريث معاوية وهارون الرشيد، يواصل تقاليد هراكليوس وكسرى.

لقد تمكّن أبو إدريس، في هذه المناسبة، من أن يرى آخر خليفة في الإسلام. وهكذا استجيب لطلبه في مكّة.

لبث، مع الحاج بشير، وسط جمهور كثيف بوجه خاص، على رصيف يحد الممر الأساسي الذي يوصل إلى الحميدية. كان النهج يصعّد على هيئة درابازين. وهكذا وجد الحاج علاّل ورفيقه نفسيهما، رغم الستارالذي كوّنه المتفرّجون وصفّ العساكر، في موقع يمكّنهما من الاستمتاع بالموكب الذي سيتابعانه عن قريب. اصطفّ فيلق من المشاة في زيّ استعراضي في صفّين مزدوجين. وكان الجند يرتدون

البرّة النّيْلِيّة ذات الياقة الحمراء المرفوعة والكَتِفِيّات باللون نفسه والبنطال المُحشى بشريط حريري أحمر هو أيضا ويحتذون السوقاء ويتمنطقون النطاق المُجَعَّب وعلى الرأس الطربوش القِرمِزي ذو الشرّابات الحريرية الصغيرة المتهدلة. كانوا، وقد ركّبوا حِرَابهم، في حالة استراحة. وفي لحظة محدّدة بدأ المدفع يجَلْجِلُ. واستلّ الضباط أسلحتهم وأصدى عدد من الأوامر الموجزة. واستعدّ الجنود في حركة متصلّبة موقّعة ورفعوا السلاح. ومرّت، خَبَبًا، مفرزة خيّالة يقودها ملازم أول، رافعة الرمح المتموّجة البقع، شعار الخلافة. وتعاقبت خمس أو ست مفرزات تفصل الواحدة منها عن الأخرى دقيقة. ثم ظهرت عربة فاخرة مجرورة على طريقة دومون يحيط بها موكب من ضباط الحرس الخليفي مسلولي السيوف. هتف الجنود بهتاف التعييش القانوني. وتعالت موجة من التصفيق في حين بدأت الموسيقى تردّد النشيد الوطني. دلّ الحاج بشير رفيقه على السلطان عبد الحميد الجالس في مؤخّر العربة وعلى يساره الصدر الأعظم الذي تجمّد في مكانه مكتوف اليدين، في حالة احترام تفسّر جيدا تيبّس بروتوكول البلاط العثماني القديم.

كان عمر عبد الحميد، إذاك، سبعين سنة. وكان حكمه قد تجاوز الربع قرن بكثير. لقد كان واحدا من أكثر فترات حكم سلالة عثمان تقلّبا. فالإمبراطورية الكبيرة جدّا المتكوّنة من أجزاء مختلفة كانت تشبه خليطا من الأمم المختلفة أصولا وذهنيات وعقائد. وكان أساس البناء الإمبراطوري وهيكله يعتمدان، اجتماعيا، على معطيات جعلت منها قوانين التطور معطيات قديمة باطلة. ففي عصر أصبحت فيه القومية تكيّف عمليّا حياة الشعوب لم يكن يسمح، في الإمبراطورية العثمانية، بأي فكرة قومية تحدّدها مبادئها الطبيعية التي هي الانتماء إلى الجنس أو الهويّة المتمثّلة في اللغة والثقافة. وكانت قد نابت عنها السياسة الأكثر ملاءمة وهي سياسة إسلامية يلطّفها عدد من المراسيم ذات الأساس السلالي. هذه السياسة الإسلامية كانت مبرّر وجود هذه الدولة العثمانية التي تألّقت في التاريخ تألّقا يبعث على الإعجاب.

لقد كانت تلك سياسة عثمان وبايزيد والفاتح وسليم والقانوني. ولقد بقيت حجر الزاوية في الدولة حتى هذه العصور الأخيرة، عصور الآلية وعقلية المصرف وصراع الطبقات الناجمة عن قوى الإنتاج الاقتصادي الأوروبية الشرسة.

إنه يوجد الكثير مما يمكن قوله في من أطلقت عليه عبارة السلطان الأحمر. ومهما كانت الوسائل التي استخدمها في حكم إمبراطوريته وكذلك المدى الذي بلغه استبداده، فإنه يوجد، على الأقل، أمرٌ يمكن أن يتفق عليه النقد التاريخي وهو دهاؤه ومعرفته العميقة بالرجال اللذان جعلا منه واحدًا من أكبر الدبلوماسيين في العصر الحديث. ولقد وظّف، بمهارة، هذه القدرة حتى النهاية. انه لم يكن في إمكانه أن ينجح، بالتأكيد، في مشروعه إذ ليس في الإمكان تجنّب أحكام القدر بالوسائل التي يمكن منها النبوغ الفردي. ولكنه استطاع أن يقف في وجه أوروبا وأن يقاوم قوى التحلّل في إمبراطوريته طيلة أكثر من ثلاثين سنة. فمستقبل الإمبراطورية العثمانية لم يكن باهرًا. ولقد كان على السلطان أن يثبّت، وهو الواقع بين أوروبا مندفعة من دون لجام في دورة فتوحاتها الإمبريالية وحالة تمرّد مزمنة تنخر آخر قوى الإمبراطورية وحركة عناصر مثقّفة تقدّمية ثورية أحسّت بضرورة إحداث تغيير جذري عاجل في نمط الحكم، كان عليه أن يثبت، وهو قابض على دفّة سفينة مثل هذه، أنه يمتلك قدرات نادرة في المناورة تنقذ الدولة من الغرق. فالملاحة في مثل هذه المياه الصاخبة كانت، من غير شك، شاقّة. ولم تكن الإمبراطورية وحدها مهدّدة بالغرق ولكن الخلافة كذلك. وهكذا فإن المسؤوليات التي تحمّلها عبد الحميد لم تكن بسيطة على الإطلاق.

وعندما لمح الحاج علاّل السلطان، في هذا اليوم من أيام الربيع المنتهي، كان يبدو طاعنا في السن وقد تحدّب ظهره وغرق وجهه الذي حفت به حَلْقَة عقدية شيباء يحدّها أنف أقْنى، في شحوب يكسبه هذه الهيئة الكئيبة شيئا ما التي تكتسبها وجوه

هؤلاء القدّيسين التي نلاحظ عند البدائيين. كانت عينان كستائيتان حادتان على الدوام ترسلان نظرات تدلّ على طاقة متيقّظة دائمًا تميّز بها عاهل عوّدته أجيال من الأجداد على السيطرة والقيادة.

كان يحيّ الجمهور بساعده الأيمن رافعا أصابع اليد إلى ارتفاع جبين منتفخ يغطّيه الطربوش الصغير الأسطوري. ولقد مرّ أمام الحاج علاّل في جلجلة من الهتاف والصهيل. صرخ الحاج بشير مع الجمهور بعدد من كلمات التحيّة التقليدية في حين تحوّل خدّاه من الوردي الفاتح إلى القِرمِزيّ. أما الحاج علاّل فقد نظر إلى الخليفة نظرة مشبعة مشاعر دينيّة خالصة يشقها نوع من القلق الغامض وطأطأ في صمت رأسه. إن تعليمه القليل لم يكن يسمح له بكنه أسرار الوضع. لقد كانت غرائزه تعبّر حقّا إما عن الحيرة أو الرِّضَى تبعا لما يبدي من أحكام مختصرة على الأشياء. ولكن عقله الذي كان قليل الدربة، يخور أمام القضايا المعقّدة التي تطرح من حوله. وليس كل شيء على ما يرام في الإمبراطورية. وإذا كان الحاج بشير، مرشده، يصوّر له كل شيء تصويرا متفائلا في عروض لا تخلو من النكهة فإن الهمس في البيوت والمقاهي يَدُلّ الحاج علاّل على أن شيئا ما في البناء الشاسع مختلّ. وكانت كلمة سرّ تردّد من دون انقطاع على الشفاه: المشروطية أو بعبارة أخرى: الإصلاح الدستوري.

لم يكن الحاج علاّل يفهم هذه اللغة. فتعاطفه مع الإمبراطورية والخلافة ومعتقداته الفطرية بوصفه مسلما وفيّا ينزعان به إلى الحذر من تغيير النظام الذي ترسّخ على امتداد القرون والذي يتبيّن فيه خلاص الإسلام. ولقد كان خليفة استانبول يلخّص في عينيه كل الماضي الذي تشدّ بلده إليه طائفة من العرى الروحية والاجتماعية. كان يحسّ بذلك إحساسا يكفي لإثارة قلقه من الجعاد البادية على سطح هذا البحر المضطرب ولكنه، وهو سليل جنس لا يعوزه الذكاء، كان لديه هاجس بشيء ما غامض ومزعج يودّ أن يدفعه. ومع ذلك قضّى الحاج علاّل عند مضيّفه في

القسطنطينية ما يزيد عن الشهر بقليل. وفي كل مرّة كان يبدي فيها الرغبة في السفر كان الحاج بشير يحتجّ على ذلك. كان هذا الرجل الذي يعيش شيخوخة حياة خارج بلده يمتنع عن الانفصال عن رجل يحب فيه وطنه الضائع. وتوجد روابط تفوق الحدّ تشدّه إلى استانبول حتّى يتمكّن في يوم من الأيّام، في التفكير في العودة إلى بلاد القبائل، بلاد الولادة.

لقد كان يكتفي بأن يمتصّ من كل مواطن قليلا من هذه الأفريقيا الشمالية التي رصدتها وقفات التاريخ أمدا طويلا للمصائب والتي لم يحبّها أبناؤها البتّة إلا عندما كانوا ينفصلون عنها فيحسّون، آنذاك تحديدا، بجمال سماواتها وبالحنين إلى مدنها. إن للأطلس مثل هذه الأسرار. والذين حازوا شرف الولادة الفاجع في أحضانه يحسّون بذلك حتى القبر. إن المغرب لهو بلد بني سراج.

سافر الحاج علاّل أخيرا. وقد حصل له الحاج بشير، وهو مستسلم، بواسطة أصدقائه، على تذكرة رحلة بحرية على متن سفينة إمداد بالجند كانت على أهبة الإقلاع نحو طرابلس أفريقيا. فذات يوم جمعة غادر استانبول في أمسية فاترة غائمة والقلب مُغْتمّ والعينان متعلّقتان، بيأس، وكما هو الشأن إزاء عناق أخير، بالقباب والمآذن التي تحيط العاصمة الخليفيّة بِكُنَّةٍ أِثيريّة. وبعد أسبوع نزل أبو إدريس في المدينة البربرية. وهناك علم، بفضل برقيات المورس، بخبر الثورة التركية والإعلان عن المشروطيّة. لقد أرغم الجيش السلطان على التخلّي عن الحكم المطلق وعلى القبول بالإعلان عن دستور يقوم على الحرّيات البرلمانية.

لقد تزيّنت المدينة الأفريقية بالأعلام ورحّبت مدفعية الحصون بالحدث بإطلاق صَلْية تعدّ مائة طلقة مدفع وطلقة. شارك الحاج علاّل، من دون أن يفهم دائما حق الفهم أهمّية هذا التغيير الذي قتل فيه وزراء وانهال القوم على أبي الهدى الشهير،

بعد أن طورد في قصره، بضربات الأحذية، في الاستبشار العام مُرخِيًا العنان لهذا التفاؤل الصلب الذي هو علامة المزاج الشعبي الأصيلة. ولكنه هذه المرّة فهم أمرًا فهما نهائيّا. هذا الأمر هو أن روح الشرق قد تغيّرت وانه على كلّ بلد، من الآن فصاعدا، واستنادا إلى القوانين الخالدة التي أملتها الأرض والدم وإلى دروس تاريخه، أن يحرص، بنفسه، على خلاصه الذاتي. ذلك أن الفكرة القومية كانت تخترق الفكرة الدينية. إن هذه لهي النتيجة التي استخلصها أبو إدريس من المحاورة بينه وبين الأزهري في بيت إبراهيم تحت الكعبة المهيبة العتيقة التي مثّلها عبد المطلب، جدّ النبي، قديما بنوع من الجلال الخالد.

ثم إنّ الحاج علاّل استأنف، وقد استعاد عصا الترحال، الطريق إلى الجبل.

في ظل تيزران

عاد أبو إدريس إلى الجبل وكانت تلك هي سفرته الأخيرة. لقد اغتنت هذه المرّة أفكاره. فلقد تخلّى، وهو المسلم المستقيم، عن كلّ خرافة وتعصْرنت معتقداته وأصبح ينظر إلى الأشياء بمنظار أكثر صقيلا، فوقف، وقد استفاد من تجاربه، موقف من يستفظع الطرقية ومن يعيشون منها بخداع الجماهير الشعبية من دون رادع يردعهم. لقد أصبح الآن يعرف أن عرضا للتقوى مثل هذا لا رابطة تربطه بالدين ولا حتى بالتصوّف الذي لم يكن يُمثل منه غير ثوب رثٍ قبيح.

لقد كان الجبل، تماما مثل مرّاكش والمغرب، مغطّى بقبابٍ تعيش في كنفها أجيال من المشعوذين الذين أحيطوا، بفعل الزمن والغباوة السائدة، بنوع من القدرة على التأثير مستمدّة من الخوف من الفَزّاعة الراقد في مِنَصّة نعش تحت بلاط قبر. كانت عائلات كاملة من الطفيليين تثري وتتنفّذ وتمنح نفسها أنسابا عرجاء تجهد في الارتقاء بها، بسذاجة، إلى أَرُومة النبي. وهكذا بدا كأن نظاما طبقيا مخالفا للإسلام وخاصة للمزاج المغربي هو بصدد التمكين لنفسه على أساس حماقات مثل هذه.

إن الحاج علاّل الذي مدّته التجربة بنقد على قدر من الرهافة، لم يفته أن يلاحظ وفرة الدم الزنجي التي تميّز هذه الطبقة من محرِّفي الأنساب. وفي أغلب الأحيان، عندما يشرع في تشييد قبّة هذا الذي مات، يبطُؤُ زمن الاتصاف بالقداسة الضروري لخداع الجمهور فيتأكّد وجود دلائل نموذجيّة تقنع الشقيّين السذّج مثل حالات شفاء إعجازي وحصاد وافر وتنجية من السحر بالتعزيم وإخصاب نساء عواقر أي كلّ ما

تعذّر من سحر مُسْتَجاب له أو مُعَزّم عليه بواسطة تدخّل سلطة خارقة للعادة يمكّن بسهولة لثقة العامي من الناس في المشعوذ المتسلّح بالتمائم والسبح أي لردّ الاعتبار للطلسم ذي العلامات القَبلانيّة التي ظنّ أنه غرق، نهائيا، بغرق العالم الوثني. إنه لشرور العصر الوسيط الأوروبي الذي أنصب، مِدرَارًا، عن طريق إسبانيا المتنصّرة من جديد، على أفريقيا الشمالية، هذه التي سبق للإسلام أن أنقذها من أَذِيّة الوثن والإيقونة المفسدة.

كان ما يقدّم من قرابين لروح وليّ المكان، في البداية، قليلا. ثم جاء زنوج لا يدري المرء من أي مكان وأسّسوا حول القبر طابورا من المتطفّلين وسمّوا أنفسهم خَدَمَة للقدّيس يتلقّون، ثمنا لصيانة القبّة، ما يجود به الورعون من عطايا بُعيد كل كارثة يقع دفعها أو طلب تقع الاستجابة له. وعندئذ يقع اقتسام الحيوانات المضحّى بها من الديك العجوز المنتوف الريش الى العنز المهزولة. وفي بعض الأحيان يقدّم عجل غَضّ طِريّ ذبيحة قربانية. ويذيع الصيت وتزداد الهبات. ويتعاظم شأن طبّالينا الزنوج فيستغلونه للتدخّل في شؤون القرية وهو الخطوة الأولى نحو تدخّل أوسع في حياة القبيلة. ويصبحون مرابطين فيبدأ عدد من البلهاء، من عجائز النساء خاصة، في تقبيل أذيال جلابياتهم.

ويختفي هذا الجيل فيكبر زنوج صغار متأثرين خطاه. وتبرأ خدودهم من الشجّات التي كانت العلامة المادية على الانحطاط الأَسْلاَفي بعد أن يكونوا قد لبسوا الجلابة الزرقاء أو البيضاء ويشيّدون زوايا. وفي الجيل الثالث، يرسمون أنفسهم أشرافا قرشيين مؤتمنين على الروح الإلاهية التي لا تنسب الى غير ولد محمد الخليقين به. وتتوافد الزيارات من كل جهة وتنقلب الأدوار فإذا بالعبد القديم يتزيّى من دون كلفة بعمامة السيد. ومع ذلك فإن هذا لا يعني أن جنس المشعوذين هذا ينحدر، جميعه، من أرُومة وحيدة ذات لون بشرة آبَنُوسِيّ. ففي الجبل حيث ينفر الدم القومي من أن

ينحطّ إلى مثل هذا التمازج، تنتدب الشعوذة المرابطية عناصرها على عين المكان. ولكن الطرق هي نفسها والنتائج، في الحالتين، مُخيّبة للآمال.

كان الحاج علاّل، دائما، يفكّر، وهو يرى هؤلاء الطفيليين المُتَقَلْنِسين ذوي الرقاب التي التفّت حولها سبح تائبين مزيّفين ثقيلة، في مناقشاته مع أزهري مكّة. ولقد بثّ، منذ وقت باكر، في إدريس حذره من هؤلاء المتاجرين بالبركة.

***

كانت مرّاكش، في هذا الزمن، تشكو مرضا اجتماعيّا آخر هو قطع الطرق ذو السمات الإقطاعية. وكانت الفترة التي عقبت عودة أبي إدريس إلى البلد واحدة من أحلك الفترات المرّاكشية. فالفرنسيون الذين نفذوا من الشاوية كانوا يزحفون على مكناس. أما وجدة فقد احتلّت منذ زمن طويل. وكان الإسبان قد نزلوا في أصيلا والعرائش. وأصبح الحديث يدور حول مشاريع حملة على الريف والجبل. كانت الفوضى سائدة في فاس. وكان سلطانان[52] يتنازعان، على مرأى من المتنافسين الأجانب الكامنين، على شبح سلطة على بلد في حالة تحلّل تامٍ. وكان مغامر من الصنف الخَسيس هو الرُقّي بوحمارة يُدْمِي مراكش مُدّعيا أن له، بمقتضى بُكُورِيته، حقّا في ملك حرمه منه وزراء مولاي الحسن ويُسَرّع عمليّة تحلّل المخزن. وكان قد وجد زعماء محلّيون شقّواعصا الطاعة ولجؤوا ومن دون شفقه، إلى استخدام وسائل العنف الحاسمة.

وقد عرف الجبل واحدا من هؤلاء الملوك الجبليين ارتبط اسمه ارتباطا فاجعا، وكأنه

[52] هما عبد العزيز وعبد الحفيظ.

انفلت حيّا يرزق من رواية من روايات ادمون أبو، بانهيار الإمبراطورية الشريفية. ولقد دلّ على عهد سطوته اختطاف أوروبيين في طنجة وابتزاز مدن ساحلية وأعمال عصيان مسلّح ضدّ سلطة الحكم المركزي. وعندما اعتقل وسُجن وحكم عليه بالقتل تمكّن من الهرب وعاد إلى قبيلته ليستأنف سلوك لص قاطع طريق. لقد اضطر السلطان أن يرسل عليه محلّته. ولكنه تمكّن بعون من قبائل تخشى النظام لأنها تتخوّف من القضاء على حياة الفوضى التقليدية التي درجت عليها، من تجنّب الخطر لا بل انه استخطف ماك لين المحيّر الذي كان يرافق إحدى الحملات بوصفه ضابط تدريب. وهذه الحادثة جدّدت التعاطف معه على الرّغم مما انجرّ عنها من تزايد ضعف سلطة المخزن وتبرير إمكان تدخّل أجنبي. لقد وقع إطلاق سراح ماك لين بعد دفع فدية من دنانير الإمبراطورية بنى بها اللص المذكور قصرا أنيقا في مدينة أصيلا ثم انه وظّف قساوته ومكره لخدمة اسبانيا.

إن الرّقي، هذا اللصّ، و"قُيَّاد" الجنوب الإقطاعيين ينضافون الى باعة السُّبَحِ ليشكّلوا صنفا معيّنا من الجنس الشرّير الذي كانت أفعاله الباهرة تنفرش أمام عيني الحاج علاّل بُعَيْد عودته من المشرق. وبمثل ما أطلع إدريس على مآخذه على طُفيْلِيي الدين، عوّده، كذلك، على ازدراء نخّاسي الحرية في بلده.

لقد وجدت، بالتأكيد، على هامش هذه الجمهرة، وجوه استثنائية نبيلة. فمراكش التي تركت للفوضى وغدر بها واختلطت عليها الأمور لم تعدم أبطالا قادوها إلى النضال وحافظوا، على الأقل، على شرفها. واغتنى المغرب المليء منذ الأمس بأسماء مجيدة، بوجوه ملحميّة جديدة فكان منها إقطاعيون من كبريات العشائر المترحّلة مثل محمد أو حَمُّو الزياني، هذا الذي كان فارس ملاحم حقيقية رفض التحالف مع العدوّ وشرع في قتال استمرّ إلى أن لقي موتة تليق بحياته متصدّيا لقوى متفوّقة عددا. ولقد كان للمغرب أيضا، يوم أن مات ترموبيله الخاص. وكان منها

رؤساء زوايا، مثل سيدي رحوّ، عرفوا كيف يتقيّدون بقوانين الشرف وتحدّوا، بإباء، العدوّ تحدّي رجال شجعان شرفاء. وكان منها تجّار من عيار محمد أمَزْيان، فاتحة أبطال الريف. وكان منها فلاحون بسطاء مِقدَامُون أضفوا على المقاومة الوطنية طابعا إغرائيّا لم يفقد، على ما كان عليه من ظرفية، شيئا من شجاعته واتصافه بأكثر المزايا رجولية.

لقد كان هؤلاء هم الذين عرضهم الحاج علاّل على إدريس قدوةً وذلك على الرغم من أنه كان يطمح إلى أن يراه يسلك إلى إنقاذ بلده طريقا أخرى هي طريق المدرسة والمشروع الاقتصادي.

***

هذا هو الوسط الذي شبّ فيه إدريس. فقد كان يَسُدُّ، بملازمة أبيه، فجوات التعليم المختصر الذي تلقّاه على يدي سي عبد السلام. إن حكايات الرحلات وما مثلته حياته من قدوة ونضال القبائل ضد الغزاة، كل هذا أثر في شبابه وفتح عينيه على آفاق جديدة. لقد أصبح سي علال، بين أبناء جلدته، شخصية جديرة بالاعتبار. فلقد أكسبته رحلاته في بلدان بعيدة شهرة تتجاوز نطاق قبيلته. ولذلك استغلّها لنشر أفكاره السلفيّة التي أصبحت منذ الآن تصطبغ بصبغة وطنية جَلِيَّة ذات مسحة تقدّميّة. لقد أصبح يتمثل حقيقة ما جرّب في خضمّ التحوّلات التي كانت آنذاك تهزّ العالم الإسلامي جميعه. وقد اتخذ، من البدء، موقفا مناهضا من اللص المسلّح الذي كان يخرّب شمال مراكش لا سيما أن هذا المغامر كان يدّعي، مثلما جرت على ذلك العادة منذ قرون، أنه شريف. وعلى الرغم من فساد المخزن ومشهد الحرب الأهلية وتفريخ المطالبين بالعرش وزمرة الوزراء و"القُيّاد" والأشراف المزعومين الذين باعوا أنفسهم للأجنبي، وحبوط همّة البلد، أعلن الحاج علاّل عن موالاته القصر

وشارك في مِحَلَّة بوشته بن البغدادي التي أرسلت على المتمرّد وذلك على الرغم من انه لم يكن ينظر بعين راضية إلى وجود اسكوتلاندي ضمن هيئة أركان الرتل السلطاني.

لقد قرّر الإسبان، بعد عام من عودة الحاج علاّل من مكة، فتح الريف فاجتازوا في قوات ضخمة أسوار مليلة. وكانت الاتفاقيات الدولية تعطيهم الحق في ذلك. إن هذا هو ما يفصّله علم القضايا الضميرية الحديث الذي تولّد من تطوّر الإنسانية التي أباحت لنفسها، في هذا القرن العشرين، إجراء عملية تشريح على شعب، ومن دون أي حرج، سالكة في ذلك مسلك البابا الكسندر السادس وهو يشطر، رمزيا، تفاحةً شطرين بغية إشباع ضَوَر أمّتيْن نصرانيتين.

اجتهد أبو إدريس في البداية في الانضمام مع سوقة عسكرية جندت في قبيلته ذاتها، إلى الشّاويّة. وكانت الخيّالة المرّاكشية إذاك تكرّر على الفرنسيين هجمات نوميديي مهربال الشهيرة. ولكن مسرح العمليات كان بعيدا. وكانت فاس، لأنها طعمة للفوضى، عاجزة عن تأمين تدفق الإمدادات. ولذلك حَبِط مسعاه. لذلك فإن الحاج علاّل لم يتردّد، هذه المرّة، عندما بدأ المدفع يجلجل في اتجاه مليلة والإسبانيون يتقدّمون نحو الريف فنظّم، بإعانة عدد من الأعيان "حَرْكَةً"[53] على أهبة الحرب واتجه إلى الشرق. هناك قضّى ستة أشهر وساهم مساهمة هامة في معركة برّانكو دال لوبو.

كان إدريس منصرفا إلى تربيته. وكان أبوه يترقّب أن يبلغ الثامنة عشرة فيرسله إلى فاس إذ كان يعتقد أنه يمكنه أن يجد له، بعد تربّص في القرويين، مكانا في الزيتونة أو الأزهر. كان في ما يشبه نوعا من تبرئة الذمّة يوجّهه هذه الوجهة. وفي انتظار ذلك كان

---

[53] المحاربون المتطوّعون للدفاع عن الأرض. وسيتغيّر معنى اللفظ أثناء الحرب التحريرية الجزائرية.

يتركه ينمو بحرّية في هواء الحياة الجبلية الطّلق بين الصيد وأحلام الوحدة والمناظرات الطويلة في ظلّ شجرة التين التي يجتمع تحتها آيت أربعين القرية[54].

كان إدريس، في ما عدا الصيد والتأمّل والحلم في ظلّ الدِغال أو تحت ظلّ شجر كرم خريفي معتدل، يتعلّم من أبيه. وكان موضوع هذا التعليم التمهيدي هو الروايات الأبوية حول الرحلات في المغرب والمشرق وبيان السلفية وبدعة عبادة القبور والأساطير الملحمية العربية التي اقتبسها الفلكلور البربري وقراءة رحلتي ابن جبير وابن بطوطة. وهكذا كان إدريس، زمن مراهقته، قد حاز نُتفا من المعارف الجغرافية لا يستهان بها. ومع ذلك فإن هذه المعارف تقف عند الشرق الأدنى. لقد سبق أن عرف بلدان المغرب ومدنها الأساسية وطرابلس ومصر والقسطنطينية.

كانت الجماعة تجلس إما في البيت وإما في المسْيد وإما تحت أشجار غابة كرم برّي صغيرة ذات حَجَن مصْفَرٍ. وفي غالب الأحيان في ظلّ غابة زيتون برّي نبتت في وسطها خُرنوبة منعزلة يسفر جذعها الذي نخرته السُّرَفُ، عن لحم دامٍ تحوّل إلى منملة. وقريبا من هذا المكان تنبجس عين ماء. كانت الجماعة تتواعد في الأوقات الملائمة في الربيع كما في الخريف: الحاج علاّل وإدريس وسي عبد السلام وفقيه مُتَحدّر من قبائل دُكّالة تزوّج من فتاة من القرية فتبنّته قبيلتها. إنه سي بوعزّة.

كان الحاج علاّل يروي، أمام هذا الحفل، ويعلّم ويحاول أن يقنع. كان الجميع يتابع سرد الأخبار الأسطورية بفضول نشيط. وقد تحمّس إدريس لألف ليلة وليلة وأحدثت أُبّهة هارون الرشيد المفرطة وكَيْسُ الوزير جعفر وعلمه في خفايا الأمور ووفاء الخَصِي مسرور في خيال الجبلي الشاب انطباعا مُحيّرا. لقد تأثر لذلك تأثره لمغامرات

[54] مجلس الشيوخ ويعدّ أربعين نفرًا.

سندباد البحري ورواية فروسية عمر النعمان وحكايات قمر الزمان وزوجة الجوهري وكذلك قصّة أبي قير وأبي صير.

كان إدريس دائم الإنصات لا ينبس ببنت شفة. لقد كان آنذاك في عزّ المراهقة ممشوق القوام ذا بشرة خفيفة السمرة هي أميل إلى الشحوب وشعر أسود وعينين كستنائيتين وكان يسدّ وجهه البيضوي الخالص أنف سويّ يبرز على الوجه الأكمل سحنته بوصفه جبليا مرّاكشيا شابّا. كان، عادة، يجلس مشبوك الرجلين، على الهيئة الشرقية ويطلق العنان، وقد حطّ خدّه على يده، لعقله يهيم بحرّية في سيل الكلام الأبوي. وعندما يقاطع سي عبد السلام أو سي بوعزّة أباه في الكلام للاستفسار عن أمر ما، يتابع إدريس، وقد أثاره الفضول، التفسير بحركات سريعة من عينيه المتفحِّصتين. لم تكن العين لتضيع شيا. والأذن أيضا.

لقد آلمته قصّة عنترة. وعندما كان أبوه يحدّثه عن هذا الفارس الذي عاش في العصر السابق على الإسلام كان انتباهه الذي اضطرب لضرورة استحضار عهود على هذا النحو من البعد، يتوتّر توتّر نابض جديد الصنع ما زال متمرّدا على ما تقتضيه الإوَالِيّة. لم يكن يعرف بدقّة معنى قصيدة ولكن عينيه كانتا تبتلاّن دمعًا عندما يروي الحاج علاّل نهاية الفارس العربي المقدام. كان يتصوّره وقد أصابه سهم رمي به غدرا ومن الخلف في مقتل ثم انه مات على صهوة جواده بعد أن امتطاه ثانية ليؤمن انسحاب قبيلته، واقفا، ويده على الرمح في حين أحجم خصومه الذين كان يروّعهم سيفه الطويل عن التقدّم حتى نجح فطِنٌ فيهم في إثارة الجواد. وعندئذ انهار عنترة. ولكن القبيلة التي انقذها من بَلِيَّة كانت، إذاك، في منجى من الخطر.

وكانت قصّة بني هلال، وهي أكثف مآثر، تشغفه أكثر. إنها الزحف الهلالي جميعه في القرن الحادي عشر صيغ صياغة أسطورية بما يتضمّن من أعمال فروسية: الأمير رزق

وزوجاته العشر والأميرة خضراء، أم البطل بركات حسب البعض وأبو زيد حسب البعض الآخر الذي ولدته امّه على سَحْنَاء وليد زنجي أدهش أباه إلى حد التبرّؤ منه وتطليق الأميرة وردّها إلى أبيها شريف مكة وندامة الأمير الذي آوى إلى خيمته وتخلّى عن قومه وقد كدّرته سحنة ابنه وفراق زوجة كان يفضّل ومطالب أبي زيد فيما بعد بحقّ تولّي أمور قبيلته التي استنجدت، بعد أن هزمت واستعبدت، بالقائد العجوز والمبارزة بين الأب والابن اللذين تواجها من دون أن يتعرّف الواحد على الآخر ووقائع المبارزة وإيقاع الأمير عن مطيّته وهمّ أبي زيد برمحه في الصدر في اللحظة التي هرعت فيها الأميرة خضراء لنجدته وإصلاح ذات البين النهائي وتثبيت الأب نسبة ابنه أبي زيد. إن في هذه القصة ما هو حَرِيّ بإثارة نفس إدريس.

ويقود مشتقّ آخر من هذه الرواية أبا زيد إلى تونس حيث كان الزناتي خليفة يتولّى الحكم. وفي هذه الحالة يكون المرء بإزاء حلقة أخرى من المعارك الملحميّة ومن قصائد معبّرة ثبّتها شعراء ملحميون مجهولون في الملحمة الشعرية المغربية الأساسية.

وتوجد قصة أخرى تسرّبت إلى الفولكلور القومي وهي مجموع الحكايات الخرافية حول قيْل اليمن سَيْف بن ذي يَزَنْ. هذه القصّة كانت، بالتأكيد، من ضمن ما ورد على البلاد من أورادِ الأخلاق العربية عقب أسلمة أفريقيا الشمالية. إنّ ولادة هذا الحدائدي الذي سيظهر، فورا، بمظهر البطل وزهد أم قاسية فيه وإهماله في غابة أرضعته فيها غزالة حركها شعور حيواني بالرحمة مؤثر (هل هي الذئبة الرومانية التي غذتّ روموس ورومولوس؟) إلى أن آواه صيّاد وحمله إلى الأحباش الذين كبر في كنفهم وانتصاره على العملاق المختطف الذي نال به صداقة ملك البلاد ويد ابنته الأميرة شماء واختصامه مع اللّص سعدون الزنجي ورحلته إلى منابع النيل التي تحرسها الخَيَامِر وتحفظها طلاسم متدلّية من رقبة جِنّة المياه ثم عودته إلى بلاده حيث

سعت أمّه إلى قتله (رواية أخرى لعودة لأوليس إلى إيتاك؟) وتحرير وطنه وتنازله عن الحكم لابنه وحياة الشيخ التائه التي عاش ومجموعة المصائب التي كابد. إن كل هذا بلغ في هذه الرواية الفروسية مستوى من التنسيق انتهى بإدريس إلى أن يحفظها، غيبا، والى أن يفضّلها أحسن التفضيل على الملاحم الأخرى. وكان الحاج علاّل، يضيف إلى هذا، خرافات لقمان، وهي نصائح أخلاقية وأقوال مأثورة كرّسها بين شعوب الشرق استعمال يمتدّ إلى آلاف السنين وترقى الأسطورة بنشأته إلى قوم عاد في الأزمنة الأسطورية الجزيريّة العربية القبلطوفانية.

كانت ثقافة على هذا النحو من الخلط تتجمّع في رأس إدريس. إنّ هذا لم يكن ليمثل شيئا كثيرا بالنسبة إلى مراهق كان عليه، من ناحية أخرى، أن يجدّ للحصول على درجة الباكالوريا ولكنّه كان نسبيّا كافيا لقدح نار خيال تلقائي عنده. كان هذا يغذي تأمّلاته وكان يلذّ له أن يتَمَدَّدَ، في المساء، تحت الكرمة وأن يتابع، وعيناه تائهتان في ذرى تيزران تعَرّج تفكيره حول مواضيع لا يكفّ عن مساءلتها بقسوة. كان يلذّ له، كذلك، في الليلّ، أن يعتلي سطح كوخ القشّ المربّع ويتأمّل، من هناك، الأسرار التي تنبسط، مُقْلِقَة، فوق رأسه. القمر والكواكب والمَجرّة وحركة كواكب النجوم، والسماوات والنيازك والرّجم ومجموع الظواهر الكونية التي تنتشر أمام نظره القلق المفتون إذ لا مُعَلِّم درّبه، آنذاك، على ما طرحت قوانين الجاذبية وما حلّت من مسائل فيدّعي أنه كان في إمكانه أن يجرؤ على رفع النقاب عن هذه الألغاز المذهلة. ولذلك كان يكتفي بالإعجاب بهذه الواجهة الكونية التي تهزّها اللانهاية. وغالبا ما يَفلت، وهو يستحضر انشغال أبيه بالمخاطر على مراكش، من دائرة تأمّلاته الاعتيادية ليفكّر في بلده. كان يُخَيّل إليه أنه يسمع جلجلة المدفع من العرائش إلى مليلة ومن فاس إلى بوذنيب. لم يكن عقله الذي لم يتفتّح بما فيه الكفاية يمكّنه من فهم مدى الخطر في تمامه ولكن بسط أبيه أوحى له أنه غاية في الشدّة وإذاك تساءل إن لم يكن على القربينة التي يحمل أن تفيد، أيضا، في عمل

آخر.

لقد سقطت فاس واستسلمت مراكش، هي بدورها، ووقع التوقيع، برعاية مخزن جديد، على معاهدة حماية لم يفهم أحد منها لفظا ذا قيمة وبدت لعيني الجاهل من قبيل الألفاظ الملغزة. وها أن الحديث يدور على احتمال نزول الإسبان في تطوان. كل هذه الأمور كانت تجول في رأس إدريس. وبلغ به الأمر إلى تمنّي مصاحبة أبيه إلى الجهاد، هذه المرّة. كان الجهاد شاغل الناس. وقد أصبح موضوع حديثهم في الأسواق وفي الدّشرة تحت شجرة التين الكبيرة التي تحوّلت إلى ابْنيكس القبيلة.

***

كانت إشاعات منذرة بالخطر تصل من طنجة. فالإسبانيون كانوا يجمّعون الجنود. وهم الآن يستعدّون، بعد أن استعادوا أنفاسهم عقب خذلانهم في الريف، إلى الزحف على تطوان التي كانوا يأملون في تحويلها إلى عاصمة لمنطقة حمايتهم. وما أدراك ما تطوان!

إنها المدينة التي تنبعث منها أناقة عواصم أمراء إسبانيا الطائفية البالية وهي المدينة المزدهرة الجاثمة، بوشاحها الأبيض، في أعلى تلّة جبل حصويّ يشرف على وادي مارتين. وهي التي اتخذ منها الجبل قرطبة له بقصورها البيضاء المبلّطة خزفا أزرق وحمّاماتها وبساتين البرتقال وصحون دورها المزهرة وحِرَفها التي حافظ فيها الصانع المراكشي على خاصيات الفن الوسيط الدقيقة!

وذات يوم تحرّكت "الحَرْكَة" في اتجاه دار بن قريش وفندق العين الجديدة، مركزي قيادة القوات الجبلية. كان الإسبانيين قد دخلوا إلى تطوان من دون قتال. وكانت

طلائعهم تحتلّ أعالي لوسيان. ودوّى صوت البارود. ولكنه لم يكن للجبل قائد مجمع عليه مثلما كان شان محمد أمِزيان في الريف. وكل قبيلة كانت تخوض القتال بصفة منفردة. ومع ذاك فإن إدريس خاض، في مضائق فندق العين الجديدة القتال لأول مرّة. كان الإسبانيون القادمون من الشمال في قوات ضخمة يسعون إلى الالتحام بقوّاتهم في أصيلا عند هذه النقطة التي يشغلها متطوّعو الجبل. وقد حال خطأ في المناورة دون خروج رتل تطوان في الوقت المناسب من هذا الجانب الذي تُدافع عنه "حَرْكَات" وادي الرأس وقبائل الضاحية التطوانية، إلى اليمين. ولكن رتل سبتة الذي اقترب من قمم الجبال المتحكّمة في مدخل الفندق خلف أراضي بني مساور اصطدم بالقوات التي تحميه واندلع القتال.

كان الرتل الإسباني مكوّنا من قنّاصة راجلين ومن نظاميين تدعمهم بطّاريات مدفعية كثيرة. وكانت أعدادهم تضاعف أعداد الجبليين. وكانت وحدات استطلاع إضافية تدعم الرتل. وقد حاول أن يلتفّ حول الجبال التي تشرف على الفندق شمالا حتى يقطع الاتصال بطنجة ويجذب إليه أكثرية المدافعين. وهكذا يصبح في إمكان رتل الجنوب، وهو يواجه قوات محدودة العدد، أن يفاجئ بقية حماة الفندق بعد أن يكون قد طوّق جبل بني مساور حيث يكون من السهل على نيرانه أن تكنس أرض الحُصَيْن. وفضلا عن ذلك فقد كان هذا الرتل يستفيد من مدفعية لوسيان التي كانت تقصف، بنجاعة، مجموعة الوديان المتلاحقة التي تصلح تماما لنصب الكمائن التي يبرع فيها القنّاص المراكشي براعة تامة. ولكن هذا الرتل ضلّ طريقه، إمّا لضعف في القيادة أو نتيجة خطأ في التسيير بحيث أن رتل سبتة وجد في مواجهته عند نفاذه إلى مضائق الفندق الشمالية أغلبية "الحَرْكَة" وهي في موقف قتال. كانت كل المواقع من مرتفعات ومنحدرات ودروب ضيّقة وممرّات وأدغال وجَنْبَات وحفر وثنياتٍ، محصّنة بالرماة أي بهؤلاء ال"باكوس" الذين يحتفظ الجيش الإسباني على الدوام بذكرى جدّ أليمة عنهم.

كانت سَوْقَةٌ من محاربي تيزران ترصّد الرتل من وراء ستار من البلّوط البُحْتُري ذي الجذور العاِرشَة وهي عارية الرأس أبرزت الساعد الأيمن من الجلابة ووضعت الزعبولة في متناول اليد. وكان الحاج علاّل وإدريس وسي عبد السلام وسي بوعزّة والأسمر وكثير من زملاء إدريس القدامى في الدراسة هناك، هم أيضا، وقد تسلّحوا ببنادق متنافرة واندهلت منهم العيون شيئا ما وهم يرون، حقّا، اندلاع القتال. أمّا ممتلئ الخدّين فقد كان متغيّبا عن الحفل إذ ذهب به التهاب رئوي عَجيل منذ شهرين.

وقد حرص أطفال آخرون على مرافقة آبائهم فكانوا، وهم الذين تسلّح عدد منهم ولم يتسلّح العدد الآخر، ينجزون مهمّات اتصال متنوّعة. لقد كان يوجد ضمن هذا الشباب المراكشي أشباه لبارا وفيالا![55] وهذا إنما هو تقليد ترقى أصوله إلى مجتمعات محاريب، امتيازا، هي المجتمعات الشمال أفريقية الضاربة في القدم وكرّسه تقريبا هاميلكار، هذا الأفريقي الأسطوري، برعاية من بعل، بأن دفع ابنه باكرا إلى إقامة شعائر التضحية.

بدأت المعركة يسارالحَرْكَة إذ عمد مقاتلو أصيلة إلى مهاجمة الوحدات النظامية. كان يسمع صوت الرصاص مختلطا بزفير الأسلحة الأوتوماتيكية وطلقات المدفع. وتواصل القتال منذ ساعة من دون أن يلوح شيء في الجبهة التي كان فيها الحاج علاّل وأقرباؤه يترصّدون العدوّ. كانت الأوامر التي تلقّوها تقضي بحراسة المكان الذي يوجدون فيه. ذلك أنّ قرائن قويّة كانت تدلّ على احتمال هجوم إسباني على هذا الموقع. ولكن محاربين كانوا قد شرعوا، وقد نفد صبرهم، في مغادرة هذا الجزء من الجبهة، خفية،

[55] طفلان فرنسيان قتلا وهم يدافعان، سنة 1793، عن الثورة الفرنسية.

للالتحاق بالمعركة وكان من العسير جدّا استبقاؤهم.

أصبح رؤساء الأقسام في لحظة من اللحظات يخشون من إخلاء هذا المكان عندما بلغهم صراخ الرُّصَّدِ من قمة مجاورة مرفوقا بنيران أشواك الغابة إعلانا باقتراب العدوّ. احتلّ المحاربون، في الحال، المرتفعات المتحكّمة في المجَاوِز الأساسيّة وانتظروا، وأسلحتهم بأيديهم، شنّ الهجوم.

ظهر عدد من الفرسان راكبين خيولا صغيرة. لقد كانوا مرتزقة. كانوا يتقدّمون تقدم مستطلع يسبرون الدغل والثنيات متقلّدين القرابينة وكانت اليد اليسرى تمسك بالعنان وتوجّه الدابّة عبر موقع مليء بالفخاخ. وانكشفت، سريعًا، سريّة يمكن للمرء أن يتبيّن فيها، بوضوح، الفرسان ببزّتهم الكاكيّة وبرنوسهم الأزرق وبالشاشية ذات الشرّابة الطويلة على الرأس. وبعد ذلك برزت من الدغل طليعة المشاة.

هزّت صيحة فرحة مديدة صف المحاربين الجبليين وتداولت الألسن لفظ "بيبسا! بيبسا! و"بيبسا" كنية أطلقها المراكشيون على الجندي الإسباني في شبه الجزيرة. هؤلاء الجنود، وكلهم مجنّدون جدد، هم مزارعون مساكين اقتلعهم التجنيد العسكري من أسَرِهم ليرمي بهم في هذه البقاع الأفريقية حيث يتّخذ مصير عدد كبير منهم، ذات يوم، شكل جبهة خَرَقَتْها رصاصة أو كَشْحٍ ثَغَرَتْه طعنة خنجر يرقدان تحت بعض العُلّيق ذي الأوراق المقبّبة تقبّب تابوت حجري.

لقد كانوا يكونون ركيزة الجند الملحق بفيلقي سبتة ومليلة وكتائب المشاة الـ"كازادوريس"[56] الذين يبعث بهم، بانتظام، إلى مراكش أو إلى أماكن أخرى. كانوا،

---

[56] حرفيًا: الصيادون.

بالنسبة إلى معظمهم، ينحدرون من تلك المناطق الفقيرة في اسبانيا ومن جبال نافار وليون ومن هضاب قشتالة والإكسترامادورا القاحلة. كانوا يحملون على ظهورهم، وهم الحرّاثون وزارعو الكرم ورعاة الأبقار والخنازير الأقنان أو من ذرّية مزارعين تحرّروا، نُدْبَة قرون من العبودية الاجتماعية. لقد كانوا جنودا أردياء. وكانوا، وهم الأشقياء حقًّا، يموّنون حفر القتلى الجماعية في برانكو دال لوبو وكدية الروضة وفيما بعد حفر إيباران وأنوال ومنتي أرويت. ولا يكاد ضبّاطهم يفضلونهم إذ أوهنت عزائمهم، إمّا كثيرا أو قليلا، إقامات طويلة في الحاميات في المدن الإسبانية. وإذا ما وجد من بينهم ضباط جيّدون، ولقد وجد، حقّا، عددٌ منهم يستأهلون احترام الخصم، فإن هؤلاء كانوا يفضلون الهجرة إلى وحدات المرتزقة، سواء منها الـ"ريقولاريس" أو الـ"ترسيو" إذ يمكن لكفاءاتهم أن تعثر فيهما على ميدان أكثر ملاءمة لأمزجتهم.

كانت الفيالق والكتائب تحمل أسماء رنّانة وكانت تتدلّى من ذيول أعلامها أعداد كبيرة من الأشرطة الذهبية وكان تاريخ اسبانيا يرتسم عليها ارتسام ذكرى أمجاد ذهبت من دون رجعة.

كانت أسماء آلكانْتَرا وتالافيرا ولاس نافاس تؤبّد الحروب ضد الإسلام. وكان بافي وسيرينيول يذكّران بالفترة الإمبراطورية وكانت بيلن وأرابيل وسرقسطة تستحضر ذكرى الحروب ضدّ نابوليون. ولكنها لم تعد غير ذكريات شهيرة!

***

بدأ إطلاق النار على سرّية الاستطلاع. كان إطلاق النار كثيفًا. وقد تسبّبت الطلقات الأولى في عدد من الخسائر وعادت الخيول، وقد أصابها ذعر مفاجئ، على

أعقابها، مرتدّة نحو المُفْرزة التي انبطح أفرادها أرضا وزحفوا، بعد أن فاجأتهم هذه النيران الكثيفة، هاربين. كانت ثلاثة أجياد طريحة الدغل وكانت أخرى تهبط الجبل عادية. وتجمّعت كثرة من الفرسان التي طرحتها مطاياها أرضا أو ترجّلت حول جريح يبدو أنه من الرُّتَبَاء.

كان إطلاق النار متواصلا. وسمع، من جانب الإسبان صوت مدفع رشّاش ولكنه لم يكن يبدو أن القائمين عليه، وهم يطلقون النار عشوائيا، كانوا يعيرون الهدف الذي تطقطق ضدّه آليتهم كثير اهتمام.

تقدّم الجبليون زحفا أو قفزا من مكان إلى آخر. وكانت سحناتهم ولون جلاباتهم تدمجهم بنوع من التكَيُّفِيَّة العادية بما فيه الكفاية في حياة الجبل، في التربة والنبات اللذين ينزعان، في الوقت ذاته، إلى المُغْرَةِ واخْضيضار زجاجي فكان من الصعب تمييزهم. والجبلي راجل من الطراز الأول. وهو إذا كان ينحطّ قيمة في الرماية عن الريفي فهو يفوقه في المواجهة جسما لجسم وفي الهجوم بالسلاح الأبيض. كذلك هو يتفوّق عليه في القدرة على الحركة وفي الحماسة.

وصل الحاج علاّل بعد ساعة من القتال إلى تَلْعَةٍ تشرف على خط القتال الإسباني. كانت السِرّية، بعد هجوم معاكس، قد ترجّلت وتأهب أفرادها للانتشار استطلاعيا. كان مدى التراشق ثمانين مترا عندما أشاعت صَلْيَةٌ عنيفة البلبلة في صفوف الكازادوريس فتخلّى هؤلاء، إذ لم يدرّبوا على حرب الأدغال، عن متارسهم الغصْنِيّة وتراجعوا بمنتهى السرعة إلى الوراء. اندفع عدد من الضباّط مُشَوِّرين لإعادتهم إلى خط النار. ولكن التردّد عمّ فتولّت السرّية، وكان يقودها ملازم أول جسيم أبدى شجاعة حقيقة، أمر تأمين الانسحاب ومنع المهاجمين من إحباط خطّة القتال.

لقد أصبح إطلاق النار أكثر كثافة وتصويب الطلقات أكثر سدادا فسقط عشرة مرتزقة أرضا وتدحرج على الأرض رقيب في هيئة تدلاوي شاخ في طوابير مولاي الحسن وحملت سترته شارة رتبته التعويضية وقد حطّمت رأسه رصاصة أطلقت عليه من مكان قريب نسبيا في حين بقيت جثّته سجينة الرّكاب. لقد انطلق الفرس، وقد ارتاع، فعدا وهو يجرّ جثة فارسه عدوًا يائسا. كان المرّاكشيون يتقدّمون. وكان عدد منهم، قد بادر، وقد شجّعه تراجع الكازادوريس، إلى تحسّس مقبض الخنجر في حين أخرج آخرون المسدّس من القراب. كان مساعد جريح ترك في أرض المعركة قد ألقى بمسدّسه وهو يهمس بعدد من كلمات التضرّع. وقد التقط سي بوعزّة، بعد أن جرّده من سيفه، المسدّس الملقى على الأرض بخفة وأمر بنقله تحت ستار من المصطكّا.

إنّ الرصاصة غالية الثمن في الجبل ولذلك يقتصد فيها. وعلى المحارب ألا يطلق الرصاص إلا عن قرب. ولكنه إذا انسحب العدو من أمامه، ينقاد، عندئذ، إلى حالة تبذير عام. وهذا هو بالذات ما حدث يومئذ. كان الكازادوريس، وهم يتراجعون، يسعون إلى بلوغ واد صغير يشقّه مجرى ماء جاف. لقد اعتقدوا، في هلعهم، أنهم واجدون في هذا الانسحاب وسيلة تخرجهم من ورطتهم. وكان ذلك خطأ منهم. فرغم جهود قائد الرتل وضبّاطه تسارع التقهقر. وقد رأى قائد فصيلة المدفعية الذي أصلى سلاحه، لزاما عليه أن يحشوه ثانية. ولكن البغال المجرّدة من شُكُلِها تشتّتت، هي بدورها بسبب ارتياعها من إطلاق النار وفرار القنّاصة. ولم يكن من السهل على الإسباني، رغما عن مواهبه البِغَالية، أن يطاردها وأن يكبح جماحها وأن يستردّها. إنّ البغل يكاد أن يكون كلّ شيء في حياة الجبلي. إنه وسيلة الاتصال والنقل. وهو يعين في الحرث عندما تسمح مساحة الأرض، وهي جدّ محدودة، للمزارعين بأن يستبدلوا المعزقة بالمحراث البسيط. وهو يساهم في دراس الحبّ وفي السّلوَجة.

ويمثّل روثه مع خِثْي البقر الدَّمَال الصالح لتسميد البساتين وأشجار العنب. وهو يدير الِمعصار الزّيتي والناعورة. وهو قانع قناعة الجبلي، يكتفي بالقدر الضئيل من التبن وبين الفينة والفينة، بقبضة من الشعير أو من الذرّة الصفراء يحملها إليه صاحبه في باطن اليد. وعلى الرغم من نظام المجاعة هذا فإن بنيته، دائما، على صلابة نموذجيّة. ففي إمكانه، لمتانته وجلده، أن يقطع، وهو محمّل بأثقال مرهقة، مسافات فائقة وأن يبلغ مرتفعات مُدَوِّخة. إنه، إذا صحّ القول، جمل الجبل. ويعد موت بغل، في الجبل المغربي، من الأوراس الى الجبل، نكبة عائلية جديرة بأن تذكر في لائحة النائحات.

ولذلك ليس في وسع المرء أن يتصوّر مبلغ الحماسة التي استولت على القوم منذ أن لمح محاربو تيزران بغال شعبة المدفعية. لقد اندفعوا نحوها وهم يشدّون على ذيل الجلابة. ولقد كان هذا منهم طيشا إذ وقعوا، وهم يتعرّون، في زاوية رمي الآلة التي لم تفكّك بعد. وقد تراجعت الجلابات عندما فاجأتها النار وتشكّل الدفاع إلى تلّة تحميها أجَمَةً من الجَنْبَات وارتمت أرضا وهي توجّه، بدورها، نحو الأسبانيين نارا مكثّفة.

لقد كلّفتهم وثبتهم إلى الأمام عددا من الخسائر من بينها خسارة شيخ عجوز كان، فضلا عن ذلك، عالم القبيلة وسبق أن سال دمه دفاعا عن الوطن منذ المعركة التي خاضها مولاي العبّاس، سنة 1859، ضد الجنرال بيريم في وديان كاستيليخوس. كان آنذاك شابا بمقدار. وبعد نصف قرن من ذلك التاريخ، ها أن رصاصة تصيبه وقد بلغ سنّ مؤَلّف المزامير، في الحالب الأيسر لتستقرّ في الِمعَى.

لقد كان طويلا جسيما. وكان برأسه المدوّرَةِ المتوارية وراء لحية بيضاء مروحية الشّكل وخدّيه الورديين وعينيه الزرقاوين الفاتحتين سليل هؤلاء الإيبيريين الأصليين

الذين أسلموا بعيد كسيريس وفضّلوا، وهم المسلمون الخلّص، أن يهجروا وطنهم عندما كفّ صوت المؤذن عن الدعوة إلى الصلاة من مآذن مُرْسِيَة. ولقد كان دوما يحمل إسما إسبانيا.

أجلي العالم الجريح الذي كان يرتّل في هدوء، وهو ممدّد على نقّالة من الأغصان مغطّاة ببساط ملطّخ بالدماء، مقاطع مأتمية من بردة الإمام البوصيري. كان يفارق الحياة في سنّ الشيخوخة مثلما يفارقها رواقيّ إذ مات متأثرا بإصابته بعد خمسة أيام.

آلت القيادة إلى محارب قديم آخر من محاربي الجبل. وكان القائد الجديد، وهو مجايل للسابق وإن كان أقلّ منه قوّة، يشكو ألما في قصبات الرّئة ويقضي وقته بين السّعال والبصاق. ومع ذلك فهو لم يكن يفتقر إلى الشجاعة أو إلى الرشاد. وكان جسمه الواهن يشهد بالمعارك الكثيرة التي خاضها طيلة حياة متقلّبة. فلا الرصاص ولا الخنجر أخطآه. ولقد شارك، هو أيضا، في معارك كاستيليخوس ورافق، بصفة قارىء قرآن، طوابير السلطان في كل أنحاء مراكش.

كانت رأسه خريطة جغرافية مجالها الإمبراطورية ولكنه لم يكن يتجاوز البتة نطاق المولوية. كان يحب الحاج علال ويعجب بأسفاره. وكان، مثله، سلفيّا خصما للحالة الآسنة التي انتهى إليها أمر مرّاكش.

وعندما وصلت حَرْكَة تيزران إلى الفندق اقترح، بموافقة العالم الأندلسي العجوز الذي أصابته قبل أيام قليلة رصاصة اسبانية إصابة قاتلة، تعيين أبي إدريس قائدا لها. ولقد رفض الحاج علاّل العرض واقترح، بدوره، وبسند من سي بوعزّة، ترشيح مقاتلي حروب 1859. وبعد أن أزيح سي بوعزّة من المعركة وقع تداول أمر تعيين الحاج علاّل من جديد ولكنه، انحناء منه أمام حكماء القبيلة، أبدى رغبته في أن تؤول

القيادة إلى رفيق القائد القتيل القديم في السلاح.

تحمّل، إذن، سي بن عمار، في غمرة القتال، مسؤولية قيادة قوّات تيزران. والقائد الجديد ينحدر من غزاوة. وقد اشتهر بأنه التواضع ذاته. كان ينتسب إلى هذا الصنف من البشر الذي يرى أن الحياة امتحان ولا يفرّط في أي فرصة تتيح إمكان الاتحاد في الإحساس بالخالق. كان يرى في الجهاد كمال حياة كُرّست لخير الآخرين ويعتقد، في أمانيه السامية والساذجة معا، أن الدفن تحت دغل عُلَيْق الفندق هو آمن سبيل يمكن أن يقوده إلى رحاب النعيم. ولقد قبل مستسلما دوره الجديد.

كانت الرشاشة نشيطة ترش بنيرانها ستار الشجر الذي يختبئ تحته "الجبَالَة". ولكن الطلق لم يكن، لضعف في التصويب، ليحدث ضررا كبيرا. كانت الرصاصات تضيع. ولكن المرّاكشيين، هم أيضا، كانوا في وضعٍ سيّئ. كانوا يحتلون خطّا واقعا في منحدر الجبل وكان عليهم أن يتعالوا حتى يتمكّنوا من تبادل النار على نحو أفضل إذ كان يستحيل عليهم أن يلتفّوا حول تشكيلة المقاومة التي تعترضهم من دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء تسلّق العوائق التي تستهدفها رماية الخصم.

كان الوقت يمرّ من دون أن يعزم أي فريق من المتحاربين على اتخاذ قرار كفيل بأن يحسم، لصالحه، المعركة. كان الجبَالة يردّون على نيران الإسبانيين المكثّفة ولكن قليلة النجاعة بضربات خاطفة منفردة. وفي اللحظة التي كان فيها سي بن عمار والحج علاّل وعدد آخر من المقاتلين يتشاورون في أمر القرارات التي عليهم أن يتخذوها، بدت، فجأة، من الكازادوريس حركة تقهقر تغطيها نيران الرشاشات ونيران مفرزة من النظاميين كانت تمنع الوصول إلى الموقع الذي نصب فيه المدفع الرشّاش. وقد أشار راصدان نصّبا للرصد فوق إحدى الروابي إلى تقهقر المفرزة بواسطة نيران أشعلاها. وبذلك لم يعد جنب مركز المقاومة الأيمن محميًّا. ولكن زمن الحماية

تراصّت حول المدفع الرشاش. ونتيجة ذلك أصبح من الممكن شنّ هجوم على أن يحتمل المهاجمون عددا من الخسائر التي لا مفرّ منها طالب سي بن عمار بانعقاد مجلس حرب يحسم الأمر. وفي هذه اللحظة برز سي بوعزة وجمع من الجبليين من غيل وهم يقتادون ثلاثة أسرى يرجفون خوفا. لقد نجوا من الموت وكانوا ضمن جماعة من الكازادوريس ضلّت طريقها فوقعت في كمين نصب بمهارة في طرف خِيس بلّوط. كان عمر الواحد منهم لا يتجاوز العشرين وكان اثنان منهم من نافار أما الثالث فقد جاء من أراغون السفلى. كانت فرائص التعسين الثلاثة ترتعد عند رؤية هؤلاء الجبليين الملتحين ذوي السحنة المسْمَرَّة والنظرة الشِرسة. وكانوا يتضرّعون، في كلام غير مفهوم، حتى ينجوا من التهلُكَة. كانت الكلمة التي تردّدها شفاههم مرارا هي أمي. جرّد الجنود التعسون من عتادهم فلم يكونوا، بما كانوا يلبسون من بزة عسكرية صفراء مُسَمَّرة وبما يغطّي الرأس من كسكيت سوداء مشروطة الحواشي من دون واقية وجه وبما يعصب الساقين من مِسْمَاةٍ وبما وافق القدم من حذاء، ليظهروا على هيئة جدّ مرعبة.

أحضر الثلاثة أمام سي بن عمار الذي كان يترأس مجلس الحرب وأجلسوا، في انتظار نهاية المجلس، تحت عفصيّة كأنها نبتت هناك خطأ. وبعد بأن مدّوا بما يروى عطشهم جاءهم القوم بشيء من الخبز وبجفنة من التين الجاف.

قرّر المجلس الهجوم الفوري. واستحضر سي بن عمار قبل أن يلتحق بالحركة السجناء أمامه وطرح عليهم، بعد أن طمأنهم، أسئلة مختلفة حول قواتهم ونسبة القوّات المرتزقة المشاركة في المعركة واتجاه تقهقر الرّتل. وقد عدل عن الاستجواب لفقدان مترجم قادر على نقل الكلمات بدقّة. ولكنّه التمس من سي بوعزّة قبل الذهاب، أن يبعث بالأسرى إلى الفندق محاطين بحراسة ناجعة وبأن يقع السهر على سلامتهم حتى يعود. كان الجزء الأكبر من الرتل الإسباني قد سبق إلى إخلاء مواقعه

وكانت المفرزة المكلّفة بالمدفع الرشاش تتهيأ، هي أيضا، لمغادرة خنادقها. ولم يعد في الإمكان التفريط في دقيقة واحدة. لقد تأكّد الهجوم فورا. استدعى سي بن عمار أفضل رماة تيزران فحضر عدد منهم. وكان إدريس من بينهم. كان على فريق المتطوّعين أن يتسلّق فوق نوع من الحَدَرِ الذي يشرف على الجبل الذي كان جزء من سوقة تيزران قد دلف إلى أسفله حتى يتمكّن من تسديد نيرانه بنجاعة إلى مفرزة الساقة وإسكات الرشاش.

هذه المناورة يجب أن تنفّذ حالا ومن دون إثارة انتباه الخصم. لذلك غادر الرماة خطوطهم زاحفين بالتتابع، وبنادقهم في أيديهم من دون ضجة. كان لونهم يلتبس بلون الدغل. ولم يكن في إمكان العين الأكثر دُرْبَةً أن تتبيّن في حركتهم إلا مجرّد حفيف أغصان. وقد كفتهم عشر دقائق للتسلل عبر حاجز الجَنْبات التي تغطي التقبّت الجبلي الذي اتخذ شكل منحدر فأصبحت الرشاشة وفريق الحماية منذ ذلك الوقت في مدى أسلحتهم. غير أن المرء ليس يمكنه من هذا المكان أن يميّز الأشياء بين شبكة الأوراق الكثيفة الملتفّة. فأحيانا تبرز أيدٍ وسيقان وأوراك وصدور في هذه الجهة أو تلك لكن الأهداف تبقى مع ذلك مشوّشة.

حلّ كل واحد في موقعه. وكان الرشاش، في الأسفل، يُولول. كان يحامي عن الانسحاب لا سيما أنه تمكّن من ملاحظة مجموعات من الجنود على بعض المسافة تبذل قصارى جهدها من أجل كبح جماح بغال الرتل التي ما زالت على ذعرها. انعقف إدريس، متبوعا بسي عبد السلام وثلاثة آخرين، يسارا، والتفّ حول النقطة التي يصدر منها صوت الطق-طق الرشاشي الذي يصمّ الآذان إلى أن بلغ مكانا يمكنه منه أن يشرف على الخصم.

كان ذلك على بعد يقارب المائة وعشرين مترا من قطعة السلاح. كان يتبيّن، جيّدا،

ومن دون أن ينكشف، فوج الجنود ويرى، في الآن نفسه في مكان أبعد بقليل، جنودا آخرين بصدد إلجام البغال وجرّها نحو ممرّ ينسحب منه سيل الجند المتقهقر.

كان الخمسة مسلّحين ببندقيات صغيرة أنتجتها مصانع أوفيديو استنساخا للنموذج المستعمل في الجيش الألماني. كانت الأسلحة حديثة الصنع وكانت الذخيرة من الخراطيش كافية لحرب تدوم يوما. لاحظ إدريس من المَطَلّ الذي حلّ فيه، من الوهلة الأولى، أن وضع مسار الرصاصة سيعرقل رمايته وأن من الصعب على طلقاته أن تصيب أهدافها لاضطراره إلى أن يصوبها من موقع منحرف. لذلك قرّر أن يتقدم في اتجاه الرشاش. ولكن حدث في اللحظة التي كان فيها يفكر في أن يحسم أمره، تشابك عام حول قطعة السلاح. ذلك أن قسما من الجبالة انقضّوا، فجأة، مشرعين خناجرهم. كانت حركة التفاف تتوضّح أمام عينيه. فبقي إدريس، وقد فاجأته سرعة الهجوم وجمّده المشهد الذي يدور أمام عينيه، منذهلا لحظة وعيناه محدّقتان في كتلة من الخضرة يرى فيها أقرباءه يندفعون للهجوم ورأى جزءًا من حركة تيزران تنفذ نحو الرشاش وتنقضّ على الجنود الجاثين وراء متراس العليق. كان سي بن عمار يتقدمهم وقد اعتمدت إحدى يديه على عصا الخرّوب القديمة وأمسكت الثانية بمسبحة. ولحسن الحظ، كان الضابط قد صوّب سلاحه يمين مرقب أوراق الشجرة الذي فاجأ منه المراكشيون بعد أن دفعوا الكازادوريس حماة الرشاش مطلقين صيحات حرب.

لقد شاهد أباه وسي بوعزّة والأسمر يتقدّمون قفزا وسط القسم الثاني من الحَرْكة. ولسوف يبدأ الإشتباك جسما لجسم. لم يعد المهاجمون على مسافة أبعد من ثلاثين مترا من قطعة السلاح عندما طرقت طقطقة عاصفة الهواء بطلقات قضْبَة صلْيِها. وتملّكت إدريس مشاعر الوجوم فقد رأى سي بوعزة، في لمحة سريعة سرعة البرق، يتدحرج على الأرض. ورأى جبليَيْن آخرين يسقطان هما وخصماهما اللذان أمسكا

بهما من وسط الجسم. ورأى الأسمر يرتمي، وقد أعاقته بندقية المشاة الطويلة، تحت خَلَنْجٍ ورأى الحاج علاّل يتقدّم نحو قطعة السلاح موزعا ضربات من عقب بنقديته يميناً وشمالا في حين كان واحد من أبناء عمومته انعزل قليلا خلف الملحمة يسدد رصاصة إلى رقيب يهم بالفرار. ولكن صفوف الجَبَالة كانت تنجلي وكان الرشاش يطلق النار.

لم يدم هذا الانذهال طويلا. فقد أخذ إدريس يجري وأمسك ببندقيته في اتجاه الرشاش. كان إدريس يثب، وقد عصب رأسه بمنديل مشجّر وبلغت منه الزعبولة ربلة الساق وأسفرت الجلابة عن اليد اليمنى ورفعت "بلغتاه" إلى العقب، مثلما يثب طاووس فتي. عدّل الضابط، وقد هدّدته جماعة سي بن عمار، رشاشه ووجّه مدفع سلاحه، بعد أن ترك مجموعة الحاج علاّل، إلى الجهة التي اعتقد أنها مهدّدة أكثر من غيرها. وعندما لاحظ إدريس هذه المناورة تنفس الصعداء: فأبوه الآن في مأمن.

كان، آنذاك، بعيدا عن المركز الذي يدور فيه التلاحم جِسْمًا لِجِسْمٍ بما لا يكاد يزيد عن عدد من الأمتار. وكان قلبه يخفق وصدغاه يلتهبان. اندسّ في دغل من الإكليل كانت أغصانه تستند إلى نتوء صخري لا يكاد يتميّز عن مستوى الأرض. كان المكان ملائمًا. ففي إمكانه منه أن يطلق النار بسهولة على الإسبانيين من دون أن ينكشف. وصل سي عبد السلام صحبة جماعته الصغيرة ورمى واحد منهم في قعر برنسه، في هدوء لا مزيد عليه، وقد نسي الخطر، بقنفد مُكَوّر كان قد فاجأه وهو بصدد الاستمتاع بأساريع في أسفل الدغل. جثَوا على الأرض. وأوصاهم إدريس بأن يركّزوا نيرانهم على سدنة الرشاش. وفي اللحظة التي كان فيها يعمّر بندقيته حوّل اهتمامه عن الوضع، لا إراديا وبتأثير واحد من هذه الارتكاسات التي تتحدّى بمقدار كبير العقل البشري، حدثٌ صغير شبيه بهذا الذي دفع، قبل قليل، صاحبه إلى التوقف عن عدوه ليذهب فيلتقط، وهو يكاد يكون في مدى نار العدو، حيوانا

ضرعيا تعسا صغيرا منشغلا بالاغتذاء بيساريع في ظل سَرْخَسٍ. لقد لاحظ إدريس، في تلك اللحظة، عبر الإكليل الذي قام بالنسبة إليه مقام الملجأ، آثار شَيْهَم ما زالت حديثة فسمح لنفسه، وقد نسي أباه وسي بوعزة الذي مازال يحتضر أو مات وسي بن عمّار العجوز الذي كان يلمحه وهو يواجه الرصاص وقد يسقط هو بدوره، بأن تتيه في ملاحقة آثار الطريدة.

أعادته صَلْيةٌ مُدَوّيّة إلى مشاهد أقلّ رَعَوّية وانطفأت بادرة الابتسامة التي أضاءت للحظة، وجهه وألقى، وقد عَبَسَ، نظرة خاطفة على ميدان المعركة.

لقد كفّ الرشاش عن إطلاق النار فقد احمر صُلْبُه وقد حمي إلى درجة البياض واستهلك، إضافة إلى ذلك، ذخيرة عَرَبَةٍ أولى. وكان أحد سَدَنَته طريح الأرض وكان الآخران اللذان أضناهما الجَبَالَة المحيطون بهما وأفزعاهما، لا يبديان أي عجلة في تجهيز الثاني. لقد أبدى الضابط القائم على قطعة السلاح، وهو ملازم، الفاريز[57]، شاب تماما، جرأة رائعة في المعركة. لقد كان في منتهى الإنهاك. كانت هيئته، على الرغم من وجهه المُسْوَدّ وبزّته الرثيثة ورأسه المضَمّدة ومنظره النحيف شيئا ما والذي لا يوحي ظاهره الصحّة، أبعد ما تكون عن هذه الهيئة النفّاجة المضحكة في ادعائها والتي هي عيب زملائه في الجيش الإسباني الأكثر بروزا.

آه كم كان يختلف عن أمثال هؤلاء الجخافين!

نظر إليه إدريس بحزن وأحسّ، رغما عنه، بنوع من النفور من أن يلحق أذى بهذا الباسل الذي حلّ بمراكش لمحاربة أناس لم يكن حتى يعرفهم.

[57] الفاريز : صنف عسكري في الجيش الإسباني والأصل العربي واضح في الكلمة.

إنّ الشجاعة ملزمة دائمًا. ولقد كان إدريس ذا إحساس بذلك. وما عليه، من ناحية أخرى، إلا أن ينظر إلى العجوز سي بن عمّار الجامد أمام فوهة السلاح القاتل في موقف تحدّ بليغ حتّى يقتنع بحتمية هذا الأمر المطلق الذي هو صوت الضمير. كان ما يزال فريسة هذا الجدل الداخلي عندما استلفت نظره وجود مرتزق يركض حاملا شريطي خراطيش أخذ الفاريز يعمل بحركة من يده جريئة سريعة في نسقِها في مُلْقِم رشاشه.

ارتجفت جوارح إدريس وأثّر فيه هذه المرّة الشعور بالواجب الذي كان يدفع بالضابط الأجنبي إلى زرع الموت بين المراكشيين بدقة نابضٍ ميكانيكي وصمت فيه الكائن الذاتي وتمدّد الذهن إلى مناطق باطنة واستحال الشعور، إذ أصبح في حالة إيحاء، الى شعورإنسان آلي خاضع لنسق من الارتكاسات الفطرية. خفض إدريس، ببطء، سلاحه في اتجاه الضابط الذي كان، قبل ثوان معدودات، يثير في نفسه تأملات على هذا القدر من الرهافة وسدّد. وانطلقت الرصاصة. كان الضابط يواصل تجهيز سلاحه. ودوت طلقة ثانية محدثة صوتا راعِدًا.

طارت أخشاب شظّتها الطلقة ونبت الرصاصة في حدّة صوت زيز الحصاد.

كان الإسباني يدير الرشاش على نوابضه. وسمع انفجار ثالث. ما من نتيجة. تفوّه إدريس بشتيمة مرفوقة باختلاج في العينين نحو السماء لم يكن خاليا من فكرة تجديفيّة. ولقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها إدريس عن طوره. ومع ذلك فقد كانت رمايته دقيقة. كانت طلقاته جدّ محكمة ولكن مسار الرصاصة كان يمرّ عبر غطاء من الأدغال بلغت من الالتحام حدّا جعل الرصاصات، عند الاصطدام بها، إما تنحرف عن مسارها أو ترتدّ إلى الوراء. لقد كان الظرف خطرا فقفز إدريس

من ملجئه وقطع عددا من الأمتار وانبطح بخفّة وشرع في التصويب إلى الضابط وكان إصبع هذا، إذاك، على الزناد ويكاد مدفع الرشاش يلامس صدر سي بن عمّار الذي كان يضحي بنفسه في استخفاف مهيب. شدّ ابن الحاج علاّل قندق البندقية إلى كتفه وعيّن، من خلال قمحة البندقية، جسم الفاريز الذي كان يجانبه وضغَط على الزناد. وفي أقل من ثانية كان الرشاش، بدوره، يتشظى.

انتصب الإسباني بحيويّة وسقط إلى الأمام حاملا يديه إلى بطنه. لقد أصيب. وضاعت رصاصات الآلة في الهواء على عدّة سنتيمترات فوق عمامة سي بن عمّار. كان هذا يرفع عصاه على مدفع الرشاش المهجور في حين كان الجَبالَة يصرعُون آخر الناجين الذين مكثوا في مواقعهم.

احتضن المرتزق الذي حمل شريطي الخراطيش، وهو رجل متين ذو وجه سُخَامِيّ، الملازمَ. وإذاك رأى إدريس الزنجي. إن الارتكاس النفسي الذي سبّب عنده، قبل لحظة من الآن، شحنة تعاطف إزاء الضابط الإسباني هو نفسه الذي نفّره، هذه المرّة، من الخائن.

كان الأسود كائنا نحت على شكل جبّار. وكانت عينان جامحتان تسمان وجه سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقّة ترتسم عليه علامات عاهة وراثية. ولسوف يلتقفه المراكشيون عندما استولى، بعد أن ترك الضابط المصاب إصابة قاتلة يسقط أرضا، على البندقية الصغيرة التي تتدلّى من كتفه. فلقد عدّلها وتأهّب لإطلاق النار عندما انهار مطلقا صرخة مفجعة وقد أصابته رصاصة في غرّة الجبين. لقد كان سي عبد السلام هو الذي أطلق النار.

توقّفت المعركة. والرتل الذي دحرت ميسَرَتُه وميمنته كان الآن يتقهقر الى لوسيان

وقد تكبّد في مسيرته خسائر محسوسة. واستولى على المدفع الرشاش الجَبَالَى الذين حصدوا، إضافة إلى ذلك، وفرة من البنادق والخراطيش.

وقد وقع أسر حوالي خمسة عشر سجينا، كلهم إسبانيون والاستيلاء على حوالي عشرين بغلا وقتل ثلاثة جَبْلِيين وأصيب إثنان آخران إصابات قاتلة وجرح أربعة عشر.

أسرع إدريس، وقد توقّفت المعركة، إلى الفاريز فعثر عليه ملتويّا مسندا ظهره إلى سور من المصطكا. إن برّته لم تعد غير خرقة دامية. وكان وجهه الذي حال إلى شحوب داكن يوحي، حقيقة، أن أيام حياته أصبحت معدودات. وأمامه كانت تتمدّد جثة الأسود. وكان ثلاثة مرتزقة آخرون ينتظرون، موثوقي الأيدي، مثولهم بين أعضاء مجلس حرب الحَرْكَة.

استحمل إدريس المِحفّة التي استخدمت في نقل القائد المصاب منذ بداية المعركة ومدّد عليها الفاريز بكل ما قدر عليه من حيطة واصطحبه إلى الفندق حيث كان يوجد في قسم رئيسي من المنزل، سي بوعزة والمساعد الذي أسِر وحوالي عشرة جرحى من الفريقين. كان المشهد مُكْرِبًا. إن أنين الجرحى والدم المتجمد على البشرة والثياب وشحوب الوجوه والهذيان والنفس النتن وظلام المكان الذي يعقب مشاهد اليوم المأساوية، كل ذلك كان يستنفد ما بقي للفرد من بقيّة قوى ويبديه على هيئة من الوَهْن المستسلم الذي يمثله ببهيمة مُحْتضَرَة. ولا يسع المرء، وهو يشهد هذه الويلات، أن يدفع عنه هذا التفكير في أن الإنسان ليس، على كل حال، إلا عبد هذه الحتمية التافه، هذه الحتمية التي يتلاقى فيها خافت ومضات العقل الذي هو، على ما يؤكّد عدد من نوابغ الفكر، الدلالة القاطعة التي تُنَبِّلُه وتُمَيِّزه عن جنس الحيوان.

لقد عقب ما سبق من حماسة فيض من الرحمة. وساد داخل البيت المتهدّم سكون رَهق. كان سي بوعزّة يهذي. كان يبدو أنه شارف الموت. وكان، وكما لو كان ما زال يتحدّث إلى أتباعه أثناء الهجوم، لا يكفّ عن تكرار القول"شِدْ على الصدر تحكم الرأس". لقد كانت هذه، تقريبا، كلماته الأخيرة. لقد انتقل من الحياة الى الموت من دون عميق إدراك. فخرج ادريس. وخارج البيت وجد المجلس مجتمعا، في الساحة، برئاسة سي بن عمّار وكان أبوه في عداد المجتمعين.

كان القوم يحاكمون المرتزقة الثلاثة الذين ألقي عليهم القبض والسلاح في أيديهم.

ذكر سي بن عمّار الآيات الأساسية في الشريعة التي تعاقب الخيانة بالقتل ودعَم حُجَجَه بشواهد من السنة واستند إلى سابقة معركة بدر التي قاضى فيها النبي قرشيْين ثبت تواطؤهما مع الوثنيين وأمر بإعدامهما، على ما كانت عليه طبيعته من نزوع إلى الرحمة. وذكر بأحكام خالد في اليمن على المرتدّين التي وافقه عليها الخليفة أبوبكر بما له من سلطة. واستند إلى مالك وشارحي الموطأ. ولكنه، على الرغم مما بسط من حججٍ دامغةٍ على المرتدّين، التمس الرحمة بالنسبة إلى اثنين منهم أكّدت أخبار جديرة بالثقة أنهما ربّا أسرة واقترح إرسالهما إلى شعوان حيث تقع مراقبتهما بإحكام. لم يكن قادرا بالنسبة إلى الثالث على أن يدّعي أيّ ظرف مخفِفٍ لصالحه بل إن شهودا رأوه يصوّب بندقيته إلى جريح جبلي. ونتيجة ذلك لم يجد سي بن عمّار بدّا من أن يطلب تطبيق حكم الإعدام.

قرّر المجلس، إذن، نزولا عند طلب رئيسه، سجن الجنديين المتزوّجين وإعدام الأعزب. وقد نفّذ الحكم فورا.

حاول إدريس، من غير جدوى، أن يتوسّط في الأمر حتى لتخفيف الحكم بالإعدام. وقد رفض ذلك سي بن عمّار رفضا قاطعا متذرّعا بتعذّر إبطال قرار اتّخذ بمقتضى الشريعة ومطابق لظروف الوضع الاستثنائي. فاقتيد الشقي إلى منخفض واد وربط إلى جذع بلوط عتيق. وقد سقط مصابا برصاصات قضاته من دون أن يبدي لا خوفا ولا بسالة إذ لم يكن كثير الدهش مما يحدث. لقد اتخذ له، وقد جاء من بلدته البعيدة أوطنن في قعر بلاد السوس، من رجليه هاديا مثلما يقال عندنا في المغرب فقادتاه من مدينة إلى أخرى.

لم يكن لهذا الجندي النظامي الذي ولد في بلد غافٍ وسط مجتمع جمّدته رتابة شالّة وأعاقته هموم مبتذلة ونخرته أدواء اقتضت دائما وسائل استئصال حاسمة حتى يشفى منها أو يقلل من تأثيرها فيه، أي حق في الاعتراض على ما يحلّ به.

إنه لم يكن غير ضحية مجهولة جرفها إعصار العصر الكاسح. وحالته لا تتعلق بتحليل شخصي بقدر ما تتعلّق بنتائج قضية اجتماعية كثرت عواملها وتعقّدت. إن سي بن عمّار، إذا شئنا، إنما يدعو كل مراكش والمغرب جميعه إلى المثول بين يديه في صورة المرتزقة الثلاثة الذين يحاربون في صفوف الرتل العدو.

هذا النظامي لم يعرف البتّة كيف أبحر من تارودنت ليجنح في تطوان. كان، تماما مثل متشرّدي العصور الوسطى، يمشي من دون أن يحدد خُطوط سيره. ولقد وجد في تطوان مدينة نائمة تعيش، على مرمى عدّة كيلومترات من ضفاف أوروبا، عيشة تذكر في جميع وجوهها بإسبانيا أمراء الطوائف في الفترة التي عقبت ضربة لاس نافاس دي تولوزا[58] القاتلة. إنه لا شيء تغيّر. كانت المدينة التي تسفر عن مظهر

[58] موقعة العقاب (ج عقبة) في النصوص العربيّة سنة 1212 وهي تعتبر بداية نهاية الإسلام في إسبانيا.

بشاشة موروثة مسترخية على هذا النحو من الكسل الذي يشي بانحطاط الشعوب.

كانت تحافظ على أفضال حضارة عاصرت السلاح الأبيض ودولاب المغزل. وكانت طريقتها في العيش تتحدّى، في هذا القرن العشرين الذي ينتقل فيه المخبر، في اكتشافاته الغريبة، من أعجوبة إلى أخرى، قوانين الصيرورة الاجتماعية التي هي شرط الحياة المتحضّرة الملزم. ولا تكاد قصورها المبلّطة وصحون دورها المزهرّة وردا وياسمينا وينابيعها وفسقياتها السُّماقية وحماماتها البخارية وما يكسو سكانها من قماش صوفي وحرير ونسيج موصلي ومطبخها المنتقى وإسلامها السطحي لتخدع العين المتنبَّهة التي تتبيّن في ما وراء هذه الصحّة المزيّفة، عُضال إيهان بيّن العلامات. وما كان يحدث في تطوان كان يحدث كذلك في فاس ومراكش والرباط وسلاّ مثلما كان يحدث في تلمسان والجزائر وتونس.

لقد كان الطّنيّ الذي حلّ من سوس موطن مولده بهذه المدينة يحس أنه غريب فيها غربة وادراس التي تكاد منحدرات الجبل فيه تلمس أسوار المدينة المرينية. وما هو المخرج من هذه الحالة؟ لقد بلغت جِهَوِيَّةٌ سكانها حدّا يشعر الغريب الذي يعيش فيها بنوع من الإقصاء وبأنه مبعد تلفظه هذه المدينة التي يكثر فيها الناس من التضرّع إلى إله الرحمة والتي لا يتنزّه أي مواطن يحترم نفسه في أنهجها إلا حاملا مسبحة في يد واللبدة تحت الإبّط.

وما هذا إلا فضيلة موقوتة كان يشبهها الحاج علاّل، في النقاش الذي كان يدور بينه وبين إدريس وسي عبد السلام، بفضيلة هذين المكّيّيْن اللذين كان يتذكّر سلوكهما الماكر في الوقت الذي كان فيه ظل الأزهري يرعد، موجّها سبّابته إليهما، مندّدا بمنافقي الإسلام...

وكيف يعيش المرء فيها؟

إن الطَنَّي التعس لا يعرف، وهو الذي ولد في وسط القبيلة، مهنة غير تأجير ساعديه العَضِلَيْن. ولكنه كان من المخاطرة في بلد مجرّد من الصناعة حيث تنتفي حتى الرأسمالية وحيث ما زالت التجارة المركَنْتِيليّة والحِرَفِيّة ملفوفتين في قمطيهما القروسطيين، أن يعثر فيها على بعض وسائل العيش. وحتى لو افترض المرء هذه الإمكانية فإن العادة السائدة فيها ستعارض تشغيله.

إنّ مؤسسات متداعية مازالت تتحكّم من أعلى الى أسفل في الإنتاج الحرفي المراكشي. فنحن مازلنا نعيش في زمن رابطة النقابات حيث تحكم كل شيء أعراف منغلقة وحيث لا يحق للأجنبي البتّة أن يدخل فيها. إن أهل الحرفة "الهنتة" ب"معلميهم" و"حرفائهم" الذين لا يحصلون، على امتداد سنين وفي فترات متدرّجة، على تدريب مهني بقدر ما يخضعون لسيطرة مؤسسة لها طقوسها ورتبها كما هو الشأن في الجمعيات الماسونية يرصدون كل شيء.

فمن الطبيعي أن يقع إبعاد من يتقدم إليها باحثا عن شغل.

التضامن المشترك؟ إن الزكاة قد اختفت منذ زمن طويل من وصايا الإسلام ولم يتبقّ من مجموع الاعتقادات الراسخة المهيب غير صلوات يومية مُلَبّسة بأنفال يعمد إليها في كل وقت وفي غير محلّها وكأن طاعة الخالق لا تقتضي غير هذه الرياضة البدنية التي بدا أن كلّ روح قد طرد منها صراحة. ويصوم القوم أيضا رمضان مع احتمال أن تتحوّل لياليهم إلى بَشَمٍ بطني حقيقي. وقد يغض النظر عن الأمر لو كان يمكن للأجنبي، عملا بالإحسان الذي ألحّ عليه الإسلام، أن يجتاز مرّة واحدة على الأقل، عتبة قاعة طعام العيّاشين هذه.

إنّ الواقع عكس ذلك. ففي حين ترن طيسان الشاي فوق طبق النحاس المُفَضّض ويتجشأ الأكَلَة إيذانا ببلوغ ضفاف الهناء، ينام الطَنَنّي جائعا مرتجفا بردًا على بورياء مُغَبّرة بُسطت في زاوية مسجد فقير فيذهب مباشرة، وقد نكل الجوع بأحشائه والتبست عليه السبل وثبّط همّته مشهد الأنانية الذي يحيط به ويضايقه، إلى الثكنة حيث أحدث الأجنبي الذي حلّ قبل قليل بالمدينة مكتبا لتجنيد الجنود المرتزقة. وهناك يُزَوّد ببندقية وبالعتاد ويعيّن له رقم طابوره أو مَعِيّته ويقبض منحة تطوّعه إضافة إلى شَهْرِيَتِه المقرّرة فيلتحق بال"عشرة" التي عليه أن يعايشها.

إنّ هذه هي، في حياته، المرّة الأولى التي لم يعد فيها التعس التائه مجرّد حطام تتقاذفه الصدف. إنّ له الآن بيتا مؤقّتا وهو، في المساء يتذوق، هو أيضا، طاجينه ويدخّن سِبْسِيَه ويترشّف، متلذّذا، طاسة الشاي المطعّمة مِسْكًا أو نَعْنَعًا.

ويكتسب التعس، وهو يتمرّد على حظه، عادات جديدة هي، عموما، سيئة. فهو مساء سداد ال"المونة"[59] يشتري له، مثلما يفعل رفاق المرقد، نصف لتر من عرق المهيّة من مردوك[60] المكان وعائلة[61] أذبل جمالَها استعمالٌ طويلٌ وممارسة فظّة. وبذلك يرسو، هو أيضا، على ضفاف هناء سيتَكَشَّف فيما بعد كابوسا مزعجا. ثم يذهب، وقد تشيّع لراية أجنبية، ضمن رتل لمحاربة إخوانه. ومن واد إلى واد ومن طاقة وزّال إلى دغل مصطكّا يقع رتله على حركة يشتبك معها في قنال سيكفّر الطنيّ التعس في نهايته، تحت شجرة بلوط نخرة ضمر جذعها، عن خطأ ولادته في هذا العالم في منعطف سيئ من منعطفات تاريخ بلاده. لقد ولد وعاش ومات على هذا النحو

[59] المرتّب
[60] يهودي
[61] بغيّ

أي على هذا الابتذال الذي لا مزيد عليه.

***

عاد سي بن عمّار والحاج علاّل، بعد التضحية بالطنّي، إلى داخل الفندق وقد سبقهما إدريس إلى المكان. كان جسد سي بوعزّة قد مُدّد في زاوية من الفناء. وليس على جثته، حسب طقوس الجهاد، أن تُغسَّل إذ أن الموت في ميدان الشرف قد طهّر روحه سلفا ويمكنه أن يمثل عالي الجبين، بين يدي العدل. فدفن بثيابه الملطّخة دمًا. ولقد اصطفّت معه جثث المقاومين الجبليين الأربعة الذين سقطوا أثناء المعركة وجلس سي عبد السلام عند رؤوسهم، وشرع في ترتيل سورة ياء سين هذا الزاد الأخير الأسمى الذي تناله أرواح الشهداء.

اقترب إدريس من جديد من الفاريز صحبة أبيه وسي بن عمار. كان عدد من الأسرى الإسبانيين قد مدّدوا قائدهم على بورياء واجتهدوا، بعد أن نزعوا عنه دُرّاعته، في سدّ الجرح الذي يكشف عن بطنه. كان النزيف يفعل فعله. وإذا لم تتوفّر خدمات جرّاح ماهر فإن الضابط محكوم عليه بموت أكيد. طلب أحد الجنود الأسبان قماشا أبيض فنزع سي بن عمّار، تلقائيّا، في حركة تشرّفه مثلما تشرّف معه الجنس الذي ينتمي إليه، "تشاميرَةُ" وقدّمه إلى الجندي ثم انحنى على الجريح وشرع في حثه على الاستسلام. كان يحدّثه بالعربية بصوت أبوي يكاد أن يكون ملاطفا. ومع ذلك فإنّ هذا الرجل قد أصدر منذ قليل حكمًا بالإعدام على واحد من مواطنيه منحدر من الدم الذي ينحدر منه. إن المغرب مازال يخبّئ تحت قشرته الفظّة كنوزا من هذه الطيبة الفروسية. تبلّل جفنا إدريس ولاحظ، في عنق الفارز خيطا تدلّت في ذيله حُلْيتان. كانت احداهما قطعة فضة صغيرة بيضوية الشكل نقشت عليه صورة عذراء البيلار. إن الضابط، ما من شكّ في ذلك، أراغوني أو ينتمي إلى كتيبة مجنّدة

من شمال شرق شبه الجزيرة. ذلك أن تأثير عذراء البيلار، على الرغم مما اكتسبته من صيت في العبادة الشعبية نادرا ما يتجاوز حدود أسقفية سرقسطة لأن الديانة أو بالأحرى الإكليروسية نمت في اسبانيا نموّا دفع كل مقاطعة إلى أن ترسم لأم المسيح أيقونة خاصة بها. أما الحلية الثانية فهي مُنَمْنَمة تمثل سيدة عجوزا يغطي شعرها الوشاح التقليدي. إنها، على الأرجح، أم الضابط.

اقترح إدريس على أبيه إرسال ساع إلى قائد الرتل الإسباني بغية استحضار جرّاح أو مَقْعَدة يحمل عليها الجريح إلى لوسيان فنزل الحاج علاّل وسي بن عمّار عند رغبته. ولكن الفاريز أصبح، الآن، في حالة غيبوبة ولم يلبث أن مات.

دفن الأموات فجر اليوم التالي فحفرت، غير بعيد من جدران الفندق، حفائر منفصلة عن بعضها البعض، قبر في كل واحد منها ميت من الأموات. ولقد حصل الضابط على قبر خاص به. وهكذا ألقى الموت الذي تمّحي على عتبته كل أحقاد الأرض، على أنْشَازِ من التراب صغيرة كفنا منسوجا من السكينة والسلام.

تلا سي بن عمّار صلاة الأموات للجميع وتضرّع إلى الله، وهو يرفع يديه نحو السماء ملتمسا هذه الرحمة التي لم تكف الإنسانية في يوم من الأيام عن التماسها على الرغم مما تأتي من أفعال وتنزع، على الدوام، إلى القسوة والى الشرور.

لم تلبث الأعمال الحربية أن توقفت. فعقدت، بطلب من الإسبانيين، هدنة لصالح قاطع الطريق الذي سلف ذكره والذي سارع، مكرّرا سلوك قرد الحكاية على لسان الحيوانات، إلى الاستفادة من صنيع غيره.

كانت السنة، آنذاك، سنة 1914. وكانت الحرب الكبرى قد اندلعت في أثناء ذلك.

خيط أريان

كان إدريس شابا تقريبا عندما أرسل به أبوه إلى تطوان لدراسة النحو والفقه. كان الحاج علاّل، بالتأكيد، يعرف جيدا أن زاوية عاصمة الجبل لا تساوي كثيرَ شي. وهو لم يكن ليبدي، لأنه يحكم على التربية من ثمارها، رغبة مفرطة في هذا النوع من الدراسات السكولاستيكية، ولكنه كان يرى أن من الأفضل تصنيف مراحل الدراسة تعاقبيا. ولقد كان يأمل في أن يرسل بإدريس، بعد تطوان، إلى فاس ومن فاس إلى الشرق إذ ما زالت ذكراه تبهره. كان صوت البارود قد انقطع فنزل إدريس، ذات يوم، في المدينة الصغيرة المتأنفة التي بناها المريني أبو ثابت عامر بن عبد الله في القرن الثالث عشر على سباخ تمودة وصعد الى الطلعة التي هيأ له فيها أقرباء بعيدون حجيرة تشرف روازنها على المدينة وعلى وادي مارتين وجبال بني وزمار ويمثل سطحها أعلى نقطة في المدينة. فمنها يتبدى في الأسفل منظر شامل رائع مثلما يتبدى البحر، يسارا، في زرقة لازَوَرْدية يخِطمُها صدف الأمواج المرتدّة باستمرار على رملة الساحل. وبين المدينة والبحر يمتدّ واد زُرع بساتين وقامت فيه فيلات كثيرة يأتي أغنياء تطوان للاستراحة فيها نهاية الربيع والصيف. ويعطر شجر البرتقال هذا الفضاء ويختلط شذا أزهاره، في الليل، بالفوحان القوي الذي ينقله الهواء البحري.

وتبدأ، على بعض البعد جنوبا، سلسلة القمم المسنّنة المعروفة جغرافيا بأسماء القبائل التي تسكنها وهي بنو سعيد وبنو وزمار وبنو ليث وبنو حسن وجبل العلم وبنو عروس وبنو يِدِّرْ فوق دار ابن قَريش وظهر القيتون وبنو مساور وجبل حبيب وجبال الحوز ووادراس وقنن أَنْجَرة العمودية التي تغطي الجزء الجنوبي من المضيق، بين

طنجة وسبتة. وفوق سبتة تقع المدينة البيزنطية التي أطلق عليها الرومان اسم الإخوة السبعة أي جبل موسى المنتصب تجاه جبل طارق وأسفل جبل موسى رصيف القصر الصغير الذي تابع منه ابن نصير بعينيه ثلاثيات المقاذيف التي أقلت إلى اسبانيا الفيزيقوطية ابن زياد ورفاقه الإثني عشر ألفا.

كان يلذ لإدريس أن يأتي السطح، في المساء، فيلقي منه نظرة على هذه الدائرة التي يميل فيها البحر والسماء إلى الاتحاد فوق هذا الطوق من الجبال الزرقاء. إن جانبا كاملا من التاريخ المغربي يرتسم في هذا المشهد. وتنتشي عند كل شفق وغالبا عند كل فجر طبيعته التأملية التي تنذهل، في كثير يُسْرٍ تحت أرز تيزران، وهي تتأمل دفق عجائب الطبيعة، التي تبعثه على الإحساس بجمال وطنه الوعر.

أقام إدريس في تطوان ثلاثة أعوام. كان بعد صلاة فجر كل يوم يذهب إلى زاوية الفقيه الطفائي. لم يكن إدريس يحبّ، إحقاقا للحق، هذه الحلقة الدراسية. وكذلك أبوه. ولكنه لم يكن له بديل عن ذلك. لقد كان، وهو المشبع سلفية، النازع بشدّة إلى فهم أسباب التربية الاجتماعية التي تَمُضّهُ متابعة دروسه في حلقة تفوح منها رائحة المراءاة ولا يعرف الإسلام فيها إلا ملبسا بثوب غريب هو أردأ ثيابه على الإطلاق، لا يكفّ عن إبداء تذمّره لأبيه. ولكنه، مع ذلك، سلّم بالأمر. كانت هذه الحلقة تعج بالدرقاوة وهي واحدة من المائة زاوية وزاوية التي ترهق أفريقيا الشمالية بعدم كفاءتها اللّجِبَة. ويتميّز أتباع هذه الزاوية بحمل سبحة ذات حبّات من الخشب غليظة ومِحْجَنٍ طويل يتكئون في مشيهم عليه مما يساعد على إظهار مشيتهم المضحكة بمظهر طويل ساق متبختر. وهم يقضون، إخلاصا منهم للقدر والسّمَاور، معظم أوقاتهم، في تذوّق طاجين لحم الخروف والدجاج المشوي وفي ارتشاف طاسات الشاي المُنَعْنع التي تزيّنها الحلوى الهَشُومٌ واللوز المحمّص. إنهم، بهذه الطريقة، يخدمون الله خدمة مُولِمين. وعندما يظفرون، في نهاية حياة وديعة، بالخلود سيستأنفون الوليمة التي

بدؤوها في هذه الدنيا على هذا النحو السعيد. وترصّع مشاهد رواق هؤلاء العيّاشين كلمات بذيئة وكلمات رابيليزيّة وتتأذّى الأذن قليلا وهي تسمع من أفواه على هذا القدر من التقوى نعوتا تلائم، وهذا أقل ما يمكن أن يقال، أوساطا جرى العرف على إدراجها في برج سيلان. ولكن الشيطان يطوّف حول هذا العالم الذي يعَيّد ويهلّل لله. وأحابيل الشيطان توشك أن تقود المؤمن إلى حيد يمكن أن يغضب الجلالة الإلهية. لقد كان من الواجب التوقّي من مثل هذه الفخاخ. ولكن القوم، ومن دون مقدّمات، ينتقلون من التشريح النسائي حيث يلذّ لخيال هؤلاء الناعوظيين أن يجرس بشهوانية ما يلتذّ به، إلى تسبيح يناسب الظرف تنشده أصوات زهاد مزيّفين ضاعوا في هذه الزاوية التي تحوّلت إلى دير تيلام.

من السهل، إذن، أن يفهم المرء أن إدريس كان قزّ مثل هذا المجتمع إذ لم يكن يوجد من بين جماعة هؤلاء الإبيقوريين السّمَجاء اثنان أو ثلاثة يمكنهم أن يبتعثوا فضوله. كانوا أساتذة جاؤوا من فاس حيث قضّوا حوالي عشرين سنة في اغتراف النحو والفقه المالكي. وكانوا يلقون دروسا على حوالي ثلاثين طالبا يتهيئون لتلقّي معرفة علمية على أيدي أساتذة من عصر آخر. ولقد شرب إدريس من ينبوعهم. لقد لقّنه واحد منهم، وهو زروالي طويل تشي سَعولته المتواصلة بسلّ رئوي آخذ في التطوّر، مبادئ النحو العربي. وقد قضّى إدريس ما يقرب من سنتين وعلى امتداد ساعتين إلى ثلاث ساعات يوميا في دراسة مبادئ تفسير شرحٍ منظومٍ غالبا وغير مُجْدٍ في كل الأحوال استنادا إلى منهج لا وضوح فيه. فلم يرسخ كثير شيء في رأسه إذ لا تمارين أو إنشاء أو تقويم أسلوب أو اختبارات. وكل ما هنالك هو بعض الجهود لتقوية الذاكرة عن طريق الحفظ ممّا يقود إلى ببغائية من دون مضمون.

لقد تعرّف إدريس، بهذه الطريقة، على ألفقيّة محمد بن مالك الجيّان التي اشتهرت باسم ألفقيه ابن مالك وعلى شرح ابن عقيل لها. إنها قصيدة تعليمية طويلة في

النحو العربي تتضمّن أكثر من ألف بيت وتتناول، من دون تمييز، النحو والعروض والمنطق والبلاغة والترادف. كذلك صارع إدريس لاميّة الأفعال للمؤلِّف نفسه. وهي كتاب في صرف الأفعال العربية صيغ، هو الآخر، لغاية تعليمية فاتخذ من النظم أسلوبا.

إنّ الألفيّة واللاّمية اللتين ألّفهما في منتصف القرن الثالث عشر تقريبا ابن مالك الذي ولد في جيّان في إسبانيا ودرس في قرطبة وساح في العالم الإسلامي لذلك العصر، بقيتا، في الجامعات العربية، كتابين مَدْرَسيين إلى هذه الأزمنة القريبة جدّا. ولكنهما تجاوزتا عصرهما وأسهم اعتمادهما طويلا في التدريس بقسط غير قليل في تبليد المشرق.

استنفد إدريس لياليه، أيضا، في الانكباب على قطر الندى لإبن هشام. وهو انكباب لم يعنه، هو أيضا، إعانة تذكر تبيّن طريقه في عتمة متاهة قواعد النحو. وكان عليه في الأثناء أن يحفظ موجزًا لتاريخ المغرب من خلال لمحات عن السّيَر جمعها ابن عسكر وابن الطيّب في القرن السادس عشر في نشر المثاني.

ثم انه غَالَبَ، عودة منه إلى النحو، كتاب محمد بن داود ابن جرّوم الذي كان يفضل الألفية وتفسير ابن عقيل دقة وإن خضع، مثله، لتقليد القافية المخيّب للآمال. وتصدّى، من بعد، للتشريع المنحصر في شمال أفريقيا، مثلما هو معروف، في الفقه المالكي. وقد قاسى الأمرّين من موطإ إمام المدينة وشرح ابن الليثي والمدوّنة التي جمعها أسد الله بن الفرات وثبّتها سَحنون وشروح الزرقاني التكميلية واعتراضات البنّاني والرَّهُوني وما توسّع فيه خليل في المختصر من دقائق وتمحّك القرشي وتفسير قنّون الإضافي.

إنّ سحايا رأس إدريس لم تعد، والحق يقال، قادرة على التحمّل. لم يكن إدريس، طيلة سنتين، ليتقدّم، وقد تقاذفته دراسة عدد من السير التاريخية وتشوش أصول عقيدة تشكو من نقص في التسلسل وطرق تدريس النحو العربي القديم الضبابية، إلا مترنّحا عبر شبكة علوم مثل هذه. كان ذكاؤه يتقمّح وعندئذ لا يعود في إمكانه أن يفقه من الأمر شيا.

***

خدمت الصدفة، لحسن الحظ، إدريس. فقد زار الجبل نهاية السنة الدراسية الثانية عالم جزائري وهراني الأصل. كان مثقّفا من مزّونة تردّد على حلقة بوراس الشهيرة وانتهى، لشدّة فضوله، إلى مزاب حيث أفاد من الفقه الإباضي وكان يمثّله، آنذاك، تعليم الشيخ محمد إطْفِيَّش. وتسجّل، بعد ذلك، في زيتونة تونس التي لم يتردّد على دروسها بانتظام.

لقد كان عِصَاميّا باحثا مولعا بالتاريخ والشعر وفقه اللغة والشروح الفقهية. وكان، إضافة إلى ذلك، على إلمام متوسط بالفلك والحساب والجبر. لقد أدهش، باتساع معارفه وقدرته البيانية، الحاج علاّل فتذرّع به، وهو الذي كان يحتاج إلى دليل فكري يرشد إدريس ورأى في العالم الجزائري الحجّة المناسبة لسحب إدريس من حلقة الفقيه الطفاّئي واهتبل الفرصة.

وقد قضّى إدريس السنة الثالثة في تيزران ولو انه كان يعود إلى تطوان بين الفينة والأخرى. لقد استقرّ سي بوزيّان بن الأخضر، هو بدوره، في الجبل وزوّد إدريس على طريقة متعدّدي الاختصاصات المسلمين في العصر الوسيط، بشيء من كل ما كان في متناوله من علوم فألقى عليه درس تاريخ عام تناول المغرب من عصور بلاد البربر

القديمة الضاربة في القدم إلى أفريقيا الشمالية في أيامنا هذه.

كانت تنكشف، من خلال ما يبدو من مظهر سي بوزيان، الديني، نزعة إلى القومية المغربية واضحة المعالم. وهكذا كان بربري الجبل وعربي منطقة وهران يتوحّدان، في خلوة هذه المعرفة العلمية إحساسا وطنيا حققه على الوجه الأكمل امتزاج عمره أربعة عشر قرنا.

كان سي بوزيان يعدّد ويصنّف ويعرض وينقد مختلف فترات هذا التاريخ الطويل، من حنبعل إلى عبد المؤمن ومن يوغرطة إلى السلطان الأسود ومن الحروب البونيقية إلى الحروب على الفرنسيين، مبرزًا إيجابياتها وسلبياتها في ما يتعلّق بالمسألة الوطنية التي ربما يكون هو الوحيد الذي فهمها وعبّر عنها بوضوح في هذه المراكش القرعشرينيّة.

كان هذا الفقيه ذو الهيئة الرثّة من عيار مبرّز جامعة فقد كان يعرف، انطلاقا من كداسة أحداث لانتوء تميّزها وفي غالب الأحيان غامضة، كيف يصنّف عناصرها ويقابل بعضها ببعض ليصل بها، عن طريق توظيف استدلالي موفّق حريّ بأن يسبّب دهشة المؤرّخ الأكثر ولوعًا بلطافة التفكير الديالكتيكي، إلى نتائج واضحة منظّمة حتى أن إدريس تمكّن بعد عدد من الشهور من اكتساب معرفة بتاريخ بلده ليست بالهيّنة. كان سي بوزيّان، في ما يتعلّق بالنحو، يستخفّ استخفافا لا مزيد عليه بالطرق القديمة. فقد كان احتكّ، وهو في تونس، في الفترات القصيرة التي تردّد فيها على الزيتونة، بالمدرسة الجديدة التي استلهمت التجديد البيداغوجي المصري فأمدّ إدريس بتعليم مستمدّ من الموجز المخصّص للمدارس الخديوية الذي ألّفه آنذاك حفني ناصف وحثّ تلميذه على قراءات متّصلة وعلى القيام بتمارين في الإنشاء حتى يجعل تعليمه أكثر نفعا وأنبض حياة فعرك إدريس علم الأصوات والنحو والأسلوب والتعبير والإلقاء. وكل هذا لم يكن بالأمر الذي يمكن الاستهانة به

لفهم لغة لا حركات فيها، بالمعنى الحصري، ولم تحدث فيها، بعد، علامات الوقف ولا مناص للمرء من أن يمهر في معرفة نصوص تزخر قواعد وقواعد مضادة وملاحظات وقواعد إعراب وتصريف حتى يتمكّن، بصحّة، من كتابتها وقراءتها خاصة. وقد استبعد، في ما يتصل بالقراءة، بغية صقل الإلقاء، الكتب التي اصفرّت وريقاتها حتى أنّ الكلام لا يكون فيها، غالبا، غير طلاسم تستعصي على الفهم. لقد كان قد أبقى لنفسه على عدد من هذه الروايات المعرّبة أو المقتبسة التي ألّفها المصري مصطفى لطفي المنفلوطي، وهو أحد كتّاب المدرسة التجديدية، في أسلوب يطغى عليه همّ تخليص اللغة العربية من مظاهر القديم ومن لغو الصياغة فيها فألزم إدريس بتعلّم اللغة الأدبية الجديدة وبإثراء لغته بالألفاظ الجديدة والأقوال المأثورة وأملى عليه مقاطع شعرية اقتطفها من أجود المنتخبات. وقد اختار له، في ما يتصل بالمغرب، قصائد غنائية مستمدّة من الدواوين الأندلسية: ابن زيدون وابن عبّاد وابن هانئ. ودلّه، في ما يتصل بالشرق، على عدد من منتخبات الفترة السابقة للإسلام ومنتخبات المتنبّي وأبي العلاء.

إنّ مثل هذا التعليم، باعتباره بداية، لا بأس به.

أما في ما يتصل بالفقه، فقد راجع مع الحفل كل ما يعرف عن الفقه المالكي. تحدّث سي بوزيّان في أصول المذهب وفي الشروح والمناقشات التي تسند بناءه العقدي. ولكنه ذكر، إلى جانب الجدل العقدي المحض، الأسباب المتعدّدة التي جعلت من هذا المذهب نوعا من العقيدة القومية في المغرب. وقد برهن، مذكّرا بالبدع الشيعية والخارجية التي هزّت أفريقيا الشمالية في فترات معيّنة من تاريخها، على ضرورة غلبة هذه العقيدة باعتبارها حدّا وسطا مسكّنا للفتن. وقد حامى عن وجهة النظر السلفية ولكنه أقرّ بأنه ليس من الممكن تصوّر انبعاث الإسلام الأوّل من دون اعتبار ما تقتضيه روح العصر. وذكر، تمكينا لأطروحته، عددا مدهشا من الأحكام

المستمدة من القرآن والأحاديث وآثار مالك نفسه الذي لم يعرف عنه، من ناحية أخرى، أنه كان على ليبرالية مفرطة. وشرع، توضيحا لعرض مثل هذا وبأسلوب حكائي موجز، في إلقاء درس قصير في التاريخ الإسلامي حتى يبرز، بشكل أفضل، الأسباب السياسية البحتة التي تكمن وراء الانحرافات الانشقاقية في الإسلام. واتخذ من موت النبي منطلقا لتفسيره فتحدّث عن خصومات سقيفة بني ساعدة الأولى حيث برزت، للمرّة الأولى، هذه العقدة من المشاكل العقدية التي سيطلق عليها، فيما بعد، عبارة مسألة الخلافة. وقد ألحّ على هذه النقطة التي لا علاقة لها بأصول العقيدة والتي لم يحسم لا القرآن ولا السنة أمرها. واستبعد، مُعَضِّدًا بهذه الحقيقة الحاسمة، على الفور، المطالب التي طعمت، فيما بعد، جسد الإسلام باسم شرعية في الخلافة لا أحد يعرف مأتاها. وعيّن من دون مُوَارَبَة موضع الداء بإثبات بساطة العقيدة الإسلامية التي تضيق بكل رأي مسبق مناف للعقل والأخلاق. وتحدّث عن الجدل بين مختلف الأفْرِقَة قبل تولّية أبي بكر وعن الخلاف الأول بين المهاجرين والأنصار وعن حروب اليمن وحملات خالد لقمع الرِدّة في مبتدئها وعن أول مجلس دستوري جعل من الخليفة المنتخب، بالنسبة إلى المسلمين، الأوّلَ من بين متساوين[62] وعن تسلّم عمر السلطة الأولى وحكمه المتّسم بالنزعتين التيوقراطية والأبوية الذي كاد المجتمع الإسلامي أن يعيش أثناءه عصره الذهبي.

لقد حدّد سي بوزيان دولة الخليفة عمر بداية لهذا العهد من الديموقراطية المثالية التي ستسمى لاحقا بالإسلام السلفي ثم توسّع في موضوع موت الخليفة الثاني الذي سقط ضحيّة دسيسة خَسيسة. ومن هناك انتهى إلى انتقال الخلافة إلى عثمان السمح إلى حدّ يقترب من الضعف الذي أعلن اغتياله عن بداية الفتن المدنية التي هزّت قاعدة الخلافة. ثم فصّل وجهة نظره حول قميص الخليفة العجوز الملطخ دمًا

---

[62] Primus inter pares

الذي أصبح نقطة التقاء كلّ عُصْبَةٍ وكل زُمْرَةٍ وكل مغامر، ثم عبّر عن رأيه في بني أميةّ الذين لم يُحنوا رؤوسهم، وكانوا أعداء للإسلام، إلا بسبب الضربات التي وجهها إليهم النبي. وهم لم يستردّوا دورهم النشيط في السياسة، وكان أبو بكر وعمر قد استبعداهم، إلا زمن خلافة عثمان متزيّنين بإسلام مُتَصَنّع.

ومن هناك عرض سي بوزيان لانتخاب عليّ فتفحّص أسباب الدسيسة التي حاكتها عائشة امرأة محمّد وكثير من صحابة النبي ضدّ ابن أبي طالب ومعركة الجمل والمؤامرات التي حاكها معاوية وعمرو وارتداد سوريا ومصر ومعركة صفّين. ودافع عن مبدأ شرعية انتخاب الخليفة علي وآخذ متآمري صفّين على شق عصا الطاعة.

ولكن هذه الشرعية يجب، في نظره، أن تزول، طبعا، عند موت الخليفة الذي انتخبه، شرعيا، مجلس الشورى. ثُمَّ تعرّض سي بوزيان لمعركة صفّين مبرزا ما فيها من خفايا سياسية حزبية وشدّد على فكرة انتفاء كل اختلاف عقديّ وعلى الطابع الشخصي والقبلي الدقيق الذي أثار سليل بني أميّة على خَلَف بني هاشم. واستفاض في رواية أولى مراحل المعركة: انتصار علي في البداية وحيلة معاوية الذي لجأ، وقد استشعر الإخفاق وربما الهزيمة، إلى مناورة نصح بها عمرو وتبيّن أنها مؤثّرة في نفوس المحاربين العرب سريعة التأثر وهي رفع لوحات القرآن على رؤوس الرماح.

وتحدّث سي بوزيان، أيضا، عن نتيجة اللقاء المطبوعة بالذبذبة وعن فكرة التحكيم التي اقترحها معاوية وقبل بها الخليفة وعن بروز الاختلافات الأولى ورغبة الأشتر في مواصلة المعركة وتردّد عليّ واقتراحه إيفاد الأشعث ممثّلا له في المفاوضات التمهيدية التي لم يكن من نَدَبَه معاوية لتمثيله فيها غير عمرو شخصيّا ورفض محاربي العراق التصديق على وفد الأشعث وتعيين أبي موسى الأشعري بدلاً منه بحيث أن المسلمين الذين كانوا إلى حدّ الآن متّحدين، تابع فقيه مزّونة حديثه، فرّقت بينهم مسائل

ثانوية. وبيّن كيف أن أنصار علي الأكثر تعلّقا به (وهم هؤلاء بالذات الذين كانوا يرغبون في محاربة معاوية واعترضوا على شرعية حكم لجنة تحكيم أذرع الذي يقيل الخليفة وينصّب معاوية) انقلبوا عليه وحاربوه. لقد كانوا هم خلايا الخوارج الأولى الذين استقرّوا، بعد أن انهزموا في النهراوين، على مقربة من الكوفة حيث تألّفوا حزبا يعارض عليّا مثلما يعارض معاوية وعمرا. كذلك بيّن كيف أن من ساندوا ترشح أبي موسى وعارضوا ترشح الأشعث مساهمين، بذلك، في فوز معاوية، بقوا مخلصين لعليّ بعد هزائمه وجعلوا منه ومن أبنائه، فيما بعد، أنواعا من خَلَقَة العالم المعصومين: لقد كانوا هم العناصر الأولى التي أنشأت التشيّع الذي انضوى، بعد أن فاقمت عقيدته أحمال مقتبسة من إيديولوجيات أجنبية وشوّهتها، إلى أطروحات هاته الباطنية التي تعارض معارضة لا مزيد عليها العقيدة الإسلامية والروح التقدّمية المشتقّة من المجتمع العربي القديم. ويقع بين القطبين والمنزعين والنحلتين مجموع الأغلبيّة السنية.

توجد اليوم مذاهب سُنِّيَّة أربعة. ولكنها كانت زمن العباسيين تعدّ حوالي عشرة مذاهب إذ اختفى أغلبها. ونجاح المذاهب، تماما مثل النحل، مردّه خاصة إلى أسباب سياسية. فلقد احتفلت إسبانيا، قبل كل شيء، بمذهب الأوزاعي ثم فضلت عليه مالك. وكادت مصر قبل أن تكون شافعية أن تتبنّى تعليم ابن الحسن. ومع ذلك فقد تمكّن الشافعي من تحقيق الغلبة. ثم إنه فقد، لاحقا، بعضا من تأثيره لصالح المالكية. ولقد اختفى التشيّع، هو بدوره، من مصر، بعد سيادة عابرة وذلك على الرغم ممّا بذله الخليفة الحَكَم من جهود بغية توطينه فيها. أما الحنفية فهي لم تقبل في بلاط بغداد إلا عندما ربط القاضي أبو يوسف، مؤلف الخراج، مصيره، نهائيّا، بالمركبة العبّاسية وطوى الزمنُ قَرْعَ الخليفة المنصور أبا حنيفة بالعصا (وهو مشهد مقرّز رواه ابن خَلِّكان) ومشهد هارون الرشيد وهو يأتي، شخصيا، لحضور درس في الفقه الحنفي يظهر، بما فيه الكفاية، ما حدث، منذئذ، من تطوّر.

إنّ في إمكان الإسلام أن يستغني، تماما، عن هذا البناء المُتَكَوِّم. وقد فكّر علماء كبار وفلاسفة مشهورون بل علماء دين في إبطال هذه البدع والعودة إلى الوحدة الماضية. إن احمد بن حنبل هو أول من أشار، من بين الأئمّة السنة الأربعة، بترك الاجتهاد وبوضع حدّ لإفراط المجدّدين في ميدان الدين. ولقد تأثره، في الإصلاح، آخرون على امتداد ألف سنة: ابن الجوزي وابن تيمية وابن القيّم وابن عبد الوهاب.

كان للمغرب رائد سلفي ذائع الصيت. إنه ابن تومرت. لقد كان بربريّا اجتذبه منذ سنّ مبكّرة مشعل الثقافة العربية فارتحل إلى المشرق لا ارتحال تائب جاهل يتجشّم عناء الرحلات توسّلا لعفو ما وإنما ارتحال حاجّ متعطّش للعلم وللحقيقة فساح في بلاد المغرب ومصر والجزيرة العربية وتردّد على معابد المعرفة في قرطبة والقاهرة ومكة والمدينة ودمشق وبغداد. لقد كان الإمام الغزالي عندما وصل ابن تومرت إلى بلاد الرافدين في أوْج ألَقِهِ. وكانت دروسه في النظاميّة مطبوعة بطابع ديالكتيكي حازّ يكسب الفلسفة الدينية نبرة ومعايير تختلفان تماما عن الامتثالية المحافظة التي كانت تخنق التفكير القديم. كان الإمام في الوقت نفسه حربا على الفلاسفة وامتثاليي المدرسة العتيقة. ولقد استند إلى الفكر وإلى النصوص الدينية واستخدمهما بالتساوي لإبطال التيارين معا أو الحد من إفراطهما. وحاول تجديد الإسلام فكانت آثاره تأليفا مركّبا من مجاميع مستمدّة، معا، من الحديث والعقلانية والتصوّرات الصوفية. وهنا استشهد سي بوزيّان، مع ما هو مطلوب من الشروح، بمقاطع طويلة من إحياء علوم الدين الذي ما يزال، إجمالا، أساس الميتافيزيقا الغزّالية. لقد ترك الغزالي أنصارا وخصوما. فالأنصار يتفقون في النظر إن لم يكن إلى شخصه فإلى أعماله على أنها المثال الكامل لإيديولوجيا ينصهر فيها العقل انصهارا موفّقا في الإيمان متأسّفين مع ذلك على أن لا يكون تعليمه قد فهم أو وقع احتذاؤه. أما الخصوم فقد ندّدوا به. وهم ينفون من البداية قيمة نظرياته وطرقه في حدّ ذاتها باعتباره حفّار قبر

الفلسفة الليبرالية والانطلاقة الفكرية التي بدأت تحليقها برعاية الاعتزال لتبلغ، في نهاية المطاف، ذرى مهجورة منذ غروب الثقافة القديمة. لقد كان هذا النابغة الذي استخف بسحر ما كان يستعمل أنصار الكلام إلى عَهْده من ألفاظ فذهب إلى تَرسانة الأفكار الموروثة عن أرسطو وديموقريط يجلو فيها أسلحته بُغْيَة مواجهة ما صاغت العقلانية من نَظْمٍ، حَمَّالَ موتٍ. فهو، من حيث لم يشأ ذلك، شلّ انطلاق الفكر الإسلامي بأن رصدهِ للْمِطْفَأَة[63]. على أن هذا لا يقلّل في شيء لا من فائدة هذا التعليم ولا من مدى تأثيره. ومن هذا النبع بالذات شرب عقاب تينمال قبل أن يذهب إلى بغداد فيطّلع على أطروحات السلفية الحنبلية التي كانت بغداد تتهيّأ، سرّا، لِتَقَبُّلِها على الرغم من معارضة الترك السلاجقة العنيدة. ومن هذه الإسهامات ولدت في نهاية الأمر العقيدة الموحّدية التي إن كانت ولدت في قمم الأطلس المعمّمة بالثلوج فسيكون ازدهارها التام في جامعات قرطبة. إن هذه لهي السلفية الحقيقية المثالية والتقدّمية في الوقت نفسه، من ابن تومرت إلى ابن رشد.

كان إدريس يدوّن كل يوم ما يسمع. وفي كل مرّة يضطرّه اسم أو صيغة جملة أو لفظ غريب أو غامض المعنى للاستفسار كان سي بوزيّان يتوقّف عن العرض ويصحّح ويجلو الكلمات أو الفقرات المبهمة. وكان الحاج علاّل يطلب هو الآخر، بين الفينة والفينة، بعض الإيضاحات وذلك على الرغم من أنه جلا هذه الآراء الغامضة منذ زمن بعيد. ذلك أن خمسيتين تفصلان، الآن، حوار المصلّى عن هذه الدروس الملقاة في سفح تيزران.

عاد سي بوزيّان، نهاية السنة إلى الجزائر ولكن إدريس اهتدى إلى طريقه مثل أبيه تماما... كانت المعارف التي تجمّعت في رأسه تتنظّم وتتوضّح بتأثير نضج ملكاته

---

[63] Eteignoir

التمييزية المتنامي. كان، منذ هذه السن، قادرا على فهم ما في متناول عقله الغضّ من أشياء.

***

كان إدريس قد تعلّم أثناء إقامته في تطوان الأسبانية. كان يقرأ قليلا صحف مدريد ويُسَايف كل يوم لغة سيرفانتيس التي تشبه سرعتها إلى حدّ كبير صوت القيثارة. وقد ساعد كتاب نحو ومعجم اسباني عربي يرقى إلى عصر كازيري كان يَسُوعيو جبل لبنان يراجعونه ويُصَحِّحُونه من وقت إلى آخر، على تجويد معارفه في هذه الدراسات. وكان من حسن حظه أن تعرّف على راهب فرانسيسكاني أوفدته أسقفية طنجة الأسبانية إلى تطوان للقيام بواحدة من هذه المهمّات التبشيرية التي نادرا ما تنجح في بلاد الإسلام. كان هذا الفرنسيسكاني، وهو الأب توركواتو، مُثَقّفا من سالامانك ذا عقل ذكيّ متلهّفا على معرفة عالم الأرض تلهّفَه على معرفة عالم السماء وكان مخماخًا على الرغم من المِسْح الذي كان يَبضَعُ بطنه، معجبا بفولتير وبالموسوعيين، قارئا لزولا وتربطه علاقة بأونامُونو وبلاسكو إيبانيز وكان غالبا ما يكتب، على حدّ ما يرمى به في نادي تطوان العسكري، في جريدة هيرالدو مدريد أشياء عن الأسقفية الأسبانية وإدارة روما البابوية، لا تخلو من القسوة.

هذا الحبر الذي كان في قرارة نفسه يستخفّ بمشروع إثراء الحظيرة التي عُهد بها إليه بشاة شذّت عن قطعان الآخرين، كان أكثر شبها بقسّ لوثيري مولَع بالتأمّل المتعالي وأبعد ما يمكن عن هؤلاء الكاغوليين من ذوي الأفق المحدود الذين ما يزالون يمثّلون أنموذج الإكليروس الأسباني التقليدي منذ عهد محكمة التفتيش المقدّسة وفليب الثاني وإنشاء الإسكوريال.

كان متكرِشا شُوَيَّة، نضر الوجه، ذات سمات معبّرة، وعينين في خضرة الأبسنت تغطيهما عدستا نظّارة من دون ماسكتين كبيرة ورأس استغرقتها قُلنسوّة تكاد أن تلتصق بإكليل الرأس ومشيةِ متَخَطِّلة تُشَبِّهه بذكر أوز ضخم مُغتَمّ لأنه فقد نهائيا صغاره وابتسامة مرحة تجمّدت على شفتين شهوانيتين: هكذا كان تابع القدّيس فرنسوا الذي بعثت به سخرية القدر إلى مراكش، هذه التي قدم إليها سابقا قدّيس أسيز ليبشّر، متنكّرا لضيافة الموحّدين، بالمسيحية في بلد إسلامي مُنْتَصِر وفي أوج ثقافته.

لقد غادر القديس فرانسوا طنجة خائب الأمل، جريح القلب وهو يلعن المغرب[64]. أما الأب توركواتو فكان، على العكس من ذلك، يبارك البلد ويتمنّى، بحرارة، في ظل مِشْمَلته الرهبانية، ألاّ يأتي بعد الآن زَوْر طوركيمادا لِيُلْهِمَ القائمين على مشروع غزو أراضي مسلمي المغرب[65]. كان يعلّم عددا من الطلبة المرّاكشيين القشتالية ومبادئ في الثقافة الحديثة ويحاول، مقابل ذلك، أن يُجَوّد معارفه في اللغة العربية. وكان هدفه من ذلك أن يتمكّن من أن ينشد في عربية مبينة أشعار المعتمد وأن يبلغ مستوى يمكّن من قراءة تاريخ إسبانيا الوسيطة في آثار المَقَرِّي ولسان الدين بن الخطيب.

كان هذا الراهب الكاثوليكي يحبّ ابن خلدون ويصنّف المقدّمة، انطلاقا ممّا أمكنه أن يعرف عنه في ترجمات ماك قوكين ودي سلان، ضمن آثار الإنسانية الأدبية الكبرى. كان دائما محاطا بعدد قليل من المراكشيين الشبان الذين يقَدّرون فيه، وقد

---

[64] والعبارة الأصل تنسي إلى القدّيس يوحنا العمدان والتي خرج منها ولسان حاله يردّد: إنه صوت صَارخٍ في (Vox clamantis in deserto).

[65] Por tierras de Moros

اطمأنوا إلى نواياه، مصدر معرفة تستفيد منها أدمغتهم النّهِمة. وغالبا ما كانوا يرافقونه، مشيًا، متحدّثين متجادلين. وهم يجتمعون في أغلب الأوقات أثناء نهاية الربيع والصيف في أحد هذه المنازه التطوانية التي تُبقّع ببياضها الإسبيداجي حدائق وادي مارتين.

في هذه البيوت الريفية الجميلة التي حوّلت إلى مقاه يُقدّم الشاي وتستطيل القراءة والمناقشة ساعات كاملة. وكان الفرنسيسكاني الذي قدم إلى أفريقيا لأنجلة المسلمين هو الذي يلقي على أبناء هؤلاء المسلمين أنفسهم دروسا في تاريخ اسبانيا الإسلامية. وعلى هذا النحو عرف كثير منهم عن أمجاد أجدادهم الوطنية أشياء لا يجدونها دائما في نفح الطيب والإحاطة.

وذات يوم بلغ الأمر بتابع القديس فرانسوا، وهو يستفيض في بيان نتيجة معركة بواتيي، إلى حدّ التأسف على فشل الإسلام في فرنسا. قد يكون للأب أسباب خاصة تدفعه إلى أن يعبّر عن خيبة أمله هذه[66]. وعلى الرغم من أن هذه الخيبة يمكن أن يكون مصدرها مجرّد استنتاج منطقي فإن أمر إعلان راهب في الكنيسة المسيحية عن الخيبة التي سبّبها عنده انتصار الصليب على الهلال في هذه الأزمنة البعيدة، يحدّد بما فيه الكفاية مقدار تحرّرية الأفكار التي تقود راهب سالامانك.

وهذا الأمر لا يمكن، بالنسبة إلى من هو على إحاطة بتوظيف الأخويات المسيحية لغايات نفعية محضة تخدم أممها الخاصة في بلاد المشرق التي تحتلّها باسم محبّة إنجيلية مزعومة، إلا أن يوكن مُعَزّيا. فما أبعد الأمر الآن، عما كانت عليه التقاليد التي دشّنها

[66] يعادي الحمامي غوستف لوبون أيما معاداة "اليمينية"، ولكنه هنا سيستغلّ كتابه "حضارة العرب" استغلالا تاما.

المُلْغِزُ لافيجري.

في أفريقيا الشمالية!

ذات يوم شبّه ضابط أركان حرب عرف في تطوان بدماثته ومعرفته الرفيعة الأب توركواتو وطلابه بسقراط وهو يعلّم تلامذته ويناقشهم في حدائق الآكاديمية. وفي يوم آخر اعتقد عقيد ملحق بمصالح الأهالي أن من واجبه أن يُحذّره من أن كل دعاية دينية بين الطلبة الشبان المراكشيين من شانها أن تعيق سياسة الإستعمار... ولكنه، وقد فهم أسباب تنزيل الإكليروس الإسباني التبشير هذه المنزلة، سيعتبر نفسه سعيدا بأن يمدّ الأب ببعض النصائح...

قطع الأب توركواتو كلام الضابط. كان يعرفه ضاريا. فلقد اعتنى رئيس أساقفة طليطلة بمسار هذا الضابط السامي المهني ذي الأصل العامي فكان، على الرغم من أنه حرّ المعتقد في الحياة الخاصة، يتصنّع نوعا من الحماسة الدينيّة التي أعانته شيئا ما على أن يُسمّى رئيسا للشؤون الأهلية.

— فلتصحّح خطأك، كولونيل، قال له الراهب الطيب، إنّ هذه الحماقة لا تساورني البتّة...

— كيف، أبي؟

— نعم، إنني تحرّرت شيئا ما من هذه الأشياء، ولن أسبب لكم متاعب. لا تقلقوا. إن لهؤلاء الطلبة الذين أحبّ وأحترم دينَهم الذي هو مماثل لديننا إن لم يكن متفوّقا عليه. فليحافظوا عليه! إنني اقتصر على تعليمهم، نزولا عند رغبتهم، القشتالية

ومحادثتهم في مسائل تاريخية تتعلّق بجزء من ماض مشترك.

— ولكن، أبي، تدخّل قسم الاستعلامات مُجَسّدًا في حَلْقَة عقديّة من الشعر الكَثّ الأسود (نمّى العقيد لحية جميلة سوداء مماشاة للتقليد المراكشي حتى يضفي على مصالحه هُنَيَّة من السلوك المحلّي)، ولكن، أبي، إنكم لن تنجحوا البتة في الابانة عن مقاصدكم! ثم إنكم سَتُلقّنونهم، وربما عن غير قصد منكم، أفكارا وطريقة تفكير تختلف عن طريقتهم في تصوّرالأشياء...

— إنني أعرف هذا الكلام المعاد، يا هيْدَلْجِيّ، فلا يضيقنّ صدركم بسبب هذا الأمر، أجاب الراهب بسرعة. أما في ما يتعلّق بطريقتهم في الإدراك فهي، ولتصدّقوني، أرقى من كل ما يمكنكم أن تتخيّلوا. هم يفهمونني، وعلى أحسن وجه، قبل أن أفتح فمي.

وأضاف الأب توركواتو، من دون أن تفارق الابتسامة العنيدة شفتيه:

"وأنا على يقين من أنه لو كان عندكم رغبة في أن تحدّثوهم بمثل ما تتحدّثون به، فسيفهمونكم أنتم أيضا، حق الفهم!"

كان لهذه المحادثة عواقب فلقد أرسل في الموضوع تقرير وفير التعاليق بطريق التسلسل الإداري. وبعد مساع طويلة ضائعة بين تطوان وطنجة ومدريد وطليطلة وروما تلقّى الأب ذات يوم (يا لروح أناطول فرانس!) أمرا من رئيس الجمعية التقويّة بالسفر إلى البيرو حيث عهد إليه بمهمّة لدى عدد من تجمّعات الهنود الحمر في قمم جبال الآند.

سافر الأب. ولكنه قبل أن يغادر مراكش اجتمع بتلامذته آخر مرّة. ترك لهم كتب نحو ومجموعات مفردات لُغَويّة. ومختارات مختصرة من آثار بلاسكو إيبانيز. وحثّهم على دراسة اللغة العربية وحرص على تحذيرهم من الصحافة التي دعاهم إلى ألا يقرؤوا منها غير المقالات، وسواء أكانت سياسية أم أدبية، التي يمكن أن تساعدهم على التعلّم وعلى إثراء مكتسباتهم وثناهم عن الاهتمام بالحروب الكلامية وعن إيلاء جدل الأحزاب أكثر مما يستحق من اهتمام.

— إنه يمكن للصحافة، لاحظ الأب، أن تكون لها أهمّية بل إفادة في الحياة الاجتماعية والعالمية على غرار حكايات إيزوب. فهي، إذا كانت حرّة غير مُغرضة، تضطلع بدور عنصر محرّك بامتياز وتساهم في تحرير الشعوب والفرد من القيود المانعة من التقدّم نحو فهم للأشياء أفضل. ولكن صحافة اليوم ليست بحرّة ولا بمتجرّدة من النفعية. وأضاف بابتسامته الدائمة:

"إنّ الأمر هو، تقريبا، على ما هو عندنا، نحن لَبَسَة أثواب الكُهّان".

"إنّنا على الرغم من هذه الأسمال، قال الأب مشيرًا إلى إسكيمه، رغم هذه الأسمال التي هي في عَيْنَيْ من كان غريبا عن طائفتنا علامة مادية على صدق نوايانا وعلى زهدنا في الدنيا، أبعد ما نكون عن نبذ كل انشغال بالأمور الدنيويّة. إننا ما زلنا نتمرغ في هذه الحلقة السيئة من دون اعتبار لدروس الماضي القاسية. ما زلنا، دومًا، طوع سياسة عمياء ماكرة يفوتنا إدراك مراميها وتحيّرنا". وأخرج الأب توركواتو من جيبه عددًا من الديباتِ، لسان حال الإكليروس الإسباني.

"هل ترون هذه الجريدة، قال لتلامذته المنذهلين. ألا فالأقل لكم إنني مجبر على حملها معي على الرغم من أنّني أزدري الإدارات التي توجّهها والناس الذين يحرّرونها إذ فيها

يدنّسّ اسم الله المقدّس، تحت ستار الدفاع عنه بقدرما تشوّه غايات الوئام الإنساني النبيلة التي ألحّت عليها خطبة الجبل[67].

إنّ مثل هذه الورقات التي تكرّسها الإدارات الحَبْريّة والأسقفية تقيّدنا الى سياسات تنتهي، بغض النظر عن الدوافع التي تحدّدها، إلى تعريض كهنوتنا للشبهة. ولقد سبق لها أن نجحت في إقامة جدار يتعذّر عبوره بيننا وبين الطبقات الشعبية. هذا إذا كانت قد وجدت صلة تربط بين البراءات والرسائل الحبريّة التي تطمح إلى تنظيم سلوكنا.

وهذا بالتأكيد لا! فمنذ أن فاه فم البابا المهيب[68]، بواسطة قراره حول العصمة البابوية، بحقائق قاطعة أصبحنا نتخبّط، حرفيا، في المتناقض والمستغلق. إن هذا لحَرِيّ بأن يتفِّهَنا في عيون رعيّتنا وأن يربك ضمائرنا."

وواصل الأب: "إنّ محكمة التفتيش، تلك المؤسسة التي خالفت تعاليم سيّدنا المسيح المقدّسة ألحقت ضررا كبيرا بأجدادكم الذين يسرّني سرورًا لا مزيد عليه، أنا الراهب المسيحي، أن أقرّ بأنهم كانوا أمناء رحيمين بمن لم يكونوا مسلمين وحكمت على عدد كبير منهم بالمحرقة وبما شقّ من الأشغال وطردت آخرين من وطنهم فغادروه ليموتوا في أصقاع بعيدة.

آه، إنني لن أكون أنا الذي يبدي لراهب أفيلا أقلّ تعاطف على الرغم من أن الإسكيم الذي غطّى، سابقا، كتفيه يغطّي اليوم كتفيّ. إنه لن يطول الزمن، مثلما أقول

---

[67] Sermon de la Montagne

[68] يقصد بيّوس التاسع.

لكم، حتّى يعرضّنا الشعب الإسباني، بعد أن يكون قد انسلخ من سمة السذاجة المستسلمة التي تنسب إليه، لعقاب مماثل..."[69]

جحظت عيون الشبّان المراكشيين وهم يتصوّرون الشعب الإسباني صاليًا كُهّانَه. إن مثل هذا التأكيد الذي كان سيبدو جسورا لو تفوّه به لائكي بسيط اكتسى، وقد نطق به رجل منتم إلى الكنيسة، صبغة لَعْنِيّة قاتمة.

"نعم، استأنف الأب كلامه، إنّ هذا الشعب سينشب أظافره، في زمن أرى منذ الآن بوارقه المشؤومة الأولى، في لحم من حادوا عن سبيل الله ليسلكوا طرق الشيطان. سيحرق الأساقفة والخوارنة وسَيُدَنِّس القربان مثلما يحرق رسم كاهن كاذب اليمين وستخَرّب الكنائس والأديرة والصوامع. وستهان الراهبات المسكينات. سنعاد، في عبارة واحدة، إلى الصواب".

وأضاف كأنه لا يخاطب شخصا معيّنا: "لقد خدعنا العالم بما فيه الكفاية..."

ثم، استأنف الأب كلامه: "ما هذا الذي أرى؟" وأشار بإصبعه إلى جمع من الضبّاط الإسبان الشبّان الذين كانوا يتنزّهون، غِضاضًا أَنِيقين بمحاذاة اللّونيتا والسوط يطرق منهم الطِّمَاق على إيقاع خطو منتظم.

"ما هذا؟ ما الذي تبقّى لإسبانيا من قوّة وعظمة حتى تلجأ إلى مثل هذه المظاهرات العسكريّة؟ إننا لم نعد قادرين على استنساخ إمبراطورية استعمارية على الهيئة التي تخيّلها شارلكان وفيليب الثاني في حين أنّ الأمر الوحيد الذي بقي

[69] كثير مما جاء على لسان الأب حدث فعلا في الحرب الأهلية الإسبانية.

علينا أن نحقّقه، من دون ضجّة، بعد الحرب التعسة بيننا والولايات المتحدة الأمريكية، هو تنمية أرضنا الخاصة بغية ضمان حدّ أدنى من الأمن والرفاه لشعبنا وبغية تجنيبه، أيضا، الوقوع في الهاوية التي يقود إليها الراهب والإرهابي والديْر والنقابة وروح العذراء وأرواح فرّير. لقد كان في حوزتنا، طيلة ثلاثة قرون، إمبراطورية في سعة إمبراطورية انجلترا، إمبراطورية تأسّست على معتقد مجاز مقلوب مفاده أن كورتيز سينتصر، حتما، على منتزوما. وطيلة ثلاثة قرون استنزفنا هذه الإمبراطورية على غرار ما يفعل مُرَاب، مكتفين بنهب الادخار بواسطة نظام جباية وضرائب مُفْقِرَة بدلا من أن نستفيد، عقلانيّا، من ثروات البلدان الخاضعة لسلطاننا. لقد أقمنا فيها بيروقراطية قاهرة تتصرّف باسم قوى مُكْرِهة ثلاث: الثكنة والسجن والكنيسة. نعم، الكنيسة. إنّ الكنيسة التي وُلدت من أجل خلاص البشر والوئام نزّلت منزلة الثكنة والسجن. إنني أحيّي ذكرى بوليفار وسان مارتين، أحيّي اسمي هذين المحرّرين لأنهما أنهيا هذا التعسّف.

"وبمثل هذه الطريقة تركنا كوبا والفيليبين، آخر آثار ما كان إمبراطورية شاسعة. لقد حدا حروب إعادة الفتح صوت 'الحرب على المورسكيين!' إنّ الأمر قد لا تعوزه البداهة. ألا فالأقل لكم، وأمام أعينكم علامة لا تجادل على العدالة الثابتة، إن الحروب على إسبانيا في المدارات والمتقاطرات استظلت بشعار 'فلْيَخرج الكهّان!' لقد وقع استخدام هيبة الصليب لمحاربة الإسلام. ولقد سلكت الحروب التحريرية السلوك نفسه تقريبا في محاربة الصليب وانتصرت. وإذا كان لواحد أن يخرق هذه التقاليد المشؤومة، فإنه يبعث به في الحال إلى الأصقاع التي اجتاحها بيزار ولسوف يتسنى له، بهذه الطريقة، أن يوظّف أوقات فراغه في تدجين نسور الكندور بدلا من زرع الكلمة الطيّبة...

"صحيح، أنهى الأب توركواتو حديثه، أن جمهورية ملحدة تسلك، على الجانب الآخر

من المنطقة الإسبانية، ما نسلك نحن من سياسة.

"وجيراننا في ما وراء جبال البيريني تجرّدوا منذ زمن بعيد من ثوب الراهب. ويمكن القول إن الإكليروس المناضل يترسّخ باطراد في فرنسا منذ الثورة إلى القوانين المعادية للإكليروس الأخيرة التي تقصيه من الحياة العامة. والتنظيم العلماني الذي ما زال مسموحا به فيها لا يتعدّى الحدود المتواضعة التي حدّدتها المعاهدات البابويّة بدقّة.

"ومن ناحية أخرى فإنه لم يعد يوجد حتى سفير لروما في باريس. إن إلحاد الدولة هذا وهذه الديمقراطية الاستعراضية ولائكية النوادي والصالونات ذات التأثير الفرجوي الكبير كل ذلك لم يمنع، مع ذلك، الفرنسيين من اجتياح البلد تلو الآخر والتأسيس لأوضاع أخلاقية قليلا ما توافق هذا الإعلان عن حقوق الإنسان الذي عوّض كتاب التعليم الديني في دستورهم الجديد.

"إنه في حين يتنزّه ضبّاطنا وتجّارنا الغشّاشون هنا يجيء أبناء جلدتهم ويروحون من دون غاية في أنهج الرباط وفاس".

وختم الأب كلامه وهو يغمز بطرفه وتغرق وجهه ابتسامة قمرية دائمة، مؤكّدا كل كلمة تصدر عنه بإشارة: "إن هؤلاء الفرنسيين يستأهلون أن يقحم الكاهن من جديد بين أعجَازهم."

فارق الأب توركواتو أصدقاءه الشبّان وقد أشبع قلبه انفعالا. ولقد كان من المؤثّر أن يرى المرء هذا الحبر ذا العقل المتحرّر من كلّ تعصّب متشيّع وهو يودّع طلبته وأن يرى الجلابات الصوفية الدقيقة وهي تحيّي بتوقير الإسكيم المِسْحَ. إن هذا ليصحّ

موضوعا يتناوله روائي آو رسّام آخذ بالمقبل من الأيّام، واحد مثل لوتي أو بنجامين كونستان ذو تصوّر خلاّق لا يهيجه الإسراف الرومنطيقي كثيرا، ويكون، مثل تصوّر الراهب الإسباني، عاريا، هو أيضا، من هذه البقية من الآراء المسبقة التي ما زالت تستميت للبقاء في قرن المخابر وصراع الطبقات هذا.

علم التلامذة فيما بعد أن الأسقف سارع إلى استقبال الأب توركواتو منذ وصوله إلى طنجة. وعلى الرغم من صلاحياته المحدودة في ما يتعلّق بالإخوانيات فإن سموّه اعتقد أن من واجبات السلوك أن يعنّف تابع القديس فرانسوا ولقد وبّخه بشدّة. ذلك أن الفرنسيسكاني، عوضا عن أن يعلن في هذه الأرض عن البشرى ويهدي الأمم وأن يذهب مثلما يذهب حاج إماووس في هذه الأرض الكافرة بالنعمة نحو الواحة التي أخصبها التبشير والشهادة، انخدع بآلٍ خُلّب.

فيا للقدوة المرعبة!

لقد بدا أن الراهب قد نسي أنه قد أرسل إلى مراكش لأداء وظيفة محدّدة وأن عليه ألا يرى في المسلمين غير أخصام احتماليين لا يصلحون، في أحسن الأحوال، إلا لتعلّم الدين المسيحي. لقد سلّم الأب بالأمر والتحق، مثل أوري حديث، بالمركز الذي عيّنته لها الأخويّة فوق قمم الكورديلير.

كان إدريس في الوقت الذي أبحر فيه الأب توركواتو، من قاديس إلى أمريكا، يتهيأ للسفر إلى فاس. إنه لم يعد الآن المحاضري الجبلي القديم. فلقد تنامت معارفه واستخلص من دروس سي عبد السلام وأبيه والأستاذ الزروالي وسي بوزيّان والأب توركواتو حصادا جديرا بأن يمكّنه من تكوين صورة شاملة عن التعليم عموما وعن الحياة الدراسية خصوصا.

لقد كان بالتأكيد في عمره ذاك، بعيدا عن مماثلة حائز باكالوريا ذي ذكاء مساوٍ يتهيأ للانتساب إلى البوليتكنيك أو مدرسة الترشيح، ولكن ما التقط من مبادئ معرفة متناثرة كان، منذ هذه الفترة، كافيا لتَصَدّيه لأسرار فاس.

لقد ساهمت دروس سي بوزيّان خاصة، ولو بمقدار، في توضيح وتنظيم جميع العناصر التي كان يختطفها، اتفاقا، من دون برنامج ومن دون مواد مصنّفة.

وفي ذات يوم اتّجه صحبة أبيه والأسمر وقافلة بغال صغيرة، وهو يودّع تيزرانه وقريته وأقربائه وملاعب صباه الأولى وقرابينته وأدغاله، إلى فاس حيث ستقرّر حياته التي لم تكد تتفتّح إلا منذ قليل على ضوء هذا القرن العشرين العَكِرَ، وسط صدام لا مفرّ منه بين حضارتين خصمين كان المغرب ومازال وسيبقى مسرحًا له.

المسجد ذو القبور المبيّضة

كان المطر ينهمر غزيرا عندما بدا للقافلة وقد خرجت من تلال هيابنة جبل زلاغ. وكانت ضبابة كثيفة منخفضة مشبعة نداوة تغطّيهم كلما اقتربوا من العاصمة القديمة. هكذا دخل الحاج علاّل مدينة مولاي إدريس وقد أرخوا البرنس على الأذن وشمّروا عن البلغة دافعين أمامهم الدواب التي تحمل أمتعتهم. ذهبوا، في بداية الأمر، رأسا، إلى القرويين حيث كان على جبليّ أن ينتظرهم فجازوا باب القيسة، أحد أبواب فاس المشهورة ومرّوا عبر ضاحية العشّابين التجارية ومالوا نحو قبيب النقاش وعبروا الصافة الزاخرة والديوان ثم اتجهوا، تاركين القيصرية على يمينهم، نحو القرويين عبر رحبة قيس. كان جهدهم هذا بلا طائل إذ لم يعثروا على أحد في انتظارهم.

مكثوا في المكان وقتا ليرتاحوا وليمكّنوا الدواب من شيء من الشعير قبل أن يعودوا إلى فاس الجديدة.

وفاس الجديدة ليس فيها من الجديد غير إسمها. فعلى الرغم من أن المخزن اتخذ منها مقرّا نهائيّا وفيه، أيضا، قصر السلطان فإن هذا الجزء من المدينة الذي اتخذ شكل كرش نخلة تمثل المدينة منها الرأس والجَوْشن، هو البقعة الأكثر تهدّما في المدينة الإدريسية. وفيه يبسط الحي اليهودي الملاح مجموع منازله المتداعية ذات الروائح المريبة منذ أن أجبر المرينيون بني إسرائيل على الإقامة فيه إبعادا لهم عن مولاي إدريس وعن القرويين.

وقريبا من التجمّع اليهودي تصطف حول مزار سيدي عبد الله الذي لا يعرف أحد كيف رفع إلى منزلة حام للمكان منازل المدينة السيئة السمعة التي يبدو كأن نوعا من السور يقفل عليها في محجر صحّي إلزامي. وعلى مسافة أبعد تنغرز في غيضات مزهرة سبح المنازه التي يأتيها بورجوازي فاس الثريّ لقضاء ساعات فراغه، في الصيف كما في الشتاء، والتي تشبه، في الوقت نفسه، الفيلا والدارة والمنسك. إنّ باب واحد من المنازه هو الذي جاء الحاج علاّل ليطرق بعد أن ترك القافلة في أحد الفنادق.

كان يملك هذا البيت جِبْلِيٌّ مُدْمَجَ لا يدري المرء كيف نجح في التجارة وتزوّج من المدينة وأصبح له فيها أحفاد وشاخ في اليسر والصلاة ولكنه، على عكس الريفيين الذين تمدّنوا، لم ينس، البتّة، جبل الولادة. فقد هيّأ في منزهه، حتى يتذكّر تيزران، غرفة يقضي فيها ساعات استجمامه كانت نوافذها تطل على الزلاغ. وكان في كل مرّة تجتاح فيها أعصابَه هزّة حنين يفتح مصاريعها ويشرع، وقد اشرأبّ كل كيانه إلى الشمال، في استنشاق شذا أرز الجبل البَلْسَمي، استحضارا للماضي. وتحت ثيابه القماشية الصوفية الواسعة التي خدّدها حرير خام وقفطان الأرجوان المعطّر بلبان جاوة والصّبر كانت الجلابة السوداء ذات الذيول المختصرة لا تفارق جسده. كان سي عبد الجبّار (هو أيضا يدّعي انه من نسب شريف على الرغم من انحداره من واحدة من أشهر العائلات البربرية) ممثّل الجبل في فاس النموذجي. كان طول الوقت يقيم في منزهه في فاس الجديدة على الرغم من أنه كان يملك، مثل كل فاسي ميسور، بيتا في المدينة.

وكان له، أيضا، مغازة تجارية في القيصريّة حيث يذهب على ظهر بغلة قصيرة العدو كُسِيَت ثوبا مشمّعا كل يوم بعد صلاة الفجر، ويبقى هناك إلى صلاة الظهر التي يؤدّيها في مسجد مولاي إدريس، شفيع المدينة.

لم يكن الحاج علاّل يحب مولاي عبد الجبّار كثيرا. فلقد كانا مختلفين في كل شيء وخاصة في النظرة الدينية. كان الحاج علاّل طهريّا عدُوّا لدودًا لكل مُرَاءاة يمقت المرابطية وكل ما ينجم عنها في حين كان مولاي عبد الجبّار لا يعرف من الدين غير مجموع العبادات الظاهرية المُمِلّة التي تجعل من الإنسان، لفقدان كل حرارة، إنسانا آليا مجرّدا من الخيال والمثل الأعلى.

لقد بقي الحاج علاّل الذي تربّى في حِضْن القبيلة وتأثر منذ نعومة أظفاره بالعادات الخشنة، الجبلي النموذجي جسدا ونفسا. فهو ممشوق القامة عاضِلٌ عفيفٌ أَنُوفٌ. أما الآخر فهو، لتشَكّلِهِ على صورة المدن القديمة التي شوّهتها حضارات مُنْحَلَّة، جَسيمٌ اجتاحته الشيخوخة والسُّمْنَةُ والنقرسُ معا وأضعفت جسمه وروحه التّخْمَة وطول المكوث في مخدع النوم وأتلفت دماغه كثرة عمليات الحساب التي لا ينظّمها أي مسك للدفاتر. فالأمر الوحيد الذي ما زال يوحّد بينهما هو الاشتراك في الأصل وإجلال أرض الميلاد. ومع ذلك فإن الحاج علاّل فكّر أن يفوّض إليه هو أمر إدريس وأبلغه رغبته في ذلك.

ولقد رحّب مولاي عبد الجبّار بعرض الحاج علاّل وأقسم بكل قدّيسيّ فاس ومراكش، من مولاي إدريس إلى مولاي عبد السلام ومن سيدي حازم إلى سيدي علي بوغالب مرورًا بسيدي بوجيدة، أن بيته إنما هو بيت صديقه وأن إقامة إدريس فيه لا يمكن أن تربك، في شيء، نسق معيشته ورفض، مقدّما، كل تعويض. وعلى العكس من مظاهر السخاء التي لا تتجاوز، عند المدينيين، الكاذب من الوعود، كان مولاي عبد الجبّار صادق القول ولم يكن ما تفوّه به إفراطا في إدعاء الكرم باطلا. ولكن الحاج علاّل لم يشأ، وهو يشكره، أن يبلغ الأمر هذا الحدّ. كان يلتمس فقط أن يجد فيه إدريس الذي سيقيم في واحدة من هذه المدارس التي بناها المرينيون،

قديما، لإقامة الطلبة، وكلما دعت الحاجة إلى ذلك، معينا. أما في ما يتعلّق بما ينجرّ عن هذا العون فقد عبّر عن استعداده لوفاء ما عليه من دون نقصان.

***

وقع اختيار البوعنانيّة مقر إقامة. والبوعنانية هي، إضافة إلى المصباحية وجامع الأندلس وعدد من المنشآت الأخرى المماثلة، واحد من هذه البناءات التي حقّق فيها الفنّان المراكشي، سيرًا منه على خطى المعلّم الأندلسي، نوعا من التأليف بين اللطيف والمفيد. إنها واحد من وجوه هذا الأثر المعماري الكلاسيكي الذي بقيت الحمراء، من أعلى مطلّها وعلى مرّ القرون التي لا تكاد إلى اليوم تقضم شيئا يذكر من جدرانها الخفيفة، مثالا تامّا من الأناقة والإتقان. ومدارس فاس السبع تكشف من خلال ساحاتها المبلّطة وأحواضها ذات الفسقيات ووفرة عَرْبساتها من الجصّ وواجهات الأزوليخوس البرّاقة وألبسة جدرانها الخشبية المصنوعة من أرز زَنْجَرَه الزمن وسبكة قراميدها المبرنقة وأبوابها المنقوشه المسمّرة التي قدّت من خشب رفيع، كشفا لا مزيد عليه عما أمكن للفكر المغربي أن يثري به، نقشا بارزًا ودقّة، الفنَّ الإسلاميَّ في العصر الوسيط. هذه المنشآت الرائعة تأسّست ابتداء من العصر المريني. ولقد أقيمت في الوقت الذي كانت فيه مخطّطات الحمراء لا تزال في طور النضوج في أذهان المعماريين الغرناطيين. وكل شيء يدفع إلى الاعتقاد أن أرباب الفنّ الذين سيبنون شبيهات "للبوكساراس قد استوحوها. لقد طبع أمراء أمثال أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، هذا الذي لقّب، بالذات، بالسلطان الأسود وآخرين أيضا من هذه السلالة التي كادت أن تفرض نفسها وريثة للموحدين، حماسة التعمير بطابع يعثر عليه المرء في المقبرة الكبرى حيث تتأطّر بناءاتهم الرائعة.

كان ابن بطوطة الذي عاد من رحلاته في آسيا وأفريقيا وكان ينهي أيّامه الأخيرة في قصر المشوار الذي يذكّره بمنازل بيزنطة وقصور السلطان في دلهي يشجّع، وهو يرى النشاط التعميري، على هذه المنافسة المالكة ويبجّل الحضارة على الثقافة مثيرا سخط ابن خلدون الشديد الذي لم يكفّ عن السخرية منه.

لقد وقع الاتفاق، إذن، على أن يقيم إدريس في البوعنانية في الوقت الذي يشمله فيه سي عبد الجبّار برعايته.

لا تكاد حياة طُلبَة البوعنانية والمدارس الأخرى تتميّز عن هذه الحياة التي كان يعيشها تلامذة الجامعات القروسطية في أوروبا مثلما نَقَلَت إلينا ذلك حكايات فيون وبرنتوم. فإذا كان الطالب فاسيا فإن الأمر يسهل إذ يهمل المدرسة ويذهب من منزله إلى القرويين حيث يتابع، من دون ساعات محدّدة ولا برامج مقرّرة، دروس الأستاذ الأقل إثارة لأعصابه. فهو لم يكن في حاجة إلى الالتجاء إلى هذه الفنادق التي أنشئت لإيواء حيوات أقل حظّا. وبالفعل فإن اليسر لم يكن هو القاسم المشترك بين أمثال هؤلاء المقيمين.

كان الطُّلبَة يحيون في البوعنانية حياة جماعية. ففيها يبرز أثر من حياة اشتراكية فرضها إفلاس الطلبة ويعبّر عنه تنظيم شبيه بتنظيم المُشارِك الذي وصفه هواة اليوطوبيات. وهي تشبه، في بعض الوجوه، عادات الدير في ما يتّصل بقواعد العيش المشترك. كان الطلبة يسكنون حُجَرًا صغيرة يتقاسم كل واحدة منها اثنان أو ثلاثة أوأربعة أو خمسة أشخاص. وكان ما يملكون مشاعا. كانت البقول والفواكه الجافة والزبدة الزّنِخَة والزيت واللحم المُدخَّن والسكر والشاي والشموع والكسكسي والسميد تكون رصيدا غذائيّا قادرا على تجنّب مجاعة شبيهة بسيف داموقليس ليس في إمكان الطالب أن يدفع زورها إلا عندما يودّع نهائيا عاصمة مولاي إدريس.

وتؤثث الحجرة الصغيرة الخشنة المتقشّفة بُورِيَاءٌ وجلود خرفان وأحيانا بساط أو سجادة صغيرة وطبق نحاس وكؤوس صغيرة وإبريق شاي مرفوق بِمِنْفَخِهِ وماعون دقيق دارج الاستعمال. وتمدّهم إدارة حبوس المدينة بالخبز ولكن بتقتير دائما. ذلك أن التصرّف في أملاك الحبوس كان على كل حال غير مرضيّ. وهكذا يجد الطالب نفسه مجبرًا على أن يطابق بين دخله ونفقته وحسب. فتراه لا يمدّ يده إلى رصيده الغذائي إلا في أيّام محدّدة وهي تكون، حينئذ، أيام بذخه والأزمنة المباركة التي يمكنه فيها أن يكسر حلقة نصف صومه بولائم وافرة ومشاهد نهايات شهر يرتفع به فيها اللحم المُتَبّل والكسكسي الذي ذهّبته وفرة الزبدة القشديّة الشهيّة إلى مستوى من حسن الهضم قريب من السّكر.

إنه اليوم الذي يتداول فيه الشاي من يد إلى أخرى في كؤوس بلّورية صغيرة، مُنَعْنَعًا مرفوقا بفطائر وبطُلْمِيات مَحْشوّة جوزا وزبيبا فينتهي الأمر بالمعدة، وقد اطمَأنّت، إلى أن توجّه عقول هؤلاء الفتيان المكبوحين رغما عن أنوفهم نحو آفاق حالمة. وإذاك يصبح الواحد منهم فيلسوفا أو شاعرا أو ممثّلا ويمتحن ما يتصوّر أن لديه من قدرات على ارتجال الشعر وعلى محاكاة مَصَاقِع الخطباء وعلى تناول مواضيع بحث تدور في غالب الأحيان حول قرن خِصْبٍ ينزل مَنًا أرسلت به أرض من أراضي كنعان لا يعرف أحد ما هي. ولكن مآدب مثل هذه نادرة. فأغلب فصول السنة يقضيها الطُّلْبَة في جمع الصدقات. وعليهم، بالمناوبة، أن يتعرّضوا لهذا الامتحان الذي لا يكاد نوع من الحق في مدّ اليد المعترف به يخفّف من صفته التسوّلية.

حقّا هم لا ينهرون بل إن من الناس من يتظرف في دسّ طُلْمِيّة أو قطعة لحم أو مَدَرَةِ زبدة أو شيئ من الشاي في قفّتهم. ولكن الزمن، في هذا القرن العشرين، لم يعد زمن مشاهد سخاء غير لائق مثل هذه.

إنّ جامعة قرطبة وكليات الأندلس والنظامية ومستنصرية بغداد ومعاهد سمرقند ومَرْو وأزهر الفاطميين والمماليك لم تعرف مشاهد بهذه الشدّة التي فرضت على الشبيبة العالمة. نعم. لقد عرف العصر الأوروبي الوسيط ذلك. ولكن الأمر يتعلّق بالعصر الوسيط بما تضمّن من فظائع إقطاعية وإكليروسية ومن جماهير رخوة فاقدة للحياة. إن المرء ليكاد يسمع، الآن، مارتين لوثر الشاب وهو يجوب أنهج أيزناخ مطلقا نحو النوافذ المسيّجة صوت استجداء خبزًا لله[70] وينتظر تحت سيلان المطر وهزيم الرعد أن تظهر ربّة بيت ذات ظفيرة ملتهبة على عتبة الباب حاملة جفنة من البطاطا المسلوقة أو شريحة شَمَنْزِير.

لقد اتضح لإدريس، وهو يتمعّن في هذا المشهد، ما لم يصل إلى إيضاحه تماما أي تحليل للأوضاع، وهو أسباب انحطاط بلده الحقيقية. لقد أدرك إدراكا تامّا بفضل ذكائه، وهو يرى الجيوش الأجنبيّة تحتلّ أرض مولده والبلاد تسلّم للاستعمار وأراضيه تعرض للبيع بالمزاد العلني وشعبه يقيّد بقوانين خاصة والأخلاق المخزية التي يُلَحُّ على استبقائها، عِضْلان الداء الذي ولد ونما في ظل دين أسيء فهمه وأفرغ إفراغا تاما من قواه الحيّة.

لقد بدأ إدريس، وهو مقيمٌ في البوعنانية وضيفٌ مداوم في بيت مولاي سي عبد الجبّار، دروسه في القرويين.

***

جامعة القرويين مركز قديم للثقافة الإسلامية. ولقد كانت تمثّل، هي وأزهر القاهرة

70 Panem propter Deum

وزيتونة تونس ومسجد سمرقند، نهاية القرن التاسع عشر، واحدا من أواخر مواطن الثقافة الإسلامية مثلما يمكن للمرء أن يتصوّر هيئتها في العصر الوسيط. ولقد تهافتت قواها بانحطاط الإسلام إلى هذه الأَزمنة الأخيرة. وخلافا للأزهر والزيتونة اللذين هَذَّبَا وجدّدا موادهما ومناهجهما، ضلّت جامعة فاس مجمّدة في قالبها السكولاستيكي تجَمُّدًا مُمِلاّ. وعندما جاء الفرنسيون مراكش لم يهتمّوا البتّة بإزاحة المِطْفَأَة التي كانت تختنق تحتها وتفنّنوا، إخلاصا منهم لسياسة تبليد العقل المنظَّمة التي لم يكفّوا البتّة عن انتهاجها في البلدان الخاضعة لوصايتهم، في الإبقاء على الطرق المضنية في المعهد العتيق بل إن الأمر أسوأ من ذلك فهم اعترضوا، مستخدمين وسائل المماطلة أو عن طريق تدخّلات في غير محلّها، على إدخال كل إصلاح يقتضيه روح القرن.

وجامعة القرويين التي أنشأها، هي أيضا، المرينيون تستمدّ أصلها من الحيّ الذي بنيت فيه. فعندما بنيت فاس، زمن الأدارسة، انصبّت في العاصمة الجديدة أدفاق بشرية وافدة من كل مكان. فقد قدم للاستقرار فيها أندلسيون ساءت، على الأرجح، علاقاتهم بأموي قرطبة واختاروا مقرّا لهم الجزء الواقع على الضفّة اليمنى من وادي فاس. لقد كان ذلك هو عدوة الأندلس التي كان المخزن ينتدب منها موظّفيه وقواد جيوشه العامين. ويوجد أمر جدير بالملاحظة وهو أن الأندلسي الذي كان، في إسبانيا، أصيلاً ومثقفًا نابغة لم يظهر، بمجرّد أن أقام في أفريقيا، ما كان قادرا عليه ورضي، فقط، بوضعه في صفوف الإدارة والجيش. وجاء مهاجرون من إفريقية (تونس الحالية)، بدورهم، بناء على طلب الأدارسة في فترة محاولات تنظيم مراكش الأولى. وتوطّدوا على ضفّة الوادي اليسرى. لقد كان ذلك هو حي عدوة القرويين، سمي بذلك استذكارا للقيروان، عاصمة عمالة أفريقيا الشمالية زمن الخلافة الأموية في دمشق. وتعرف الجامعة العتيقة التي هي، معا، مسجد ومدرسة دينية وفندق، من أبوابها البرونزيّة وبلاطها الأبيض والأسود ومناهلها للوضوء وسفينتها الشراعية ذات

الأحجام الكلاسيكية ومجرى الماء الذي يشقّها ودُعَمِها التي تعدّ بالمئات ومصابيحها الوفيرة. وهناك، ووفقا للأسلوب الآكاديمي القديم وحول دُعُمٍ، يلقي أساتذة مرسّمون دروسهم في الحقوق والنحو والتاريخ على جماعات طلبة بيض الملبس يستمعون إليهم وقد أسدلوا البرانس على الآذان.

كان الفقه والنحو ونتف من التاريخ الممزوجة بنكت لا ضبط للنفس فيها وحكايات غالبا ما تكون خرافية، كان ذلك هو، أوّلا وأخيرا، مجموع العلوم المثبتة على رأس قائمة برامج القرويين. ويمضي المرء عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة أو خمس عشرة وأحيانا عشرين في سماع اجترار مواضيع بَليت يحفظها أكثر الطلبة مثابرة، غيبا، من دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء تحليل محتواها أو إخضاعها لنقد منطقي. ومن جهة ثانية فإن التحليل والنقد أبعدا من ميدان البيداغوجية الإسلامية في القرون الأربعة الأخيرة. لقد مات روح بغداد وقرطبة بموت ابن خلدون. وما نجا من غرق التفكير الوسيط من المراكز الفكرية لم يعد يبثّ غير عناصر مجزّأة من معرفة نضبت منذ مدّة طويلة مادتها الحقيقية وأصبحت الذاكرة، وحدها، خاضعة للامتحان. والذاكرة التي هي لوحة يمكن أن يَنتقش عليها بسهولة كل ما تلتقطه الأذن أو يبلغه النظر ليست، بأي حال من الأحوال، الفهم. وعلى هذا النحو يقع توسيع إمكانات الغريزة من دون استثارة ملكات العقل الغافية أو تطويرها.

وبذلك يخيّل لتلميذ القرويين بعد أن يكون قد حفظ القرآن، غيبا، ونحو ابن آجَرُّوم المسَجّع وشروح فقه مالك المختلفة المملّة وعددًا من المبادئ المتعلّقة بالسلفية وابتلع كمّية من الأحاديث المستخرجة من مُسْنَدِ ومصنّف وسُنَنِ وصَحِيحِ البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة، أنه قد بلغ من العِلمِ المَرَام. وكل هذا يتطلّب ما يقلّ قليلا عن جيل وبشرط أن تتوفّر عند الطالب قدرات عقلية تمكنه من الإفادة من هذا التعليم طبقا لما هو مكتسب.

غير أنّ الواقع ليس كذلك. فالذهن الذي كان في الماضي يقظاً ثاقباً يمرّ، نتيجة هذا الاحتكاك، بمجموعة من حالات التدهور والكسوف تنتهي إلى تبليده عندما تثبّت فيه، فضلا عن ذلك قدرا من العُجب الصبياني، عُجب حمار محمَّلٍ بعدد من الكتب اصفرّت أوراقها.

كذلك كان من النادر أن تستفيد المواهب والملكات الأخلاقية بشيء يساعد، فيما بعد، على جهد يغني. فالقرويين لم تعد، لسوء الحظّ، مثلما قيل عادة، غير "قبر العقل". لقد كان إدريس وعدد كبير من رفاقه من الجيل الجديد متّفقين في هذا مع أصحاب المآخذ الفرنسيين الذين كانوا يقتنصونها.

ولكن إذا كان المراكشيون يقرّون بقصورالمناهج ويطالبون بضرورة الإسراع في تغييرها، فإن الفرنسيين كانوا يؤكّدون، لاجئين إلى حيلة يسهل كشفها مقترنة بمظهر من مظاهر حسن نيّة مجّانية باطلة، على استحالة الإصلاحات ويصرّون، إما بالتدخل المعلن أو بإثارة صعوبات غير مباشرة، على الإبقاء على نجاعة المطفأة بل على تعزيزها وهذه دروس قديمة حفظوها من مدرسة! ماكيفييل وإسكوبار!

كان زاد إدريس المعرفي، على الرغم من تواضعه، يغنيه عن أن يتابع، بالمثابرة المطلوبة، هذر شيوخ المكان الرتيب ذلك أن في اجترار الكلام هذا ما يستثير الأذهان الأقل انحيازا بشرط أن تفوق معارف الطالب المعدّل المطلوب. ولقد كان هذا هو شأن إدريس وعدد آخر من الطلبة. فعند المقارنة بين دروس سي بوزيّان وما يتضوّع منها من ديالكتيك يتحمّس لها الطلبة وتُنَبّل الحوار وما يُضَغْضِعُ سَكْتِيُّون مدَّعون للمعرفة من ألفاظ، عند المقارنة يبدو البون، والحق يقال، للعيان.

وإذ لم يكن إدريس يتّصف بسوء السلوك فقد حرص على متابعة دروس القرويين بانتظام. وكان يدوّن ويرسم خطوطا ويحفظ ما يبدو له هامّا أو جيّدا.

أما في ما عدا ذلك فكان يكتفي بالمجيء للجلوس في الحلقة ويتابع، متابعة فضولي، المونولوج المُنوّم. إنه لا مكان للأسئلة. وإذا ما حدث أن طرح البعض منها فهو، دوما، للتأكّد من معنى مقطع لم يفهم جيّدا أو من مدلول لفظ غامض. لقد عرفت طاحونة الكلام عند الطلبة بأنها نابغة معصومة ولكن الببغاء المعمّم لوأرهقه بالأسلة طالب على قدر من الاطلاع لفوجئ، تمام المفاجأة، بسؤال تتطلّب الإجابة عنه "عقلا في موضع راهب".

كان إدريس يتردّد على دروس كثيرة منها درس الفقيه بوشايب الروداني الذي عرف بأنه كان محدّثا مشهورا تخرّج عليه جيل أو جيلان من القضاة والعدول. كان، وهو عجوز ذو لحية شيخ جليل، كثير الاعتداد بنفسه، يستسلم للمدح برضى مؤثّر.

كان ينتظر، دائما، عندما ينهي ثرثرته ويرافقه حتى باب الجامعة جمهور الطلبة لا زلفى منهم بقدر ما هو تأدّب، كان ينتظر أن يقرّب واحد من رجليه البلغتين حتى يتفضّل بانتعالهما. وكان يخرج، واللبدة (وكانت دائما ذات لون أخضر حامض) تحت الإبط، مُحَيِّيًا بحركة من الرأس وقورة ويلتحق ببغلة عجوز منْقَرَسة القدم لا شكّ أن القدر امتحنها. بأن وقفها لحمل عبء مثل هذا.

كان يدرّس منذ نهاية حكم سيدي محمّد. لقد شهد موت أو خلع خمسة سلاطين ولم يدرس طول هذه الفترة غير مرّتين الموطأ والمختصر. كانت دروسه تستنفد ربع قرن.

لقد وقع تحطيم الرقم القياسي في الصبر!

كان طلبة يتخرّجون من المؤسسة وقد جاؤوها مُرْدَ الوجوه أو يطوقها عقد خفيف من الشعر على هيئـِات رجال مسنّين.

لقد أطلق عليه طالب من سلا كُنْيَةَ مناة. وهي اسم وثن مشهور من الجزيرة العربية قبل الإسلامية. وفعلا فلقد كان سي بوشايب نصبا حجريّا يمثّل زمنا تَسَمَّر في المكان. إنه ليخيّل للمرء، بطيبة خاطر، وهو يراه جالسا على أريكته أو متجوّلا بين أعمدة المسجد، أنه بإزاء شبح من عصور ولّت. إنه العلامة المادية والحجّة النموذجية والحقيقة التي ما بعدها حقيقة الدالة على طور الانحطاط في إسلام الأزمنة الأخيرة الذي يدفع المغرب فديته الثقيلة.

ولقد وجد صنف آخر من الأساتذة المستحجرين هو سي عبد الباقي القرّي المكلّف بتدريس العربيّة. هذا الأستاذ، هو أيضا، لم يكن واحدا من هؤلاء الذين يسعون إلى الحسم في وسائل التدريس الناجعة. لقد كان يملك ترياقه الخاص في تدريس النحو وتركيب الجمل وهو مصَنّفا ابن مالك وابن آجرّوم. ومن المؤكّد أنه ليس أستاذ النحو هذا ذو التصورات المحدودة هو الذي سيفكّر في أن يستنبط من تاريخ اللغة وسائل تعليميّة قادرة على أن تعيد النظر في المناهج القديمة المتداعية.

لقد كان مُجَايِلاً لسي بوشايب. ولقد استقرّ مثله في القرويين منذ نصف قرن تقريبا.

كان مثله يذكّر بحركة هذه النواعير التي بناها الأشوريون قديما على ضفاف الفرات والعاصي والتي ما زالت موجودة في أيّامنا هذه. إن المرء يلاحظ فيها نظام قواديس مزوّدة بسلاسل تنزل في الماء فتمتلىء ثم ترتفع الى مستوى شقّة قنال لتفرغ ماءها فيها على نسق حركة دائرية متواصلة.

إنّ دروس سي عبد الباقي تسيرعلى هذا النسق مع هذا الاختلاف المتمثّل في أن الماء الذي تصبّه الناعورة يسيل فيغذي، عبر شبكة من القنوات حقولا وبساتين ويؤمن، بهذه الطريقة، محصولا غزيرا في حين أن لفظ نحويّنا يتبخّر على عتبة الأذن على هيئة هذر مُدَوّ.

كان سي عبد الباقي يدَرّس من دون برنامج ولا تخطيط. وكان تلامذته يحضرون لسماع إلقاءٍ أكثر مما يحضرون لمتابعة تفسير. كان يتحدّث بما في الكتاب. وإذ كانت الألفية والأجرومية قصيدتين تعليميتين خاضعتين للإيقاع فإن الطلبة يحضرون، إذن، للإنشاد وتقطيع الشعر أكثر مما يحضرون للتدقيق في عناصر نحو يُعَدُّ، إضافة إلى ما فيه من صعوبات ملازمة للألفْبَائِيّة، واحدا من الأَنْحاء الإنسانية الأكثر تعقيدا ووعورة. وكان هذا الأمر يمتد خمسيات وعقودًا. فكان الطالب، تماما مثل ما هو الشأن في دروس سي بوشايب يضيع، تماما، شبابه وهو يتردّد على حلقة سي عبد الباقي. وعندما يجتاز، وقد حمل على ظهره حزمة أمتعته العتيقة شادّا على عصاه، عتبة الباب الثقيل عائدا إلى بيته يكون، إن لم يعد أقل غباء مما كان في السابق، غير قادر، كذلك، على أن يكتب بلغة سليمة رسالة من عشرة سطور.

أما عن الأسلوب فحدث ولا حرج، فقد كان مجموعة من الجمل الطنانة الغامضة التي حفظها، اتفاقا، مما ليس يدري المرء من قراءات لمقامات الحريري وبديع الزمان. إنه كتابة الطلاسم. أما أن يشارك بطلاقة في مناقشة علمية أو يرتجل حديثا موجزا حريّا بأن يُبين ولو قليلا عما حقق من تقدّم فذاك أمر على المرء أن يستبعده حتى لا يطمع، إضافة إلى ذلك، في أن يستقرئه صحيفة من القاهرة بما تتضمّن من مقالات وتقارير حول مناقشات ومحاضرات وحلقات مسلسلات تظهر فيها العربية الحديثة التي تخلصت من خَبَثِها وأنعشها إثراء لغوي وتلطيف أسلوبي، ما تمتلك من مزايا

تكيّف ومرونة مدهشة. فالطالب المسكين، لو تعرّض لمثل هذا الامتحان لأضاع، نهائيا، عقله الذي هو، أصلا، معطّل في جزء منه.

كان منهج سي عبد الباقي، مثل شخصه، قديمًا مبتذلاً. وكان الطلبة المتحلقون حول الفقيه وهو جامد في جلسته جمود مومياء في ناووسها يسردون الألفية والآجَرُّومية محركين نصف الجسد الأعلى على هيئة بندولٍ. لقد كانوا في هذا يشبهون جوقة مصلّين يرتّلون نشيدا جنائزيّا. وكان كل طالب، وقد تعوّد منذ الزمن الذي كان فيه يحفظ القرآن على هذه الرياضة الهادفة إلى تقوية الذاكرة باعتماد التكرار، يستسلّم إلى إنشاد موضوعه وحفظ نصّه، غيبًا، بدلا من أن يتعلّم منه. وعلى هذا النحو يصل الطالب الذي يتخرّج على يدي سي عبد الباقي العَالِمَتَيْن بعد ثلاث خمسيّات او أربع إلى إنشاد درسه المحفوظ من دون أن يفهم من العربية شيئا.

وقد خصّت عاهة وراثية سي عبد الباقي بعيب مضحك شوَيّة عندما يتعلّق الأمر بأستاذ لغة. فلسانه لم يكن يؤدّي وظيفته على نحو مرضيّ. ومردّ ذلك ليس إلى أنه كان معدوم الصوت أو تَمْتَامًا إذ أنه كان، على العكس من ذلك، مهذارا حتى ليمكن للمرء أن يرى فيه، وهو يشرع في الكلام، منطلق جُرْفٍ ثلجي. ولكنه كان يتّصف، وهو المديني في الصميم، بما يتصف به كل مديني المغرب من عيب لساني. لم يكن يجيد نطق حروف الألفبائية بدليل أن بلاغته سرعان ما تتحوّل الى عَقْعَقَةٍ. إنّ مثل هذا العيب مستنكر في جميع اللغات ولكنه يصطبغ في لغة مثل العربية تستأنس بالأصوات الحنجرية الجَشّاء ولا تتأكد فيها النبرات الحنجرية إلا في مقابلة التغييرات الصوتية الناتجة عن حركة الشفتين واللسان، بصبغة مُحَيِّرَة. كان يشَوِّه النطق ويحوّله الى رَطَانةٍ مضحكة. كان لسان سي عبد الباقي يتعرّض، بشدّة، لهذا العيب في النطق. كان يَلثَغُ. إن العربية تتضمّن راء سليمة وراء تحوّلت، بفعل اللثغ، إلى غين. والاختلاف بين الحرفين أمر حسّاس. وتعويض هذا الحرف بذاك إنما يعني، بالضبط،

الكلام بلسان غير مفهوم. ولكن الطلبة كانوا لا يعتبون عليه في هذا الخلط لأن هذا العيب كان شائعا في كثير من مدن مراكش وحتى في الجزائر. وفضلا عن ذلك فإن كثيرا منهم كان، هو أيضا، يشوّه نطق هذا الحرف بلفظه على هيئة صوت حلقي شبيه بسجع الترِغّلة.

لم يكن سي عبد الباقي، كذلك، ينطق، مثل إغريقي سوليس وروماني الانحطاط، بالشين ولا الجيم فقد كان يعوّضهما، من دون أي حرج، بالسين والزاي. هذا التساهل المبالغ فيه في التعامل مع قواعد اللغة يمكن، أيضا، أن يبرّر. فمدنيو مراكش يحسون بحاجة إلى الزأزأة تصل في نهاية الأمر إلى حدّ أن يصبح هذا العيب علامة قاطعة تميّز المديني عن القروي. ولنغضّ الطرف، أيضا، عن حذف القاف حذفا تامّا الذي هو جزء ممّا حذف المدينيون من حروف اللغة. ولكنه يجب الاعتراف بأن سي عبد الباقي، على الرغم من كلّ هذه التغييرات، كان يبالغ شوَيَّة إذ يصل به الأمر، أحيانا، إلى نطق الراء الملثوغة لامًا ممّا يسهم في إتلافها. وهو إلى ذلك لا يكاد ينطق بالعين حتى ليقترب مصيرها من مصير القاف المحزن. وهكذا فإن الأذن الأجنبية ليس في إمكانها، بالتأكيد، وهي تستمع إليه يتحدث من فوق أريكتة أو فلنقل، إن شئنا يسرد نحوه، إلا أن تخلط بين هذا الصوت الإنساني وزقزقة عصفور يغَرّد في مِطْيرةٍ شاسعة.

لقد كان يتوجّب على طلبة القبائل الذين يتحدّثون لغة على قدر من السلامة لم يشوّهها أي عرض تحريفي، أن يمرّوا بفترة تمرين تحضيري للأذن للتأهل للاستمتاع بنعيم فصاحة مثل هذه. وهذا، لسوء الحظ، يستغرق وقتا ليس بالقليل. إنه أمر يشبه نوعا من الشهادة التي تمكّن من متابعة دروس في اللغة. فلِتَعَلّم اللغة العربية يجب، بادئ ذي بدء، تعلّم لغة سي عبد الباقي.

لقد مهر الطالب السلاوي العنيد الذي قاطع، على غرار أذكى الطلبة المجتهدين والمطلعين في الجامعة هذا الدرس، سي عبد الباقي بكنية رائعة. كان، وهو طالبٌ في القرويين وفي معهد مولاي إدريس، ويتابع دروسه بالعربية والفرنسية، معا، يكوّن، مع مجموعة مختلطة من تلاميذ المؤسستين نواة من الناشطين كانت تجتهد، إذ وقفت على تدهور وضع الجامعة[71] المحتضرة، في علاج الوضع اعتمادا على جهودها الذاتية. ولقد كان إدريس من بين الجماعة. لا شك أن الطالب الوقح الذي كان على سخريّة لا تظهرها ملامحه، قد عثر وهو ينقِّب في علم الطيريات، على أوجه شبه محيّرة بين أستاذه ونوع من الببغاءات تثير هيئته المترفّعة وصوته الصاخب السخرية منه أكثر مما يثيران الفضول. فأصبح سي عبد الباقي كَتُوّة الجامعة مثلما رفع الطالب نفسه، بترحيب من الناشطين، سي بوشايب إلى المقام الرمزي الذي كان قديما مقام وثن وقع هدمه بضربات الدبوس.

لقد كان سي عبد الباقي كَتُوّة في كل ما يصدر عن عميق كيانه، موضوعيا وذاتيا. كان كَتُوّة بصوته الذي يُدمجه ضمن شعب الغابة المجنّح وبالتفنّن في لباس تمرّد على الميل إلى البرقشة المحبّبة في مدن الشرق ليميل إلى تفضيل اللباس غير المطرّز موحَّد اللون قِشْدِيّه وبطريقة حديثه التي تنزل بالفصاحة الى مستوى الهذر الصافي وكذلك بآلية دماغٍ تحجّر فأصبح قابلا لأن يعاينه العالم النفسي والمحلّل النفسي معا.

كان درس التاريخ من اختصاص الفقيه سي اليزيد بن زيدون. ولنسارع من دون تأخير إلى القول أن لا شيء مشتركا غير الإسم يربط بين سي اليزيد والوزير الشاعر الشهير في بلاط اشبيلية بل إنه من الممكن ألا يكون قد سمع به البتّة على الرغم من

71 Alma mater

نغمة اسمه الإسبانية. فعائلته المنحدرة من حَوز مراكش كانت تسكن ضواحي فاس منذ عهد السعديين. وقد أفسد أصله، جسديا، اختلاط متصل بالدم الزنجي. وهذا هو، لسوء الحظ، شأن نسبة كبيرة بما فيه الكفاية من البورجوازية المدينية المراكشية. هذا التهجين الذي عمّمه ميل إلى شبقيّة لم يعمل تعدّد الزوجات والتسرّي اللذان سمح بهما الإسلام على كبحها، يطرح في المغرب، وخاصة في مراكش قضية اجتماعية مازال يتعذّر تصوّر نتائجها.

لقد تعرّض الإسلام لواحد من الصراعات الإنسانية الأكثر تعقيدا وحلّه على طريقته. هو، من دون شك، لم يلغ العبودية شأنه في ذلك شأن الحكمة القديمة التي مارستها، سواء في أثينا أو سبرطة، وأقرّت ما يقتضيه بيع البشر بالمزاد من أكراه على نطاق واسع ودائما، بموافقة فلاسفتها ومشرّعيها من أرسطو إلى سيسرون ومن سولون إلى سينيك. وشأن المسيحية التي ما كادت تنتصر حتى بادرت الى تطليق سراديب الأموات لتخادن البطريرقية الرومانية التي انضوت الى جبروت قسطنطين بما يملك من ثروات وقطعان عبيد وشأن أولئك الباباوات في عصر النهضة وهؤلاء المبشّرين بالإنجيل مثل ألكساندر السادس ومثل لاس كازاس الذين أباحوا، علانية، في براءاتهم ورسائلهم الرعوية تجارة الرقيق السود وكرّسوا العبودية في البلدان الأمريكية.

ومع ذلك فإن الإسلام منح، بسخاء، وبسلامة نيّة، الشعوب التي قبلت بسلطانه الحرية الديمقراطية فوجد من بين معتنقيه حكام سود مثل كافور الإخشيدي، سلطان مصر، الذي يبقى، على الرغم من هجائيات المتنبّي الرائعة ولكن المحكومة بالمصلحة الذاتية، واحدا من وجوهه الأكثر طرافة. ووجد خلفاء وأمراء خُلاسيون ووزراء ذُوُو بَشَرَةٍ أبنوسية مثل جوهر أثناء حكم الفاطميين وبا أحمد أثناء حكم علويي مراكش اضطلعوا في التاريخ بأدوار سياسة شبيهة بأدوار واحد مثل ريشوليو أو سترووانسي أو بومبال. فالطفل الذي يولد من أب أبيض ومن رقيق مُعْتَقٍ (وعتق

العبد، الفردي، هو القاعدة في الفقه الإسلامي) يتحرّر آليا والى الأبد من كل استعباد. بل إن في الإسلام ما هو أكثر من ذلك. فالإسلام أضعف الحكم السبقي على السود وخفّض من مقدار التعصّب العرقي الذي تنامي طيلة قرون. فبقدر ما تَسْفَعُ البشَرة أو تبيَضّ نتيجة تمازج الدماء والمواريث الفكرية والسلوكية يضعف الحكم السبقي الذي سبق أن اهتزّ وينتهي أمره إلى الزوال. ومثل هذا الأمر هو في حدّ ذاته عظيم الأهمّية مقارنة بالقانون القديم وبالتشريع الذي يستوحي الأخلاق المسيحية.

إن الإسلام لم يكن في حاجة إلى ضجّة القرن التاسع عشر العِتْقِية ذات الآثار المَشْهَدية. فلقد وفّر على نفسه اللجوء إلى بلاغة أمثال بروون وويلبارفورس وشلوشر التي تفوق لفظيتها على نجاعتها. وهو لم يلتمس مساعدة لنكولن الذي سعى (نظريا) إلى تحرير حشود من السود بواسطة حرب حتّمها تضارب المصالح الاقتصادية بقدر ما حتّمتها مثالية إنسانية بما أن قانون لينش الذي وافقت عليه الحكومة ذات العلم المرصّع بالنجوم عوّض، من دون نقصان، ما تضمّن القانون الأسود من عسف وبما أن العم توم يتعرّض، زمن رئاسة فرانكلين ديلانوي روزفلت، لاحتقار وتشنيع عليه ونبذٍ لا يقل عما تعرّض له، سابقا، زمن رئاسة مونرو وجاكسون.

وهل من متذكّر لصيحة الاستنكار التي هزّت أرض الولايات المتّحدة كلّها عندما أجاز ثيودور روزفيلت لنفسه أن يصافح الخُلاسي واشنطن. ت. بوكر، أحد من تفخر بهم البيداغوجيا المعاصرة؟ هذا إذا حصر المرء الحكم السبقي في حدود وجه أسود أو، عند اللزوم، في حدود خُلاسي محافظ، بسحنته الملوّنة، على الخصائص التي تميّز إن كثيرا أو قليلا عرقه.

وما أبعد الأمر عن ذلك! ذلك أن ذرية سجناء الأشغال الشاقة الذين يغمرون ويلغون، أحيانا، ذُرّية مُبْعَدي مايفلاور، أصبحوا يضيقون بأشكال التسامح هذه إذ تملّكوا، من الآن فصاعدًا، الوقف الأرستقراطي. وهم ينوون استبقاءه حكرا لهم.

ويروي جورج ديهاميل في هذا الموضوع طرفة لا تخلومن طُعْمَة:

"لقد كان، هو ولويزياني من معارفه، يزوران مؤسسة مدرسية زنجية في أورليان الجديدة (يا لذكرى مانون لسكو وملجئات القرن الثامن عشر!) فدعتهما مديرة المدرسة إلى تناول وجبة خفيفة. وإذ تردّد في الجلوس قبل أن تسبقه المضيّفة، وهي شقراء كَهْلَةٌ لبقة التصرّفات، إلى الجلوس إلى الطاولة، استحوذ الفظّ الذي كان يرافقه على الكرسي وانغرس فيه وهو يتلفّظ بشتائم قد تكون ربّة المنزل هي الوحيدة تقريبا التي فهمتها. ويبدو أنّ ابن صيّاد الثور البرّي هذا الذي أثرى من تهريب الكحول مثلما أثرى أجداده، بالتأكيد، من القرصنة كان يرى نفسه قادرا على تبيّن نسبة الدم الأسود التي تحويها أوردة هذه السيدة التي كان مؤلّف وقائع باسْكِي يرى فيها، بكل بساطة، أمريكيّة ذات أرومة سكانديناڤيّة."

ولكن إذا كان الإسلام قد حلّ، نسبياً، مشكلة مثل هذه فمن البديهي أن تهجينا مفرِطًا لن ينزع إلى شيء آخر غير إفساد العرق. ومصير الديموقراطية التي سادت دائما داخل البلدان الإسلامية ذاته يبقى مشروطا باتخاذ وسائل واقية، في الوقت المناسب، لدفع آثار خَلْطٍ لا يكاد أحد يرغب فيه. ولن يعني هذا أن اتخاذ مثل هذه التدابير يفترض اللجوء إلى إبعاد العناصر التي اختلط دمها بالدّم الأسود أو الجنس الأسود ذاته. إنّنا لن نصل البتّة إلى هذا الحدّ. فما أبعد المغرب عن أن يفكّر في تبنّي أطروحات الغرب العنصرية التي لا تصلح، وقد نظر إليها عبر مَوْشُورِه المُحَرّف، إلا لتبرير الإمبريالية الفاتحة في قرن المال والآلية هذا. وللطبيعة، بعد كل

حساب، قوانينها. وهي قوانين عنيدة تستعصي على العقل وعلى نيّات الإنسان الحسنة. فلكم حلم الإنسان بأكثر أوجه الوفاق الإنساني اتساعا ولكم أرخى العنان، وبقدر ما أمكنه ذلك، لروح التقارب! ولكنه توجد، لسوء الحظ، حدود لكل شيء. فخير الأمور أوسطها[72] وذلك أنّ الأمور الأكثر ملاءمة لقوانين الانسجام والدوام تقع، إجمالا، في الوسط المحدّد بحكمة بين حلّين ضدّين.

كان إدريس، وهو ابن الجبل حيث يمتلك الجنس، على نحو باهر، الشعور بقيمته بعد أن تعرّض في بداءة الأمر، للمُزْج الأكثر ملاءمة لنبوغه الخاص، يرخي عنانه لتأملات عميقة في هذا الموضوع عندما يتأمّل، وهو متربّع قرب أريكة سي اليزيد، وجه الأستاذ الذي يكشف عن أثر مُميّزات الأسلاف.

كان لون سي اليزيد لون مزيج من القهوة واللبن. وكان شعره على قدر غير قليل من التجعيد. وتبدو رأسه، عندما ينزع عنه شاشيته المدبّبة المُعَمَّمة بقماش موصلي أبيض، من أكثر الرؤوس سُخْمَةً.

وكان جسيما لَحِمًا مُخَمِخًا يعرف أسرار المطبخ عزّزت خدّيه المتدلّيين عضلات بوقيّة محشوّة بشحم غير صحّي. وكان يشكو من التهاب في العينين عضال يضفي عليهما مظهرًا رَميصًا يخفيه، بنجاح متفاوت، وراء نظّارتين من الزجاج المُعْتِم.

لم يكن الفقيه ابن زيدون يتمَيّز بذكاء ثاقب ولا بتكوين متين. آه، لا، بتاتا!

ومع أن الراتب الذي يقبض لا يجعل من وظيفته وظيفة خالية من الهموم فإن هذه،

---

[72] In medium stat virtus

كذلك، لا تقتضي منه جهدًا دماغيًا كبيرًا. فالتاريخ الذي يُدَرّسه يقتصر على حياة النبيّ. وكان يستقي معلوماته من سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد. إنه تاريخ شبيه بالأسطورة الذهبية حول فترات الإسلام الأولى وحول ملحمة الوحي التي تُطِفُّ فيها الحكايات الخرافية الحقائق التاريخية وتَتَشَكّل الحوادث البسيطة على هيئة أحداث حاسمة.

فلا تحليل للمجتمع الوثني من أجل فكّ الأحداث عن أسبابها ومن ثم غرس الروح النقدية والجهد الاختباري في الطالب.

إن طالب العلم، على يدي سي اليزيد، يمكنه أن يحفظ، غيْبًا، شجرة أنساب الرسول وأسماء أفراد عائلته وصحابته الأوائل وأهم الغزوات التي عقبت الهجرة والعودة المظفّرة إلى مكّة. أما أن يدرس الطالب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام وأن يبان له عن الأسباب التي دعت إلى قيام النظام الجديد والأسباب الحاسمة التي تفسّر نفور قريش من اعتناق الإسلام وأن يوصل الطالب إلى أن يستنتج من أعمال محمد المفهوم العام الذي قامت عليه حركة تحرير العرب الوطنية والثورة الكونية التي تصوّرتها الإسلامية، إن كل هذا، حقّا، لم يكن في متناول عقل سي ابن زيدون! وسي ابن زيدون لم يسمع البتّة بفلسفة التاريخ. وكان هذا الظاهرة العجيبة يظن أن ابن خلدون معتزلي. ومعتزلي تعني، من دون شك، في دماغ سي ابن زيدون روحا شيطانية ملحدة هرْطقِيَّة لعينة. إذ ليس في إمكان الفلسفة المعتزلية اللطيفة أو حتى السكولاستيكية الكلاميّة أن تعثر، بطبيعة الحال، على أصغر ملجإ في رأس متحذلق مثل هذا.

وكان سي اليزيد، في ما عدا هذا، يدرّس مبادئ في التاريخ الإدريسي والسعدي والعلوي يستخرجها، اتفاقا، من منتخبات عدد من المؤرّخين المغاربة مثل روض

القرطاس لإبن أبي زرع ونزهة الهادي للأفراني وكتاب الاستقصاء لأحمد بن خالد الناصري السَّلَوِي. والطريقة التي ينتهجها ترافع نفسها إلى نفسها. كان يكرّر أسماء وتواريخ وعددًا من الوقائع ويزيّن كل ذلك بطُرَفٍ ونِكات نافرة يستعيرها من مؤلّفين يذكر أسماءهم وهو يَكْشِط طقم أسنانه. وهو بهذه الطريقة، يسدّ فجوة.

كان، كذلك، يعرف عددًا من التفاصيل حصدها من آثار عبد الواحد المرّاكشي والزركشي وابن البيدق حول تأسيس أهم الحواضر المراكشية: فاس ومراكش والرباط وطنجة. وكان، تعاطفا مع السعديين، يروي ملحمة عبور جَوْذَر الصحراء واستعمار المغرب البلاد الواقعة على ضفاف نهر النيجر. في فيض قصصيّ، حقيقي أو خيالي، يختلط فيه المذهل بالفظّ والمصطنع بالدونكيشوتي.

كان سي اليزيد يمحّض السلالة السعدية عبادة حقيقية. وهو غالبا ما يذهب إلى مرّاكش للصلاة على قبور سلاطينها. وكان، من وقت إلى آخر، يذكر معركة الألكازار التي كان يقارنها بمعركة كاسيريس. كان يتحدّث عن مولاي عبد الملك وعن السلطان أحمد الذهبي وعن أبي عبد الله القائم، محرّر مراكش من النفوذ البرتغالي، بإجلال وحرارة يقاربان الهذيان. ولقد جعل من الخيزران، حَظِيَّة الذهبي، حوريّة تسحر بظرفها الخدّاع فسقيات البديع وأحواضه.

واحَسْرَتاه على البديع!

فلقد اختفى اليوم هو وغياضه المنتعشة ولم يتبقّ من موقعه شيء إن استثني قصر البهيّة حيث حاول با احمد أن يستنسخ، عبثا، الزاهرة والحمراء وجنان العريف! با احمد، ذلك الرجل الحازم، كبير وزراء مولاي الحسن، ذلك الفظّ الذي ولد من علاقة حب خلاسي بين أسود ويهودية واستطاع أن يوفّق، في الوقت الذي رنّ فيه صوت

احتضار مراكش أعنف الرنين، بين أبلغ المواهب الدبلوماسية وذوق فنّي تامٍ.

كان الفقيه بن زيدون يحب مراكش، ملكة الأطلس المُقْرِس الساخنة مثلما يسمح تقدّم العمر بحبّ مَعْكوسٍ. لقد كان يحبها لأنها كانت مرابطية وكانت سعدية. كان يقابلها، تدفعه إلى ذلك روح متمرّدة، بالرباط وبتلمسان المخلصتين دائمًا لذكرى الموحّدين وبمكناس العلويّة وبطنجة الأمويّة وبفاس التي مازالت تحتفظ بالتقاليد الإدريسية والمرينية.

وحتى يظهر سي اليزيد أنه هنا، بصفته، تقريبا، عريقا، كان لا يفوته أن يحمل معه دليل الخيرات للإمام الجزولي مغلّفا في غلافٍ جلديّ فيلالي ذي زخارف مذهّبة إضافة إلى جراب صغير مشدود إلى الحزام نفسه يحوي ترابا جمع من القبور السعدية واختلط بقطعة من الخشب التقطت من بلاطة قبر يوسف بن تاشفين الذي يرقد في ظل الكُتْبيّة ويدعى له بالبركة في مزار سيدي أبي العباس السبتي.

كان سي اليزيد شِرّيب شاي كبير. وهذا المشروب الذي ليس فيه شيء من صفة المشروب الوطني بما أنه يستورد، شأنه في ذلك شأن السكر ولوازمه، واحد من آفات مراكش. ولقد انتشر استهلاكه في بقية المغرب. واستهلاكه الذي يَقْرِض دخل المستهلك، من دون اعتبار الضرر الذي تسبّبه خصائصه المفقرة للدم، للبلاد، هديّة أهدتها ألبيون[73] في سالف الزمان، إلى أفريقيا الشمالية. ومع أن الإنجليز غادروا مراكش منذ ذلك الوقت، فإن استهلاك الشاي لم يتوقّف، لذلك، أو يتناقص. لا بل إنه أزداد.

---

[73] كناية عن بريطانيا ألبيون Albion.

إنّ الشاي ليس، بالتأكيد، آفة تضاهي، في عواقبها الضارة الكحول أو الأفيون. وفعلا فإن كمية المواد السامة التي يحويها لا تتجاوز المقدار الذي تحويه القهوة والتبغ اللذان يشمل استهلاكهما العالم جميعه ولكن الإفراط في استهلاكه، هو، من الجهة المالية وكذلك من الجهة الصحية، آفة اجتماعية لا جدال فيها.

إنّ الإنجليز نشروا منذ القرن السابع عشر، زمن حكم الستيوارتيين، من طنجة التي احتلوها، استهلاك الشاي في مراكش. ثم إنهم فعلوا ذلك لغرض تجاري بحت. ذلك أنهم، في هذا الزمن وبالرّغم من أن اندفاعهم الإمبريالي يرقى إلى زمن الملكة أليصابيت لم يكونوا بعد يفكرون في الاستقرار نهائيا على المضيق. لقد كانت طنجة، في نظرهم، نوعا من المصرف التجاري الخارجي[74] الذي كان يثير اهتمام تجّار مدينة لندرة أكثر مما يثير اهتمام لوردات الأميرالية.

كان الشاي الأخضر والشاي الأسود والتوابل وأنواع من العطر والماعون والأصواف، كل ذلك كان يكوّن أهم السّلع المُخَزّنة في هذه المدينة-المستودع بترخيص مشروط بدفع مبلغ مالي إلى قراصنة الإيالة المجاورة. إن الشاي الأخضر الذي كانت تجلبه من الصين غليونات العصر يفشي نكهةً أزكى من نكهة القهوة أو الشاي الأحمر اللذين بدآ يفقدان كل تأثير عند المراكشي. ولسوف يفرض نفسه شيئا فشيئا ليبدأ، منذ حكم مولاي سليمان في التشكّل على هيئة مشروب وطني. لقد انتشر استهلاكه عبر أفريقيا وأصبح، إضافة إلى الجلابة والبرنس والكسكسي وصحن الدار ذي الأزوليخوس واحدة من العلامات التي تميّز المغرب في الخارج.

على أنه إذا كان المغربي يستهلك هذا الشراب في كل حين، فإن سي بن زيدون، كان

---

[74] Emporium

يحتفظ بالرقم القياسي. لقد كانت كأسه الصغيرة المذهّبة المُسَكِّرَة المعطّرة الباخرة، دائمًا، بالقرب منه. وسواء أكان في البيت أم خارج البيت أم في المنزه أم في القرويين فإن شفتاه الممتلئتان ترشفها بشهوة خبير.

لقد كان سي اليزيد ذو العادات اللائقة ينسى، وهو يرفع الكأس الصغيرة إلى فمه، كل لياقة. فهو يسحب، حتى يظهر أنه قادر على تذوّق مذاقها، جرعات متباعدة محدثا صوتا شبيها بقوْقَأة دجاجة تتعذّب لتأخر البيضة في الخروج. ويتواصل هذا طوال الدروس حتى ليرى المرء فيه، وهو يطْبِط في طاسته، بجعا يغطّ منقاره الجميل في مياه نهر من أنهار السباسب الأفريقية العكرة.

***

ولكن إدريس كان محظُوظًا. فلقد جاء القرويين في أشأم فترة في تاريخ بلاده. وقد سبق أن وقع احتلال الإمبراطورية الشريفية فالتحقت، في ظل الحماية، ببلدي المغرب الآخرين الخاضعين لها. وجامعة القرويين التي كان يمكن، لو تحرّرت في الوقت اللازم من روتينها الخانق، أن تصبح موطن الانبعاث الوطني النشيط، ما زالت تعيش حياتها الخاملة تطيل احتضارها حقن يعالجها بها مستشارون يضطلعون، بالقرب من سرير مرضها، بدور الأطبّاء-اللّحَّادين. ذلك أنهم إذاكانوا يشخّصون المرض بدقّة فإن العلاج الموصوف لا يتعدّى الدواء المسكن الذي لا طائل تحته.

والسبب بديهي! فهذه الأدوية ليست في الغالب غير أدوية مُنوّمة توصف بغية إطالة حالة غفوة السيّدة العجوز. يجيء المصلح (ولنستعمل هذا القلب للمعنى من دون ابتسام) الذي تعيّنه الإدارة الفرنسية مزوّدا بدرجاته وصفاته الجامعية مفعم الفم بالوعود فيجري بحثه ويدرس جوّ الدراسة وحالة الدروس وينقّب في البرنامج (أو ما

يقرب منه) ويتحقّق من النتائج الحاصلة... ويرفع، بحزن يديه في الهواء. فهو يرى، بين يديه معهدًا من عصر ولّى نجّته أكثر الإمكانات مفارقة تاريخية. ولقد مدّه المستشرقون الملحقون بإدارة الإقامة بإيضاحات في الوقت الذي بيّنوا له فيه ما هو مطلوب منه. وعلى هذا النحو يصل المصلح المذكور، إذا شئنا، حاملا معه فكرة جاهزة.

كان نقده القرويين ممتازا صائبا يتناول كل شيء وكل الناس. وكان هذا المستشار الذي يَرْكَحُ إلى مسلّمات التعليم العصري، المتشبّع بالطرق البيداغوجية مثلما صمّمها القرن العشرون وطبّقها بما يلائم التقدّم الفكري، اللائكيّ المتحمّس النافر من كل ما يتصل من قريب أو من بعيد بالإكليروس التعليمي أو الإكليروس بالمعنى الحصري للكلمة، ال"هومي"[75] الذي حمّل أعباء مدنية، كان هذا المستشار يرى في فرنسا، إجمالا مينيرفا[76] تنير الإنسانية بمشعلها المُخَلِّص. على أنه جاء المغرب لا بصفة مبشّر ولكن بصفة موظّف مكلّف بتطبيق أوامر لا نقاش فيها. هذه هي الشخصية الرسمية التي كان عليها أن تشرف، على امتداد فترة تناهز خمسة عشر عاما بعد الإعلان عن الحماية، على إعادة تنظيم القرويين وعلى إدخال التعليم الحديث في مراكش.

ولقد أتيحت لإدريس أثناء إقامته في الجامعة فرصة أن يرى المُوَظَّفَيْن اللذين استلحقتهما الإقامة في ما يختص بالتعليم وهما يباشران وظيفتيهما. كان أحدهما هو المدير الذي يقرب وصفه من الشخصية السابقة ويضطلع بدور مستشار المقيم.

---

[75] Monsieur Homais: شخصية من شخصيات مادام بوفاري لقوستاف فلوبار: A la Homais

[76] آلهة الحكمة عند الرومان.

أما ثانيهما، وهو مساعد المدير ووكيله، فيهتم، بنوع أخصّ، بحالة القرويين.

كان برايار هو اسم السيّد مدير التعليم في مراكش. ولقد اختارته وزارة التعليم العمومي من بين مترشّحين تخيّروا بدقّة وتوفّرت لديهم، في هذا الصّدد، ضمانات أكيدة في ما يتصل بمعتقداتهم الجمهورية واللائكية. كان، وهو العَامّيُّ المنحدر من عائلة قاومت الإمبراطورية (هذا على الأقل ما يدّعي) ودفعت عن الجمهورية أخطار الرجعية من 1871 إلى قضية درايفوس وإلى قوانين أميل كومب، يبدو واحدًا من هؤلاء الجامعيين المنمذجين الذين كان يدلّلهم جول فيري عندما تقرّرت عَلْمَنَة التعليم. كان السيد المدير الحاصل على شهادة تبريز من جامعة باريس والذي درّس التاريخ خارج العاصمة وكان عضوا في الشرق الأعظم[77] في فرنسا يصرّح، جهرا، بأخذه بما يأخذ به ليون بورجوا وجوريس وفرانسيس دي براسانس من أفكار. ولقد تحمّس في وقت من الأوقات، وهو الذي كان منخرطا في الحزب الراديكالي في الوقت الذي كان يبدي فيه بعض العطف على الاشتراكية، حملات فيني دوكتون وفيليسيان شالي الهادفة إلى تحرّر أفريقيا الشمالية. بل إنه خطر له، ذات مرّة وفي سياق نقاش ماسوني سرّي، أن يطالب بنشر التعليم نشرا تامًا في المغرب وفي المستعمرات الأخرى. وكان يذهب إلى حدّ تدقيق فكرته ومفادها انه لا يفكّر في فرنسة الشعوب المشدودة إلى المركبة الفرنسية وأنه يعني كذلك، استنتاجا، حرّية ازدهار الثقافات القومية في ظل العبقرية الفرنسية.

واهامليت!

ويقتصر السيد المدير برايار في الأدب على الموروث من الجَنْسِنِيّة ومن الموسوعة.

---

[77] Le Grand Orient de France

كان زولا معبوده وكان له حول جرمينال أفكار بسطها، بحماسة، في أعمدة مجلّة طليعيّة. وكان بارّاس وبيقي يظهران له عبقريتين شرّيرتين.

وهو يرفض الإقرار بأنّ جول لوميتر أقلّ قدرا في الموهبة (وهذه هي قاصمة الظهر) ويرى في محاربي نهج رومة الكلاميين مجانين لا يستأهلون، في أحسن الحالات، غير الرمي بهم في مياه "السين" (ولقد أصاب في هذا الأمر عين الحقيقة).

لقد درس أعمال وأفكار رجال التعليم الجمهوري. وتَكَوّن دراسات أحاديّة ومقالات وحواشٍ وتقارير محاضرات مادة دراساته حول كوندورسي ولاكنال. وقد حظيت مداخلاته حول هيبوليت كارنو باستحسان أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسيّة. أما في ما يتّصل بموقفه من أساتذة الجامعة زمن الجمهورية الثالثة فلقد كان هو نفسه من بين الحرس الشاب الذي رفع فيري عاليا ومازال يحرص، بفضل القوانين التي اختلقها فالديك وكومب، على الدفاع عن الحرّيات اللائيكيّة وتوسيعها. وبذلك يكون أولاروف بويسون وج. ستيق ومونو وسينيوبوس، تقريبا، من مرشديه.

إنّ له، إذن، آباء. ولقد كان، وهو اللااعتقادي الصريح على الرغم من انتمائه إلى البروتستانتية، أصيل واحدة من هذه المقاطعات الجنوبيّة الغربية التي ما تزال فيها حيّة ذكرى هؤلاء الألبيجوا الذين طاردهم قديما البابا والملك وقضى على جزء منهم. وعلى هذا النحو حدث في يوم من الأيام أن استقبله الماريشال لاروقان[78]. إنّ اسم الماريشال لاروقان يمثّل جانبا كاملا من تاريخ الهيمنة الفرنسية في أفريقيا الشمالية. فهو يطيل التقليد الاستعماري الذي دشّنه بوجو ويرمز إليه. ومع ذلك فإنّ شهرته، خارج نطاق الضجّة التي أثيرت حول اسمه وحول ما أغدق عليه من

[78] هو الماريشل ليوتي المقيم الفرنسي العام في المغرب.

علامات التكريم، ليست بمثل هذا الألق الذي أحبّ جيش المتملّقين الذين واكبوا ثروته، أن يضفوه عليها.

لقد نجح وهو الهجين اللوريني النورماندي ذو المنحدر البورجوازي على الرغم مما كان يدّعي دائما من أصول أموية ارستقراطية ونصير الإكليروس المتحمّس والملكي من دون ارتباط معيّن والوفي الثابت لدوقات اللورين القدامى الذين كان يعرض مثلما يعرض متذوّق جمال شعارهم الرمزي، نجح في كسب رهان تكوين كل ثروته زمن جمهورية لم يكفّ يومًا عن إيساعها إهانة. لقد كان يدّعي في الأدب والخطابة نبوغا. وقد أكّد أناس منصفون أنه كان، فعلا، العسكري الوحيد الذي قبلت به الأكاديمية، باستحسان، عضوا فيها. وذلك يعني أنه كان يمتلك جدارة حقيقية تفسّر الانتخاب وأن الخالدين[79]، وهم الذين سبق لهم أن حَرَمُوا من نيل الوسام السّعَفي أمثال ديكارت وبلزاك وزولا وألفونس دودي، توفّقوا، هذه المرّة، في اختيارهم الخارج عن نطاق الأدب.

أما على المستوى العسكري فإنه لا أحد كان منخدعا حول مواهبه الاحترابيّة.

لقد كانت عنده، وهذه مسألة مفروغ منها، آراء خاصة حول الحملات النابوليونية ولكنها لم تكد تتجاوز الآراء التي شهرت تيير وهوساي. ولهذا السبب فإنه إذا كان قبوله في قبّة الآكاديمية لم يثر إلا همسات ضعيفة فإن ترقيته إلى رتبة مشير قوبلت، على العكس من ذلك، باستنكار إجماعي في صفوف الجيش. ففي عام 1921، عندما قضى ميليران ولجنة مصاهر الحديد، وكانا آنذاك عظيمي النفوذ، بهذا التعيين، كان الجيش الفرنسي قد خرج منذ زمن قريب من الحرب وما يزال وحل الخنادق الذي لم

[79] الخالدون: أعضاء المجمع العلمي الفرنسي.

يجف بعد يغطّي المعطف الأزرق السماوي الذي علّقه الشعْراني[80] في زاوية بيته علامة مادية دائمة البقاء على أوجاعه. كان الوحل يذكّره، في كل لحظة، بمدى تضحيته المؤلمة. وكان قد بدأ منذ قليل يتبيّن أسباب الحرب الحقيقة. ولهذا السبب لم يكظم غيظه وهو يرى تمجيد مشير لم يسبق له أن سمع أحدًا ينطق بإسمه. وقد استغلّت المجلّة والرسم الكاريكاتوري والأغنية الشعبية هذه الغلطة الحكومية في الاتجاه الممكن تخمينه. وتساءل البعض، بسلامة نيّة لا مزيد عليها، وهو يَفْرِط ذكريات من التاريخ، عما إذا كان في إمكان الماريشال لاروقان، في يوم من الأيام، أن يرقد في طمأنينة تحت قباب الأنفاليد من دون أن يثير سخط أرواح المحاربين الساخطين، هؤلاء الذين انتزعوا، عن حق، عصا المشيريّة في نار المعارك التي قادتهم من جسر أركول إلى ثُلُيْجَات الموسكوفا. وفعلا، فإن الماريشال لاروقان لم يسمع البتّة صوت البارود إلا أثناء أيّام الأعياد أو المناورات العسكرية. وستبرهن الأحداث، فيما بعد، عن صحّة هذه الرّيْبة. ففي سنة 1925، بدا لاروقان، عندما ثارت مراكش الشمالية استجابة لنداء محمد بن عبد الكريم، على الغزاة وعلى الرغم من أن قوات البطل الريفي لم تكن تتجاوز عدّة آلاف من البنادق التي جمعت من مصادر غاية في التنوّع، بدا لاروقان على قصور في أداء واجبه سبّب إنهاء مهامه في الحال وعلى النحو الأكثر إهانة. فلقد انفجرت شهرته عند أول طلقة نار مثلما تنفجر كُرَةُ مِرَغِيّة نفختها الريح بإفراط. واضطر، بعد أن عوّضه مشير آخر حصل، عن جدارة، على عصاه في أتون فردين، إلى أن يغادر، خفية، مراكش وأن يأوي إلى اللورين التي استدعاه منها، ذات يوم، ريمون بوانكاري ليعهد إليه تنظيم معرض 1931 الاستعماري.

هناك وفي ميدانه المسلّم به، ميدان باني القصور العابرة وزُخْرف جبهات الأبنية برّ

---

[80] Poilu

نفسه إلى حدّ لم يتبقّ له فيه غير حصاد علامات التفريط التي تبارى السياسيون والصحافة والنوادي في إغداقها عليه بوصفه بطل رُكْبي أو فائزًا بجائزة روما.

ومع ذلك فإن هذا المآل لم يكن حَرِيّا بأن يسكن ضغينته إذ كان الماريشال لاروقان شديد الحساسيّة. وهو لم ينس البتّة الإهانة التي تحمّل ولا كارثة السقوط من علو التمثال الذي قضى سنينا في إقامته والذي فكّر عدد من أتباعه في تتويجه بأساطير مختلفة فتآمر، وهو في سنّ متقدمة، على الجمهورية التي نال حظوة لديها ولم يتردّد الكافر بالنعمة حتى في الزحف عليها، متكئا على عصاه المرصّعة بالنجوم، في هذا اليوم من أيام فيفري 1934 الذي شابه كثيرا يوم فريكتيدور. لقد كانت تلك هي المرّة الأولى في حياته التي كان على أذنيه فيها أن تسمع صوت طلقات رصاص حقيقية. هذا إذا كانت أذناه ما زالتا قادرتين على سماع شيء ما.

كذلك كانت تلك هي رقصة المذبوح بالنسبة إليه. فلقد نام بعد عدة شهور، في هدوء، في كنف الرّب.

لقد دفن في مراكش وليس في الأمر شيء من تيْه الخيال. وأثناء الجنازة التي أقيمت على نفقة الدولة وعندما كان الضباط الذين يتقدّمون عربة الموتى بلباس الحفلات الرسمية يحملون بحركة احتفالية الأوسمة العسكرية التي أسندت إليه في حياته كان عدد من قدماء الشعرانيين الذين فرضت عليهم تضحيات جسيمة منذ أربع سنوات وكانوا يقفون وراء صف الجنود يتساءلون بسذاجة "ولكن، أين حصل هذا السيد على هذا العدد الكبير من الأوسمة؟"

إنّ هذه الأوسمة حصل عليها الماريشال لاروقان حيث يُحصل عليها، اتفاقا.

هو لم يحصل عليها بصفته عسكريّا ولكن بصفته واليا وأكاديميا ووسيطًا للشركات الرأسمالية وساعيا مِصْفَقيّا لبنوك مهتمّة بحصّتها من الصيد الاستعماري.

لقد حكم الماريشال لاروقان مراكش مدة ثلاث عشرة سنة. وهذا رقم مشؤوم[81]. ولقد كان يمكنه، بالتأكيد، أن يحتفل بذكراه السنوية بابتهاج لو لم تحدث الانتفاضة الريفية في الوقت المناسب لتنسف خططه الحربية الهزيلة وتنصح، في الأوان، بإقالته.

لقد نجح في الحفاظ على مقاطعته بالإبانة عن مواهب في الليونة بدت لأول وهلة، أنها تناقض قنزعة الرجعي متحجّر القلب البيضاء. لقد قرأ، وهو المثقّف، ساللوست وفهم يوغرطة. ولقد كان عليه، وقد قضت الصدفة، هذه الجلالة التي لا يردّ لها قرار بأن يدير مقاطعة من مقاطعات بلاد البربر القديمة، أن يتشرّب، هو قبل غيره، مزايا دهاء البربري الشهير الذي كان يتمكّن دائما، حتى وقد هزمته الفيالق الرومانية، من الصمود بالذهاب إلى روما لمفاوضة الشيوخ الرومانيين الذين آل إليهم أمر حكم مدينة الدولة.

لقد كان له في باريس، وهو نائب ملك في الجمهورية، زعماء جماعة خاصين يفاوضون رؤساء الأحزاب ومدراء الجرائد الكبرى وأقطاب الصناعة الوطنية فانتهى به الأمر إلى أن يصير غير قابل للعزل. وبذلك أمكنه من 1912 إلى 1925 أن يخضع مراكش لدكتاتورية شخصيّة وأصبح حتى الاشتراكيون لا يستنكفون من الإصغاء إليه، هو الذي يبدو مهيّئا للعب دور بولانجي وعندما دق جرس نهايته السياسية وقرّرت الأحزاب، وقد شعرت بموته القريب، أن تتخلّى عنه قرأ نائب شيوعي (أو هو

[81] عند العامة في الولايات المتحدة خاصة.

يدّعي انه شيوعي) في منبر المجلس رسالة اختلست من مراسلاته الخاصة تظهر بوضوح حِيَلَه السياسة وبهذا كان السقوط.

لقد درس، سابقا، عن كثب عندما كان في الهند الصينية طريقة عمل حكومة الهند. ويصعب على المرء أن يعرف إلى أي حدّ تمكّن من تمثّل عدد من العناصر والتعليمات والطرق التي اعتمدتها. ولكنه يمكنه أن يكون على يقين من أمر واحدٍ هو أن بذخ البلاط كان يبهره في دُرْبَارِات كلكوتا وحفلات الاستقبال التي كان فيها حرس أمراء الهند التابعين الحاملين علامات الولاء للإمبراطورية، يسيرون في رتل أمام ممثّل جلالة الملكة البريطانية والألبسة الرسمية البرّاقة والفيلة التي تمشي بخطى استعراضية ووفرة الكنوز التي تعرض بغية الفتنة والإبهار والحسّ المركّب بضرورة تحالف السلطة الأجنبية والأرستقراطية الأهلية ضمانا لقاعدة هيمنة قوامها المنعة المادية على جماهير عديمة الفَقَار حائرة، كل هذا لا بدّ أن يكون قد أثّر في رأس قائد السرّية الشاب، في ذلك الوقت، الذي كان يحلم، في الوقت الذي كان فيه يحتقر الجمهورية، بالاضطلاع، في مكان ما من أفريقيا (لقد كنا إذاك في الزمن الذي أتى فيه ستانلي على ما تبقّى من بكارة البلاد المجهولة[82]) بدور حريّ بأن يجعل منه نوعا من كلايف أو رودس فرنسي.

ويوجد وجه آخر من المشكلة لا بدّ أنه راق قائد السرّية لاروقان إلى أقصى الحدود عندما كانت تتيح له أوقات فراغه أن يُكِبّ أكثر على شؤون شبه الجزيرة الغانجية مثلما بدا أنها تبدو لعينيه من خلال نظام الإدارة الأنجليزي. وذلك أن الهند هي، في حدّ ذاتها، قارة أكثر مما هي بلد، وتسكنها فسيفساء من الشعوب التي تعتنق ديانات وتتكلّم لغات متنوّعة من سلسلة جبال الهملايا إلى الغابات السريلانكية

[82] Terra incognita

الكثيفة حتى ليبدو أن الموقع الجغرافي وحده هو الذي يحدّد وحدتها السياسيّة. ولم يك من السهل على وطنية لم تتحدّد بعد ملامحها الأولى بما فيه الكفاية أن تقرّب بين المسلمين والبراهمان والبوذيين وأن تقضي على مظاهر التنافر الاجتماعية التي أقيمت حول نظام طبقات مغلق لا يقهر.

ولكن هذا التنافر يخدم أغراض حكومة أجنبية همّها هو تثبيت وصايتها على مئات الملايين من الأفراد الذين لن يلبث تطوّر العالم العام أن يوجّه أنظارهم إلى ما يعيق انطلاقتهم الخاصة.

لقد قرأ لاروقان كيبلينغ وافتتن به. فالهند أثارته، إذن، في هذه النقطة: سعة ما يمكن أن يتيحه المبدأ الغربي تماما" فرّق لتسد"[83] من إمكانات تطبيق إن قدّر له في يوم من الأيام أن يحقّق أمل تقلّد الحكم في مقاطعة أفريقية فيؤسس إمبراطورية مغامرة على أساس من سياسة الأمراء الهنود التي تراكب سياسة الأعراق العتيقة.

لقد كان في إمكان المرء أن يعذره لو قلّد، على الأقل، حرفيّا النظام البريطاني واستوحاه، إلى جانب جوانبه السيئة، أيضا في ما فيه من جوانب إيجابية أي جوانب الليبرالية البراغماتية التي تبقي للشعوب الخاضعة لهيمنة الأقوى، هامشًا من الحريّة يسمح لملكاتها أن تتفتّح من دون فرطِ إكراه.

وفي الوقت الذي كان فيه لاروقان يسترخي في مكتبه في كوشنشين كان طاغور وإقبال يصَّعَدان في سماء الشهرة وكان تيلاك يقف، من دون أن يخشى أن يرى نفسه منفيّا، بغباء، في إقامة جبريّة في عاصمة الإمبراطويرية أو مبعدًا إلى جزيرة أقيانوسية، ضد

[83] Divide et impera

تعسّف إدارة ما زالت مَحْشُوّة آراء مسبقة متأخّرة. ذلك أنه مهما كان تصلّب الحكومة فإن وجود صحافة معارضة وجامعات ومدارس ومؤسسات اقتصادية وأحزاب وجمعيات ومنظّمات متنوعّة، يدلّ على أن النظام لا يخلو من مرونة وأن واحدا متصلّبا مثل كورزون لا يتردّد في تعديل سياسته في كل مرّة اقتضت الظروف أن يلجأ إلى ذلك.

ولكن هذه السياسة كانت مصطبغة بواقعية ذكية. فكيف يمكن لعقل بليد مثل عقل لاروقان أن يدركها وأن يحاول، فيما بعد، أن يطبّقها؟

***

انه لحق أن يقال إننا كنّا نعيش نهاية القرن التاسع عشر وإن شدّة حمّى التنافس الاستعماري التي استحوذت على أوروبا تمكّنت من إلجام عدد كبير من العقول. لقد بلغت الرأسمالية أَوْجَهَا. وكان التنافس في أشدّ نشاطه فكان يَعْمُد إلى تقطيع قارات طلبا للمواد الأوّلية للأسواق وللمستعمرات القابلة للاستيطان أو الاستغلال ولسيادة تتوسّع وهيبة ترسّخ.

فالمسألة الاجتماعية التي زادها خطورة تطوّر الآليّة وفرط الإنتاج والهجرة من الأرياف وإفقار طبقات مُكْدَحة مكرهة على القبول بقانون القُلُّز المتمثّل في الأجر المتوسّط والبطالة، كل هذا لم يكن من شأنه أن يحدّ من هذا الصراع من أجل الهيمنة على العالم التي أصبحت غاية الأمم الكبيرة في الأرض ووسيلتها معًا. وإذا كانت الطرق التي سبق أن شهرها كورتيز وبيزار تنفّر الآن عددا من الضمائر، فإن طريقة معاملة الشعوب الضعيفة لم تكن لتختلف عنها إلا في الدرجة. كان الأفق يكفهرّ أمام إفراط في الرخاء مصطنع وكانت المباريات الإمبريالية، وهي تتصادم في

حَوْجَلَة مغلقة في مواجهة مقتضيات الشعوب السائرة في طريق البعث القومي المتنامية، تزداد حدّة وترى أن عليها أن تجد مخرجها الوحيد في غزو العالم. ومثل هذا الغليان كان حمّالَ تَبِعَاتٍ.

كانت العلامات المنذرة بأكبر الكوارث الإنسانية تتزايد بسرعة وكان الحقّ يخلي للقوّة مكانه وأصبح هذا القانون الذي حُكِمَ هنا بامتيازه، وهذا دليل قاطع على ما أصبحت عليه الأزمنة الجديدة، يُحْكَمُ عليه هناك بالبطلان. ووجبت ذِمَامَةٌ صيغت على هيئة الإمبريالية الحديثة على مناقضتها كل منطق. إن وعي المسؤوليات هو وحده الكفيل بالحدّ من نتائج هذه الورطة وبتمكين الأمم الأوربية من قدر أكبر من الرشاد في إدارتها الاستعمارية. وهذا مشروط بالذهنية السائدة وقدرات الحسّ والتكيّف. ومثل هذه الشروط يجب أن يكون محدودًا عند هذا الذي كتب رسائل من التونكين التي استمدّ منها سياسته، فيما بعد، في مقاطعته الأفريقية.

إن لاروقان كان ما يزال في الفترة التي حدرت فيها قضيّة بولانجي فرنسا التي سبق أن عرفت 1789 و 1848 و 1871 لتسقط بعد الفضيحة البانامية في قضيّة دْرِيفُوس، عند أطروحات الكاثوليكية الاجتماعية المتصلّبة. وهو لم يقبل إلا متحفّظا الانضواء[84] مما جعله يحذو عن طيب خاطر حذو ألْبير دي مِون ويقتصر على المستوى الاقتصادي، وهو الأرستقراطي الذي تضرب شجرة أنسابه في عمق الأرض (هكذا كان يدّعي على الرغم من غياب جزيئة النسبة الخطير[85]) على نظريات لو بلاي البورجوازية الصغيرة بما يعني أنه كان يتوفّر على صفات مثيرِ حَرْبٍ أهلية احتمالي.

---

[84] الانضواء (Ralliement) حركة قادت الكاثوليك المناضلين الى القبول بالجمهورية استجابة لنداء البابا ليون الثالث عشر.

[85] مثل الجزئية دي في قولنا او فون عند البروسيين Otto von Bismarck Jean de la Bruyère.

ولقد ساند قوستاف لوبون[86] في هجماته العنيفة على الأنظمة العمّالية وكان يرى في كل تساهل إزاء الطبقات المحرومة علامة ضعف تستحق سوط الدكتاتورية.

ولم يكن للماريشال، في ما يتعلق بالمستعمرات، أيّة خطّة محدّدة. فكل شيء ينحصر عنده في نوع من التجريبية التنظيمية التي تؤول دوما إلى اعتماد مبدإ القوة مثلما عبّر هو نفسه عن ذلك ذات يوم أثناء وليمة باريسية أقامها احتفاء به قطب من أقطاب صناعة المطّاط انتهى أمره، بعد أن كدّس ثروة سريعة مشبوهة، إلى إفلاس يثير السخرية. ومع ذلك فإنه في إمكان المرء أن يلخّص هذه الخطّة على النحو التالي:

1– تكميم الشعوب "الأهلية" بواسطة قوانين استثنائية والمحافظة الإجبارية على أشكال اجتماعية معيّنة أدانها الزمن والتطوّر بحجّة احترام التشريعات التي أقرّها الأسلاف.

2– تسليم الشركات الرأسمالية الفرنسية مراكش حتى تستفيد من مجموعة أدواتها من دون أن تبلغها مع ذلك مرحلة التصنيع الجدّي.

3– انتزاع الملكية التدريجي من "الأهلي" الذي أصبح، بعَوْد ظرف طارئ، في إمكان المستوطن المهاجر الذي أوكل إليه مثلما هو الشأن في الجزائر وتونس، دور العامل المحرّك لسياسة التوطين الفرنسية في مراكش، أن يخضعه كيفما شاء للاستغلال والسّخرة.

86 طبيب فرنسي، مدّ كثيرا من الكتاب العرب، مشرقا ومغربا، بأسلحة أخلاقية وتاريخية وسوسيولوجية لمحاربة الغرب خاصة في ما يتصل بفترة العصر الوسيط: كتب، في ما يهمّنا، حضارة العرب. مات 1931.

4– الحفاظ على حالة الجهل والخرافة واعتماد الطريقة الأنسب في التصدّي لكل محاولة هادفة إلى تثقيف الشعب.

***

لقد كانت هذه هي السياسة التي كانت تفسد على مراكش أمرها عندما جاء إدريس للدراسة في القرويين. وفي كنف هذه السياسة نفسها استقبل السيد الماريشال لاروقان، مقيم فرنسا العام، السيد الأستاذ برايار الذي حلّ بأفريقيا مسكونا بفكرة نشر خيرات التعليم الحديث في الشباب المغربي.

دامت المقابلة التي خصّ بها الماريشال المدير العام للتعليم وقتا غير قصير. ولقد تعرّضت بكارة الأستاذ اللائيكية، ما من شكٍّ في ذلك، لامتحان عسير. وعلى أية حال فإنها لم تخرج من هذه المقابلة سالمة تماما إذ أصبح الأستاذ برايار منذ هذا اليوم منفّذ التعليمات المُقيميّة الوفيّ. أما في ما يتعلّق بالمبادئ القدّوسيّة فإن النفقة عليها أصبحت تفوق ثمنها.

كان للسيد المدير العام للتعليم وكيل يساعده ويعوّضه، عند الحاجة، في رئاسة الإدارة. هذا المعاون الذي يحمل رتبة عسكرية كان كاثوليكيا متحمّسا وكان، وهو صنيعة المقيم الذي شاطره الرأي في السياسة وكذلك في الإدارة، يحظى، إضافة إلى ذلك، بثقة السلطات الأسقفية في فرنسا وفي أفريقيا وتتقبّله المحافل[87]. ذلك أن

[87] المتفق عليه أن الجمهورية الثالثة (1870-1940) غلب عليها الطابع الماسوني فوزارتا التعليم والداخلية على سبيل المثال كانتا لا تسندان إلا إلى ماسوني.

معاداة الإكليروس، وعلى لسان غامبيتا نفسه لم تكن في يوم من الأيام سلعة للتصدير حتى تنال الأفكار العامة حول الديموقراطية، في أفريقيا، من الاعتبار أكثر ممّا ينال متدرّبون على التسايف اللفظي يتّفقون دائما كلما تعلّق الأمر بإعراق البرنوس[88] أو الجلابة.

كان المقدّم كوينلارت محرك سياسة المطفأة الأساسي. والمدير أصبح، بعد أن دجّن، يكتفي بدور الستار الواقي كلما حدث أن فشا أمرُ فرط في الحماسة الدينية فوصل إلى باريس حيث ما زالت الصراعات المسرحيّة تصرّ على الاحتفاظ بحقّها الكامل في مناصبة الإكليروس العداء.

لقد درس كوينلارت تاريخ المغرب مثلما يدرسه مبشّر منشغل بتسقّط عدد من نقاط الضعف حَرِيّة بأن تبرّر سلوكه أو تشجّع عليه. وكان، وهو عدوّ الإسلام اللدود، يحرص على دوره بقدر ما كان هذا الدور يلائم سياسة حكومته. لقد كتب عن مراكش وعن فاس وعن القرويين كتابا اشتهر بأنه كان غاية في الخداع وذلك في قرن ادعى فيه العقل أنه تمكن نهائيا من فرض ريادته.

ولا يحتاج المرء إلى أن يكون على قدر كبير من النبوغ حتى يتبيّن في كتاب المقدّم كوينلارت مجموعة كاملة من الفخاخ نصبت للشبيبة المراكشية والشمال أفريقية التي حكم عليها بهذه الطريقة، بأن تحرم من واحد من حقوقها الأكثر شرعية ألا وهو حق التعلّم. فالتعلّم إنما هو إجرام على المهمّة الاستعمارية التي يضطلع بها لاروقان، مثلما اضطلع بها سابقوه في الجزائر وتونس، في مراكش خدمة للمستوطن حصرا. إن على مراكش، وهي مستعمرة تعمير مثل بقية بلاد المغرب، أن تلتحق، هي بدورها،

---

[88] Faire suer le burnous

بحضن الإمبراطورية الفرنسية على أساس من استرقاق سكانها استرقاقا قاتلا.

إنه لم يكن لمراكش التي هي قِنٌّ شدّ إلى نظام للأشياء جديد لا يختلف في شيء عن نظام الأقنان أي حق في التعبير عن رغباتها على الرغم من أن شعار الحماية المعلّق على رقبتها مثلما يعلق جلجل أجذم، يصنّف مراكش ضمن البلدان الخاضعة لوصاية مؤقّتة لا لخضوع دائم.

إنّ هؤلاء الذين يشتكون، في القرويين، من هيئتها القديمة ومن تعليمها الذي لا حياة فيه ومن أساتذتها الذين كان من لأنسب أن يكون مكانهم المتاحف لا الجامعات ويقرّون بأنّ المعهد المريني القديم لم يعد غير "قبر للفكر" ويطالبون، بإلحاح، بإصلاحه، إن هؤلاء لا يعرفون أن طلب عون لاروقان وبرايار وكوينلارت ومساعديهم يساوي العون الذي في إمكان حبل أن يقدّمه لمشنوق يرتجح في طرف عقدته.

إنّ المطفأة لم تكن لتقتصر على حماية المعهد القديم إذ هي انتشرت في كل البلاد وأصبحت صلاحية الإقامة تعتبر كل نشاط فكري أو أدبي عملا معاديا لفرنسا. وخضعت العلاقات بالمشرق للمراقبة فكانت الرقابة تروّق بعناية تذكّر بفهرس الكتب التي حرّمها الكرسي الرسولي أكثر مما تذكّر بـ"رقابة"[89] العصور الحالية كلّ مؤلَّف طبع بالعربية وكلّ كتاب وكلّ مجلّة أو جريدة.

ولكن الكُمامة لا تتمكّن تماما في أيّامنا هذه من شلّ تطوّر شعب، خاصة في عصر الطائرة هذا والمذياع والبلاغة اللفظية المعمّمة. هذه الحقيقة لم يتمكّن لاروقان، مع ذلك، البتّة، من أن ينفذ إليها.

---

[89] Anastasie

لقد تساءل متيرنيخ، بسلامة نيّة لا مزيد عليها وقد فاجأه إعصار 1848 الثوري، عما كان يدفع شعب فيينا إلى أن ينتفض. وعندما أعلمه المرافق العسكري الذي كان يقوم على خدمته بأن الأمر لا يتعلّق بانتفاضة وإنما بثورة أجاب صَارِعُ نابوليون الذي كان من طينة مُفَوْلَذَة ما أبعدها عن طينة واحد مثل لاروقان، في صوت لم يكن يخلو من غم "ثورة! إنّ هذا لمن المستحيل! لقد أصدرت مرسوما إمبراطوريّا بمنعها!"

إنّ مثل هذه الذهنية هي التي كانت تدفع القياصرة الأخيرين، بتحريض من المجلس الأعلى للكنيسة الروسية (وفي هذا الوقت لم يكن غريغوار راسبوتين، بعد، قد خرج من غاباته السيبيرية) إلى أن يفكروا في البعث بدوستويفسكي وتولستوي إلى حيث يمكنهما استعادة البعض من الرصانة، في عتمة قلاع معيّنة، بحجّة أنهما تجرّآ على الانشغال بمسائل منعت الخوض فيها فرمانات قيصريّة.

إنه يوجد اختلاف واحدٌ في هذه اللوحة وهو أن ميترنيخ والقياصرة كانوا مستبدّين يخدمون حكما مستمدّا من مفهوم حقّ الدولة الإلهي في حين أن الماريشال لاروقان لم يكن إلا لسان حال حكومة منحدرة من إرادة الشعب وحفيد أجداد أطاحوا، تحدّيًا للعروش وللكنيسة وباسم وئام اجتماعي مزعوم، برأس ملك! وقد يكون هذا هو السبب الذي يفسّر حمل لاروقان وكوينلارت برايار على كتفيهما مثلما كان ذئب الحكاية يحمل على خَطْمِهِ قناع خروف. لقد فكّر نشطاء الطلبة في الجامعة وقد رأوا أن اتفاق هذا الثلاثي النبيل على الاقتصار على السفاسف يمنع كل إصلاح يفيد القرويين، في أن يتداركوا الأمر فكوّنوا لهم جماعة تشبه رابطة أو ناديّا صغيرا يضمّ تلامذة من القرويين ومن معهد مولاي إدريس وألزموا أنفسهم، خارج أوقات الدروس، بمتابعة مرحلة دراسة حدّدوا، هم، برامجها. وقد كان أستاذ شاب وصحافي

ينشّطان هذه الندوات[90].

كانت الجماعة، لجمعها بين الثقافتين العربيّة والفرنسيّة، تهتمّ بالعلوم والأدب والسياسة. وفي ذلك ترابط بما أن السياسة ادعت أن لها الحق في منع كل أصلاح وفي معارضة كل تقدّم وفي شلّ كلّ حركة تحرّر. وقد أحدثت الجماعة داخل وخارج كلّ من المؤسستين تيّارا نشيطا يهدف إلى بعث المغرب فكريا واجتماعيا.

كان إدريس واحدا من أجسر المتحمّسين له. ذلك أن جيلا جديدا من الأساتذة التي فاجأهم الإمضاء على اتفاقية الحماية، وهم في تمام اليفاعة، بلغ الآن سنّ الرجولة. هؤلاء المربّون الذين أنضجتهم الأحداث في وقت مبكّر خلصوا إلى الإحساس بجملة الأدواء التي كانت تشتكي منها البلاد ودراستها فكونوا، مواجهة منهم للروديني والقُرّيين والبن زيدونيين كوكبة على أساس من الدراسة المضنية وعلى أساس مما يلائمها منهجا وتناولا للأشياء. وإذا كانت هذه الكوكبة قد عانت جهل الشيوخ المتحذلقين وارتياب الحماية ومقاومة النظام الذي يشخّصه كوينلارت غير المباشرة أو الصريحة فقد احتضنتها شبيبة مجدّة تطمح إلى نفض الغبار، نهائيا، عن الجامعة القديمة لأن هذه الشبيبة كانت تعرف جيّدا أنه إذا كان يوجد خلاص لمغرب مهزوم قريب من الاختناق فإن هذا الخلاص يكمن في التعليم والتقدّم الاجتماعي. ويمكن للمرء، من ناحية أخرى، أن يتصفّح بسرعة تاريخ الماضي حتى يقتنع بذلك، إذ أنه لا ينقصه، للخلاص، لا الذكاء ولا حسن النيّة. وفضلا عن ذلك فإن دمه ذاته يحمله على أن يركب هذا المركب.

---

[90] هما، في صورة روائية، محمد علال الفاسي خريج القرويين ومحمد بن الحسن الوزاني خريج المدرسة الحرة للعلوم السياسية في باريس.

هذا اليقين يصدر، شاء ذلك كوينلارت أم لم يشأ، عن هؤلاء الذين حملوا مشعل قرطبة الذين يجدر أن تحفظ سجلات وقائعهم الممتدّة من مئذنة الكتبيّة إلى أقواس الحمراء في الذاكرة.

لقد كان أجداد لاروقان ومرؤوسوه يجرّون المحراث على وقع السيّد الإقطاعي، مثلما تثبت ذلك الكتب المدرسية في فرنسا، عندما كان ابن رشد، جدّ إدريس، يلقي على ظلمات أوروبا القروسطية أَلَقَ فكرٍ كان أساس تحرّر من سيضطلعون، فيما بعد، بدور المطفأة في أفريقيا الشمالية.

لقد كان سي تاشفين زعيم هذه المدرسة الجديدة المعترف به. ولقد تمكن، هو ابن القرويين المتشبّع بثقافة عربية واسعة، من تمثّل العلوم الحديثة بمتابعة ما يكتب ويحلّل، من بعيد، في صحافة المشرق. لقد كانت معرفته بالفرنسية محدودة شيئا ما ولكن ملكاته المتيقّظة التلقائية كانت تمكّنه من فهم كثير من الأشياء التي لا تتضمّنها دروس "قبر الفكر" القديم وبذلك توصّل، بشكل غير محسوس وفي حدود عمله، إلى إعادة تكييف التعليم بإخضاعه للنقد العقلاني وبتأويل الفقه والحديث بما يماشي معطيات التقدّم. واجتهد في ترتيب الدروس وتحديث طرق اللغة العربية معوّضا النصوص الوعرة المضنية بالنحو الجدي. وأدخل عناصر من الجغرافيا. واهتمّ خاصة بالإِوَالَة السماوية معتقدا في هذا، غَالِيلِيّةً فِطْرِيّةً منه، أن دراسة الكوسموغرافيا يمكنها، أكثر من أي شيء آخر، أن تُحَرِّر العقولَ الشابّة مما عُلِّقَت طيلة قرون من ركام الآراء المسبّقة:

"إن أمر معرفة، كان سي تاشفين غالبا ما يقول في في حصافة، أن الأرض تدور في الفضاء، عوضا عن الاعتقاد أنها قائمة على قرن ثور، يمهّد، في حدّ ذاته، الطريق ويهيئ التلميذ لفهم آخر للأشياء التي يجابه. إن علينا، كان كذلك يؤكّد، أن نعرف سبب

الأسرار الخفية التي تَلفّنا من دون أن نُفْرِطَ في إرهاق سحايانا بقضايا الكَيْف. وفعلا، فإنّ الأسباب التي تحدّد الأنظمة الفلسفية الدائمة التي هي أساس حركات الحياة الاجتماعية إنما تنتج عن الجدل بين الكمَ والكيف."

ولكن هذا التفكير لا يساير غايات الرسالة التي جاء لاروقان وبرايار وكوينلارت مراكش للمنافَحَة عنها. فأن يلقّن طلبة شبّان حقائق بسيطة مثل هذه كانت ترى فيه عيون حواريي رسالة فرنسا الثقافية في أرض أفريقيا أمرا تخريبيّا يمكن أن يهدّد البناء الذي انتهى لاروقان من رسم خريطته.

أوّاه يا غاليلي! فلتستشط روحك غضبا في قعر قبرك!

ومع ذلك فإن أرضك تدور!

هذه الأرض ذاتها التي يزعم كوينلارت، بموافقة برايار، إبن كوندورسيه ولابلاس الروحي، معارضة منه لكلّ قوانين الفيزياء والمنطق مجتمعين، أنها ثابتة، في أفضل موقع على قرن عجل روّض على القيام بنطّات على ذلك القدر من الوثوق!

وإذا ما كان لإدريس من سوء الحظ ما يدفعه إلى أن يحملق بعينيه وهو يرى تناقضات مثل هذه فإن كوينلارت، المصلح، يملك في جَعْبَة صلاحياته التأديبية، ما من شك في ذلك، ما كان يملك قضاتك يا غاليلي، حتى يقنعه بالأخذ برأي أكثر بساطة حول قضايا الكون!

إنّ هذا هو ما كان كوينلارت يسميه "ترك المغاربة يتطوّرون في نطاقهم الثقافي الخاص".

آه! المخادع! آه! الماكر! آه! الفظ!

إنه لا يبدو أن الأغنية الرتيبة ستنتهي عمّا قريب. لقد كان القوم يعتقدون أنه يمكن بمثل هذا الهذر التي تفوق بلادته ما يتضمّن من مضرّة، كُمّ شعب إلى أبد الآبدين!

لقد انتشرت دراسة النظام الشمسي خفية عبر القرويين. ووقعت دراسة كل أنظمة الجاذبية، من بطوليمي إلى كوبرنيك وكذلك قوانين نيوتن والمقارنة بينها رغم أنوف المناتيين[91] والكاكاتوسيين[92] الذين استهجنوا هذا الاهتمام عند تلامذتهم بعلوم الشيطان.

***

أثار التاريخ، أيضا، اهتمام سي تاشفين. ولقد فكّر الأستاذ الشاب في أن يؤسس تعليمه الجديد على التاريخ بما أنه، حسب شيللّر، المحكمة التي تمثل أمامها الشعوب. لقد أراد أن يستخلص من خليط الخرافات الذي كدّسه إلى حدّ ذلك الوقت إخباريو عصر ولّى، ما يجب، قبل كلّ شيء، أن يوضّح الصالح القومي المغربي بطريقة تعزّز، عند الطالب، الشعور بالتضامن واجتهد، في الوقت نفسه، في إبراز رصيد الأمّة الأخلاقي العتيق والإيتيكا الخاصّة بها والنزاعات الجماعية الحَرِيّة بأن تضعف ما فيها من قوى الأنانية التي ولّدتها قرون خلت فيها الحياة الاجتماعية من التماسك العقلي.

---

[91] نسبة إلى مناة.

[92] نسبة إلى الكاكاتويس وهي ببغاء قابلة للتعلّم.

لقد كان يرمي من وراء ذلك إلى تسريع نسق التطوّر والمساهمة في الارتقاء بمستوى الشبيبة الاجتماعي إلى تصوّر للحياة القومية أكثر سلامة.

إنّ التاريخ مثلما كان يفهمه الفقية بن زيدون لم يكن إلا مجموعة نوادرغِثَّة متناثرة مستخرجة من وُرَيْقَات كتاب يهتم بمجمل المجموعات الإسلامية أكثر مما يهتم بحياة شعب واحد من هذه الشعوب. ونحن اليوم لم نعد نعيش في زمن الخلافة.

ومن ناحية أخرى فإن المغرب لم يبد البتّة استعدادًا كبيرا للقبول بالتخلّي تخلّيا صريحا عن استقلاله لا بعد الإسلام ولا قبله. وإذا كان قد أصرّ على أن يضطلع بدوره في كبريات فترات الصراع بين المشرق والغرب فإنه لا محاولة لإلحاقه كلّلت تماما بالنجاح. إنه لا حاجة إلى القول إنه قبل الإسلام دينا ولكنّه لم يقبل بشيء آخر. فالثورة الخارجية الكبرى التي كلّلت بالانتصار كانت حركة تصدّ لضروب من تجاوز السلطة في خلافة دمشق وباستثناء سيادة صورية محض على تونس فإنه لم يكن للعبّاسيين أي سلطان على شمال أفريقيا.

إنّ أمويي قرطبة والفاطميين والأدارسة والرستميين كانوا مغاربة بالمعنى الأوسع للكلمة. أما تسليم الجزائر وتونس بالخلافة العثمانية، فكان، في ما يتصل بهذا الأمر، استجابة لضرورة تقوية الجبهة المشتركة بغية التصدّي للعدوان الغربي ممّا سيجعل من إمبراطورية عثمان، فيما بعد، آخر معقل من معاقل الإسلام المستقلّ.

فلا حاجة إلى القول، وفي مثل هذا الإطار التاريخي، أن المغرب سعى إلى التنصّل مما وجَب عليه من عونٍ.

لقد كان المقصود هو ترتيب هذه الأحداث في مختصر واضح دقيق والوصول إلى تحرير التاريخ القومي من مجموع أصْبَحَ مُرْبِكًا. ولقد عثر سي تاشفين من دون أن يكون قد قرأ أو حتى سمع بلافيس، وبدفع من إلهام ذاتي، على وسيلة لوضع نوع من المخطّط الموجز يلخّص تاريخ أفريقيا الشمالية من العصور البربريّة إلى الأزمنة الإسلامية ويظهر فيه أن المغرب حافظ دائما، على ما شهد من تحوّلات وتقلّبات معقّدة شيئا ما، على توازن بنائه. فالجنس المغربي الذي احتكّ إما كثيرا أو قليلا بالحضارة البونية أو العَرْبَريّة ومازجته ونشطته الحياة والثقافة الإسلاميتان تعرّض، مثل كل أمم العالم، لعمليات نقل دمٍ ومزج عرقي وإخصاب جدّدته ولطّفت طباعه من دون أن تؤثر في أساس بنيته. وعلى التاريخ أن يعبّر عن هذه البَدَائه لا أن يقتصر على تعداد فصول رتيبة لا طائل تحتها.

إن هذا الأمر، هو أيضا، لا يلائم نظام كوينلارت إذ فيه مجازفة. فالسماح للمراكشيين الشبان بأن يتَأنَّسوا تاريخهم، إنما يعني، حصرا، تعريض "مهمة" فرنسا في أفريقيا للخطر. ولم يكن كوينلارت، في هذا الأمر، ليّن الجانب مثلما كان الفرنسيسكاني البصير ممّا يثبت، مرّة أخرى، أن على المرء ألا يُؤْخَذ بالظاهر[93]. لقد كان من شأن ليبيرالية فرسان المطفأة هذه أن تشيع تسوية التعليم الرسمي الذي كان عليه، على الرغم من التزامات الحماية، أن يعلّم، قبل كل شيء، صغار الشمال أفريقيين أن يردّدوا وهم يقرؤون الكتب المدرسية التي مدّوا بها: "أجدادنا الغاليون!" ولذلك فإنه لا غرابة في أن يرى المرء الناطق باسم الإقامة يعارض إدخال برنامج يستوحي البيداغوجيا الجديدة إلى القرويين وأن يستبيح حق معاقبة من يحيكون "دسائس تهدف إلى إلحاق الضرر بحسن سير التعليم التقليدي في معهد الثقافة الإسلامية الشهير".

---

[93] L'habit ne fait pas le moine

ومع ذلك فإنّ هذا لم يكد يثني سي تاشفين وجماعته على ان يشتغلوا هم أنفسهم، بتعليمهم الذاتي فاستخدموا اجتماعاتهم الخاصة لسدّ الفجوات. ولقد كانت كثيرة وعميقة، في التعليم القروييني ونجحت الجماعة، بفضل تكاتف فعّال وجهد جهيد، في صياغة كتاب موجز يتيح إمكان إبراز تاريخ المغرب إبرازا على قدر كاف من الوضوح.

ولقد كانت تلك خطوة أولى إلى كتابة تاريخ صريح يعكس، مثلما تعكس المرآة، جملة أمجاد الأمّة وأوجاعها لآن دراسة الماضي إنما تتنزّل في علاقاتها بهذه الأمة منزلة الروح من الجسد. وابن المغرب، مثلما كان سي تاشفين يحب أن يكرّر، بقدر ما يستكشف ماضي أجداده، يزداد احتراما له وهو يتأمل في هذه العصور التي اضطلع فيها أجداده بدور يجعل الإنسانية مدينة لهم بعض الدين بما هو أكثر تميّزا في مكتسباتها فيرتقي إلى مستوى أرفع ويدرك، بعد أن يكون قد نأى عن الاستخفاف بالوسط الذي يعيش فيه والذي شوّهه انحطاط طال أمده، أن وطنه منجم قيم يكفي بعض النشاط الذكي والشجاعة لتخصيب البذار فيه.

وإذا كان كسوف شبيه بهذا الكسوف الذي تعرّضت له أوروبا الوسيطة، قد استغرق منذ ابن خلدون، أفريقيا الشمالية في حالة نُوَامٍ قريبة من الموت فإن هذا لا يجب أن يعدّ مبرّرًا لاستمراء الخواء ما دام العالم جميعه مستمرًّا في التقدّم على الرغم من العقبات التي كدّستها في طريقه قوى الجمود الآيلة الى النكسار.

هذه الحقيقة تتّضح للعين اتضاحًا تامّا عند تصفّح تاريخ المغرب. ولن يتخلّف صوت الأجداد، وهو ينبثق من أعماق الماضي انبثاق نذير حاسم، عن إبانة السبيل لهذه الشبيبة المتلهّفة التي يقضّ مضجعها شعوران ملحّان هما الرغبة في المعرفة وضرورة

تحدّي طغيان الداخل وطغيان الخارج المتحالفين عليها.

كانت المجلات والجرائد تصل إلى فاس رغم الرقابة والوشاية وذهنية التسلّط الإداري التي كانت على الدوام أساس سياسة فرنسا الاستعمارية. وكانت الجماعة تدرس معارف هذه المرحلة وتحلّلها وتتناولها بالمناقشة وتستوعبها وتخضعها للمقارنة مستوحية في ذلك الفكر الجديد الذي كان يهزّ العالم الإسلامي. لقد كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، على الرغم من أن مرحلتهما تجاوزها سير الأحداث، سواء في الشرق أو في أماكن أخرى، سيْرًا تحدّد نسقه ديناميّة القرن، يهيمنان على هذه العقول الشابة التي ما زالت مشدودة إلى الأفكار القديمة الموروثة. وكان طه حسين يبهرهم بوضوح أسلوبه وجرأة نقده في الميدانين الأدبي والاجتماعي على حدّ سواء. وهو لم يُفْهَمْ بما فيه الكفاية، بل العكس هو الصحيح، حتى يقع الحكم عليه بطريقة صحيحة. ولكن القوم كانوا، على الرغم من عدم التسليم بمجموع نظرياته التجديدية، يستحسنون ذكاءه وصراحته وثقافته الشاسعة المدموغة بطابع النبوغ. لقد تَكَشَّفَ، وهو المسلم الذي جاء الدنيا محروما من البصر، واحدا من هذه النماذج النادرة في النخبة الإنسانية التي تترك، في رحلة الحياة، أثرًا بيِّنًا. وكانت مواهبه، لمزاج مرن طبيعةً، تسكن إلى التوليفات الأكثر توفيقا.

ويمكن القول إن آثاره المُغْتَرَقة من ينابيع الشرق والغرب كانت تعلن عن مطابقة العالم الإسلامي على المنجزات التي حقّقتها أوروبا من زمن طويل. إن طه حسين الأزهري المتضلّع في الحضارة اليونانية والخلدوني، إن شئنا، الذي تشبّع من الرحيق المَجْرُوسِ من حديقة أعلام التراجيديا القديمة حيث جعل أوريبيد الذي يغلب على الظنّ أنه استهواه من المسرح فرعا من الأغورا وأتاح لعامة الشعب تذوّق فكر أناقساقور وامتلاء بروتاقوراس بالحَمِيّا والمفكّر العربي الذي غذّاه الكلاسيكيون الفرنسيون فأصبح قادرا على أن يرفرف، بيسر مسَاوٍ، فوق شعراء العصر الجاهلي

العرب وناثري النهضة الغربية وفوق حكماء بغداد وقرطبة وكبار كتّاب الأزمنة المعاصرة وفوق ابن رشد وكونت وفوق ابن خلدون وغوته، والمتبحّر الذي يعرف جيّدا حَرِيرِيّه وله آراء في آثار ليتري تجعله قادرا على النفاذ إلى دقائق كورنيل والليبرالي الذي توّج حكمةً حَرِية بأن تجعل منه تابعًا صديقا لمحمد مُصَلٍ في الحرم على مرمًى من رخام البانتيليك: إن طه حسين هذا سيظهر لعدد من أصدقاء سي تاشفين فيلسوفًا مسلما من القرن العشرين يتَمشّى، في صحبة أب سلفيستر لونار، على ضفّتي السين. ولهذا السبب لم يبخس طلبة القرويين الشبّان من إعجابهم به شيئا وذلك على الرغم من تحفّظهم إزاء جرأة تفكير مؤلّف كتاب الشعر الجاهلي. ومن ناحية أخرى فلقد كانوا، جميعهم، يتمَنّون أن يروا المغرب يسهم في بعث بلاد الإسلام في كنف هذه النظرة. لقد كان اتجاه النادي يتبلور بمقدار ما كان الغذاء الواصل من الشرق يتجمّع في الخزانات المرتّبة في زوايا الحُجيرات. لقد بدأت المناقشات. وكذلك عدد من المشاجرات.

***

كان في الجماعة تلامذة من معهد مولاي إدريس الذي كانت لغة التدريس فيه الغالبة، على الرغم من أنه كان مزدَوَجًا، هي الفرنسية. وكان مستوى التعليم فيه أرقى من مستواه في القرويين. وكان البرنامج فيه أكثر ثراء وإن كان هو بدوره قد صيغ على طرق ابتدائية.

وكان الطلبة المجدّون المُكِدّون وهم ينهلون، مثلما كان يقول الحكماء في الصين، من منبعين، في وضع يمكّنهم أفضل من غيرهم من اكتساب ما كان الجبان برايار والخادع كوينلارت يقتّران عليهم فيه. كان تلامذة المعهد يقدّرون بشكل أفضل طه حسين. ذلك أنه كان في إمكانهم، لأنهم أكثر قدرة على الحكم على فرنسا من أفعالها، أن

يعقدوا مقارنة منصفة بين واحد مثل لاروقان وواحد مثل رينان وبين برايار وزولا وبين كوينلارت والقديس فنسون دي بول. وهذا هو ما بقي عميد كلية الآداب في القاهرة الذي بهره جمال فرنسا المجازية الكُتُبيَة الأخَاذَ ولم يهاجر إلى ما وراء البحار إلا عبر رواياته وكتبه المدرسةّ، عاجزا عن تبيّنه.

وما يميّز الإدريسيين كذلك أنهم يكادون لا يكونون ملزمين بمتابعة ثرثرة القِرِّيين والبنزيدونيين. وهم إلى ذلك كانوا يدرسون العلوم الصحيحة ويتعوّدون على المعادلات والنظريات والقواعد الفيزيائية والكيميائية وأصول علم التشريح المقارن التي تقدّم إليهم بالتقتير ويتمكّنون، منذ وقت مبكّر، من إزاحة بقايا الخرافات التي تمثل مقدارا كبيرا من العوائق في سبيل انعتاق القرويين.

كان رئيس هذا الفريق صحفي شاب تخرّج حديثا من معهد العلوم السياسية والاجتماعية. لقد كان واحدًا من هذا العدد القليل من حَمَلَةِ الشهائد الجامعية الباريسية. ويعلم الله وحده كيف تمكن من التفلّت من زَرَدَة الشبكة التي نصبت حول الشمال أفريقيين الراغبين في الذهاب لجني المَنّ الذي حرموا منه في فاس والجزائر وتونس في ظل البانثيون.

كان عبد الرحمان بن الفاضل الونوغي مراكشيا من أَرُومَةٍ قديمة تنتمي إلى سلالة قبلية طويلة في البلاد. وكان قد وهب هذا الذكاء اليقظ النافذ الذي هو سمة مشتركة في الأجيال المعاصرة في المغرب. ولقد عاد إلى مراكش بعد أن أنهى دراساته وخالط الأوساط الأكثر تنوّعًا في فرنسا وأفريقيا الشمالية وقرأ وأخذ ما لا يستهان به من كل ما يقع قريبا منه، مشربًا عددًا من الأفكار التي بلغت من الوضوح مستوى يفرض عليه الاضطلاع برسالة غايتها تخليص بلده الذي ترك لقمة سائغة لقوّتي الإمبريالية والجهالة المشتركتين.

ان التعسّف الذي كان يحدث أمام ناظريه واستعباد مراكش الذي عقب استعباد بقية المغرب متضلّلا بسياسة بلغت من الضبابية في تطوّرها حدّا لا يسمح بالسكوت عن مخاطرها والإملاق والتوحيش اللذين دفع إليهما الشعب في حين كان المستوطن والمَرْكَنْتِي يسلبان، محميين من القوانين المعمول بها، الأراضي والثروات، وإطّرَاح العنصر الأصيل من الوظائف والأعمال خدمة للأوروبي الذي رفع إلى منزلة سيّد معصوم مَصُون والإبقاء على واجهات عديمة الأهمّية من ماض ساقط لا يبرّر نظرية الحماية بقدر ما يشهّر بها ويفحمها وتجميع كل السلطات بين يدي مقيم عامٍّ هو في الحقيقة حاكم الجمهورية ومرزوبانها او نوع من الحبر الأعلى[94] مكّن من صلاحيات فَوْ-قانونية وامتلك، مثلما أثبت ذلك في فاس بعَيْد مجيئه، حق تقرير حياة أو موت السكان الذين أخضعوا لإدارته: لقد كان لا بدّ لكل هذا من أن يُسَخّط سي عبد الرحمان بن الفاضل إلى حدّ جعل من سي تاشفين ومنه خليفتين لمغربي من الشرق مات قبل الأوان هو علي باش حانبة خالد الذكر.

لقد وقعت، منذ عودته، محاولة رشوِه بوظيفة صغيرة مريحة كانت حَرِيّة بأن تنحطّ به إلى منزلة شبيهة بمنزلة الكاتب الزخرفي الذي يخفّ وزنه في موازين الحماية فرفض. وتعدّدت وجوه إغرائه فتهرّب منها. ودُعي إلى حفلات استقبال فرفض الدعوات. ووقع اللجوء إلى ابتسامات أكثر عذوبة فأجاب بانحناء مقيس على قدر الكَشْرَات العَطُوفَة. عندئذ أدرج في قائمة أعداء فرنسا والفاسدين الذين لا بدّ من مراقبتهم وفي جماعة المخفقين المتكاثرة على مرّ الأيام والساخطين والمسقطين وكلّ هؤلاء الذين كان المقيم يرى أن أفضل سياسة إزاءهم هي إبعادهم عن إمبراطوريتهم لأنهم رفضوا أن يلتقطوا فضلة الوليمة التي يقدّم فيها جسد وطنهم.

---

[94] Pontifex maximus

وفي هذا الأمر لم يكن لاروقان ليجدّد في شيء. فلقد كان، بكل بساطة، يتّبع ما يمليه عليه مزاجه بوصفه فرنسيّا. وفعلا فإنه لم يكن ليشذّ، وهو الرجعي الأصيل، عن جمهوري ليبرالي أو عن شيوعي يجدّ في البحث عن المطلق.[95]

لقد كان سي الونّوغي ذو العقل المجرّب يعرف كثيرا من الأشياء. وقد كان، بثقافته الأوروبية يكمّل سي تاشفين، وكانت مجموعة الطلبة النشطاء في مؤسّستي فاس تستمدّ، مما كان يمكن تسميته بهذه الخليطة، القدر الضروري ممّا في إمكانها أن تستوعب.

لقد كان هذا هو ما كان ينقص مراكش لإشعال فانوس انطفأ منذ أجيال. وكان هذا، كذلك، هو ما كان لاروقان يعترض عليه اعتراضًا وصل به إلى حدّ السعي إلى منع المراكشيين من التعليم. ولقد كان الأمير مترنيخ يدّعي، بالطريقة نفسها أن في إمكانه الحيلولة دون اندلاع الثورة لأنه اتخذ ضدّها قرارا أمضاه الملك المعصوم الذي كان، آنذاك، يحكم تحت سقف قصر شونبرون القديم ذي الزخارف الذهبية.

---

[95] نحن لا نفسّر هذا الموقف الحاد عند الحمامي، من الشيوعية إلا بتجربته الشيوعية القصيرة في فرنسا وتجربته السوفياتية نهاية عشرينات القرن العشرين على عهد ستالين أثناء توظيفه في إدارة مهتمّة بالوضع الفلاحي.

التاريخ هذا الدليل

كانت الجماعة تخصّص أوقاتها للتعلّم قبل كل شي. ولكنها لم تكن على هذا الحدّ من السذاجة الذي يدفع بها إلى أن تتغاضى، تماما، عن مصير البلد. فقضايا تاريخ مصر الحديثة وتاريخ أوروبا منذ الثورة الفرنسية وحتى عصر التوسّع الإمبريالي وسياسة فرنسا في مراكش وفي شمال أفريقيا على وجه الخصوص والمسائل الاجتماعية كانت تشغل بال الطلبة بشكل متزايد يلائم اتساع مجال بحوثهم. فكانت تجتمع في منزهٍ تملكه عائلة الفقيه الفحصي وتجتمع، مرات أخرى، في بيت قديم في اتجاه باب المحروق حيث يستقبل الطالب السلاوي زملاء الدراسة. وكان من عادته، في كل مرّة ينعقد فيها الاجتماع في بيته أن يستقبل أصدقاءه عند الباب. وما أن يحلّ أحدهم حتى يشير إلى البهو قائلا، وعلى الشفتين ابتسامة ساخرة لا تَتَبدّل: "إلى الأمام، نحو سراديب الأموات!" ولا يقبل ضمن الحلقة، لسرّية الاجتماعات المطلقة، أي تلميذ من غير الأعضاء إلا بعد عجم عوده مسبقًا. لم تكن الجماعة لا نادي تمرين على الخطابة ولا بِؤرة تآمر. فالقوم يجتمعون للتثقّف ويجتهدون، خارج أوقات الدراسة، في فهم أسباب انحطاط بلاد المغرب وتحديدها. ومن البديهي أنه إذا كان الطلبة يعيشون وضعا يؤهّلهم للانفلات، نهائيًا، من المستنقع الذي تنقّ فيه ضفادع القرويّين فإنه لا شيء، كذلك، يجبرهم على الانخداع بطُعم القائد كوينلارت الهزيل. فهم، بِحَرَكَتِهِم الذاتية، إنما يعبّرون عن احتجاجهم على كل محاولة إكراه. ومن أجل هذا الأمر اكتست اجتماعاتهم طابعًا عامّاً يزداد اتساعا بمرّ الأيّام فجمعوا بين مواضيع دراساتهم والمناقشات حول ضرورة الإصلاحات التي لا بدّ منها في مراكش وتوقيتها.

لقد كان سي تاشفين، المتحمّس لكل ما يرد من الشرق، هو الذي اضطلع بمسؤولية إنارة عقول المستمعين إليه حول قيمة التحرّر الاجتماعي الذي شُرع في الدعوة إليه في بلاد الإسلام. لقد كان استقرائيًّا ينتقل من البسيط إلى المركّب. ويلجأ إلى هذه المقارنات التي يحلو للمنطقي أن يستخرج منها براهينه ويضفي عليها قيمة.

كانت طريقته حرِيَّة أكثر من غيرها بالنجاح خاصة أنها تتجنّب، قصدا، التحليل المغتصب الذي لا يلائم عقولا لم تتعوّد بما فيه الكفاية على عمليات البرهنة الديالكتية المعقّدة. كان يبحث، قبل كل شيء، عن إقامة الدليل. وهذا لا يستبعد لا الآراء المتعارضة ولا الدحض النقدي.

ولقد ناقش سي تاشفين، ذات يوم، قضية تطوّر الإسلام المغربي في ضوء ما تحقّق في مصر من تقدّم.

كانت هذه المسألة موضوع محاضرة شاركه في إعداده عدد من الأصدقاء وهدف الأستاذ الشاب منه إلى الوصول بطلبته إلى تغيير نظرتهم رُكُوحًا إلى الآراء الجديدة، فتحدّث عن حملة الجنرال بونابارت على مصر وحرص، قبل كل شيء، على أن يحدّد موضعها في إطارها الأصلي الناشئ، عن تضارب مصالح القوّتين الخصمين وكذلك عن حِرْصِهما على ضمان توسعهما في المتوسّط. وأظهر وجه قاهر الأهرام وهو يتفلّت مثل جانونس بيفرونس[96] من حملته الشرقية. إنه بونابارت قائد الحملة العام الذي كان يحرص على تعهّد براجه في الفتح وعلى استمالة أكبر عدد ممكن من الأحلاف في صراعه ضدّ انجلترا.

---

[96] هو في الميثولوجيا الرومانية أحد آلهة روما يحرس أبوابها ويراقب من يدخل إليها ويخرج منها. ولهذا يرمز إليه بوجهين.

ويوجد بونابارت آخر هو ذاك المتعالي الفظ العصبيّ الذي كانت تتخفّى تحت معطفه العسكري المزركش بأوسمة جنرال جمهوري أخلاق الدّغل الكورسيكي الأكثر تنفيرًا.

"إن هذا، شرع سي تاشفين في الحديث، هو نفسه الذي أمر الجنرال بوايي بتقتيل سجناء يافا المسلمين متذرّعًا بأنهم عيال. وهو الذي كان يصف جزائريي الإيالة بالأنذال وأمر ممثّله لدى بلاط فاس الكونت دورنانو بتجاهل عدد من قواعد البروتوكول المعمول بها على الرغم من أن فظاظة مثل هذه تتضمّن إهانة للسلطان موصوفة. وما من شك في أن فرنسا، لو قدّر لها أن تنتصر، نهائيًّا، لكانت فرضت على مصر عقلية هذا البونابارت أي حكم السيف والكمامة وقوانين الاستثناء والتعمير الأجنبي والتبليد ومصادرة الأراضي الخصبة بالجملة وما يعقبها من استغلال مفرط للفلاّح، مثلما هو الشأن في الجزائر، دقّق سي عبد الرحمان بن الفاضل الذي كان مطّلعا عن كثب، على مسألة الاستعمار في أفريقيا الشمالية ومثلما هو الشأن في تونس حديثة العهد بالوصاية ومثلما هو الشأن هنا في مراكش...

"انه لو نجح هذا البونابارت في اقتحام أسوار القدّيس يوحنّا في عكّا وفي تجنّب أسطول نلسن، واصل سي تاشفين، لكانت مصر اليوم جزائر ثانية ولما أمكن لطه حسين، رمز النهضة الحالية في وادي النيل، أن يكون أكثر من مصري ضائع وسط حشد مُغْفَلٍ من معاصريه. فهو ما كان ليجد، وقد قبل في الأزهر، غير معهد آسِنٍ بفعل المناظرات السكولاستيكية التي يديرها رودانيون مصريون يكاتفهم كوينلارتيّون لم تفتقر إليهم فرنسا البتّة منذ اليوم الذي اكتشف فيه حمار بيير الناسك شوارع الشرق.

"إنّ أزمة حكومة المديرين وهزائم عكّا وأبوقير وروح الكورسيكي المعذّبة، كل ذلك دفعه إلى مغادرة مصر. لقد لفظت الحملة التي كان عليها أن تقود إسكندر الأهرام الجديد إلى بابل ومعابد الغانج بعد أن ضعفت، أنفاسها الأخيرة بطعنة من خنجر أزهري هو سليمان الحلبي. وإذن فإن حرّيات مصر الآتية زرعت على جثّة الجنرال كليبير.

"ولكنه كان يوجد بونابارت آخر، هذا الذي كان عليه، بالتأكيد، أن يدفع، رغما عنه، بِرُقِيِّ مصرَ قُدُمًا. إنه جندي الجمهورية الذي احتكّ بمباديء الثورة والذي تفتّح، بعد رحيله واستسلام جيشه، عدد من الحبّات سقطت منه على ضفاف النيل، على هيئة بِذار فكري. ولكن، ولنلاحظ ذلك، إن رحيل بونابارت واستسلام جيشه كانا شرطين ضروريين أتاحا مثل هذا التولّد.

"وفوق ذلك، فقد كان لا بدّ من ترافلقار وليبزش وواترلو وصخرة سنت هيلينة حتى يتاح لحبّات متشابهة ألقاها الزارع نفسه، عن غير قصد في ما صادف من ثَلْمٍ، أن تُغِلَّ عبر أوروبا وحتى في روسيا.

"ولقد أعانت مصر، آنذاك مجموعة من الصدف. ويمكن القول إن محمد علي وهو يستقَلّ، عمليّا، عن السلطان ويخصّ البلد بموارده الوطنية قد خطا الخطْوة الثانية. وقد فكّر الوالي بعد أن أصبح يتصرّف بحرّية، في خلق مِلاَكٍ[97] إداري وعسكري. وشرعت مصر، وهي التي وجدت ضمن سكّانها نخبة قادرة على تطوير ما حمل بونابارت من بذر إدارة، تتخلّص، تدريجيّا من جمودها وتتحسّس حركاتها الأولى نحو النظام والتقدّم.

---

[97] موظفو إدارة أو مستخدمو مؤسّسة.

"إن الأمر لم يكن بالسهل. وكانت العقبات كثيرة. من الخارج ومن الداخل أيضا. ولقد كان تقتيل المماليك وسيلة صائبة. وكذلك مركزية الإدارة. وقد أصبح في إمكان الخديو إسماعيل سنة 1869، عندما أعلنت حفلات فخمة للعالم افتتاح قناة السويس، أن يَتَحَدَّثَ منذ ذلك الحين، باسم شعب يعي، إن كثيرا أم قليلا، مصيره الوطني. لقد أقرّ رفع الولاية إلى منزلة خديويّة وتغيير قوانين الخلافة في الملك لصالح الوريث المباشر أمرًا واقعًا كان يهدف، عبر اختبار نظام دُستوري وإمكانات ديمقراطية أوسع، إلى التخلّص من نظام حكم عفَّاه الزمن.

"لقد كان الخديو إسماعيل شخصية فريدة. ومصر مدينة له بقدر كبير من نهضتها الحالية. ومن الخَطَأ تصديق كل ما كتب فيه. ومن المؤرّخين من شاؤوا ألا يروا إلا الجانب الخيالي في حياة كان يمكن، حقّا، أن تكون مذهلة لولا المصاعب التي تخلّلتها وأخطرها متأتٍّ، ما من شك في ذلك، من الدسائس التي كانت تدبّرها الأمم الأوروبية الساعية إلى احتلال مصر. كان إسماعيل رَحْبَ النظرة. ومصدر ضعفه هو بالذات أنه كان رَحْبَ النظرة إذ كانت الحكمة تقتضي عملا يناسب الوسائل والظرف الزماني. لقد كان يريد أن يكون سيزُوسْتِيرِيس[98] بلد، إذا كان فخورا، عن حق، بالرفاه الذي يدرّه عليه مورد الماء الذي يخصّبه، فإنه لم يشْرع إلا منذ أمد جدّ قصير في التخلّص من حِمْلِ ماض ثقيل يعرقل سيرَه. ولقد فقد عرشه بسبب هذا الطموح الذي كان يدغدغه. ولكنّه لم يتخلّ عن خديويته من دون أن يخلّف عددا من الإنجازات ستستفيد منها نخبة تعزّز أساسُهَا أفضل استفادة.

"لقد كان إسماعيل في سدّة الحكم عندما حلّ، في يوم من الأيّام، جمال الدين

[98] الثالث (1878-1843 قبل الميلاد) من كبار فراعنة مصر القديمة.

بالقاهرة مطرودا من كلّ بلد يستقِرّ فيه حاملا معه صندوقين لا ثالث لهما مثلما سيقول، في يوم آخر، لمبعوث السلطان عبد الحميد الذي استقبله في القسطنطينية: صندوق كتب هو رأسه وصندوق منقولات هو جبّتَه. لقد كان مصلح الإسلام، وهو يحل بمصر، يطأ أرضا سبق أن تهيّأت لالتقاط تعليمه وتمثّله.

"كان إسماعيل وجمال الدين متناقضين تماما في النظرة إلى الأشياء. ولم يكن من الممكن، يقينا، أن تنشأ علاقات وئام بين الأمير، وهو مستبدّ مقبل على ملاذ هذه الدنيا محافظ مبدأ ومزاجًا والثوري الأفغاني وهو مبشّر يحترق حماسة لا تَخمد ويضحّي، في سبيل الفكرة، بكل شيء، مُستخفّ بثروات هذا العالم وأمجاده المتهافتة. كان التناقض يشمل الجسدي والأخلاقي معًا. ولقد أورثت الحِفارة صورتيهما الأجيال اللاحقة. لقد كان أحدهما وهو الخديو رجلا ممتلئا رَبْعَةً شهوانيًّا ذا هيئة متعجرفة شُوَيّة لا يبدو أن هموم الحكم قد أثّرت كثيرا في صحته التي ينبئ عنها بما فيه الكفاية لون وجهه وبدانته. أما الآخر، وهو المصلح، فقد كان نحيفا نحيلا ذا وجه شاحب مُتَوَجِّعٍ لفّه قماش صغير أبيض يضفي عليه هالة ناسك باهرة ويحيط به شعر يتهدّل على قفاه في تجعّدات سوداء مبعثرة.

"على أنه يوجد أمر جامع بين هذين الكائنين المختلفين إلى هذا الحدّ عنّ بعضهما البعض. لقد كانا، معا، متفقين على نشر التعليم ومقاومة الجهالة. وكانا متفقين، معا، على إصلاح الأزهر وعلى تخليص الجامعة الألفية من القشرة التي كانت تعرقل سيرها عرقلة تتمثّل في متحذلِقين يتلفّظون بصيغ قديمة لشبيبة تستأهل تعليما أفضل بكثير. ولذلك تعرّضا، معا، للنفي.

"لقد تكوّنت حول جمال الدين نواة الأتباع الأولى التي ستمسك، فيما بعد، بمشعل البعث المصري. وإذا كان تعليم المصلح الموجّه إلى العالم الإسلامي والذي أثمر،

عمليّا، في مصر أكثر مما أثمر في غيرها من البلدان، يتضمّن رؤى متنوّعة تتعلّق بمجمل الحياة الاجتماعية، فإن أتباعه أكبّوا على جملة هذه المسائل، كل حسب تهيّئه ومقدرته. وهكذا فإن محمد عبده، تابعه المفضل، انشغل بترويض العقيدة بإخضاعها للتأويل العقلي الذّكِي فنقد، هو بدوره، الأزهر وسعى إلى حمل المؤسسة الجامعية العتيقة على الاستئناس بروح القرن يشدّ أزره في هذا المسعى أتباع آخرون. فسلك عدد منهم إلى هذه الغاية طريق السياسة والأدب وطرق عدد آخر منهم باب الفلسفة والإصلاح الاجتماعي. وقد تأنّس عدد منهم بنظريات الإنهاض الاقتصادي والمسائل الزراعية.

"لقد ظهر، عندئذ، مصطفى كامل، منشّط الوطنية المصرية الشاب. إن مصطفى كامل يمثل في المسار الذي قطعنا، النتيجة المنطقية والهدف الذي تلاقت فيه الجهود التي بذلتها مصر، منذ غزوة قامبيز[99] وسقوط آخر الفراعنة، وما زالت تبذلها لاستعادة هذه الوحدة الترابية التي يرسمها بحتميّة مجرى النيل تماما مثلما يرسم خط قمّة الأطلس، هو أيضا، وحدة مغربنا!"

"كان وجه سي تاشفين، وهو ينطق بهذه الكلمة، يتجمّد في ما يشبه نوعا من الانخطاف وكأنه خضع لتأثير صدمة كهربائية. كانت عيناه تلتمعان وكان جذعه ينتفخ في حين نوّرت ابتسامة شاحبة وجهه الذي أنهكه الإعياء وزادت من شحوبه، إضافة إلى ذلك، بنية جسدية ضعيفة تظهره في مظهر مسلول لن تطول به الحياة...

"لقد كان يمكن لمغربنا، هو أيضا، واصل الفقيه الفحصي، أن يسلك طريقا مماثلة لو لم يحدث أن برزت عوائق حالت دون تحقيق تطوّر كان كلّ شيء يبشّر بملامحه الواعدة.

---

[99] الثاني، ملك فارس فتح مصر سنة 525 قبل الميلاد.

لقد وطّن المغرب، وريث الفترة الأندلسية المباشر، بتفاوت، حضارة الإسلام الأندلسي البهيّة وحافظ على بقاياها. وإذا كان قد نشأ نوع من الفكر المتخلّف وبقي في الحالة نفسها مُقاوما، إلى هذه الأزمنة، كل جهد خلاّق، فإن هذا كسوف علينا، لسوء الحظ، أن نقرّ بنتائجه الكارثيّة. ولكنه لم يعد في وسعنا أن نقبل، إلى أبد الدهر، بالخضوع له.

"لقد مدّ العلويّون مراكش بثلاثة سلاطين من الطراز الأول كان يمكنهم أن يصبحوا مجدّدي المغرب. هؤلاء الحكّام لم يكونوا شخصيات هزيلة. ويجمع النقد التاريخي، اليوم، على تصنيفهم ضمن زُمْرَة هؤلاء المستبدّين المتنوّرين الذين وظّفوا قواهم لخدمة شعوبهم. لقد استعمل البعض منهم، مثل مولاي إسماعيل، القوة على غرار واحد مثل بيير الأكبر وراوح الآخرون، مثل مولاي الحسن، بين الوسيلتين أو، إذا شئتم، كان قلبًّا مثلما هو الشأن في ينابيع مولاي يعقوب الكبريتيّة. هؤلاء السلاطين أحبّوا بلدهم ونافحوا عن هيبته واستشعروا في حياته الاجتماعية بعض ما يتخّللها من تعثّر وتقلقل ومن ثمّ سعوا، فعليّا، إلى تحقيق عدد من التغييرات المفيدة. ولكنهم، جميعا، فشلوا في مسعاهم. فلماذا؟

"ها هو سؤال يلزمنا بضرورة البحث عن إجابة عليه. وعندما نحصل على هذه الإجابة فإنها تسمح لنا بفهم أفضل للأشياء في مقبل الأيام. وقد نصل، إذا حدّدنا هذه الأشياء بشكل أوضح، إلى التخلّص من هذه العادة المؤسفة المتمثّلة في إسْلاَمِ أَمْرِنَا، دائما، إلى هذه القوى الغيبيّة في ما يتعلّق بالبحث في مشاكل عالم الأرض.

"إنه لا مسبّبات من دون سبب. وحتى يتمكّن السبب من تحقيق نتيجة لا بد من توفّر سلسلة من الظواهر المتتابعة المرتبطة بعضها ببعض: ها هي، للمرّة الثانية، قاعدة لا تَقِلُّ عن الأولى إطلاقا. والاثنتان، تتحدان، بالبداهة، وتتكاملان في الحقيقة

المعقولة ذاتها. إنّ البيضة لا تخرج من الدجاجة إلا بعد أن تكون قد تعرّضت لسلسلة من التحوّلات التي تبدأ من الحُوَيْن المنوي الذي أودعه فِعْلُ الذكر في المبيض وتنتهي بتكوين الزّلال وتبلّر القشرة. وتتطور المضغة المِحْمُولة بعد وضعها وتفريخها فتنشأ وتكبر وتفقأ قوقعتها لتندفع مباشرة في البحث عن الحبّة المغذّية. وفيما بعد يحدث تبدّل آخر عندما يخلي الزغب الذي يغطّي جسم الفَرّوج العاري المكان لريش الديك الجميل الساطع. إننا، على هذا النحو، نعرف كيف تتولّد الدجاجة من البيضة. وهذا منتهى الأمر. ومن غير المفيد أن يضيع المرء وقته في إقناع النفس بأيّتهما، الدجاجة أم البيضة، سبقت إلى وضع الأخرى وضمنت تكاثر الدواجن الذي لا ينقطع. إنّ هذا القانون الكيمي الحيوي يمكن أن يتآلف كذلك مع تفسير الظواهر التاريخية.

"إنه في وسعنا منذ الآن، واصل سي تاشفين بعد هذا الاستطراد، أن نفهم، بوحي من تفكير مثل هذا، الأسباب التي حالت دون بعث المغرب في الوقت المناسب على الرغم من إرادة كثير من سلاطينه. لقد كان مولاي إسماعيل ومولاي الحسن متوحّدين في عصر غشَّته خِلْفَة عوائق شالّة مكّنها من التوطّن، هنا، فقدان كل فكرة إصلاح. وحتى فكرة الثورة..."

حدّق سي تاشفين في الحاضرين وهو ينطق بهذه الكلمة. ثم واصل:

"هل تفهمون؟ إنني أقول ثورة ولا أقول تمرّدًا وهو أمر مختلف تمامًا. لقد كان الإسلام ثورة كبيرة. وكان محمد، مثلما كان المسيح من جهة أخرى، أكبر ثوريي عصريهما. إنّ القرآن، تمامًا مثل التوراة والأناجيل، لم يخل من هذه الخميرة الثورية التي صمّمتها عدالة ثابتة هي الصفة الأصل في إله واحد سام عادل. والإسلام الذي ترون اليوم ليس غير ثوب رثّ ورسم ساخر عن العقيدة الكبيرة الديمقراطية الإنسانية زمن

الرسول والخلفاء الراشدين. وإلى ذلك الإسلام أردت، قبل كل شيء، أن أصل.

"إنه من غير المعقول السعي إلى فصل عدد من سلاطيننا عن وسطهم. ويمكن للمرء، فقط، أن يقول إنهم بحثوا عن أن يتقدّموا عليه. ولذاك السبب لم يقع فهمهم. فهذا الوسط لم يكن بعد مهيّئا لقبول الإصلاحات التي انتَوَوْا تحقيقها. لقد كانت تعوز مراكش مقدّمات مثل هذا الإيلاد. ولنعمدْ إلى بعض المقارنة. إنّ الثورة الفرنسية التي هي نتيجة منطقية للسيرورة الطويلة التي حضنها النظام القديم هي التي ولدت نابوليون وأنضجت المباديء التي قادت جزءًا من العالم نحو النظام الجديد. ولقد سبق أن رأينا كيف أن نابوليون، الطاغية الإمبريالي، كان عاجزا عن الإفلات من الروح الثورية التي نشأ عليها ومثّلت مَرْقًى لمجده. ورأينا كيف أنه ترك، رغما عنه، في مصر التي جاءها غازيا باحثا عن مآثر خانقة للحرّية شبيهة بالمآثر التي يمثّلها اليوم في أفريقيا الشمالية لارُوقان ومدرسته، عددًا من البذور أغلّت، بعد رحيله، حصادًا جدّ وفير.

"وحاصل الكلام هو أنه قد يكون من الصعب، إلى حدّ ما، الاعتقاد أن السيف العربي، لولا اليهود الذين بلغ بهم الصلف حدّ الإيمان بأنهم شعب مختار ولولا الكنيسة التي عجزت، هي بدورها، عن الوفاء بالالتزامات التي قضى بها شهيد الجلجلة كان يكفي وحده لتحقيق المعجزة الإسلامية في القرن السابع.

"إنه توجد، في تاريخنا المغربي، حلقة مفقودة. لقد حطّ ابن خَلدون، وهو كاهننا، فوق ذرى الأطلس من دون أن يفكّر البتّة في أن يبني فيه عُشّا له. وهذا مَثّلَ، بالنسبة إلينا، خيبة كبيرة. لقد اكتفى بأن ضرب الهواء بجناحيه ضربات قويّة قبل أن يهاجر إلى الشرق فتنتهي شعلته المضيئة المعذّبة بالانطفاء على قدمي تيمورلنك. وبعد ذاك كانت الفوضى أو ما هو قريب منها. أما جهود المرينيين والسعديين

الجديرة بالتقدير فلم يتح لها أن تصمد بعد تشتّت هاتين السلالتين اللتين خلدت، مع ذلك البناءات التاريخية التي تجمّل جزءا كبيرا من أرضنا، آثارهما.

"إن علينا، حتى يكون عملنا مثمرًا، أن نبدأ من حيث يجب الابتداء، أي بالتعليم، بالمدرسة. هل تسمعون؟ بالمدرسة. وهذا هو المأخذ على سلاطيننا في عصر الانحطاط. إن لمولاي إسماعيل عذر الزمن. فالقرن الثامن عشر هو الفترة الأكثر اضطرابا في العالم الإسلامي القديم. إنه عصرنا الوسيط أو، إن شئتم، العام الألف الذي شهد الإسلام يترنّح في قاعدته ترنّح جبّار هَرِمَ قبل الأوان.

"لقد أصبحت قرطبة منذ زمان مسيحيّة ولم يعد الإسلام، في إسبانيا، غير ذكرى لا تكاد تطفو على الجهالة التي نشرتها جيوش متعصّبة ماكرة. وأغرقت بغداد ضربات التتار. ولم يكن وضع القسطنطينية والقاهرة أفضل من وضع فاس أو الجزائر. لم يكن، إذن، في وسع خليفة مولاي رشيد أن يسرع أكثر مما كان ممكنًا. أما في ما يتعلّق بمولاي الحسن فالأمر مختلف. كان هذا الأمير يحكم بلدا يفصله عن أوروبا مضيق لا يتجاوز عرضه عددًا من الكيلومترات. ولقد استغرق حكمه العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي. أودّ أن أقول إنه استغرق فترة حاسمة كان يمكنها، لو حسنت الاستفادة منها، أن تعين على تطوّر أفريقيا الشمالية جميعها. لقد اعتلى مولاي الحسن سدّة العرش، وهو الذي عاصر عبد الحميد وجمال الدين بعد زمن غير قصير من إصدار الخلافة العثمانية قوانين التنظيمات التي فتحت أبواب التقدّم في الشرق وزمن سنّ خير الدين، في تونس، دستورا بقي عند مواطنينا في الشرق السلاح المطلبي المتميّز. ولو استوحى السلطان هاتين السابقتين، لكان في إمكانه، إن لم يجدّد مراكش، أن ينشئ فيها، على الأقل، مدارس ما من شك أنه كان يمكن لشبيبة البلاد على الأقل، أن تعثر فيها على وسيلة تسمح بتنمية ملكاتها. ولكن مولاي الحسن، ومهما كانت نواياه الحسنة ووطنيته التي لا مطعن عليها، لم يكن بقادر على استيعاب هذه

البداهة البسيطة التي تعادل بيضة كولومب.

نعم، لنستعمل هذا المثل. لقد كان، بالتأكيد، صادق العزم على إفادة بلده ولكن ما كان ينقصه هو هذه القدرة على التمييز التي تسمّى، أحيانا، العبقرية.

"كذلك لم يتمكن عدد من مستشاريه الذين كانوا يعادلونه حسن نيّة من تكوين فكرة عن الإنهاض الذي تقتضيه قوانين القرن. لقد كان محمد بن العربي الطّريسْ[100] وفضّول قرنيط وبن يعيش وبا أحمد خَدَمَةً أوفياء نزهاء. ولكنهم لم يكونوا أكثر من ذلك. وقد وقع إرسال عدد من البعثات إلى أوروبا وقع التخلّي عنها فيما بعد. ومن ناحية أخرى، كان على مدّة الملك أن تُسْتَنَفَدَ في حملات لا نهاية لها كان الملك يقودها قمعا لحركات عصيان لا تعدّ كانت تهزّ مراكش وتذهب بما تبقّى من قوى الإمبراطورية. وهكذا فإن الشبيبة المراكشية كانت، عند موت مولاي الحسن، ما تزال في طور اجترار القرآن المحفوظ في اللوحة، في زاوية مظلمة يلفّها الدخان من زوايا مْسِيدَات فقيرة...

استحضر فكر إدريس، على الفور، تأثّرا بهذا الاسترجاع، سي عبد السلام في حين أحسّت قدماه، نتيجة ارتكاس عفوي، لكنه جدّ طبيعي، بتنمّل خيالي اختلط بذكرى الرحيمة البعيدة.

"...في الوقت الذي كان فيه الغرب يلد أمثال باستور وإديسون وتولستوي ورودين، إي نعم، في الوقت الذي كانت مفاهيم الصحّة والعلم والأدب والفنّ تزهر في حضن الحرّيات المعيشة والرخاء المحيط. إننا هنا بحذاء أحداث، بحذاء أخطاء لا

---

[100] Torres وأصله الإسباني واصح من إسمه.

بدّ لها من ثمن، وها نحن ندفع ثمنها."

— إننا ندفع ثمنها مرّتين، صاح السلاوي. إننا ندفعها بفقدان الحرّيات التي تتحدّث عنها والتي لا نقدّر قيمتها إلا بمقدار الوضع الذي أجبرنا عليه ومع الشعور المرّ بضعفنا. وندفعها، ثانية، باحتمال هذا الجمع من البغاوات القديمة التي تُعَقْعِقُ على سِلَع مناة: هذا هو ما نعارض به باستور وإيديسون وتولستوي ورودين!"

"ولكن، لا بأس، ردّ الفقيه الفحصي، لنفعل. لنتعلّم، ومن دون عون، إن اقتضى الأمر. ولنشرب حتى من هذا الخُيَيْط المائي المتاح لشفاهنا. لنواجه، بتصميم، المستقبل. لنعوّض الكمّ بالكيف ولسوف نسدّ الفجوة إن عاجلا أو آجلا"

كانت هذه الدروس أنفذ من عرض علمي حول فصل من فصول التاريخ المعاصر. فمن ميزاتها أنها تنبض حياة وتُلْقَى بحسب ما يقتضيه المنهج المباشر. كانت تثير الاهتمام وتروق للسامعين وتدرّب العزائم الشابة على مشاكل المستقبل. ولقد تواصلت على هذا النحو، متنوّعة آنيّةً دائما مُقْنِعَة في غالب الأحيان.

وفي يوم آخر كان سي عبد الرحمان بن الفاضل الونّوغي هو الذي ألقى على الحاضرين ما يشبه محاضرة حول تاريخ الاستعمار الفرنسي بعد 1789. ألقيت المحاضرة في منزهٍ يملكه واحد من الطلبة، يقع على مقربة من دار دبيباغ مساء يوم معتدل الحرارة من أيام ماي، وسط حديقة تتخلّلُها أجُمُ قرنفل وخُبّيزةٍ.

كانت نشوة العبير والألوان تمتزج برأفة شمس تنقل، بأشعتها، نسمات البوإبْلان المختلجة الأخيرة. وكان القوم جالسين على الطريقة المغربية، على الأرض، على بسط من الرباط، حول الطبق النحاسي الذي لا مفرّ منه. ولكن المجلس لم يكن موضوعه

هذه الحالة من الكآبة التي كان مؤلّفون هزيلون يغدقون ملامحها، بغباوة، على شرق اختير موضوعا لرواية رديئة.

لقد كانت الأذهان جادّة وكان كلّ طالب قد أتى إلى هنا. وقد تحرّر من الوهم الذي يزوّد به في أماكن أخرى، بحثا عمّا هو أكثر احتياجا إليه. إن التعليم، على حدّ تعبير كَرْنْيَاد يؤخذ من المكان الذي يعثر فيه المرء عليه.

كان سي تاشفين هو الذي يرأس الجلسة. وكانت الفرنسية هي لغة المحاضرة وذلك لغرض واحد، وجدّ موضوعي، هو تعويد الطلبة على التعبير بهذه اللغة التي لا أحد ينكر حسنها ولا وضوحها.

كان إدريس يتكلّمها قبل الآن بما يقرب من الإتقان وكان يقرأها مكتوبة، من دون أخطاء. ولكن النطق بها كان، لفقدان الممارسة المتواصلة، يشكو من نبرة تشي بآثار من القشتاليّة حافظ عليها منذ دروس الأب توركواتو الطيّب الأولى. كان سي الونوّغي يتكلّم في هذا اليوم. لقد شرب، هو، من نبع كْلِيّو[101]. وكان يتقن، تماما، لغة الأب فيكتور ولا تفوقه صغيرة في التاريخ المعاصر. لقد أمضى وقته، وهو الذي عاش مدّة طويلة بما فيه الكفاية في فرنسا وسافر عبر أوروبا متطلّعا إلى كل ما يمتّ بصلة إلى المكتبات والمتاحف والمخابر وقاعات التحرير والنشاط الاقتصادي ومشاكل الحياة الاجتماعية، في التعلّم ومقابلة الآراء التي كوّنها عنها، بعضها ببعض. وقد استنبط من مجموع هذه الآراء نواة أفكار وسيطة أصبحت بعد أن رسخت نهائيا في ذهنه، تقوم مقام المعيار المحدّد لطريقته في التصدّي للأمور.

[101] موحية الشعر الملحمي والتاريخ وحاميتهما.

كلن موضوع البحث على قدر من الأهمّية. هو لم يكن بحثا في أصول التوسّع بقدر ما كان بحثا في التناقض بين الوسائل المستعملة لتطوير نتائج استعمار لا حدود له وإعلانات الترفع عن الاستغلال والإنسانويّة، التي يقع إبرازها باستمرار والتي يصرّ سي الونّوغي على التشديد عليها وعلى إفحام المُتَلبِّسين بها. ولكن العرض كان يتضمن، من أوّله إلى آخره، ملخّص أحداث كثيف يعبّر جيّدا عن قرن المِحَن هذا الذي شهد بلدان المغرب تزول، الواحد تلو الآخر بمقتضى قانون الأواني المُسْتَطْرِقَة الذي يشاء أن تكون أفريقيا الشمالية إما حرّة تماما وإما مستعبدة تماما:

"يمكن اعتبار الثورة الفرنسية في عدد من الوجوه، بدأ سي عبد الرحمان الونّوغي كلامه، نظيرة الثورتين الإنجليزية والأمريكية اللتين سبقتاها. لقد كانت ديموقراطية في فرنسا ولكنها مدّت الحركة الإمبراطورية والاستعمارية بطاقة غير معهودة إلى ذلك الوقت. لقد أصبح هذا طابعها ابتداء من 1792. فلقد دمّرت حروب متظلّلة بالشعار الذي تضمنه الدستور الجمهوري، أوروبا. وشنّت حروب في آسيا وأفريقيا تأذى منها استقلال الشعوب والسلام العالمي. إن الإيديولوجية التي دفعت إلى الثورة بتأثير من النظريات التي دافع عنها كانط وروسو والموسوعيون والفيزيوقراطيون تلاشت تماما على عتبة المستعمرات.

"وإذا كان هذا الضرر محدودا في أوروبا التي تمكّنت فيها ردّة فعل الشعوب على الهجمة النابليونية حاملة لواء النظريات المثبتة في روح القوانين والعقد الاجتماعي، مع ذلك، من الغلبة باستعادة توازن الحقوق الذي تعرّض، فترة، للخطر، فإن الأمر كان مغايرا في الشرق.

"لقد تبنّى اليعقوبيون منذ سنة 1792 سياسة الهيمنة التي ثبّتتها، أثناء حكم الطاغية معاهدات وستفاليا والتي اقترنت جهود تحقيقها باسم ريشوليو. بدا ذلك

صريحا في الهيئة التشريعية التي كانت فيها الغلبة لِذِمَامَةٍ جديدة تبيح كل شيء باسم مبدأ أعلى يقع اختزاله، دوما، في مبدأ الإنقاذ الوطني. إنّ فالمي التي اعتقد غوته انه اكتشف فيها شيئا ما جديدا كانت، على العكس من ذلك، تدلّ على أنها الهجمة الأولى التي ستقود عقبان مقبل الأيام إلى الأهرام وإلى يينا. أما في ما يخصّ حكومة المديرين فقد أقامت أسس حرب توسّعية ذات سمة استعمارية واضحة وكان برّا يعلن منذ ذلك الوقت، عن سياسة عدوانية، إذا كانت، ربما، معادية لانجلترا فهي، قطعا، من أجل فرنسا أكبر، في القارة وفي ما وراء البحر شبيهة بهذه السياسة التي سيطلق عليها غليوم الثاني اسم السياسة العالمية[102] والتي كانت عاقبتها كارثة 1914.

"إن رأسمالية كبار أصحاب السفن الفرنسيين المركنتيليين في القرنين السابع عشر والثامن عشر اقتصرت على امتلاك وكالات تجارية واجتذاب عدد من السلع الكمالية التي حتّمت على ريشوليو وكولبير أن يعمدا إلى محاولات توسّع أوّليّ. ولقد بدّدت خيبات القرن الثامن عشر الاستعمارية هذه الأوهام الخادعة. ولكن رجالا ترميدور اعتقدوا أن في إمكانهم أن يصلوا إلى نتائج أفضل وذلك بإرسال بونابارت لينجح حيث فشل ديبليكس وقراصنته. وبهذه الطريقة تتكرّر المشاريع الاستعمارية التي فشلت زمن الحروب الصليبية بفشل مغامرات القديس لويس على أسوار دمياط وتونس، متوسّعة زمن العلم الذي تكرّس على درجات الباستيل.

"إنني لن ألحّ على هذا الفصل بعد أن استمعتم إلى دروس سي تاشفين. فأنتم قد حصلتم على قدر من المعرفة في ما يتصل بفتح مصر ثم جلاء الجيوش الفرنسية عنها...

---

[102] Weltpolitik

— جيوش القديس لويس؟ سأل تلميذ يبدو أن الأمور اختلطت عليه.

"...لا، أجاب سي عبد الرحمان وعلى وجهه ابتسامة خفيفة، إنها جيوش جمهورية السيدين مونج وبرتولي. ولكن ما أميل هنا إلى إبرازه، قبل كل شيء، هو التحمس الذي أبدته هذه الجمهورية الأولى اسميا، في تأثر خطى الملكيّة في ما يتصل بمجموع سياستها الخارجية. وهذا على الرغم من طنّانيّة الكلام التي استخدمته في محاربة الحكم الملكي المطلق والامتيازات الطبقية في فرنسا. وعليكم ألا تنسوا أن نابوليون هو الذي أعاد العمل بنظام الرَقّ في المستعمرات وأن جول فيري لم يتردّد، بعيد كوارث 1870، في دفع القَادِسِ الجمهوري نحو أفريقيا الشمالية وبحار الصين.

"إن مؤتمر فيينا، ومهما كان رجعيا في ما تمخّض عن النقاش من نتائج، أقرّ، هو أيضا، المسألة الشرقية في جدول أعماله. وعلى هذا النحو، تشكّل الشرق في عيون ميترنيخ وتلامذته على هيئة أراضٍ للاستعمار بمقتضى مبادئ نفعية صرفة. لكن القوم اعتقدوا أن من الضروري إلباسها بَرْلِينَةَ صليبيّ مثلما ظهر ذلك في نافارين وميسولونغي والجزائر. لقد كانت الملكيات المنتصرة على نابوليون المتَّفِقَة في ما بينها عندما يتعلّق الأمر بقمع الحرّيات في أوروبا، تتفاهم تماما، بموجب ميثاق التحالف المقدّس، على كلّ ما يمكن أن يَكِيدَ بلاد الإسلام أو يضعفها.

"لقد كانت هذه، عندها، سياسة ثابتة، ودليلا على الاتجاهات الجديدة التي تعبّر عنها تعليمات دواوين قنصلياتها. أما في ما يتعلّق بملوك الاستِعْرَاش[103] فلقد حذوا، هم أيضا، حذو المجلس التشريعي والإمبراطورية مثلما حذا بريسو وبونابارت حذو

[103] La Restauration

ريشوليو والملك- الشمس.

"لقد أمر شارل العاشر باحتلال الجزائر متذرّعا بوجوب عقاب الداي حسين. وقد يكون، مع ذلك، من الطريف أن يعرف المرء إذا كان خدّا القنصل دي فال قد تعرّضا، حقّا، لضربة المِذَبّة الشهيرة هذه التي ورّثتها الأسطورةُ، منذ ذلك العهد، التاريخَ. غير انه ما أن احتلّ بورمون[104] مدينة الزيريين حتى نسي القوم قضية المروحة لتنحصر ذريعتهم في القضاء على القرصنة وإلغاء العبودية وكأن روح فولتير ما زالت تؤرق شوارع باريس. ثم رفع القناع، بفظاظة، وأعلن الملك لمن ما يزال يشكّ في ذلك، أن الفرنسيين نزلوا في أفريقيا باسم الصليب..."

رَفع سي عبد الرحمان ساقيه وشبّك يديه حولهما وتابع مونولوقه:

"بعد ثلاثة أشهر من إنزال سيدي فرج اختفت الملكيّة وأعادت ملكيّة جويلية العلم الثلاثي الألوان الذي دفن في واترلو وذلك بأن نصّبت على العرش الشاعر ابن بوربوني سبق له أن حارب في فالمي وفي جيمابس في صفوف الجمهوريين. وهذا لم يقِ رأسه من أن تتدحرج في سلّة المواطن شمشون. ولقد تسلّم لوي فيليب السلطة باسم الدستور وبترحيب من البرجوازية الباريسية وكتيبة من الرومنسيين كانت تطالب بنقل بقايا روسو إلى البانتيون وبقايا شهيد سانت هيلينة إلى الأنْفَليد وانتهى الأمر بتلبية رغبتها.

---

[104] Louis de Bourment (ت 1846) حملته على الجزائر مرادفة، عند المغاربة، لحملة نابوليون بونابارت على مصر والشام. والغريب أن البرامج الجامعية المغربية لم تركز على هذه الحملة تركيزها على حملة نابليون على مصر والشام.

"هل كان ذلك يعني فاتحة عهد جديد؟ لقد هبّت، حقّا، نسمة أمل فوق سهوب بولونيا المضَرّجة دمًا وتنوّرت جمعيات المافيا في غاباتها. وانتصرت الليبرالية في واحد من بلدان أوروبا. ولكن الجزائر، وأنا أسألكم، ماذا غنمت الجزائر من تقلّب الرأي هذا في الزمن الذي عاد فيه قصر التويلوري في علاقته بمصر، إلى سلوك السياسة التي تحدّدت ملامحها بعيد الأهرام؟ وماذا كان حظ المغرب منها؟ لقد كان مواصلة غزو الجزائر المقترن بعمليات إبادة: أوامر الإعدام التي أصدرها سافاري، دوق روفيقو، في المتّيجة ومحرقات الظهرة والهجوم على السمالة والحنث باليمين المتمثّل في نقض اتفاقيات ديميشيل والتّفنة.

"انه لا شيء البتة، في نهاية الأمر، أعطاه تغيّر النظام هذا المغربَ الذي فقد منذ هذه الفترة جزءا منه ولا المشرق بل إن الأصوات الليبرالية والرومناسية المدوّية تغاضت عنهما. فشاتوبريان، على الرغم من وَلَعِهِ بهذه العبقرية المسيحية التي لا تلائم كثيرا روح روني، كان يحرّض على الغزو وافتقرت قيثارته افتقارا كاملا إلى وتر قادر على التغنّي بمآثر الجزائري وهو يحارب دفاعا عن دينه ووطنه. إن هذا المفتون بآخر بَنِي سراج، والفنّان ذا الحسّ الرهيف الذي كان يقف وقفة ذهول تحت قباب الحمراء وإيراق حدائقها، لم يعد وقد استنّ ووهن منه العظم غير مُحْتَضَرٍ باحث عن تبريك بابوي. ولذلك فإن هذا الذي استهجن مذابح يافا في مذكرات ما وراء القبر لم يتمكن عندما دَخَنَ بِلَيسي بموافقة بوجو التّامة – ورضا الملك – المواطن الأكيدة، أولاد رياح في كهوف الورشنيس، من العثور على كلمة رثاء أو لم يشأ أن يرثي الضحايا الأبرياء الذين نكل بهم الجُنْدِوَيون الفرنسيون.

"كذلك كان، من ناحية أخرى، شأن لامارتين وشأن هوغو. فلا أحد تجرّأ على إبداء انشغاله بالمغرب المجتاح أو بالإسلام المهاجم. إنها سياسة الأذن الطرشاء. هذا إن لم يجرّد في وجهه سيف الحروب القديمة مثلما كان شأن بيرون في اليونان. فلا

وجود في القيثارة، البتّة، لأوتار ترثي أتباع الهلال...

انتفضت الجلابات لسماع اسم هوغو. فلقد اشتهر الشاعر المنشد، على الأقل مثلما يظهر في الأولمب الأدبي، بأنه روح سويّة سليمة النيّة ذلك أن لسَحَرَة الكلمة صيتا شالاً يحيطهم، بعد موتهم، بهالة شبيهة بالتاج العُذْري القادر على الحدّ من أقوى المآخذ.

وعندما شرع سي عبد الرحمان، بعد أن ندّد بصمت عاشق أتالا المبين، في إفراغ ما في جعبته عارضا أسماء الشعراء الكبار تمدّدت وجوه المستمعين الفتيان في شيء من التلهّف. لقد كان عدد منهم يحفظ، غيبا، مقطوعات كاملة من التأملات ومن أغاني الشفق. وكان آخرون قد عثروا، وهم يقرؤون رافاييل، في الغنائية، على هذه الموسيقى الباطنية التي تؤثر في القلوب جميعها وتتصل بكل الانفعالات الإنسانية. لقد شربوا، هم بدورهم، من هذه الكأس ولم يكونوا أواخر من أثْمَلَهُمْ هذا الشراب.

لقد حاز إدريس الذي كانت نفسه الرقيقة الحالمة تبدو أنها تضخّمت بِبَلاَسِم تيزران، على الدوام، نسخة من رافائيل ضمن المكتبة الصغيرة المرتّبة في خزانته. ومن ناحية أخرى، فقد كان رافائيل وصالامبو وجرمينال وأزيادي كتبه الأولى المفضّلة. لقد حاول ابن الحاج علاّل من خلال لامارتين وفلوبير وزولا ولوتي، بالذات، وعبثا، أن ينفذ إلى هذه الروح الفرنسيّة التي حبكت على هيئة مفرطة إفراطا غريبا في التناقض والمفارقة. ولكنه لم يتمكّن البتّة من فهمها. فهو غالبا، عندما يقارن بين ما يقول الفرنسيون وما يعملون وبين المبدإ الذي يعلنون وما يمارسون وعندما يقارن بين كمال قوانينهم وروح الابتذال والصَّغَار التي تتّسم بها إدارتهم ومحاكمهم في علاقتهما بالشمال أفريقيين وعندما يحاول دراسة الإعلان عن حقوق الإنسان وقانون الأهالي ويسعى الى إقامة مقايسة، وفي أضيق الحدود، بين مفاهيم الرموز المرسومة على

الشعار الجمهوري وسياسة التمتّع الضارّة مثلما يشاهد في مراكش وعندما يضيع، غالبا، وقته في مثل المضاربة، فإنه يتأكد من عجزه عن النفاذ إلى ارتكاسات روح بلغت من العبث ما بلغته هذه الخرافات المدهشة التي حَبكَهَا كبار سَحَرَةِ اللفظ الذين انتهى أمره إلى أن يمحّضهم ثقة معيّنة.

ومع ذلك فإن إدريس لم يتمكّن، وهو يرى المحاضر يتأهّب لإلقاء أسماء كان يعتبرها مقدّسة في الحُرّاق، من أن يكبح حركة غضبيّة خفيفة. غير أن هذا لم يزعج سي عبد الرحمان الذي تابع كلامه في غير شفقة:

"نعم، إن لامارتين وهوغو لم يتميّزا، في ما يخصّنا، عن شاتوبريان. ولقد تأثر آخرون خطاهم في برج الأفكار المسبقة هذا. لقد كانت فرنسا، سنة 1833 تفكّر، جدّيا، بعد أن أذعرتها مغامرتها الجزائرية، في الجلاء. لقد تسلّم عبد القادر زمام المقاومة بعد هروب الداي وتقصير حكومة إستانبول، التي يعود إليها أمر الجزائر وبلاد الإسلام الأخرى..."

— حتى تونس ومراكش، سأل ببعض الحيرة طالب في المعهد جدّ شاب ذو خدّين هَزيلَيْن مَنْزُوفَيْن.

"...نعم، أجاب سي عبد الرحمان بعد ثوان من التفكير، حتى تونس ومراكش. في مراكش أدّى تأثير الوزيرين بن إدريس والقاضي التّسُولي، بعد خمس عشرة سنة من الغزو، إلى أن نفكّر في تغيير موقف الصمت الذي وقفنا وأن نسرع في الانتصار للجزائريين. على أن هذا القرار الذي لم يصدر عن حماسة لم ينفّذ كذلك على الوجه المطلوب. كانت تعوزنا الرؤوس المفكّرة. ولذلك آلت مساعدتنا إلى خيبة مؤلمة على ضفّتي إيسْلي. وعلى كل فقد بذلنا شيئًا ما. أما في تونس التي كانت في وضع

يسمح لها أكثر من مراكش بوعي أبعاد هذا الغزو فقد اعتقد الساسة أن أفضل موقف هو سلوك سياسة الحياد. ولم تزد القضية التي ترهن وجود المغرب جميعه على إبراز تنافس الحكام المختلفين الذين كانوا يحكمون أفريقيا الشمالية على طريقة أمراء النهضة الإيطالية.

"إنه لم يكن لمصطفى خزندارلا مشاعر بن دريس ولا نظرته وذلك على الرغم من أنه اشتهر بأنه كان سياسيّا حاذقا وكان على تأثير في تونس يفوق بكثير تأثير بن دريس. أما خير الدين فكان دوره، آنذاك، ينحصر في معارضة يمكن أن يكلّفه أقلّ حيد عنها حياته. وهكذا فإن تونس انتظرت في وجل، مثل عصفور خلبته أنظار الصِلّ، أن يبتلعها، هي بدورها، الزاحف الشره الذي الذي كان يجوب جبال المغرب ووديانه.

"والآن، فلنعد إلى موضوعنا. عندما بدأ التفكير في فرنسا سنة 1833، نتيجة ضغط الرأي العام المتخوّف في إمكان الجلاء عن الجزائر، ظهرت حركة مضادة في وسط الجيش وطبقة معيّنة من السكان. ولقد قاوم لامارتين بضراوة، وهو يتصدّى لرأي الاقتصاديين الذين كان يتصدّرهم مشاهير أمثال سيسموندي وهيبوليت باسي وأغلبية نواب الجنوب الفرنسي بقيادة ديجوبار (هل كان القوم منذ هذه الفترة يستشعرون منافسة أتلال متّيجة الكَرْمِية نبيذ اللانقدوك؟) مبدأ الجلاء وكان الناس يرون شاعر إلفير ينطلق لاقتحام الطواحين الهوائية. فماذا تريدون؟ إن للغنائية، غالبا، زلاّت على هذا القدر من الهزال!"

"ثم إن لامارتين لم يخف البتّة ميوله اليعقوبية. وهو، عندما يطالب بمواصلة غزو الجزائر ويحرّض على المغربي، لم يأت أكثر من الحذو حذو المجلس التشريعي. وشأن هوقو هو شأن لامارتين. إنه، يا أصدقائي، من الصعب علينا، بوصفنا مغاربة، أن نفهم الفرنسي. ولقد بذلنا كل ما في وسعنا من أجل النفاذ إلى حقيقة ذلك اللغز

فنصل، بذلك، إلى تفاهم حريّ بأن يرضي الطرفين. فعلنا ذلك في مراكش وكذلك في الجزائر وفي تونس. ولكننا لم نتوصّل البتّة إلى التغلّب على الأحكام المتحيّزة أو دفع الأحكام المسبقة. لم نتوصّل البتّة إلى فهم ما الذي تريد فرنسا أن تفعل بأفريقيا الشمالية أو، بالأحرى، أن نفهم ذلك حقّ الفهم. ومع ذلك فلقد كان يجب أن يذّكر ثلاثة وعشرون مليونا من المغاربة من يودّ أن يفهم أن عصر الميثاق الاستعماري قد ولّى، من الآن فصاعدًا، وأن القرن العشرين يقتضي أخلاقا أخرى ووسائل أخرى وحلاّ يُمَاشي قوانينَ التقدّم الاجتماعي. ولكن الواقع، لسوء الحظ، مازال على حاله لم يتغيّر.

"إننا مازلنا دائما خاضعين لنظام يتسم بالقدم والغموض والانتقالية. والكلّ يقوم على وسائل الإكراه. وذلك في الوقت الذي يكرّر فيه القوم على أسماعنا في ما يشبه الدرس الذي أُجيد حفظه، أغاني لا نهاية لها حول مثل مزعومة لم تكن البتّة بالنسبة إلينا غير أساطير من دون مضمون. إنه حكم المتناقض والملتبس. ومن الصعب علينا، مثلما حدث لمن حضروا حفلة الفانوس السحري التي أقامها قرد الحكاية، أن نعرف أين نُقَاد عبر شاشة تفتقر بالذات إلى الشفافيّة. حتى إذا ما خطر للواحد منّا أن يحتجّ، بدافع من سلامة النيّة، على تعسّف نظام مثل هذا، استشاط الفرنسي، عندئذ، غضبا لا حدود له. والمصيبة هي أنه صادق في سخطه هذا. وعقلية الأب هوغو إنما تصدر، تماما، عن هذا الوضع النفسي.

"إن هذا الشاعر الذي مجّده القرن التاسع عشر وكافأته الجمهورية بأن منحته أوسمة البانتيون السامية، امتنع عن البحث في ما إذا كان وطنه قد عرّض المغرب للامتحان. وبذلك زكّى تماما القول الإنجليزي المأثور: أن يخطئ وطني أو يصيب، فهو يبقى وطني[105]. لأن شعره المتوهّج عندما كان الأمر يتعلّق بالدفاع عن القوميات

---

[105] Wrong or right, it is my country

المضطهدة في أوروبا تجاهل، عن رأي قَبْلِيّ، الجزائريين ولم يحرّك فيه قصف طنجة وموغادور غير المبرّر ساكنا. وفيما بعد سيأبى، وقد أصبح عميد الآداب في نهاية حياة رصدها لخدمة الفنّ، وفي إصرار غريب أن يفكّر أيضا، في استهجان فعلة فرنسا في تونس."

شرع السلاوي الذي كان قد استند إلى مِخَدّة وألقى برأسه تستريح على يده اليمنى في تقطيع عدد من أبيات أوراق الخريف وهو حالم منتبه في الآن نفسه، على غرار من يدندن أغنية:

لكم ألاقي عند رأي الجور من عَنَتٍ!
حتى اذا بلغ المسامع من قريب أو بعيد
في سماء من رصاص، في مداس أملاك عتاة
صوت شعب مسترق، يستغيث ويصيح...

ثم إنه واصل، بعد توقف، وكما لو كان يبحث عن التعويض عن نسيان انتابه:

أوه، ربة الشعر، كم لشعب خالى الناب عليك من ديون!
فوداعا أيها الحب أيها البيت والصبا
ولذيذ النغم وأوقات الفراغ
إذ من الحق لشعري سبك وتر من حديد

"كلمات! كلمات! كلمات لا تنتهي، قال سي الونوغي، تردّدها أصداء ماكرة في أنحاء العالم الأربعة. لقد كان في إمكانه، وهو مبعد في قرنسي يُصْلِي ابن أخ معبوده نارًا، أن يستنكر، أيضا، ما كان يأتيه جنرالات الثاني من ديسمبر في أفريقيا الشمالية. إنّ

ما أُريق من دم إخواننا في بلاد القبائل لا يقلّ، في شيء، قيمة عن دم بودان[106]. ولكن العقاب أخرس إذا ما تعلّق الأمر بهذا الموضوع.

"لقد مرّت سنة 1848 على المغرب مرور عصفور العاصفة. فمجال الرحمة الإنسانية يمتدّ، فقط من البيريني إلى البلقان. لقد كان الإسلام تقريبا في وضع الخارج عن القانون. والمغرب لم ينل شيئا من المعانقة العالمية التي شهدت سقوط مترنيخ ونهاية التحالف المقدّس. وكل ما يمكن للمرء أن يلاحظه هو معاملة الجمهورية الثانية عبد القادر. فلقد آل أمره بعد أن أحتجز في طولون، على الرغم من عهد دوق أومال ابن الملك نفسه، إلى أن ينفى بعد ذلك إلى بو ثم أمبواز التي مكث فيها خمس سنوات قبل أن يطلق نابوليون الثالث سراحه: ولقد كان يمكن أن يطول هذا الاعتقال لو تمكّنت جمهورية السيد لوردو-رولين من الانتصار الى نهاية حياة هذا الذي نزّله التاريخ منزلة أمثال كاناري وكوسوث وأوكونر وغاريبالدي.

"لقد سعى نابوليون الثالث وهو يَتَسَنَّمُ العرش أن يحقّق في الجزائر عبر مزج بين المثل الرومنسي والواقع السياسي، شيئا ما يكون ثابتا ودقيقا. وقد فكّر، لحظة، في أن يجتذب إليه الإسلام عبر بادرة صداقة مبنيّة على أوضاع ملموسة تجافي كلّ لبس. إنه ما من شكّ في أن مشاغل براغماتية، قبل كلّ شيء، كانت تحكم هذا الهمّ. فابن الملكة هورتنس وريث التقليد البونابرتي الساعي إلى إذكاء شعلته كان ينوى استعادة مخططات العمّ التي غرقت في هزيمة أبوقير بأشكال ملطّفة ولكن بأهداف تكاد أن تكون مماثلة. ونتيجة لذلك أصبح استعمال الإسلام، هذا الورقة الرابحة، أفضل وسائل النجاح. على أننا، إذا استثنينا هذه الحسابات النفعيّة، نسيء إلى

[106] طبيب ورجل سياسة ونائب الشعب في مجلس 1849. قتل في باريس سنة 1851 في المتاريس التي أقيمت تصديا لانقلاب نابليون الثالث على الجمهورية.

التاريخ إن نحن حرمنا "المستبدّ" من التحيّة الواجبة لذكراه نظرا إلى أنه كان الوحيد القادر على أن يبدي، بصدق، حسن نيّة حول هذه المبارزة القديمة بين المغرب وفرنسا. ولقد أراد، مثلما قال في رسالة شهيرة، أن يكون "إمبراطور العرب تمامًا مثل ما هو إمبراطور الفرنسيين" والقرارات المشيخيّة التي حمّلها هيئته التشريعية تثبت، في النهاية، شيئا من هذا.

"إنه ليس علينا أن نعلّق، هنا، على أسباب هذه الرغبات الليبرالية النفسية. فلنترك جانبا كل دعوى على النية. إننا لن نسجّل غير النية التي تصدر، أكيدا، عن ذهن ذي موهبة فائقة. ومع ذلك فإن الإمبراطور، على ما كان عليه من استبداد في عيون رجال 48 و70، لم ينجح في استمالة الإسلام الشمال أفريقي وفي تحديد سياسة فرنسا في حوض المتوسط الجنوبي تحديدا نهائيا. ذلك أن نظاما هو نظام الاستعمار ملثما عرّفه بوجو بإيجاز وبقي، منذئذ مبدأ عمل فرنسا الأساسي في أفريقيا، عارض رغبة نابليون الثالث التوفيقية وأفشل، حتما، خططه. وقد ساهم جيش أفريقيا وجماعة المستوطنين بمقدار في هذا الفشل. جماعة المستوطنين خاصة. لقد بقيت قرارات 1863 و1865 المشيخيّة حبرا على ورق وذلك على الرغم من أنها لا تطابق البتة، على ما فيها من مسحة ليبرالية، ما كان من حق أفريقيا الشمالية أن تطالب به إذ لا يمكن لأية تجربة إدماج أن تغريها. وهكذا تنتظم الإمبراطورية، هي أيضا، في خط هذه السياسة السلبية التي يعسر فهمها والتي بدت من 1830 إلى أيامنا هذه كأنها تلتذّ بمجانبة كل واقعية وكل ثبات في الرأي وكل استقامة.

"ولكن الأدهى كان زمن الجمهورية الثالثة..."

تناول سي عبد الرحمان عددا من جرعات الشاي وألقى بنظره في اتجاه بو إبلان وكأنه كان يريد أن يشهد أرواح الأطلس الحارسة ثم ساق خطابه:

"إننا زمن الجمهورية الثالثة سنتخبّط في غمرة المتهافت. إنه أسلوب الاستدراك. لقد هجرت الإمبراطورية في سبتمبر 1870 نهاية سيدان. وبعد ثمان وأربعين ساعة أعلن غامبيتا وأصدقاؤه الجمهورية وأمروا بشن حرب إبادة عملا باليعقوبية التي يعتبرون أنهم أخلص ورثتها. وبعد عدة أسابيع أقرّ غامبيتا، في ليون التي لجأت إليها الحكومة المؤقتة، مشروع قانون واحد من وزرائه هو اليهودي إسحق أدولف كريميو الذي يمنح الاسرائيليين الجزائريين، دفعة واحدة، حق المواطنية.

— "لقد أكد دريمون، قاطعة سي تشفين الذي كان يستقريء بمثابرة نموذجية كل ما كان ينشر في فرنسا مما يستحق القراءة، أن الجمهورية إنما هي هبة من عند يَهْوَه وأن في إمكان الشعب المختار، أيام الشدة، أن يعثر فيها على مَلجإ في كل مرة تظهر في الأفق العلامات المنذرة بطوفان صغير."

هزّت ضحكة المجلس.

— "وعلى أية حال، أجاب السلاوي، فإن أبناء يهوذا لن يعدموا وسيلة تضمن خلاصهم مثلما أثبتوا ذلك في سفينة نوح. إنهم ملاّحون جيّدون ولا أحد يستطيع أن ينفي عنهم الاتصاف بالمقدرة على الاحتماء في الوقت المناسب بجناح الربّان الأفضل."

"إننا لم نصل بعد إلى هذا، رد عليه سي الونوغي والشجرة لا يجب أن تخفي عنا الغابة. وعلاجنا ليس في مضادّة السامية قد تكون مثيرة للسخرية عندما تكون حرياتنا مشروطة بعوامل أخطر بكثير. إن المسالة اليهودية لم تطرح بعد في أفريقيا الشمالية. وإذا كان أتباع إسرائيل قد اختاروا طواعيّة أن يخرجوا عن المجموعة

القومية التي رحّبت بهم وآوتهم طوال قرون فإن ذلك شأنهم الخاص. والأمر الوحيد الذي نبالي به هو أن لا يعترضوا سبيلنا إذ ليس علينا أن نتحمّل نتائج هذه الإيديولوجيات أو تلك الخصومات التي لا تهمنا مباشرة. إن مرسوم كريميو ألحق الضرر بالمغرب. وهذه مسألة مفروغ منها، ولكن الأمر كان قبل كل شيء مناورة و"حيلة" تهدف إلى إحداث لبس مناسب وظاهر فوضى يسمح لفرنسا بحرية التصرف كِلّيةٍ تبعا لذلك وفي الوقت المطلوب. وسنرى كيف بتتبع أعمال جمهورية 4 سبتمبر.

"في الوقت الذي أدمجت فيه حكومة السيد غامبيتا من دون تمييز يهود الجزائر في المدينة الفرنسية اتّخذت في ما يتعلّق بالجزائريين مجموعة من الإجراءات الاستثنائية التي لا تليق بالقرن الذي نعيش فيه. وقد تمثّل ذلك في قانون الأهالي الذي لا يذكر إلا مقرونا بالاستفظاع. هو تشريع عبودي وافقت عليه جمعية ثورية كانت تعقد مشاوراتها تحت نظر التماثيل التي تشخّص فلاسفة القرن الثامن عشر الساخر وما تزال، في الآن نفسه، تظهر نفسها بمظهر ضحية ملك بروسيا..."

— "يا لها من جمعية هزيلة!" هتف السلاوي الغير قابل للتأديب.

"...لقد وقع استثناء المسلمين الجزائريين من نظام القانون العام وتسليمهم إلى هوى إدارة كانت تنوي، وقد تزوّدت في ما يخصهم، بقوانين تقديرية، أن تتصرف حسب هواها باسم حماية السيادة الفرنسية التي وقع التفنن في إحاطتها بما لا يدري المرء أي مخاطر تتهدّدها: إبعاد واعتقال وحجز أموال ومصادرتها. إن هذا لهو الأساس المثلث الذي قام عليه بناء الجور هذا. وهو الهبة التي منحتها الجمهورية الجزائر بمناسبة ولادتها السعيدة. أو بالأحرى وهبتها المغرب. ذلك أنه إذا كان رسميا في الجزائر يطابق تقريبا الصلاحيات التي مكنت منها الحكومة العامة في الإيالة القديمة، البلدَ

الملحق فإنها طبّقت، فيما بعد، فعلا، في تونس ومراكش وهما بلدان خاضعان لنظام الحماية ويتمتّعان بشخصية قانونية تحددها اتفاقات دولية."

— "وماذا فعل القوم بالقرارات المشيخيّة؟" سأل أحد الطلبة.

"لقد ثُبِّتت، واصل سي الونوغي. فالجمهورية لم تكن تؤرقها المبادئ ولا المنطق. وعلى هذا النحو أصبح الجزائريون الذين هم فرنسيون بموجب مراسيم 1863 و1865 الإمبراطورية خارجين عن القانون بموجب قانون الأهالي الذي صنَّفَهُمْ، بحرمانهم من ممارسة أبسط حقوقهم، ضمن عبودية تشبه عبودية الموالي القدماء في الإمبراطورية الرومانية. ومنذ ذلك الوقت وهم يدفعون غاليا ثمن هذا الوضع.

"فإذا تعلق الأمر بالمطالبة بالحريات السياسية يعارض الجزائريون في كل مرة بحالتهم القانونية. فإن طالبوا بتطبيق القرارات المشيخيّة التي تُقِرّ لهم بالمساواة في الحقوق يقع التذرّع بالصعوبات الناتجة عن حالتهم الشخصية التي تستثنيهم من مجال القانون المدني وتحرمهم، نتيجة لذلك، من إمكان الانضمام إلى جمعية تشريعية فرنسية إلا إذا حصلوا على تجنيس مسبق طبقا للأصول الواجبة. ومثل هذا الشرط يضيم انتسابهم إلى الإسلام إذ القرآن كتاب ديني وكتاب تشريع في الآن نفسه. وإذا ما طالبوا، رافضين التخلّي عن جنسيتهم، بإصلاحات ضمن إطار تقاليدهم الخاصة، يقع تَذْكِيرُهُمْ ودائما في الوقت المناسب، بأنهم فرنسيون وأن الإفصاح عن رغبات مماثلة إنما يدلّ على بادرة عمل مضاد لفرنسا يستهجنه الضمير ويعاقب عليه القانون ممّا يبرر عندئذ تطبيق قانون الأهالي آليا...

— "إبعاد واعتقال وحجز أموال ومصادرتها، أكمل السلاوي. إن هذا لهو التناقض يُنَزِّل منزلة القانون."

"بالضبط، أكّد سي عبد الرحمان. وعندما اجتاحت فرنسا سنة 1881 وسنة 1907 تونس ومراكش مستسلمة لجموح قدرها الأفريقي كانت مقطورات جيوش الغزو تحمل قانون الأهالي وعليه، اليوم، مثلما هو الشأن في الجزائر، تقوم الإدارتان التونسية والمراكشية. لقد كان الردّ على أمر كريميو وعلى الإعلان عن قانون الاستثناء هذا مباشرا. فلقد ثارت بلاد القبائل، معقل القومية الشمال إفريقية الموغل في القدم، من شرشل إلى أقبو تلبية لنداء الباشا آغا المقراني ورددت قمم جرجرة، من جديد، صيحة الحرب الشهيرة مثلما كان الأمر زمن فيرموس ويوغرطة وسال الدم ووجهت الفرق الفرنسية التي أفرج عنها بسمارك قبل قليل من المعتقلات الألمانية، فورا، إلى الجزائر حيث نجحت في تحقيق ثأر سهل عوضت به شُوَّيَةً ما لحقها من هزائم مذلّة ألحقت بها في ميتز وفي سيدان.

"لقد سقط المقراني في ميدان القتال مع عدد كبير من رفاقه في حين أبعد الشيخ الحدّاد وهو مقاتل شجاع يذكر بالملاحم المغربية القديمة، صحبة ابنيه الاثنين وعدد ضخم من الثوار إلى أقاصي الأرض حيث أتى عليهم النفي والمناخ.

"لقد افتتحت الجمهورية الثالثة بمثل هذا الطالع السعيد حكمها العادل الديمقراطي. ويبدو أن الأمر لم يتغير كثيرا من 1870 إلى أيامنا هذه. لقد خلفت أحزاب أحزابا وخلفت أغلبياتٌ أغلبياتٍ. وخلفت الديمقراطية الرجعية وحلت الراديكالية في محل الانتهازية والمثل الأعلى التقدّمي في محلّ المفهوم المحافظ ثم خاضت الاشتراكية، بدورها، المعركة بالركوح إلى أطروحاتها حول عولمة النظام الإنساني وتقدم 16 ماي على الكومونة حتى يفتح الطريق لقضية دريفوس وروايات زولا وانتهى الأمر بأن يحل كليمنصو في محل فيري. ولكن سياسة فرنسا الأفريقية، رغم كل هذا لم تتغيّر قيد أنملة، إذ يهيمن عليها مبدأ واحد هو استعمار البلد.

ويدعم هذا المبدأ مدار واحد هو قانون الأهالي حتى أنه ليصبح الاعتقاد، مثلما كان بيكون يؤكد، أن قشة اللفظ دائما ليست شيئا مقارنة بحبة النبتة.

"لقد أدرجت حركة الثأر والتوسع الاستعماري، فورا، في البرنامج الجمهوري. وكانت إحدى عينيه تستقرّ على خط الفوج الأزرق في حين كانت الأخرى على بلاد مدار الاستواء. لقد كانت ذكرى ريشليو وديبليكس المزدوجة ترِفُّ من الآن فصاعدا، على مكاتب الكي دورساي التي تسرّب من خلالها، ومنذئذ، شخص تيوفيل ديلكاسي الشيطاني. وكانت فرنسا المستعجلة دائما بعد سبع سنين من معاهدة فرانكفورت، تهيج في مؤتمر برلين وتصب جام غضبها على أختها اللاتينية في ما يتعلق بتونس فقبلت اقتراحات بسمارك على الفور ولم يتردد دبلوماسيوها جهارًا في معارضة المستشار الحديدي الذي قابل هذه الحماسة بقدر من الدهشة لا يقلّ عن شعوره بالسلوان. لقد وقعت التضحية بتونس ففقد المغرب من جديد عضوا من أعضائه. وفي اللحظة الأخيرة، ومثلما يحدث في الفصل الأخير من دراما رديئة، كان مصطفى بن إسماعيل هو بطل المشهد. لقد وجد على الدوام طائر من طيور الشؤم التي تظهر في هذه الساعة المحدّدة في حياة شعب لتُسبّب خاتمة محتومة أو تُعجّل بها.

"لقد استقطب جول فيري وغابرييل هانوتو وأوجين إيتيان كل الاهتمام وتوسع الاستعمار من دون عراقيل. وخَلْفَ قناع أدولف تيير كان روتشيلد هو الذي ينقذ فرنسا بنسبة ربا خليقة حقا بحسابات إسرائيل. كان البنك يموّل ويحرّك ويدير كل شيء. وكان مؤتمر برلين يواصل حلّ المسألة الشرقية التي ليس المغرب إلا جزءا منها بالطريقة التي أوصى بها مؤتمر فيينا. وأبدت أوروبا المتسابقة للصيد سُعَارًا دلّل على بداية عهد مرعب من التنافس الاستعماري يستظل بسلم مسلحة تستند إلى مجموعات من القوى المتنافسة على الهيمنة على العالم.

"لقد فشل مسعى إيطاليا التي ما أن وحدتها مشاريع البعث[107] حتى بدأت تبدي رغبة متوقّدة في احتلال ضفاف أفريقيا الشمالية. وها أن الإيطاليين يشتكون من سوء حظّهم. فالإيالة الحسينية التي وعد كريسبي مواطنيه أن يقدمها لهم باعتبارها فاتحة الوحدة المكتسبة المحتومة احتلتها فرنسا التي تنوي أن تجعل من أفريقيا الشمالية مصادًا خاصا فوداعا يا بحرنا! [108]

"إن سقوط فيري لم يغيّر نزعات هذه الإدارات وسيشاء الحظ، وهو في الغالب ساخر غاشم، أن يكون جورج كليمنصو بالذات، المقاوم للاستعمار والرجل الذي لم يكفّ عن التنديد بالحملة على جبال خِمِير سنة 1881 ومنطقة التونكين سنة 1885 هو الذي دفع سنة 1907، وكان إذاك رئيس المجلس، بفظاظة، إلى احتلال مراكش وإلى مصادرة أفريقيا الشمالية نهائيا، هذه المصادرة النى سبق أن طالب بها بريفوست-بارادول.

"وبهذه الطريقة سيولد القرن العشرون وقد تلبّدت آفاقه بالغيوم. كان الذهب يتدفق. وكان رخاء خدّاع ينوّم العقول في حين كانت دواوين الفنصليات تردّد صدى ندوات ليس من شأنها أن تسكن كثيرا روم مولوخ. كان الإسلام يتعرّض للهجوم على كلّ الجبهات، في آسيا كما في أفريقيا. وكان عصر الاستكشافات الكبيرة قد أغلق. وكان ليفينستون وستانلي يُكْمِلاَن، على طريقتيهما، دورة الرحلات التي بدأها كولومب وماجيلان وألبوكيرك وكانت الإمبراطورية العثمانية تتقهقر خطوة خطوة عجزا منها عن التصدي لهجوم قارة أَعْمَاهَا جموح نفس أسلمت قيادها، حصرا، إلى

---

[107] Risorgimento

[108] Mare Nostrum

المتع الحسّية.

"ولكن بلدا لا يكاد يكون معروفا من الشرق الأقصى ومن ضفاف المحيط الكبير الغربية ارتمى، بتصميم في مصطرع الأمم. كان اليابان ينبثق من ضباب جزره الألفية مثل أدامستور لشعوب الشرق ويقبل، فورا، تحدي الجنس الأبيض...

— "جنس مختار أيضا؟" سأل السلاوي.

"نعم، مختار ومكلّل، أجاب، بهدوء، سي الونوغي. لقد سقط الجبّار الروسي، في هوكدن وتسوشيما، في البر والبحر، وقد أصابته إصابة قاتلة ضربات نوجي وتوقو محدثا دويًّا تدركه الآذان المدربة بمثل ما تدرك نذر عصر جديد. كان الشرق يردّ على الغرب مثلما كان الشأن زمن كان وماراتون وزمن الشانكاتالوني وبواتيي وزمن المنصور والسّيدْ وزمن قُودْفْروا وصلاح الدين وزمن جنغير وزمن شارلكان وسليمان ومثلما كان الشأن منذ العصر الإمبريالي الذي تولّد من التحولات الاقتصادية الكبرى ومن تطوّر الرأسمالية الحديثة المِجَسِّي.

"لقد فقدت مراكش، وقد جرفتها الدوامة، استقلالها، هي بدورها، وآل أمرها إلى عبودية لا مفرّ منها. هذا الاستقلال ما كان لمراكش من فقده بدّ. وفعلا فلقد ولّى الزمن الذي كان فيه ركاب سفينة انقضّت عليها العاصفة يكتفون، وهم يقاومون عناصر الطبيعة الثائرة، بضرب من الاستجارة بالقوى الفوطبيعية في انتظار أن يشهدوا الموج الهائج يغرقهم. إنه لا بد، أكيدا، من حلّ آخر. لقد سبق لسي تاشفين، وأنتم تتذكّرون ذلك، أن حدثكم عن الجهود غير المثمرة التي بذلها مولاي الحسن لاستدراك حالة دولته التي كانت تتقاذفها تيارات لم يكن يَتَبَيَّن بالقدر المطلوب مصدرها. ولقد فات الأوان. ومثلما انتهى إليه صديقنا، كان يجب الابتداء

من البداية. إن على الأمة التي تصرّ على البقاء في هذه الأرض أن تحسّ بالسبب الذي يلزمها بركوب مجرى القرن الجارف أي أن تكون لها مدارسها ومخابرها ومصانعها وورشاتها ومصارفها وبنوكها قبل أن تفكر في شيء آخر. إنه يمكن لبرايار أن ينهق وأن يطيل النهيق. فما يحكمنا إنّما هو سيف لاروقان زمن جمهورية إذا كان طالع ولادتها رمزا يمثل ميزان تيميس فإنها تحقّق عندنا أمرا مستحيلا بقرن أمر كريميو بقانون الأهالي. إننا إن لم نردّ الفعل، قبل فوات الأوان، مثلما فعلت كل الشعوب التي نهجت قبلنا هذا النهج، فسيتواصل عيشنا، ما من شك في ذلك، في هذا الجو الذي اختلط فيه الجور بالعجز."

***

تواصل هذا الضرب من المحاضرات والمناقشات. وكان إدريس يستفيد منها قدر المستطاع. كان يلتقط ما ينثر اتفاقا، وكان ذلك شأن رفاقه أيضا. وفي أثناء ذلك أصبحت مراكش مسرح أحداث جسيمة.

لقد ثار الجبليون في الشمال، في الريف والجبل وكانوا في حالة حرب مستمرة منذ 1909 ثورة رجل واحد استجابة لنداء، قائد حرب جديد تصدّيا منهم لإسبانيا الملكية الكاثوليكية التي لم تتحرّج، مثلما سنرى عما قريب، من الاتفاق مع فرنسا الجمهورية اللائيكية لإتمام تقطيع أوصال مراكش بالرغم من الاتفاقيات الدولية التي تنظّم وتحدّد التدخل الأجنبي. إن الإمبريالية وسواء أكانت ملكية أم جمهورية أم اشتراكية أم شيوعية لا تستلهم العقائد. والظاهر المبدئي لا يبرّره غير الحرص على تغطية الفعل الافتراسي مثلما تغطي الفخَّ المأسلةُ. فسياسة الإمبريالية القائمة على تركيبات مؤقتة ومصالح دائمة تبقى واحدة ثابتة. وبناء عليه فإنه لا كانط ولا روسو ولا ماركس كان بوسعهم أن يدحضوا هذه الأطروحة التي دافع عنها أرسطو وعرفها

تهكّم هوبز أحسن تعريف في عبارته "الإنسان للإنسان ذئب"[109]. إن العالم الاجتماعي لم يكن البتة، على الرغم من قوانينه الإنسانية، غير غاب شاسع لا حياة فيه إلا لسلطة النّاب وقوة المخلب.

لقد تواصلت الحرب وتطوّرت في كل مكان تقريبا منذ معارك الشاوية وبني سناسن. وكانت قبائل تحارب بأسلحة غير متكافئة. وكان قادة، يبرزون، ارتجالا، في هذا المكان أو ذاك ويوقفون، لفترة من الزمن، تقدم الغزاة ثم يختفون سريعا، بعد أن يكونوا قد أَدْلَوْا بِدَلْوِهِمْ في المعركة، من المسرح الدامي، وهلم جرا. ولكن الانتفاضة، هذه المرة، بدت حركة منظمة. كانت تشعر بتأثير لا رئيس أو أمغار عابر وإنما برجل يعرف حق المعرفة ماذا يريد. ذلك أنه ولد من منحدرات الأرض المغربية العتيقة يوغرطة جديد. وستعيش أفريقيا الشمالية من 1921 إلى 1926 ساعات مُلْهِبة.

لقد آذنت أباران وأنوال[110] وموني-أرويط وإبادة الجيش الإسباني في أفريقيا في ظرف أسبوع بدء عصر جديد. وفعلا فإنه لم يتبقّ غير اللجوء إلى السلاح وسيلة لكبح جماح الاستعمار. لقد تحققت هذه الغاية، بهذه الطريقة، في كوبا وفي الفيلبيين بعد قرون من الجور وانتهى الأمر بإسبانيا، بسبب رفضها التفاهم، في الوقت المناسب، مع الشعوب التي تعيش في أقاصي الأرض بعيدا عنها، إلى أن تفقد ما تبقى في حوزتها من الإمبراطورية الشاسعة التي اقتطعتها في القرن السادس عشر. الكل أو لا شيء: هل هذا هو المعيار ومبدأ التمييز الحَرِيّ بأن يحلّ المشاكل التي تطرحها غزوات

[109] Homo homini lupus

[110] أنوال، هزم محمد بن عبد الكريم الخطابي في أنوال سنة 1921 القوات الإسبانية هزيمة نكراء، وفي هذه المعركة أفل نجم قادة كبار وبدأ نجم نجم عدد من العسكريين في البزوغ ومنهم فرانسيسكو فرانكو ولهذا السبب أهدى الحمامي الخطابي روايته.

الإمبريالية الحديثة؟ إن زمن المغامرين الإسبانيين الذين غزوا أمريكا والقراصنة قد ولّى نهائيا. وإذا ما فكّر العالم الذي يرتج نتيجة هزات بلاياه الاجتماعية المفزعة وحروبه المزمنة في تحسين ظروف عيشه وعلاقاته المتبادلة تحسينا حقيقيا وطمح وتطلع وتوسل إلى ذلك فإنه لا مناص من نبذ الطرق الخاطئة وما يقوم عليه، جوهريا، عدد من الأفكار المسبقة نبذا نهائيا. لقد نال الجنرال فيرنانديز سلفاستر رتبته العسكرية زمن الجنرال فيلر، جزار كوبا. وكان يأمل في نهج الأسلوب نَفْسَه في مراكش بما يقوم عليه من ممارسات فظّة خرقاء وفي أن يحذو في، حربه على الريفيين، حذو قائده عندما حارب ثوار الأنتيل. فما كان لهذا البيليسيي الإسباني وقد زرع الريح إلا أن يحصد العاصفة. لقد هلك في أنوال هو وجيشه مثلما أباد شيروسكيو أرمنديوس [الجنرال الروماني] فاروسَ. إن أخطاء مثل هذه تقتضي، على الدوام، ثمنا بالقدر المطلوب وفي الساعة المقررة. لقد كانت كارثة أنوال إنذارا لمن كان في جانبي خط ورغة. هذا الإنذار لم يفهم على أنه استرعاء لتقييم أفضل للأوضاع ولكن باعتباره تحدّيا يستخف بالمحتل. وبدلا من أن يقيّم انطلاقا من واقع الأمور اعتقد القوم أن من الأفضل أن يقفوا منه موقف الإسكندر إزاء الأُزْبَة. ولكن الأمور لم تسر على هذا النسق. فالقضية بقيت، بعد كبح الانتفاضة، على حالها، بل ازدادت تعقيدا واستعصاء. ذلك أنه يمكن للمرء بسهولة أن يغرز حربة في مكان ما ولكن المؤكد هو أنه سيظل من الصعب عليه أن يجلس عليها. هكذا كان إدريس يفكّر وهو يرى فيالق ابن عبد الكريم تطير من انتصار إلى انتصار في بداية الانتفاضة.

حل في سنة 1924 دور الجبل. ولقد شهد خريف هذه السنة جيشا إسبانيا ثانيا، ذاك الذي قاده الدكتاتور الجنرال بريمو دي ريفيرا شخصيّا ينهزم شرّ هزيمة ويتراجع عن خط تيزران في فوضى عامة. لقد استأنف الجبل القتال واضطلعت حركة تيزران، حسب الأخبار التي بلغت فاس، بدور متميز بوجه خاص، في ملاحقة الإسبانيين عبر مضائق بني عروس. ومنذ ذلك الوقت كان طلبة الجبل يتهيؤون للالتحاق بجبهة

القتال. إنهم يغادرون مدينة الملذات والدروس وفتنة المعرفة والنقاش الثقافي للالتحاق بأرض الأجداد التي تطلب من جديد، وقد اغتصبها الأجنبي، دم أبنائها. إن هذا لهو قانون الإنسانية القديم الذي فيه يبين ويتوجب معيار غريزة البقاء الأكثر رسوخا. لقد بدلوا الجلابة البيضاء بالجلابة السوداء والشكارة ذات الجلد الفيلالي المزخرفة بشخوص مذهبة المحلاة بزخارف حريرية بالزعبولة المُخْمَرّة المؤاتية لشوك الدروب الضيقة والأكلة المغذية، على الرغم من أنها نادرا ما تكون وفيرة، بالبيسار الحامِز الحارف مثل سيقان الصَّبْر وأوراق البلوط الصرودي.

كان إدريس يتهيأ هو أيضا لمغادرة فاس صحبة عدد من رفاقه عندما استدعاه مولاي عبد الجبار الذي بلغه خبر المشروع، إلى منزهه. وقد اجتهد، بعد أن أثنى على المشاعر التي تدفعه إلى الوقوف هذا الموقف من بلده، في أن يصرفه عن مغادرة القرويين قبل أن ينتهي تعليمه. ومن ناحية أخرى فلقد كان يعمل بأوامر قاطعة من أبيه إذ لا يجب على إدريس أن يغادر بأي حال فاس من دون إذن أبوي. احتار الطالب الشاب. وإذ أبدى ارتكابا وغمغم حججا هيهات أن تأتي على تجربة الشيخ الفاسي، طلب منه مولاي عبد الجبار البقاء إلى أن يبلغه رقّاص[111] بقرار الحاج علاّل. لقد كان لهذا الاقتراح الأثر المراد فلقد وافق إدريس الذي ينحدر من جنس لا تناقش عنده البتة سلطة الأب، على إرجاء سفره فغادر المنزه إلى القرويين وقد هاج نفسه غيظ صامت. وهناك لم يعثر على أحد إذ كانت رسالة صغيرة تركت تحت مخَدّة سريره تعلمه بالذهاب، فورا، إلى طرف المدينة، قريبا من برج الشمال، في أرباض كبيبة بني مرين حيث يعقد الطلبة المتأهبون للالتحاق بجبهة الشمال اجتماعا يضعون فيه تصميم الطريق. التحق بالمكان فوجد حوالي ثلاثين طالبا. وقد انضم عدة من الغياطة والبرانس وسوسي وفاسيان كانوا يحملون، بفخار، ألقابا

[111] حامل الرسالة وقد وردت بالعربيّة.

أندلسية إلى الحملة المكوّنة، خصوصا، من الريفيين والجبليين.

***

أبلغ إدريس، منذ وصوله أنه وقع اعتقال سي الونوغي والسلاوي وأنهما أودعا سجن باشا المدينة. فمصلحة الاستعلامات كانت، في ما يبدو، تستشعر مظاهرة تُنَظِّمُها الشّبيبة انتصارا للثائرين وبلغتها أخبار تفيد أن المؤمنين كانوا يقرؤون في المساجد بعد الصلاة صلوات ويتضرعون إلى الله أن ينصر الأمغار على الإسبانيين. لقد كانت ترتاب بوجود منظمة سرية وبيد مديرة وبشيء شبيه بحركة سرية تهدف، على غرار ما كانت عليه جامعة الشباب الألمانية[112] وإيطاليا الجديدة[113] بقيادة جوزيف ماتسيني، إلى تحريك طاقات الشعب المبعثرة بتوجيهها نحو فكرة التحرير.

كان سي تاشفين الذي أصابته نزلة حادة يخضع في بيته لمراقبة محكمة وكان جِلْوازان يتناوبان في كل أربع ساعات في حراسته. ولكنه نجح، رغما عن كل شيء، في أن يوصل إليهم دجاجة خَرْبَشَ عليها بقلم رصاص كتابة سريعة تتضمن توديعه وتعاطفه "هلموا، كان يقول لهم فيها، إن مكانكم هناك ما دام القوم يدّعون تحضيرنا بالمدافع وجذاذات المعلومات السرية" أبلغ إدريس، وهو واجم أصدقاءه بالأسباب التي تمنعه وقتيا من التطوّع وبالهمّ الأخلاقي الذي يحول دون التحاقه بحملة تكوّنت من أجل الدفاع عن حدود الوطن الصغير الذي ولد فيه وكبر ولكنه لن يتردّد، إذ الأمر لا يعدو أن يكون تأجيلا مشروطا بوصول موافقة أبيه، في الالتحاق بهم في أول فرصة تتاح له فأقروا تصرّفه لاسيما أنهم كانوا ينوون تكوين حملة ثانية يقودها

[112] Ligue de jeunesse Allemande-Jugenbund

[113] Italia Nuova

سي تاشفين. فهم رسموا خطة لهروبه بالاتفاق مع عدد من الخدم. إن الأمر، إذن، لم يكن إلا تأجيلا. وقد افترقوا بعد أن ضربوا لهم ملتقى في بيت في باب السقمة. كان عليهم بحلول المساء أن يغادروا المدينة في مجموعات صغيرة تتكوّن من ثلاثة أفراد إلى أربعة إذ عليهم أن يقوموا برحلتهم منفصلين سالكين أسبلة ثلاثا مختلفة حتى مزار سيدي علي بن داود، قرب عيون الورغة إذ أن على الحملة هناك إما أن تنتظر، بعد أن يكون قد أعيد تشكيلها، وصول الحملة الثانية أو تقرر الصعود إلى تيزران ثم افترقوا. واستأذن إدريس، وهو واجم، أصدقاءه في الانصراف وخلا بنفسه. كان يتابع بنظر حائر وهو جالس على مرتفع أرض متموّج تغطيه النباتات وتنتثر فيه زهور ذات بتلات صلّبها هبوب ريح الشمال، الجماعة الصغيرة التي تعود، بالتتابع، إلى المدينة التي بدا جسدها يغرق في أبخرة الشفق. كانوا يمشون بخطوات موزونة حثيثة مرفوعي الرؤوس تشعر حركة أوراكهم السريعة، من بعيد، بالقوة والشباب. لا أحد منهم التفت بوجهه إلى الوراء. كانوا يعدون أكثر مما يمشون وكان في إمكانهم أن يجروا أو يركضوا نحو هذه القمم البعيدة التي كانت تبرز بوضوح على خط النتوءات التي ترتج شمال الأطلس. إن المغرب الفتى يجاوب أفريقيا العجوز. وعندما اختفت آخر جلابة قصيرة ذات خيوط حائلة اللون أجال إدريس، وقد أذهله المشهد الذي رأى، طرفه حول المكان. كان الوقت بليلا وكان العشب يتضوّع بفَوحَان صرُوديّ يذكره بتيزران آبائه. وكانت فاس تنبسط تحت قدميه بيضاء وخضراء تحت سماء أغرقتها الزرقة. وكانت المآذن الناصعة البياض المنبثقة من كتلة السطوح لا تكاد تكسر خط دائرة مدينة يكمن جمالها، بالذات، في اضطراب هندستها. ومن كل جهة كان الأطلس يَشِعّ. الأطلس الذي يَغْمُد المغرب في سفينة تملك البحرين، بحر المياه وبحر الرمال مثلما كان قضاة قرطاج يحبون أن يقارنوا سلسلة الجبال الأفريقية بأمواج المتوسط الغالية. كان البوإبلان يهيمن في الجنوب الشرقي وكانت قمته البركانية الواسعة البعيدة تعكس الثلوج الدائمة حيث ترصع غابة أرز صغيرة تُحَسُّ أكثر مما ترى إذ لا تكاد العين تتبينها، تَلْتَهُ مثل عُرْف وحشٍ خرافي.

ولقد استرعت مياه النهر الموحلة الجارية تحت عقد الجسر العلوي القديم بدورها انتباه إدريس. فمن السْبُوْ إلى بوعنان، هذا هو قلب الأرض الأم الخافق الذي أحس إدريس، وهو مستلق على العشب، حزينًا متأملا، نبضَه الشديد المنتظم. ولقد هاج فكره تأبُّهٌ جغرافي. العياشي والبوعنان وجرجرة والأوراس وتيزران. والتقط بصره التائه عبر الفضاء، بعيدا، طيران زوج من العقبان يحلق فوق قمم الجبل فتذكر بلده وحيواناته المجنحة ومعركة الفندق وموت الفاريز وخُيّل إليه أنه يرى سي عبد السلام مُقْبِلاً عليه وقد تقلّد بندقيته ثم ظهر له وجه أبيه جادّا حليما مثل ظل عابر فتبلّلت عيناه. لقد كان أبوه، دائما، بالنسبة إليه مرشدا صادقا آمنا وهو بمزاجه الذي يقوم على الرجولة والثبات إنما يلامس معدن العرق. وبقدر ما كان إدريس يكبر بين كتبه وأصدقائه وبقدر ما كان التعليم الذي يستقيه من حوله ينمّي ملكاته الطبيعية، كان الحب الذي يكنّه لأبيه يزداد بالمقدار نفسه، وفي المحنة التي كان البلد يعيش بدا له أن قدوة مثل هذه قامت على البساطة وإنكار الذات هي ضمانة الخلاص الممكن الوحيدة. وتزاحمت دقّات قلبه لفكرة أن الحاج علاّل الذي بدّل، مرة أخرى، المحراث بالبندقية، كان يتعرض لمخاطر جسيمة في ميدان القتال. لقد كان يعرف بسالته. وعلى الرغم من أنه أقرّ بالأسباب التي كانت تدفع بأبيه إلى اتخاذ قرار مثل هذا فإن مشاعره لم تتمكّن من الصمود لتيار من الحنان اجتاحه في هذه اللحظة.

فكّر في الأسمر وفي ممتلئ الخدين الذي مات منذ سنين كثيرة وفي رفاقه في المْسِيد الذين انضمّوا جميعا، تشبثا منهم بقوانين القبيلة، إلى راية الجهاد وفي العجوز سي بن عمّار الذي استأنف قيادة حركة تيزران والذي كان يتأهب، بعد أن رتّب في خزانة مخطوطاته في تفسير القرآن ذات الصفحات المزدوجة المتآكلة، للزحف على العدو معتدا على عصاه القديمة... فكّر أيضا في تطوان وفي الأب توركواتو، هذا الكاهن

الحكيم، ثم إن تفكيره انتهى بعد ان بلغ نهاية طوافه المتوحد، إلى أن يستقر فوق قراميد القرويين. وهناك، وفي كنف معبد المعرفة القديم هذا، انفتح جدل في ضميره. ما الذي كان يجب عمله؟ أصراع مسلح أم صراع بالتربية؟ لقد كان هذا هو المبحث الجديد. لقد كان منذ أن عاشر سي تاشفين وسي عبد الرحمان ومنذ أن أصبح يتصدى، في جلساتهما العلمية، لمسائل كثيرة لم تكن سابقا لتخطر له على بال، ينظر إلى مستقبل بلاده نظرة مختلفة. لقد أصبح الآن يعرف التاريخ بما فيه الكفاية. تاريخ المغرب خاصة. ولقد أبانت له معرفة الفرنسية، رغما عن المطفأة التي رفعها البراياريون والكوينلارتيون، عن آفاق كان حب اطلاعه المتوثّب الذي لا يرتوي البتة يتفحصها ويحاول أن ينفذ إلى حقيقتها من دون انقطاع. كان يهتم بالحياة الاجتماعية وبمسائل الاقتصاد المعاصر وبأسباب وأهداف الامبريالية التي لم ينقطع عن ملاحظة نتائجها المؤسفة. هذه الحضارة القائمة على الربح التي لا يقع الاقتصاد في امتداح حسناتها في الوقت الذي يُجْتَهَدُ في قصر التمتع بها على أوروبا وحدها وهذه الثقافة ذات الواجهة اللامعة والطعم المسكر إسكار شراب الأبسينت الذي يقدم في مقاهي السلام وفي الخمارات المريبة في الضاحية الباريزية والمقاطعات وهذا المشهد المثير، مشهد الآلية والأرقام والرموز حيث يردّ كل شيء إلى قاسم مشترك واقع تحت تأثير طالع العجل الذهبي: إن كل هذه العظمة وهذه الثروات التي كانت تعرض للابهار أو للتخويف لم تكن لتعني بالنسبة إليه شيئا. إن البناء يبدو خاليا من العيوب. وهو لا يخلو في الحقيقة من إغواء. ولكن أسسه كانت نخرة. ومن كان يشك في ذلك فما عليه إلا أن يعاين، عن كثب، التناقضات التي تأكل قواه.

كان سي الونوغي الذي يمتلك ثقافة أدبية يقارن الاستعمار بكوتوبلباس الحكاية الذي كان، لعجزه عن الحياة حياة طبيعية يتغذى من مادته ذاتها معرضا نفسه للخطر. إن حركة التقدم البناء تصبح، على هذا النحو مهددة بالشلل والاختراعات ومنجزات العلم والآثار الفنية والازدهار الأدبي، كل هذا لا ينسجم لا مع قوانين الانتاج ولا مع

قواعد العلاقات الأكثر دقة في المجتمع الإنساني. إن النظام الإنساني إن لم يكن في مجموع التحولات العلمية مثل اكتشاف البخار والكهرباء واستغلال مبادئ الضوء والسرعة معرّضًا في بداية انطلاقه لما يعرقل سيره فهو يجد نفسه، في المقابل، يردّ إلى أوضاع استعباد بالية خطرة. لقد كان باستور وإديسون وغراهام بيل ومركوني يبنون مخابرهم في بيئة مازلت تحكمها قوانين الغاب. كان سقف واحد يؤوي أخلاقا متباينة ومتناقضة دائما. على هذا النحو كان القوم في فرنسا يكرّمون زولا في حين كانوا، في أفريقيا، يضطهدون أقرانه. في فرنسا كان العقد الاجتماعي هو الذي يلهم أشغال برلمان حر سيد يتمتع بكل حقوقه في حين يعيث فسادا، في أفريقيا، قانون الأهالي المستنسخ من قوانين العبودية التي ميزت سابقا السلم الرومانية. في فرنسا ترفع الحرية مشاعلها في زوايا كل مَفَارِق الطرق وفي أفريقيا يسود قانون الفتح بكل ما يتضمّن من صرامة محاكمه القمعية وقرارات ولاته الارهابية. فما العمل؟ النضال؟ لقد ناضل المغرب بشجاعة من سنة 1830 إلى 1925 وهو لم يكف على امتداد قرن طويل، عن مواصلة المباراة غير المتكافئة التي لم يتردّد فيها المصارع المتسلح بعصا في مواجهة فارسين قويين مدرّعين بالحديد ومجهّزين بالرماح والدروع. وهكذا شغل الحلبة إلى الساعة التي أصابته فيها الضربة القاضية التي لا مفر منها. على أن مباريات مثل هذه لا تصلح، على الأكثر، إلا للحفاظ، على الأقل، على الشرف. إن الشعب، وقد اجتيح وأخضع، يتعرض لخطر قاتل إن أعوزته التربية. ويمكن لاستعباده أن يدوم طويلا إن بقي في الجهل. فعليه، إذن، أن يرد الفعل. إنه لو كانت رغبة التفهم والوفاق من بين ما حمل الفرنسيون من أمتعة لكان سبق للسيف منذ زمن طويل أن يصدأ في غمده. ولكن دور العقل إمّحى ذاتيا لأن غريزة السيطرة كانت هي التي توجه مشاريعه فيتحد الهوى بالغلظة ليلدا ضربا من البلبلة التي تُلبِّسُ تنظيما ظرفيا. وهكذا فإن المهزوم يدفع بمقتضى هذه الضرورة التي تدفعه دفعا لا يقاوم إلى أن يرد الفعل على الجور وإلى أن يأخذ عاجلا أو آجلا بالثأر. بأية وسائل؟ أبالكفاح المسلح أم بتربية الشعب؟ بالمنصور أم بابن خلدون؟ لقد كان هذا هو موضوع

محاضرة ألقاها سي الونوغي، ذات يوم، أمام الحفل نفسه ودافع فيها كل من سي تاشفين وسي عبد الرحمان عن وجهتي نظر مختلفتين. ولكن الجميع، بما فيهم سي تاشفين الذي عرف بأنه من القائلين بالوسائل العجولة، أخذوا مع ذلك، بفكرة سبق المدرسة والتقدم الاجتماعي. ولكن السياسة التي جسّدها لاروقان كانت تعترض على نشر هذا المَنّ الفكري الذي هو الشرط الأول الذي يتوقف عليه تحسين العلاقات الاجتماعية. فالتعليم الذي هو مجاني وإجباريّ في فرنسا ممنوع في أفريقيا. وهو يماثل بجريمة قدح في الذات الجمهورية. لقد وجد، بالتأكيد، عدد من المدارس الابتدائية الخاصة بالمغاربة تدرس فيها العربية بمقدار لا يسمن ولا يغني من جوع ووجد عدد من المعاهد ومدرسة ترشيح أو مدرستان كانتا توصفان بالأهليتين توصيفا للبرامج التي تطبّق فيهما وكان في إمكان قلة من المصْطَفين الذين يعدّون على الأصابع أن يلتحقوا بالجامعات وأن ينهوا دراساتهم. ولكن هذا لا يعدو أن يكون ذرّ رماد في العيون. وهو مسرحية أخرجت لتمثيل أدوار محزنة مضحكة بدليل أن الجزائر، من سوق هراس إلى تلمسان، لم تكن تعد في هذا اليوم يوم 14 جوان 1930 الذي كانت فيه فرنسا تحتفل، في جو من الفرحة المشهدية، بمائوية احتلالها أكثر من حوالي أربعين محاميا وطبيبا مسلما ولا يوجد فيها مهندس واحد.

وحتى الخمسة أو الستة ضباط الذين تخرّجوا من المدارس العسكرية عليهم، وجوبا، أن ينهوا مهنتهم من دون تجاوز الشريط الرابع. كذلك هو شأن عدد قليل من الصحفيين الذين أنجبتهم كتاباتهم والذين جُمِع بين جذاذاتهم الاستعلامية وجذاذات أمثال ترويمان ولاندرو في كل فرنسا على سبيل الاحتياط طبعا. إنه لا يوجد قضاة ولا مقاولون ولا عمال متخصصون ولا كاتب جدير بهذا الاسم. وعلى العكس من ذلك توجد جحافل متكاثرة من مسّاحي الجِزَم وحشود من العمال الفلاحين الذين يجزون جزاء الخماسة وعمال مناجم وعمال أحواض سفن يؤجرهم صناعيون في غاية الثراء بأجور بائسة برضاء من قادة النقابات الذين يقضون، في باريس، وقتهم في ترسيخ

أوضاعهم باعتبارهم ناخبين كبارا وفي التبختر وراء العلم الأحمر في يوم عدد من الأعياد وعند حلول المساء، وبعد أن يلبسوا مباذلهم وأخفافهم، في قراءة كروبوتكين وجورج سوريل وجول فاليس أو... "غادة الكاميليا". إننا هنا بإزاء نتيجة قرن من الهيمنة حاسمة لا أحد من المحتفلين بالفتح اعتقد، بصدق، أن عليه أن يسجلها في خصوم الحساب الجهنمي. ولكنه لا بد، مع ذلك، من الفعل. فالكمامة وإن تمكنت من إعاقة التنفس، لا تقتل. ولابد من أن تنتهي كثرة الصراخات بتحرير الصوت. إن الأنبياء وسقراط وإخوان الصفاء في الفترة العباسية وهوس وإتيان دولي والموسوعيين ودوستويفسكي وتولستوى وجمال الدين يعلموننا، عبر المثال الذي ضربوه بحيواتهم وبأعمالهم، أن للكلمة وللقلم من الحقوق ما لا يمكن للزنزانة ولا للنفي ولا للهراوة ولا حتى للمشنقة أن تقيد أو تمنع. ولهذا السبب كانت نشاطات الجماعة تميل غالبا إلى تفضيل كتب ابن خلدون على يطقان المنصور من دون أن يؤثر ذلك سلبا في مواقفهم. ولقد سبق أن رأينا ذلك من خلال دجاجة سي تاشفين.

كانت تنبثق من جهات فاس الثلاث منازة وفيلات. وكان كثير من هذه الفيلات قد بني حديثا. كان عدد منها قد هيئ حسب معطيات الفن المغربي. وكان عدد آخر قد بني على غرار منازل الريف في المدن الفرنسية، وكان يملكها معمرون جعل منهم اغتصاب الأرض الذي لا ينقطع والمضاربة الاحتيالية شخصيات ثرية. وكانت الحدائق والبساتين والمغارس المتنوعة تظهرها في اعتدال السماء الأفريقية، بمظهر بيوت فاخرة حسن اختيارها للراحة والبهجة. كان يلذ للاروقان أن يقارن، في هذيانه المثير، المغرب بشكل من أشكال كاليفورنيا أو ببعض بلاد الهند يحافظ عليه مدخرا لفرنسا تتوسع فيه مستقبلا، ويكون المغربي شأنه في ذلك شأن السيو في المروج الأمريكية أو متشرد راجبوتانا، هو الذي يدفع الثمن اجباريا. لقد كان إدريس وهو يطوف بنظره في منازل الأثرياء الجدد هذه يعي جيدا معنى مجاز مثل هذا. على أن

المعمرين الذين كانوا يسكنون أفريقيا الشمالية لم يكونوا يعدلون تماما معمر الغرب الأمريكي. فهؤلاء ينحدرون من أرومة ملتبسة في الغالب من الأرستقراطي الغارق في الديون والرذائل الذي يقبل على الاستعمار باعتباره السبيل الوحيدة الباقية إلى سجين الأشغال الشاقة المسرّح الذي لم يرصن بما فيه الكفاية، ومن المرابي الذي يضارب على الأراضي إلى الفيلقي الذي يرمي بمتاعه بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما من الخدمة في الجيش، ومن المزارع الذي تمكن من اقتطاع اقطاعه في البلد لارتباطه بعقد بهذه الشخصية السياسية المتنفذة إلى تاجر بلنسية الغشاش الذي يحوز، بعد ان تمكن من أن يوفر بطرق مختلفة، قطعة أرض ضحوية بسعر متهاود وأكب على الزراعة الكثيفة، ومن فرنسي فرنسا إلى فرنسي الورقة المدموغة الذي ينهب المال من دون حساب وهو يبصق في وجه الجمهورية كما لو كان يحتج على سيدته العذراء: هذه هي مادة، أو بالأحرى خلاصة هذا الاستيطان الذي عاد بعد ثلاثة عشر قرنا من سبيطلة إلى مكان كانت تشغله بطريرقية إغريقية رومانية وكان على الإسلام أن يكنسها من دون شفقة من بيزاسين إلى بيتيكا.

كانت ثلاث ليموزينات شبيهة بهذه التي تستعملها البلاطات أثناء حفلات الاستقبال الكبيرة تجري عبر الطريق. وكان سواق مراكشيون يرتدون بزات زرقاء ذات أكمام بيضاء وتغطي رؤوسهم شاشيات كما لو كانت لإثبات الجنس الذي ينتمون إليه، يسوقونها بسرعة مدوخة. لقد كانت هذه البزة خلعة. وكانت تنبعث من هذه السيارات الفخمة أغان، أو بكلمة أدق، زعيق ما يثبت، كذلك، نوع الشخصيات التي بين أيدينا.

ميز إدريس منهم عددا من الوجوه. كان شاغلو السيارات من كبار المعمرين في المنطقة وكانوا عائدين من بعض الأعراس. كانت القبعات تنطبق على الرؤوس على عادة المسنين المتأنقين المماشين لذوق 1900 وكانت السجائر الهافانية تنغرس في

المناقير والأعناق متدثرة بمناديل من الحرير سكرية اللون تبرز من ياقات معاطف جيدة.

الانقدار كان واحد منهم، وهو رجل قوي شديد البدانة، شبب شدقيه استعمال الموسى والمراهم معا، هو البارون هوغ دي قرولو دي بونتير. لقد جاء من بعيد وكان يمكن لماضيه المهني أن يصلح مادة خصبة لرواية بلزاكية. لقد كان أمين صندوق عام قديما انتهت محاكم الجمهورية، على الرغم من حلمها المعروف إزاء أمثاله من أبطال أبناء المحاكم، إلى إفحامه بالاختيانات المتكررة التي أضرت بخزينة الدولة وحكمت عليه بقصاص شائن. على أن هذا لم يكن يمثل في نظر البارون النبيل سببا كافيا لمقاطعة نظام قائم على أمر واقع وهو أن الإثراء يرد إلى صاحبه الاعتبار ويكرس كل شيء. لقد قلد السيد دي بونتير، سابقا، روشيت. ولكنه مثل روشيت، غادر فرنسا سرا بعد أن أسس شركات يغذيها رأس مال وهمي وضخ قليلا الادخار الذي لا ينضب وصفى حساباته الختامية بديون تفالسية وقضى في السجن زمنا، ليجنح في مراكش حيث انتهى، ذات يوم بفضل علاقات متينة إلى نيل مودة لاروقان الذي أذهله بمعارفه المالية وخططه المغامرة. لقد كان بحديثه الجذاب قبالة الخالق وبتعليمه وبثقافته وبتضلعه في علم الأرقام وبتفوقه البالغ في تعاطي أعمال كثيرة وفي امتلاكه جسارة في كل شيء، نوعا من روكفيلير صغير ممزوج بصنف من أصناف آل كابوني. كان فردا من عصابة جذابا وخطيرا معا. لقد كان يتقن فنّ تعريق الجلابة وهو ينشد أوفيد ويعرك آذان الاشتراكية. لقد كان البارون دي بونتير عينة لا مثيل لها من فرنسا الأفريقية التي حلم بها بريفوست برادول ومثلها في أفريقيا الشمالية أمثال فيلار وبرطانيا وكارنيير. لقد كانت له علاقاته في فاس والرباط. ولقد نال قبل قليل، رغم تحفظات معينة من وزارة العدل، وسام جوقة الشرف الذي يشتد الطلب عليه. فلا روقان طلب من فوق نجمه السبع لمساعدته على اعتراض الكي دورسيه ووزاره الفلاحة (إذ أن أمين الخزانة القديم المحكوم عليه

أسندت إليه درجة فارس في مراتب الأوسمة بعنوان هذه الوزارة) اللذين طمحا إلى إبداء بعض الشكوك حول ماضي البارون، لالي – توليندال وهاستينغس وآخرين من بناة الإمبراطورية الذين لا تتحرج ضمائرهم بالذات من كل هذه الدناءة.

هكذا أصبح دي بونتير مليونيرا يملك آلافا من الهكتارات وحدائق ومطاحن وبيوتا للإيجار وفللا في مراكش ومسكنا موسميا في باريس وكازينو في مدينة مائية استشفائية مشهورة تقع في غرب فرنسا وحزما من الأسهم وسندات الإيراد تعوضه، وزيادة، عن فقدان وظيفة العون الضريبي القديمة.

***

كان في الليموزين راكب آخر هو اريك كميلكونف، وكان هذا فيلقيا قديما ترك بلده البافيير لأسباب بقيت غامضة وقد التقطته تكنات سيدي بلعباس مثلما تستقبل تقريبا سجون الأشغال الشاقة الملاعين من فاقدي الضمير. لقد حارب في مدغشكر، وجنوب غرب الجزائر وبلاد الشاوية وقد نجته صفة البوش من مذابح أوربا أثناء الحرب الكبرى. لقد ترقى مرتين إلى رتبة رقيب ومرة إلى رتبة عريف ولكنه كان في كل مرة يسقط من رتبته فخطؤه هو أنه كان مفرطا في التعلق بعصير العنب: وهو، إذا ثمل، لا يعرف أحدا. ولذلك فإنه لابد، إذا ما شرب، مما لا يقل عن زمرة كاملة من الأقوياء الأكثر متانة في السرية، للسيطرة عليه. كان الجنود في الفوج يسمونه الكناري الأزرق. وفعلا فإن هذا الغليظ الفظ لم يكن فيه شيء، من عصفور على هذا القدر من الجمال. ولكن جسمه، من الرأس إلى أصابع الرجل، كان جدارية حية فلقد جعلت منه إبرة الوشام حديقة نباتات إذ أنّ كل حيوانات الخليقة تظهر فيه. ويذهب البعض إلى حد التأكيد أن كاملكوبف استوشم على أليته، بيد فنانة، عصفوري جنة بديا يتباوسان على نحو غريب شويّة في مثل هذا المكان. إن مثل

هذا التأكيد يبدو جريئا شيئا ما، ولكن لزّاجي الفيلق أحيانا مثل هذه القدرة على الابتكارات المضحكة.

لقد أصبح كاملكويف، أخيرا، وقد تجاوز الستين سنة، وافر الغنى. أما المال فقد اكتسبه باستعمال وسائل السيد دي بونتير إذ أصبح يخدمه خدمة شبيهة بخدمة قيم منزل ومسخر يعرف، عند الحاجة، تقديم خدمات ثمينة في مقابل منافع مماثلة. إنه هو أيضا الآن، يملك سيارات ومزارع كرسها لزراعة الشعير حتى يزود معمل جعة أقامه في الدار البيضاء بما يحتاجه منه. وكان إضافة إلى ذلك، يملك أراضي هامة مزروعة كرما ويشتهر بأنه زارع نابذ نشيط في البلاد كان يقيم، حسب الفصول، في فاس أو الدار البيضاء حيث كان يملك منازل وفيلات. وكان، أيضا، سمسارا في شركة كان هو المساهم الرئيسي فيها اشتهرت بأنها تدفع للمساهمين أرباحا ضخمة فيحصل ملتهم القصاع القديم على نسب مائوية تثير إعجاب المكاتب وتعاطف الصحافة المحلية المأجورة.

أصبح إريك كاملكوبف شخصية مشهورة بما أن المال يملك هذه القدرة السحرية على تحويل غوريلا غابات شريفا من علية الناس، لقد كان القوم يتظاهرون بأنهم لم يعودوا يندهشون أمام تشكيلة الحيوانات التي كانت ترين خدين أصبحت تخطّطهما غضون شيخوخية.

لقد تزوج الفيلقي القديم من راقصة باليه التقطها ذات مساء عندما مرّ بخوارة في الجزائر العاصمة. كانت السيدة موشمة هي أيضا وإن في احتشام أكثر. كانت، وهي ما زالت شابة، تستعمل لغة سفلة الناس وأخلاطهم بفظاظة لم تكن تخلو من نكهة. كانت خزانة ملابسها تثير العجب، ثياب فرو وفساتين حرير وساتان وحقائب يد من جلد العظاية وقبعات ثمينة وجواهر، فالعجوز إيريك لم يكن ليرد لها طلبا.

وكانت السيدة تقيم حفلات استقبال. في البداية لم تكن حفلاتها الساهرة تجمع غير قلة من المدعوين الذين اجتذبتهم الفرنيات الشهيّة والثرثرة الخفيفة التي لا تستثني المجتمع المختار الذي كان الفيلقي القديم قد نفذ إليه. وفيما بعد أصبح القوم أكثر تسامحا في موضوع اللياقات وبذلك أصبحت مغنية المقهى المغني القديمة المدعوة المفضلة في عدد من الصالونات.

كان كاملكوبف، من جهته، يقيم مآدب مفتوحة وكان طباخ استخدم بمبلغ مغر يعتني بمأكل وفير مقترن دائما بأفضل أنبذة فرنسا. لقد برّت الشامبانيا الخمر.

كان موظفون وضباط وسواح عابرون يجالسون مستوطنين ورجال أعمال حول اللعين القديم الذي خلصه عصر الجلابة نهائيا من الحظ العاثر. لقد كان كاملكويف، مثلما ألمحت جريدة رديئة إلى ذلك، هو الحجة النموذجية على الديمقراطية التي طبقت حول صحفة الحساء. ولكن المسافة بين مائدة السيد ومخدع السيدة لم تكن على قدر من الطول بحيث تمنع السيد البارون دي قرولو دي بونتير من أن يكون سيد الساحة.

كان شخص آخر ضمن ركاب سيارات الليموزين هو فرانسوا كوني. وهذا كان كورسيكيا قصيرا مستديرا ذا شعر قليل تجعد وساق هزيلة. وكان ثرثارا متبجحا على غرار كل مواطنيه ومعرضا، مثلهم، كذلك، لأزمات صرعية غالبا ما تنتهي بدموع ومعاذير. كان هو كذلك من أحظياء المغامرة المراكشية.

وليست الألقاب، في هذا الصدد، هي التي تنقصه. وإذا ما صدقناه فهو عريق النسب: لقد كان، بادئ ذي بدء، من أبناء عمّ نابلوين مثلما هو شأن كل

الكورسيكيين. وهو يدعي، وقد ولد في قرية في ضواحي أجاكسيو، أنه يتقدم، في السلالة الإمبراطورية، على كل المواطنين الآخرين في جزيرة الجمال. وهو، شأنه كذلك شأن كل الكورسيكيين، قد أدغل وكان لابدّ، لدفعه إلى الاستسلام، من تجنيد ما لم يقل عن مفرزتين من الجندرمة المدعومة بمصفحات رشاشة وكلاب بوليسية. وهو إذا كان قد أصر على الإدغال فذلك، على حدّ ما كان يوضح في مونولوقاته التي لا تنتهي، عملا بتقاليد الشرف التي منها تولدت قوانين الأخذ بالثأر. هو لم يكن يعرف كولومبا ولكن والد جدّه كان واحدا من بين أفضل جنرالات الإمبراطورية وذلك على الرغم من أن لقب كوني لا يوجد لا في لوحات قوس النصر التذكارية ولا في الكتب المدرسية إلى جانب إسمى ما سينا وسيباستياني. فهذا الجدّ لا بد أن يكون، على عكس كل الكورسيكيين، مفرطا في التواضع.

لقد حل فرانسوا كوني سنة 1907 في مراكش، وهو في الثلاثين، خلف حملة الجنرال درود العسكرية وساهم في حملة الشاوية على طريقته الخاصة: أي من دون بندقية ولا كيس ظهر ولكن ضمن هذا الحشد من التجار الغشاشين الذين يبيعون الجند بالمفرق بضاعة رديئة نقدا والذين يمكن القول إنهم كانوا يكوّنون، بإقامة علاقات حميمة بالمعتمدية العسكرية مدارها الرزّ والخبز والملح، ثروات في خمس ثوان. وعند سقوط فاس بعد ذلك بأربع سنوات كان قد أصبح حائزا على حوالي مائة ألف فرنك فاستقر في مدينة مولاي إدريس. وقد ضارب، مثل كاملكوبف وآخرين كثيرين على الأراضي التي كان يشتري المتر منها بفلسات قليلة وينتظر، في رصانة المناقصات البلدية ويبني ويبيع ويشتري من جديد ليبيع من جديد بفائض قيمة شائن، وإذ كان اللاعب الماهر متأكدا من البداية من نتيجة غشه فقد أنهى الحرب الكبرى مليونيرا وسيد قصر تماما مثلما هو الأمر في الغرب الأمريكي!

إن دي غرولو دي بونتير وكاملكوبف وكوني هم فصل كتب بدماء تلك الأجناس

التي أراد لويس برتران أن يصفها في آثار تدينهم بشهادتها هي بالذات. لقد أقام سي الونوغي، ذات يوم، مقابلة مناسبة بين مزايدات السلم الرومنية ومقدمات هذه السلم الفرنسية التي التقطها ابن الحاج علاّل، وهو جالس في ظل البو إبلان، في هذه الجماعة من الكولون التي كانت تطوي، هناك، قدام عينيه، طرقات فاس الساحرة...

نهض ادريس متقززا. كان هذا المشهد يسبب له الغثيان. ودومت أفكار مشتتة في ذاكرته. وبدأ سيل من الذكريات، لا شعوري وبتأثير ما حصل له من انطباعات، يتتابع تتابع ظلال متحركة تحت مرايا المشكال. لقد استحضر في نهاية الفلم بعضا من سلوك أمغار من الأمس ازاء روما ونظام استغلالها الذي جمّل آنذاك بعبارة الحضارة اللاتينية. انه سلوك يوغرطة الذي كان، على نحو خاتمة فلم متقلب، يسعى، بعد أن مرغ مرات أنف الشعب-الملك في وحل الهزائم، الى أن يشتري يالذهب والأراضي، ضمائر شيوخ يرحبون، في هدوء، بولاء هذا الذي عرض منذ قليل عقبان الفيلق لأقصى أنواع الإهانة. وكذلك تلك البصقة الشهيرة عند مغادرة العاصمة الكبيرة التي ترمز عبر القرون، الى كل ما تخبئه أفريقيا المهزومة من حقد على المدينة الفاسدة تحت ثوب العظمة الزائفة ومن احتقار لها.

كانت سيارات الليموزين بعيدا تطوي الأرض وراء ستار من الغبار. وكان يبدو أن الصوت الذي يردده الصدى يعبر عما حدث قبل قليل من ضوضاء. كان في داخلها معمرون أثروا يهضمون ما شربوا. إن البرنوس والجلابة يعرقان من أجل ذلك.

بصق إدريس، هو أيضا، بكل قواه، وقد ارتد منه الجذع الى الوراء ولمعت عيناه وانتفخ منخاراه، في اتجاه هؤلاء العفنين...

كانت إسبانيا، في الشمال في وضع ميؤوس منه. وكانت جيوشها المنهزمة، تتشظى. لقد كانت شوان أنوالا ثانية. ولم يتمكن الدكتاتور إلا بعسر من الاحتفاظ بتطوان وموانئ الساحل. وإذاك بدأت انتصارات الأمغار تمنع لاروقان من النوم. فقد أصبح منذ 1921، على ما كان يؤكد الناس في الرباط، يقلد كاتون وتيميستوكل معا. كان ينتقل بين مراكش وفرنسا مطالبا "بتخريب قرطاج من جديد". ولكن القوم في باريس، إذا كانوا يوافقون على القمع، فإن الجمهورية تحرص، مع ذلك، على المحافظة على المظاهر. فلا بدّ، مثلما كان الشأن في فونتينوا، من أن يقع الشروع في إطلاق النار عليها قبل أن تضطر إلى الردّ. ولقد تكفلت مصلحة الاستعلامات بالأمر وسحبت من الكيس واحدا من هؤلاء الشرفاء المزعومين الكثيرين الذين يفرّخون بسرعة في كل مكان تقع زاويته، إتفاقا، في أراضي ورغة المتنازع عليها. وبعد أن لقن الدرس وقع الرمي به بين سيقان الريفيين. ولقد حققت المناورة الغرض منها فحركة الأمغار، تصدوا، وقد استثيروا، للدجال. واستنجد الشريف بالفرنسيين وشرع البارود في الكلام. وكذلك بندقية ماك-ماهون...

اشتعلت مراكش من الحدود الجزائرية إلى الأطلنطي. وكان الحركة الذين استولوا على غطاء الحصون في أودية الموالوية والإيناون والورغة ينقضّون على تازا وفاس. كانت أذن المغربي الملتصقة بالأرض، تماما مثل موريسكي القرن السادس عشر، تتسمّع في أحشاء الوطن أصوات الفرق التي رمى بها الجبل الغازي. وكانت هالة تطوّق بطل المغرب على النحو الذي طوّقت به سابقا جبهتي حنبعل ويوغرطة.

اجتاح الجواسيس القرويين. وكان أمر قد أصدره كوينلارت، بموافقة برايار، يقضي بإيقاف أو مراقبة كل طلبة المسجد وخاصة، وهذا ما يدقّقه سريّا، "الذين عرفوا بأنهم أذكياء يجدّون في الدراسة ولو كانت سيرهم لا مأخذ عليها". لقد كان من شأن نشدان نشاط فكري ما أن يشي، في حد ذاته، بالطالب المسكين الذي تجرأ

على التأكيد أن الأرض تدور وأن الجسم البشري ليس غير نسيج من العناصر الكيميائية وأن تعاليم الإسلام تتضمّن مبادئ تطابق المبادئ التي يركح إليها إعلان 1789، فيالتو لستوي المسكين!

إن أوخرانا آل رومانوف فاقتها، وزيادة، هذه الجمهورية المرائية التي لم تعد حتى قادرة على التمييز بين واحد مثل جوريس وواحد مثل فوشي.

لقد قبض على أغلب ناشطي الجماعة وسجنوا ولكنه لم يقع الفصل بينهم لأنه لم يقع التفطن لوجود جمعية تؤلف بينهم. وهكذا تمكنوا، مجتمعين، من متابعة أطوار مبارزة داود المراكشي الجالوتين الفرنسي والإسباني. كانوا على ممرّ أحداث المعركة، وفي كل يوم، وفي ساعة النزهة في فناء السجن، وبعيدا عن الحراس والمساجين المصطنعين، يتبادلون، همسا انطباعاتهم. وكان كل واحد منهم، دوريا، يجتهد في استنباط العبرة من الحدث البارز في الأسبوع أو في إخضاع المعركة كلها لنقد يلائم الظروف.

لقد كان سي عبد الرحمان والسلاوي وإدريس من بين المتعتقلين. وكان سي تاشفين خاضعا للإقامة الجبرية. أما سي اليزيد فلم يكن ضمن الجماعة لأنه التحق بالجبهة صحبة بعثة طلبة الجبل الأولى.

تبين عقم فن الاحتراب عند لاروقان منذ إطلاق الخرطوشة الأولى فكان ذلك مناسبة لمزاح عام في الجيش. ومن ناحية ثانية فإنه لا أحد كان البتة يشك في الأمر فأبعد السيبيون الخائب ووقع الإستيجاد بنبراس المدافع عن فردين الذي قدم من فرنسا مصحوبا بأعداد من القوات المسلحة تفوق الخمس عشرة فرقة من المشاة والخيّالة والطيران والفرق المدرّعة في حين كان مدد جديد يصل من أفريقيا الشمالية. ووصل

أمر للأسطول بالتحرك وشرع، قبل أن يتثبّت خط التقهقر، في مفاوضة إسبانيا بغية توحيد جهود القوتين العظميين في مواجهة نحو ثلاثين قبيلة. وأوفد جان-لويس مالفي، فخر الحزب الراديكالي الذي كاد كليمنصو أن يبعث به سنة 1917 صحبة ماتا–هيري وبولو ولونوار إلى حصن فانسين، إلى ديكتاتور كل الإسبانات. لقد توظف مالفي، وهو الذي كان، في فرنسا، ضحية اليمين، لخدمة البوربون في إسبانيا بطيبة خاطر. ولكن الأمر كان يتعلق بمراكشيين. وهذه، من ناحية أخرى لم تكن المرة الأولى التي يتحالف فيها المثلّث ومرشّة الماء المقدّس على الهلال. كما أنها لن تكون الأخيرة. وهكذا شهد العالم، في شيء من الحيرة، أمتين من أوربا تعبئان الجيوش والأساطيل للتغلّب على عدد من الجبليين العازمين في مضيق تيرموبيل المغرب على الاستماتة في القتال.

كان النشطاء الشبان فخورين بهذا المشهد. وكان عجب خفيف ينفخ عروقهم فلقد كانت طاقة أرض الأجداد القديمة تفصح عن حقيقتها بجرية أمام أعينهم المنذهلة المتحمسة في الآن نفسه في تلك المبارزة غير المتكافئة التي كان فيها المحارب المغربي الذي لا يكاد يكون مسلّحا يطلب دائما القتال جسما لجسم اقتصادا في الذخيرة. كان ذلك الصراع الملحمي وتلك الكمائن التي توقع فيها أعداد قليلة من المتطوعين بكتائب وأرتال كاملة، تلك الغارات على المدفعية بسلاح لا يتعدى الخنجر، تلك الهجمات بالقنبلة اليدوية على الدبابات، كل ذلك يوفّر، حقا، عناصر إلياذة جديدة يجب أن تكتب تمجيدا للشمال أفريقيين.

لقد احتيج إلى أكثر من مائتين وخمسين ألف جندي وستين جنرالا وثلاثة مشيرين منهم واحد كان يحمل على كمّيه السبعة نجوم التي حصل عليها في أتون فردين لاخضاع البلد الصغير في شمال مراكش المكون من الريف والجبل.

***

شاعت، ذات يوم، أخبار مفادها أن أمريكا سترسل بطيارين متطوعين إلى مراكش، كان سرب أطلق عليه اسم لافاييت بصدد التكوين ولكنه لم يعرف في بداية الأمر أي خصم يسنصر.

لقد ملكت الحيرة النشطاء في الجماعة. إن أمريكا بلد طالع مولده الحرية. ولقد تطور تاريخه في أثناء القرن الأخير متأثرا بهذا المجاز، ولكن اختيار الجنرال الذي أوفده فرجين على واشنطن لمحو إهانة 1763 أكثر مما أوفده لإعانة الثلاث عشرة مستعمرة العاصية كان يشير بالحذر. وكانت تعليقات الصحافة الفرنسية المتحمسة حول سوابق هذه الحفنة من الرؤوس الجسورة تدل بما فيه الكفاية على أن القضية، منذ الآن، مفروغ منها. وفعلا فإن الطائرات الحاملة ألوان العمّ سام شرعت، في غمرة القتال، في بصق شظاياها القاتلة في القرى المراكشية. يا للمنطق الإنساني! لقد عبر أحفاد واشنطن وجيفرسون ومونرو ولينكولن باسم الحرية الأطلنطي لإعانة الأرتال الفرنسية الإسبانية المكلفة بإخضاع شعب بوسائل كانت تدعى شرعة الرئيس ولسون إلغاءها نهائيا. هذا الموقف أذهل الطلبة المسجونين وهذه المغامرة الماورا أطلنطية آلمتهم. لقد مكنتهم من أن يتأكدوا، فعلا، من خواء المظاهر العاطفية والدعاوي العقدية في غرب كان دائما يقف موقف العداء من الشرق ولذلك سلموا بضرورة الانفطام:

"فلتتذكروا، قال لهم سي تشفين منذ أن بلغ آذانهم تأكيد ما يروج في المدينة حول هذا الخبر، فلتتذكروا ما قاله لكم واحد منا ذات يوم عن موقف بيرون الذي غادر انجلترا في مشية معرقصة بسبب رجله الحنفاء، ليندفن تحت خرائب ميسولونغي باسم حريات الهيلاد. إن بيرون، شاعر المستقبل ومرتل آيات الليبرالية الوليدة لم

يذهب، في حقيقة الأمر، إلى اليونان إلا لمحاربة الشرق مثلما سبق أن فعل ريشارد قلب الأسد باسم قبر السيد المسيح. إنه لا أحد يذكر أوربيا طار لنصرة بلد شرقي اجتاحته جيوش الغرب فدافع عن نفسه لأسباب شبيهة بالأسباب التي تفنن القوم في نسبتها إلى أتباع كاناريس.

"لقد قاتلت الجزائر في أثناء عقود. وهي لم تعرف غير هذا المغامر الجاسوس ليون روش. ولنضف إليه المرتد جوزيف فانتيني الذي سماه تاريخ فرنسا يوسف وكذلك في ما يتعلق بتونس، الليقرو: إننا هنا بإزاء ثالوث من الأنذال. وإذا كانت توجد، اليوم، حقيقة، قضية تستأهل إثارة التعاطف وإلهام التضحية فهي قضيتنا. فقبل كل شيء نحن نتعرض للغزو لا لسبب إلا لأن أرضنا غنية ووسائل دفاعنا عنها ضعيفة. ثم إننا نحارب بأسلحة غير متكافئة. إنه ليس لدينا مالية ولا مصانع ومحاربونا ليس لديهم لا طائرات ولا دبابات ولا مدفعية نواجه بها قوى الخصم المتفوقة تجهيزا. إن رجالنا يسقطون في ميدان القتال من دون أن تكون لنا دولة قادرة على تقدير ما بذلوا وعلى إنجاد جيش الأرامل والأيتام الذين خلفوا وراءهم، وليس لدينا لا صحافة ولا دعاية ترد على الفرى الشنيعة التي تنصب علينا في حين أننا، من دون ريب، ضحايا هذه الحرب وهذا الشره الذي تثير. إن ابن عبد الكريم صف نحو عشرين رشاشة وعددا من المدافع لمواجهة جيش يقدر عدده الملاحظون الأقل انحيازا بمائتين وخمسين ألف جندي من دون حساب مستودع العناد المتوفر الذي تملكه فرنسا وإسبانيا.

"ومع ذلك فعلى قرانا وأسواقنا يأتي أبناء عم مؤلف تشايلد هارولد بصفة متطوعين ليجربوا رصاصاتهم ومتفجراتهم".

— "لقد بعث بوراه يحذرهم ويهددهم بحرمانهم من الجنسية الأمريكية إن لم يعودوا

على بلادهم"، همس السلاوي.

"هذا لا يعني شيئا"، رد سي تاشفين.

— "وإذن، لم يعنّا غير الشيوعيين في هذه الحرب، معنويا على الأقل"، جازف إدريس بالقول في هيئة حالمة.

"إنني أحذر منهم حذري من الآخرين، عجّل سي تاشفين بالجواب، أنا لا أومن بأحد، فخيباتنا تكررت إلى حد يحول دون التسليم من دون تأكد ببوادر رأي تمليه ظروف داخلية بحت ويمكن للمرء أن يتفهمه عند شعب يهيمن عليه المذهب الرأسمالي والنظام البرلماني على حد سواء. إن نضالنا، هنا، ليس غير مناسبة لمثل هذه المعارك الانتخابية التي لا رهان لها غير السلطة. وأيا كان اللون الذي تتصف به هذه السلطة فستبقى متمسكة بالموقف نفسه منا فنحن لسنا في نظر الملكي أو الجمهوري أو الشيوعي غير مستعمرات أي قيمة استعمال وغير سلعة يحدد استخدامها أو مبادلتها بالنسبة إلى المجموعة الفرنسية درجات من الازدهار والمتعة تعجز الوصايا الإيديولوجية عن الفعل فيها. إن هذه المداخلات هي، من كل الوجوه، محض ديماغوجيا. ففي الزمن الذي كانت فيه مراكش تتعرض لصدام الجيشين الفرنسي والإسباني كان مجلس النواب الفرنسي في باريس يردد صدى صخب القسم الشيوعي في المجلس. كانت الأممية الثالثة تشكو عجزا دعائيا فارتمت وهي تلاحظ أن أوربا تستعيد شيئا فشيئا عافيتها بعد ما لحقها من خراب في الحرب وتشرع في الإفلات من قبضة الأممية الثالثة وشعاراتها، أرتمت على الشرق الذي وقع نسيانه شيئا ما منذ أطروحات مؤتمر باكو. فكانت الصين وشمال أفريقيا مرعاها. لقد كان خفض قيمة العملة ومنح التصدير يؤجلان الأزمات ويحدان من احتمالات بطالة متزايدة وكانت المصانع والورشات تعمل من دون انقطاع

فحافظت الأجور على قيمتها العادية ولم تكن الأسعار لتسجل، حتى ذلك الوقت، هبوطا محسوسا يربك الحياة العمالية فأصبحت الاشتراكية الديمقراطية موضع اهتمام وعناية في حين كان مثال الرخاء الأمريكي الذي تحقق في كنف الاتحادات الاحتكارية يقلل كثيرا من حظوظ تحقق الثورة الاجتماعية مثلما تنبأ ماركس ولينين بمجراها. وإذ لم يكن في إمكان الثورة أن تحافظ على قدرة إيحاء بما ولدت من أسطورة إن كفّت عن التأثير في العقول فإنها وجدت في المسألة الاستعمارية الوسيلة الملائمة لتدارك القصور في المسألة العمالية.

ولقد استعمل خطباء الحزب المسألة على هذا النحو الشبيه بالليمونة المقتطفة من فرع في متناول اليد يعمد في عجالة إلى استخلاص عصيرها.

"لقد حدثتكم كذلك، أجاب سي الفحصي إدريس، عن مجموعة كاملة من المعارضين الاتفاقيين الذين استدرجتهم شجون المناقشات البرلمانية إلى الوقوف ضد المغامرات الأفريقية: ديجوبير وباسي ودولافوس وكليمنصو وقريني وألبين روزي وجوريس وفيني دوكتون.

"إنه لم يتبق من مناقشاتهم غير ركام من التقارير التحليلية والكشوف الثرية والأدلة التي تكفي، لو كانت العدالة هي المرجع، لنبذ الاستعمار نهائيا، ولكن لا شيء من هذا حدث فباستثناء هذا المزاجي قروني الذي كان يسوغ لنفسه، وقد اعتنق الإسلام، أن يتوضأ في محلات قصر البوربون نفسها وفيني الذي بقي، إلى النهاية، رجلا شريفا، لم يكن أغلب هؤلاء السياسيين غير ديماغوجيين باحثين عن الحقائب الوزارية والإعلانات.

"أما في ما يتعلق بمواقف الأحزاب فإن الحزب الشيوعي، على الرغم من أن حدة كلام

مندوبيه المندد بحرب الريف تضفي عليه طابعا خاصا، لا يخالف، هو ايضا، القاعدة الثابتة. ومن ناحية أخرى فإنه من أجل هذا كذلك وقع نصب منبر وسط الحرم البرلماني ووقع إنشاء الصحيفة في البلدان التي يمكن القول إنها تتمتع بحرية التفكير. فلا يجب عندئد فصل خطب النائب روديو عن البيئة التي انبثقت منها. إن العنصر الإيجابي الوحيد الذي تضمنته، شأنها في ذلك شأن كل خطاب معارض، هو التنديد، على مسمع من الناس، بالتعسف. وبهذا المعنى تكون هذه الخطب، وهو أمر يجب الاعتراف به، قد خدمتنا خدمة أكيدة بما أن القوانين الاستثنائية التي نخضع لها، نحن أفارقة الشمال، تمنعنا من التعبير عن مشاعرنا بحرية.

"إن هذا هو ما كان يفعله كليمنصو في 1885 تقريبا، وجوريس في الزمن الذي كان فيه فيني الذي شاءت تقلبات الدهر أن يعين مقرر الميزانية التونسية يكتب فيه "عرق البرنوس" ويندد في المجلس بسرقات الأراضي وتعسف المصالح الإدارية في إيالة الشرق المغربي مما لم يمنع لا كليمنصو أن يقرر، وقد أصبح رئيسا للحكومة، احتلال مراكش ولا جوريس، رئيس المعارضة من موافقته وإن بتحفظ ضمني مردّه إلى عادات ديبلوماسي بقدر ما هو أو ربما أكثر إلى اعتبارات عقدية.

"إن الدفاع من فوق منبر عن مطاعننا ومطالبنا أو عرضها على أعمدة الصحف، إن هذا بالنسبة إلينا هو الجانب المفيد في هذه المناقشات.

"فأن يكون النائب روديو صادقا في ما يقول أو لا فهذا أمر لا يعنينا خاصة أن مصائبنا ليست بالنسبة إليه غير سلاح يصلح لمقاومة خصوم حزبه الذي ليست أهدافه، ضرورة، هي أهدافنا.

"إنه سيكون من الشاق أن نأخذ، في فورة عاطفة، بقضية تعارض على أية حال، هي

أيضا، مصالحنا القومية بوصفنا مراكشيين وشمال أفريقيين. هذه العاطفة التي يبدو أنها الآن غلبت على عدد منا، لن أشاركهم فيها، بل إنني، بالعكس، أحذر منها حذري من كل دعوة إدماجية يمكن أن تدغدغ، إذا أردنا، مشاعر حالمة معينة وميولا ميالة، طبعا، إلى تبسيط ما هو شامل، ولكنها لا يمكن أن تتحقق في هذا العالم الذي يبدو أن التفكك هو الذي يقود خطاه والذي ليس في إمكان الإنسان فيه، مثلما تؤكد ذلك الدراسات حول قوانين التطور، أن يدافع عن حقه في الحياة إلا بالصراع الدائم والاحتراس من الوقوع في الأحابيل التي ترصّده من كل جهة.

"لقد عرفت، واصل سي تاشفين، جزائريين وتونسيين من الجيل الماضي ما زالوا يرعون ذكرى جوريس رعاية تدهش من تجشم، وهو يقرأ خطاباته المتعلقة بالمسألة المراكشية، عناء متابعة تعرجات تفكير ليس فيه من الثبات غير مشاهد مجتمع مثالي يحشو بها مونولوقاته، تذكر بعدن التي كان المبشر يعد بها سكان بلدان معينة قبل وصول الراية التي ترفعها يدا الجندي والتي تغطي سلعته الوطنية. الاشتراكية؟ الشيوعية؟ ولكن هذه النظريات ليست إلا كلمات يمكنها مثل كلمتي الحضارة والثقافة أن تقدم علينا جاهزة على حد الحربة أو تحت شظايا قنبلة الطائرة.

"ماذا تعرفون عن هذه المواضيع التي تطلب قبل كل شيء مجتمعات انطلقت من مرحلة المشغل وبلغت الآن بل تخطت أعلى مستويات التركيز الصناعي وإنتاج المنتجات المتماثلة؟ إن الرأسمالي، يوم أن كثر في هذه المجتمعات من المصانع ومكن لها بتوظيف التطبيقات المتعاقبة والاختراعات العلمية ويوم أن أصبح همه الشاغل تحقيق تراكم الأرباح، وسع توسيعا مفرطا مجال نشاطه حتى انتهى به الأمر إلى إقفار الريف لتزويد مصانعه باليد العاملة الضرورية لتشغيل جهاز مجسّي مثل هذا.

وفي هذه المجتمعات أصبحت السوق عالمية وملزمة بتطبيق قانون العرض والطلب إلى حد تظهر فيه المنافسة اليوم مثل سلاح تدعمه دواوين القنصليات والجيوش قبل أن تحل اللبس الذي تسببت فيه هذه المنافسة بالنزاعات الدامية.

"هل اقتنعتم، إن كنتم تفهمونني قليلا، أن هذا هو وضع أوربا اليوم. وشعوبها، في غالبيتها، أكدحت. إن بورجوازيتها التي أزاحت، منذ الثورة الصناعية، طبقة نبلاء إقطاعية، ملكت اليوم نهائيا. وهي التي تتنزل اليوم منزلة القيادة بسبب مقوماتها الاقتصادية ذاتها. إن شعار السيادة تبدل حامله. والذهب، باعتباره معيارا وحيدا لغيره من القيم أصبح، عوضا عن سكّي الفروسية القديمة ونقودها الشعارية، عنوان الطبقات الجديدة الوحيد. ومن البديهي أن تكون نتيجة تطور لم يفض حتى الآن إلا إلى الأزمات والحروب، سلبية تندرج هي ذاتها في نطاق حرب الطبقات والحروب الإمبريالي، إن هذا هو سبب ولادة الأطروحات الاشتراكية التي في إمكاننا القول إن الماركسية هي بالنسبة إليها المركز المحرك. إنني، مع كل هذا، أحرص على أن أقول لكم إنه، مع ذلك، لا علاقة لنا بهذه النظريات. وفعلا، فأي علاقة تربطنا، نحن، شعب المزارعين ومربي الحيوانات والتجار المنشدّين إلى وسطنا بمجموعة روابط لا تقبل التلف بنظريات فائض القيمة والمادية التاريخية وديكتاتورية البروليتاريا؟ إن تصورنا للأشياء ما زال على قدر من البساطة يمنعنا من المجازفة بإرباكه عند احتكاكه بجدلية الصيرورة الاجتماعية الدقيقة.

"إنه لا يتوقع من مجتمع محكوم بمفهوم حرب الطبقات أن يعيننا بقدر ما يزيد من إرباك ما يميز، في العمق، توازننا. وفي بداءة الأمر فإن عنصرنا العمالي المصنف ضمن منطقة خاصة بسبب الظروف السياسية التي تحكم المغرب، هو، بادىء ذي بدء، بعيد عن أن يأمل في الاستفادة من المنافع التي يفترضها مبدأ تساوي الأجر بتساوي العمل. فهو محروم حرمانا منظما من الامتيازات النقابية والطائفية المعترف

بها للعمال الفرنسيين. وفي صلب هذه الطبقة العمالية التي لا تقبل، على المستوى النظري البحت، أي تمييز عرقيّ، نرى طبقة البروليتاريا الشمال أفريقية تلعب دور كبش الفداء في مقابل ارستقراطية عمالية تتمتع بأجور لا يستهان بها مثلما تتمتع بكل الحقوق التي كرستها قوانين البلد الأم، فرنسا. إن أرستقراطية الآلة هذه تحصل على ما يمكنها من العيش وزيادة وتستفيد من جملة حقوقها السياسية وتقرر مصير اللعبة الانتخابية والأحزاب التي تتنافس لنيل أصواتها وتبدي من ثمة استعدادها لدعم مصالحها في وسط المجالس التداولية أو عند حدوث نزاعات يولدها الجدل الذي لا ينتهي بين رأس المال والعمل. وبهذه الطريقة ترصن هذه الأرستقراطية العمالية وتتعقل وتتبرجز وإن أداها ذلك إلى أن تعقد ضدنا وضد طبقتنا العمالية كل مواثيق التضامن الممكنة مع أرباب الصناعة الذين يؤجرونها ومع المستوطنين الذي يخادنونها ويتملقونها باسم الوحدة الوطنية. إنه، عندما يخفق العلم الأحمر فوق أبراج نوتردام مثلما هو يخفق اليوم فوق جدران الكرملين، لن يتحسّن وضعنا نحن. ولتكونوا واثقين من ذلك على الرغم من مباريات الخطابة التي يقوم بها عدد من ديموستانات قصر البوربون. إن علينا، إذن، ومن دون أن نبخس ما يستحقه النائب "روديو" من تقدير لما أعلن، تكرارا، من حقائق شبيهة بالحجر الذي يرمي به، مرارا، في بركة الضفادع البرلمانية، أن نتبين الخط الصحيح الفاصل بين عاطفتنا ومصالحنا. لا يجب أن تخدعنا الألفاظ".

***

كانت عيون الجماعة معلقة ناحية الشمال فهناك كانت الحرب تجيش. إن مسرحية فاجعة من مسرحيات مأساة العصور الحديثة كانت أحداثها تدور في الريف من دون خاتمة ممكنة. فمن دون انقطاع كانت تصل فرق يدفع بها في الحين إلى قلب المعركة. وكان ذاك الذي مكنه التاريخ من شرف إلحاق الهزيمة في جحيم فردان بوريث العرش

الإمبراطوري الألماني وأفسد خطط رئاسته أركان الحرب الألمانية يجد نفسه مضطرا إلى التوقف بل قريبا من الارتداد على عقبيه بفعل عدد قليل من القبائل المراكشية كان يقوده رئيس لا يتجاوز تكوينه العسكري حدود الارتجال.

لقد امتلأ العالم سنتي 1925 و1926 بضجة تلك المعركة وباسم أمغار أجدير. ولكن الصلب انتصر. إن في إمكان البندقية أن تصمد، عند اللزوم، إزاء الرشاشة، ولكنه ليس في إمكانها أن تصمد إزاء القوى المشتركة، قوة المدفع والدبابة والطائرة والحصار. وذات مساء يوم من أيام ماي 1926 انتشر في فاس خبر قرب توقيف العمليات الحربية ووصول مبعوثي الأمغار إلى الخطوط الأمامية بغاية الحصول على شروط الهدنة. وبعد أسبوع صمت صوت المدفع ولف الصمت المغرب من جديد، ونفي البطل في المحيط الهادي عقب دجل وجدة وعقد الصفقة الذي قدم عربونها جان-لويس مالفي في مدريد. ولكن مانون رولان لم تكن حاضرة فتصيح في وجه التمثال استرعاء ثانيا للحياء!

أطلق سراح المعتقلين فعادوا إلى القرويين. ومع أن المغرب أدهش العالم بآيات الشجاعة فإن الطلبة لم يتمكنوا من التخلّص من شيء من الشعور بالإهانة. وقد اقتضى الأمر شهرا كاملا لاستعادة حالتهم في حين كان إرب من الأمة يطير نحو الريينيون.

لقد دامت الملحمة خمسة أعوام وسيتواصل النضال، بالرغم من استسلام القائد، من قمم البو إبلان إلى براح تافيلالت طيلة سبع سنوات أخرى، فالمغرب لا يريد أن يموت.

صوت الدم

خف الحصار. وذات يوم عاد طالب متطوع من الجبل. لقد كان ذلك أثناء الليل، بعد العشاء، وكانت الجماعة ترشّف الشاي. كان سي تاشفين حاضرا في القرويين وكانت مناقشات تتلاحق منذ عدة أسابيع بين الجامعة القديمة والقيصرية بقصد التفاهم على إمكانات تأسيس منظمة يعهد إليها في صياغة برنامج مطالب شعبية تصبح منطلق حزب وطني ومناسبة إصدار جريدتين، إحداهما بالعربية والأخرى بالفرنسية تكونان منبرا على الأكفاء من موالي الجمعية أن يفصلوا أفكارهم فيهما وأن يبينوا سدادها.

الرأي: تلك هي الدعوة الجديدة التي جرت على كل الألسنة بعد نهاية الانتفاضة. لقد كان للبلد مطالب أساسية يسعى الى فرضها على "الحماة". كانت الجماعة تعي أن الشعب يحتاج قبل كل شيء إلى تربية ووعي وروح:

"إن السلاح، كان سي تاشفين يقول، ليس غير الدرع التي تقي فكرة. ومن دون فكرة لا يكون للسلاح أي معنى وأي مبرر للوجود. إن الفكرة هي الشعور عندما يبلغ مرحلة الإدراك ويقع التعبير عنه بصيغ ملموسة منتظمة. وإذا ما بقيت الأمة في وضع مبهم تهزها الأحاسيس المتغيرة التي تحول دون قدرتها على تحديد مصالحها وطريقة التعبير عنها فإنه عليها ألا تأمل مستقبلا أفضل إذ هي لن تتخطى البتة المحيط الذي لا يتيح لها فرصة التطور ولكنها ستكتفي بالعض والانتقاض. إن منفيّ الريينيون سوف يبقى وجها من أبهى وجوه تاريخنا. إن هذا الأمر مفروغ منه. ولكننا

كنا نفضل، والحق يقال، أن يكون قد وجد عوضا عنه رجل من طراز جمال وطني كان يمكن أن يستدعي نخبة شبابنا الى التربي والتعلم في مدرسته. إن على الأمة الآن، وعلى شبيبتها بوجه خاص، أن تواصل المعركة ركوحا إلى طرق جديدة. إن هذه المعركة ستكون شرسة طويلة مرهقة تتخللها محن لا تحصى ولكنه يمكن للجلد والعزم فيها أن ينتصرا. إن هذه هي السبيل الوحيدة التي تتيحنا خطوط نجاح جدية..."

كانت الجماعة عند هذا الحد من النقاش عندما جاء المتطوع ليجلس وسط الحلقة المتربعة فوق حصائر من صوف متعددة الألوان قصبت على طريقة الفجيج، كان شاحبا مهزولا. وقد لاحظ الحفل أنه كان يضلع شوية.

بعث في طلب إدريس وعدد آخر من الطلبة كانوا عند رفاق بصدد القراءة أو التناقش في مسائل مختلفة فجاؤوا على الفور واتخذوا بعد تقبيل الطالب وتهنئته مكانا في الحلقة. أغلقت الأبواب وبدأت الأسئلة تنهمر. كان إدريس ممتقع الوجه وكانت عرة غير مألوفة تهز خده الأيمن. أما جبينه فكان يقطر عرقا. لقد انقطعت عنه منذ ما يقرب من عامين أخبار العائلة على الرغم من أن حربا شرسة كنست بالنار الجبل. ولقد مر الموت من هناك، متسلحا بـ بمحشته وأتى على الناس، يمينا وشمالا، من دون تمييز. لذلك كان أسوأ الأخبار متوقعا. كان يودّ أن يتحدث وأن يستخبر عن أبيه وأهله وأصدقائه ولكن صوته تجمد من دون أن يتمكن من لفظ أقل صوت. جاهد نفسه وفتح فمه ولكن الكلمات انطلقت لتموت على شفا شفتيه محدثة حركة انقباضية وحشرجة مثلما يحدث لفاقد للصوت يجتهد في مغالبة أوتاره الصوتية. دخل على الجماعة طالب يحمل ملعقا فيه زوجا بيض ما زالا قيد القلي في زبدة زنخة وطلمية وعدد من حبات التين الجافة ودعاه إلى أن يجدد بالغذاء قواه قبل أن يصب له طاس شاي. صمت الحفل وحوّم صمت جنائزي على الرؤوس المقلنسة. لقد كان الجميع يتوقّعون سماع أوصاف مخيفة وقصص رعب وتخريب

ليس من شأنها اثارة الأمل في النفوس. جازف السلاوي الذي فاجأ المجتمعين بالدخول قبل قليل باستنباء الطالب، بعد عدة دقائق، عن سي اليزيد.

— "لقد مات، أجاب المتطوع وهو يأكل. أماتته رصاصة أصابته في الجبهة شمال عين مديونة".

تجمّد الدم في عروق المجتمعين. ها هو أمل من أمال المغرب الفتي يتوارى في ميدان المعركة فلا يجد من كفن وحيد غير سجيل الورغة.

— "وبقية البعثة؟" سأل سي تاشفين.

— "إنه، باستثناء متطوعين هما الآن يعالجان جراحهما في دشرة بني زروال، لن يعود أحد. لقد هلكوا جميعا، وأغلبهم عندما كانوا يقاتلون الإسبان في الشمال..."

واصل الطالب أكله وقدّم له سي تاشفين كأسا من الشاي. وبينما كان يترشفه سحب ذيل الجلابة فوق ركبته. كان جرح كبير لم يندمل بعد والتصقت قشور من الدم والقيح فيه بضمادة خشنة يشج كل أسفل الفخذ اليمنى.

— "إنه شظية قذيفة مدفع، قال. لقد كادت تهشمني. لقد اصابتني على ضفة الأودور أثناء هجمة قامت بها الفرقة الأجنبية. إن نجاتي تعد معجزة. إن الحرب أمر فظيع". ثم بعد جرعة شاي: "آه، يالها من حرب باسلة خضنا! لقد كنت اعتقد إلى وقت قريب أن وسام الشجاعة إنما هو من حظ سكان جبالنا في بو إبلان، والآن أنا اعترف اعترافا صادقا، بتفوق الريفيين والجبليين باز! إنه لا بد من يكون للمرء قلب من حديد ليصمد للطوفان الجهنمي الذي عشنا أهواله. لقد صمدوا الى آخر

دقيقة، الى اللحظة التي لم يعد فيها، في حوزتهم، بعد أن نفدت الذخائر، غير الخنجر وقندق البندقية أو قطع الصخر سلاحا يجتهد في إيقاف الجرف البشري الذي كان يتدفق عليهم من كل جهة."

— "هل كنت في تيزران؟" سأل إدريس بخجل.

— "نعم، قضيت فيه ستة اشهر، وشاركت الحركة تقريبا كل معاركها ضد الإسبان. إنه لم يتبق شيء من هذه النخبة".

— "وأبي؟" قال إدريس في تردّد مشوب بالجزع.

— "أبوك؟ أجاب المتطوع، لقد تحسنت صحته".

قتم وجه إدريس وومضت عيناه وأعلنت حركة حلقية متبوعة بصوت أجش عن نحب مضغوط وتبللت جفونه...

— "لقد تحسّنت صحته، نعم، كرر المتطوّع القول كما لو كان يحادث نفسه. ولكن آخرين ماتوا، لقد مات سي بن عمر إذ أصيب في أدغال دار بن قريش ومات، أيضا، سي عبد القادر بن الأخضر، هذا الجزائري الملبس بعالم الذي سبق أن حدثتني عنه والذي تعلمت منه أن أعرف وأن أحب. لقد مات مثل واحد من هؤلاء العرب القدامى في الزمن الغابر الذين يكاد ينطفئ نوعهم اليوم. لقد فاجأته الحرب وهو في الريف فوضع نفسه فورا تحت تصرف الأمغار. لقد تخلى عن وظيفته بوصفه علاف المحلة التي عهد فيها إليه وتقلد بندقيته مثل كل الآخرين والتحق بفلول حركة تيزران بعد موت سي بن عمر واصابة أبيك. ائتمرنا أوامره ولم نفترق إلى النهاية. لقد

شارك، وهو يتقلد بندقيته الصغيرة ويتكئ على عصاه، في كل المعارك وكل الكمائن. وكان في المساء وأمام نار وقودها سروع التين تشتعل في موقد مسجد قديم في القرية محدثة صوت انكماش إذا كان الطقس باردا وفي الهواء الطلق إذا كان الفصل ساخنا، كان يجمعنا اليه، فقيهين وطلبة ممن كانوا في الميدان ويلقي علينا دروسا في اللغة العربية أو في تاريخ المغرب مؤكدا على ضرورة تطور الإسلام الاجتماعي. لقد كان رجلا حازما. وقد سقط، ذات يوم، قرب الفندق، عندما أصابته شظية قنبلة طائرة مزقت بطنه. حملناه الى قرية في جبل الحبيب حيث بقي ما يقرب من شهر يعاني أوجاعا فظيعة. إن الهدوء لم يفارقه البتة. كان نزف داخلي قد أنهكه. ولكنه كان في كل مرة يسترد فيها شيئا من قواه يدعونا بالقرب منه ويناقشنا، مسفرا عن ابتسامة ضعيفة تنير وجها تكثفت فيه ظلمة الموت، حول موضوع من المواضيع ويحثنا، وهو الذي يحتضر، على الدراسة والانضباط والعمل. ذات يوم، وكان الوقت خريفا، بدا أن حالته تتحسن. وكان وجهه الذي شحب وأتلفته التجاعيد قد استعاد شيئا من صفائه. كنا قرب سريره وكان يقرأ عددا من صفحات رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ويشرح لنا النص. كنا نتابع هذا المونولوج عندما لمحنا على وجهه اختلاجا ضعيفا وانفتحت عيناه لتستقرا في نظر أضفى عليه سكون الأجفان المفاجئ طابعا قاسيا وفاجعا معا. كانت أصابعه تمسك بالكتاب واتخذ فمه المنفرج على الكلمة الأخيرة التي انفلتت من حلقه، هيئة تكشيرة شبيهة بواحدة من هذه البسمات التي ترسم على شفاهنا عندما نحس بشيء من الغيظ المبهم. لقد مات سي عبد القادر..."

— "لقد مات ميتة رواقي، هتف سي تاشفين، وعلى هذا النحو أود أن أموت!"

مات سي بن عمر، مات سي عبد القادر. لقد انهد عمادان مثاليان كان ادريس يسند إليهما حياته الشابة لوقع رشقة نارية. لقد بدأ الجبل يتبدى لعينيه مفجعا.

— "وسي عبد السلام؟" سأل.

— "سي عبد السلام، فقيه قريتك؟ مات هو أيضا. لقد سقط، هو بدوره، في منحدرات الروكدي قبل عدة أسابيع من استسلام القائد. إنني سأتذكر دائما رضي الخلق هذا. أما في ما يتعلق بأبيك الذي أصابته في البداية رصاصة رشاش فقد أصابته، مرة ثانية، أصابة بليغة شظية هدمته تقريبا."

— "هدمته؟"

— "نعم، كادت أن تهدمه. إن الشظية التي اتلفت فخذه بترت في الآن نفسه اليد اليمنى على مستوى المرفق. إنه لا أحد اعتقد أنه سيخرج سالما ولكن قدرة الله لا حدود لها. لقد عاد بعد أربعة أشهر إلى الحياة بشكل غير محسوس. هو، بالتأكيد، أصبح خفيف حركة الرجلين فاقدا إحدى يديه يغمز في مشيه ولكن نشاطه، مع ذلك، بقي على ما تعرفه منه بل إنه أصبح مهيبا شيئا ما. ويمكن الاعتقاد أنه فخور بجراحه وأنه يرى في التضحية التي سببت عرجه فضلا خاصا منّ الله به على شخصه الحقير. لقد تضاعف احترام من يحيطون به وأصبح، من الآن، نوع من الأسطورة ينسج حول اسمه. وكثير من رفاقك القدامى في الدشرة لم يعودوا من هذا العالم. ومع ذلك فإن عددا منهم نجا من ضربات ملك الموت، فالأسمر الذي كنت تروي لنا مزحاته والذي عرفت فيه واحدا من أكثر محاربي الجبل اقداما، دكت وجهه ضربة حربة تلقاها أثناء تصديه للسنغاليين في قتال جسم لجسم. وهو إذا كان دميما، خلقة، فانه يمكنك أن تصدقني اذا قلت لك إن هذه الضربة لم تكن لتجمل من وجهه شيئا. وهي، مع ذلك، لم تنغص، في شيء، عيشه..."

كان الجميع في حالة انفعال وإدريس بالخصوص. لقد جفت دموعه وبقي هناك منذهلا وجما تائها جامدا في موقف محزن ينظر من دون تركيز الى المتطوّع الذي كان يسدّد إليه، من دون قصد، هذه الأخبار مثلما يسدد بهراوة ضربات متواترة على الجمجمة. سكت الجميع عن الكلام وكان سي تاشفين هو الذي قطع الصمت:

"لقد انتهت الآن، استنتج سي الفحصي، الحرب المسلحة. لقد أدى المغرب واجبه ببسالة. ولا يمكن لنتائج حرب أن تقاس إلى أحكام هزيمة في معركة. إن مغرب أجدادنا انبثق ثانية بعد كارثة جاما وأطلال قرطاج والنضال الحقيقي المتبقي الذي يسترعي قبل كل شيء انتباهنا وقوانا إنما هو في التربية والعمل اللذين علينا أن نجابه. إن علينا خلق وعي وطني يكون جديرا بإرادة الحياة فينا. إن للحياة قوانينها والتنكر لذلك يعني رضاء السقوط الى مرتبة رقيق اسبرطة أو عدد من الأقوام الذين ولدوا للخضوع لإرادة الأقوى. إن في هذا ترحيبا بالعبودية والخزي.

"إننا، في حقيقة الأمر، نحارب منذ 1830. وأعداؤنا، والحمد لله، لم يجابهوا جمهرة من الجبناء. ولكن ما كان ينقصنا انما هو أمر أساسي في هذا النضال. إنه وعي السبب الذي من أجله كنا نحارب وثمن جهودنا وتضحياتنا والهدف النهائي من مجموع كل هذه الجهود. إن هذا هو ما علينا قبل كل شيء أن نعرف. وعندما نفهم ما يتوجب علينا إزاء ضميرنا ووطننا، وعندما يمكّننا التعليم والعمل من معرفة أفضل بقيمة حقوقنا، وعندما يمتلك شعبنا الذي ازداد تطورا، لقيادته، نخبة قادرة على التعبير عن رأيه وصياغة رغباته، عندئذ، وعندئذ فقط، يمكن لعملنا أن يؤتي ثمارا قيّمة مطابقة للعطفة التاريخية التي نعيش أحداثها المحزنة".

اجتذب سي تاشفين إدريس الذي مكث إلى جانبه صموتا منذهلا شوية وضمه طويلا إلى صدره.

***

تسارعت الأحداث فلقد عقب استسلام الأمغار مجموعة من الأحداث آلت حسب عبارات القرن الأكثر ابتذالا إلى تكريس استعباد مراكش.

إن نظام الخوّة هذا أداره نوع من الحماية ذات الرأسين توسل بحقوق مزعومة مكّنته منها معاهدات واتفاقيات ختمتها القنصليات العالمية. لقد وقع تمثيل المسرحية في وجدة. وإنهاء خدمات لا روقان لم يلغ نظامه. وإذا كانت لعبة الرأي العام والقاعدة التي تقوم عليها الأحزاب تتعارضان في فرنسا وتظهران، في الغالب، مشهدا خاليا من التماسك واليقين فإن السياسة الفرنسية تقوم، على العكس من ذلك، على روح من الثبات يبعث على الحيرة لما يتصف به من عناد ورتابة باهتة. وهذا هو ما حدث.

لقد خلف تروك[114] لا روقان.

وتروك، مثلما يفترض ذلك اسمه، لم يكن فرنسيا أصيلا بل حتى ألزاسيا ذلك أن جدّه جاء، عقب المد النابليوني الذي لم يكفّ عن اجتياح أوربا الوسطى بداية القرن الأخير، من قلب المانيا. وهو بذلك يكون مثل موريس دي ساكس وكيلرمان وني وسبيلر، قد قبل بالذوبان في بوتقة الاندماج. أما أبوه فقد أصبح فرنسيا وجمهوريا، معا. لقد ربط مصيره، وهو البروتستانتي اللوثيري، بهذه البروتستانتية التي كان يقضّ مضجعها، على الدوام، شبح الحرب الصليبية الألبيجية وسان برتولومي وامتحان مونلوك ونقض براءة نانت والتي كانت تصر على أن تصنف ضمن أصلب

[114] هو المقيم العام تيودور ستيق.

حماة الجمهورية والمدرسة اللائيكية. ولقد ساهم، وهو العضو المرموق في الجامعة إضافة إلى أنه كان فيلسوفا، إلى جانب فيري، في مقاومة الجمعيات الدينية وآخر نواة من تجمعوا حول ذكرى قانون فالو.

لقد فضل الحفيد، وكان أوسع طموحا، صراع الفوروم على نعم مينيرف. وحياته المهنية إن لم تكن باهرة فلقد كانت مثيرة شيئا ما للاهتمام. هو لم يحظ البتة بالدور الأول إلا عند رئاسة المجلس فترة جد قصيرة بل مضحكة ولكنه أظهر تفوقا في وزارات الثقة وفي حكم المستعمرات. لقد كان اليمين يمقته وكان اليسار يحذر منه فأساء قيادة سفينته في هذه المياه المتضادة إساءة حالت دون الفوز بالمنصب الأوّل. كان مفرطا في التعلق بمحامي ديواز إفراطا قاتلا، ويؤكد من عرفوه أن هذا البروتستانتي الليبرالي كان لا يفتأ يثني على تطور حياة مهنية مزدوجة إذا كانت قد انطلقت ذات يوم في بلدية سان-مندي من اشتراكية عالمية لتنتهي بعد ذلك بربع قرن إلى إعلان سيرك با-تا-كلان الشوفيني، فهي قد صبغت الديمقراطية المناضلة باللون الذي كان ينقصها في لعبة التحولات البرلمانية.

لقد كان تروك يشكو رهاب المنبر. وهو لم يكن يملك شيئا مما كان يملك واحد مثل بريان أو فيفياني من قدرة على الخطابة. كانت تدخلاته في اللجان نادرة رزينة. لقد كان، طبعا، يميل إلى النشاط في الكواليس. ولكنه إذا كان ذا مهارة فلقد كان ينقصه الذكاء والبراعة. ولذلك فهو، عوض أن يستخدم أتباعه استخدمه من كان من هؤلاء أكثر خبثا. وهو، مع ذلك، لم يضغن عليهم. إن هذه هي كل حكايته.

لقد حل تروك بمراكش عندما كانت الحملة الريفية على أشدّها. كانت مهمّته محدودة. إنها تعادل مهمة جراح عليه، قبل أن يجري عملية دقيقة، أن يكون عارفا قبل كل شيء معرفة تامة بفن التبنيج حتى يقبل المريض، من دون اعتراض، بتر أعضاء

من جسمه. كان رجل المراحل الانتقالية، ولقد عاد المقيم الجنرال تروك بعد أقلّ من عام على طرد لاروقان إلى فرنسا بحجة أن تنافرا برلمانيا كان يحول دون بقائه، تاركا مراكش في حالة سلم هي أقرب إلى السبات منها إلى الغبطة.

لقد عوضه سانلوشون[115] في الرباط. وهذا السانلوشون، كان، بدوره، بعيدا عن أن يكون قديسا على الرغم من صياغة لقبه الذي تشمّ منه رائحة بخور السكرستيا. لقد كان واحدا من هذه الشخصيات الشيطانية التي غالبا ما يصادفها المرء في محافل الحزب الراديكالي ونوعا من أنواع دهاة السياسيين المرائين الذي يلقي على مسمعي من يريد أن ينصت إليه صلوات جمهورية لا نهاية لها، رافعا عاليا لواء المثلث الوصيّ متهيئا لأن يفصح، حالما ينزع عنه السختيان أو الكبية ذات الأوراق البلوطية، عن المعدن الحقيقي الذي تصدر عنه روحه الانتهازية. لقد كان سانلوشون، تماما مثل تروك، من هذه الطينة.

كان سانلوشون قد قضى حياته الوظيفية في الإدارة الولائية إلى اليوم الذي طلبه فيه، بعد الحرب، الكسندر ميليران وكان آنذاك يجلس على عرش الإيليزي، ليمكّنه من مرزبة أفريقية فبدّل مقاطعة في الجنوب الغربي بالإيالة التونسة التي أساء إليها، وأية إساءة؟

لقد كانت تونس تطالب بدستور وبحقوق ضمنتهما لها روح الاتفاقيات التي تنظّم حماية 1881. وقد وعدت، أثناء الحرب، رسميا، أن تنال ما كانت تبتغي. وكان حزب وطني هو الدستور الذي تأسس في ظل المجيد على باش حانبة يطالب بالوفاء بهذه العهود لا سيما أن التقاء ملائما بين الأطروحات الولسنية وعقائد عصبة

[115] لوسيان-سان

الأمم ومبادئ الثورة الروسية كان، في الظاهر، يسند هذه الأسباب التحررية، ذلك أن الأحوال لم تكن على ما يرام في نوميديا القديمة. فمنذ قليل كشف كتاب نقدي هو تونس الشهيدة، على نطاق واسع، أضرار هذا الاستعمار الذي كان يمثله، الغروليون والكاملكوفيون والكونيون المحليون والذي سبق للنزيه فيني أن فضحه، بشجاعة، قبل عشر سنوات، على منبر البرلمان وفي أعمدة "الحرب الاجتماعية". ولكن فرنسا التي لم تنقذها إلا معجزة من الرخ الألمانية كانت ترفض الاقتراح الذي يعرض عليها. فالإيالة يجب أن تبقى تقريبا على الصورة التي تخيّلها لا فيجري وكارنيير وتريدون أي بقرة حلوبا، وعلى البرنوس أن يعرق من دون انقطاع حتى يوفّر لروما الجديدة الخبز والعاب السيرك. إن هذه هي الغاية التي كان على سانلوشون أن يسخّر لتحقيقها مواهب المرزبان الذي كان خدمة لجمهورية رأسمالية يرأسها مرتد عن الإشتراكية. إن السنوات الخمس التي قضاها في تونس كانت تاريخ سياسة فظة متقلبة واجه بها راديكالي كانت الماسونية تحميه محاولات تحريرية بذلها شعب وقع الإبقاء عليه، قهرا، في وضع رتابة هذه "المرحلة الميروفنجية" التي سيتحدّث عنها ذات يوم راديكالي صميم هو المونيخي إدوار دالاديي.

وصل سانلوشون سنة 1927 إلى الرباط قادما من تونس وقد اكتسب خبرة وتجربة أفريقية، ولقد وجد في عاصمة مراكش الإدارية مجالا للنشاط يلائم مستوى مكره الجنوبي. كانت التركة التي ورثها ثقيلة، لا لأن مراكش كان يتعذّر، بعد سحق الانتفاضة، حكمها أو كانت قابلة لأن تربك المقيم الجديد. لا أبدا! إذ ما من شك في أن ارادة التعاون والتعاضد والتشارك أو أي شعارات أخرى لم تكن لتعدم، يقينا، أنصارا حازمين بشرط، وهذا أمر مفروغ منه، أن تعبر عن ذلك سياسة واضحة حاسمة نهائيا. لقد كان يمكن، عندئذ، تحقيق الرغبة في التفاهم إذ ما كان المراكشي ليبخل بعونه. ولقد كانت إرادته، بهذا المعنى، صادقة.

ولكن التوجيهات التي مدّ بها سانلوشون لم تكن قائمة على مثل هذه النيّة. لقد كانت الجمهورية مصرّة، بعد أن أخمدت المقاومة بالسلاح، على انتهاج سياسة تقسيم خطير كانت تراودها منذ أمد بعيد ولكن الملكية والإمبراطورية لم تجرؤا على انتهاجها.

لقد وقع اختبار هذه السياسة، دوريا، في الجزائر وتونس من دون أن تفلح هذه السياسة المستمدة من تقاليد السلم الرومانية ووصيّة إيزابيل وتعاليم السكرتير الفلورنسي الشهير، جميعا. كانت سلاحا حادّا وضربا من الحسام الذي لا يخلو استعماله من خطر. لقد كان الأمر يتعلق بمهاجمة الكتلة القومية المغربية وتقسيمها أقساما متعارضة وحلّ ما يربطها فتّا في مقاومتها حقوق الغزو ودواعي الاستعمار. كان الغرض هو تقطيع الأمة المغربية شعوبا وعقائد مختلفة وتقسيمها فئات مستقلّة وتشتيت عناصرها بعيدا عن المدار القومي والاحتياط من كل تمتين للوحدة وتجنّب انطلاق القوى الأخلاقية التي تهدف، بتأثير من الدينامية التاريخية، إلى تكوين أو تقوية الروح الشعبية. لقد كان لا بدّ من مهاجمة المغرب، بعنف، بنسف أسس بنيته الاجتماعية القائمة على الوحدة الدينية. إن القوم مازالوا يجتهدون، بعد سالوست وبروكوب بألفي سنة، في إحياء منهج فرق لتسود العزيز جدا على قلوب ولاة الإمبراطوريتين القديمة والمتأخرة. كانت فرنسا تمتلك، للوصول إلى مثل هذه الغلايات، وسيلة مزدوجة لا تهدف، باللجوء، في آن واحد، إلى سياسة التبشير بالإنجيل المضادة للإسلام وإلى السياسة المسماة بالبربرية، إلى أقل من شلّ حركة انطلاق الفكرة القومية ومن ثم إلى إحداث فوضى من النزعات تمكنها من ضمان النجاح لجهد الإعمار الفرنسي الذي كانت تبذل ولاستصلاح الأرض حتى يفيد منها، حصرا، راسماليّها وموظّفها ومعمّرها خاصة. هذا هو، على الأقل، ما كان عليه تفكيرها.

إنّ أصول هذه المحاولات متجذّرة. فهي ترقى إلى الفترة الأولى من احتلال الجزائر أي إلى الزمن الذي شرع فيه بوجو في التخطيط لقيام فرنسا أفريقية تقوم على استعمال مزدوج للسيف وللمحراث، أي لمحراث ذي مقومين يمسك بهما، وهذا أمر طبيعي، الحراثون المنقولون من مراعي الـ بري وحقول بيريقور.

إنه لم يعد في الإمكان، بعدما استبعدت مصالح سكان البلاد الحقيقية، غير اللجوء إلى مناورتي القوة والحيلة، معا، لإحباط كل محاولة مقاومة. إن هذه المحاولات لم تكن صادرة عن مجرد تذبذب أفكار ولكن عن أفكار لم يعد في الإمكان، من الآن فصاعدا، الارتياب فيها.

ولقد تطوّر الأمر ذاتيا. وعندما فطن القوم، وكان فورنيل هو الذي سبق إلى هذا الاكتشاف المدهش، أن الأمة المغربية تنحدر من أصلين مختلفين، اعتقدوا أنهم عثروا على الترياق المتمثل في محاولة إثارة الواحد على الآخر بإجراءات ملائمة. على هذا النحو كان منطلق هذا المشروع المؤسف. إن التبشير بالإنجيل يدعي أن في إمكانه أن يتوجه إلى العرب مثلما يتوجه إلى البربر إذ التبشير الديني لا يميّز هؤلاء من أولئك. لقد رأوا أنه يمكن أن تصبح الحواجز بين المسيحيين والمسلمين، مثلما كان الشأن في تركيا قبل إنهاء المشكلتين الأرمنية واليونانية ومثلما هي الحال عليه دائما في بلاد المشرق[116]، حواجز يتعذر عبورها. أما في ما يتصل بما يسمى بالسياسة البربرية فهي لم تعتمد إلا في صلب الإسلام الشمال أفريقي، لقد اجتهدت الكنيسة، زمن ملكية جويلية وبعد ذلك زمن الإمبراطورية، في إحياء فكرة سيسنييروس حول

[116] بينت أحداث 1943 و1945، ونهائيا، أنه لم تعد توجد مسألة دينية في المشرق. فقد تخلى المسيحيون والمسلمون، تصديا منهم للخطر الخارجي، عن أحقادهم القديمة بمزج طموحاتهم المشتركة وتحقيق مستقبلهم الوطني مرة واحدة. فهل تكون فرنسا قد فهمت ؟ (ع. ح.)

إمكانات بناء أفريقيا مسيحية. وهي لم تعدم حواريين جددا يقودون هذه الحملة الصليبية الجديدة. لقد بادر لويس فويو بالتبشير وبلغت الجرأة بأسقف الجزائر سيدنا دبوش حد الرغبة في تنصير عبد القادر نفسه. والمحادثات التي أجراها مع معتقل أمبواز هي، في هذا الصدد، ثرية بالمعاني. ولم يتردد ملهمون تنقصهم سلامة النية، بعد 1857 عندما استسلم المعقل القبائلي بعد مقاومة دامت ست سنوات، في ادعاء أن عددا من اصناف سكان جرجرة الشقر والصهب هم سلان فرع آري بقي في أفريقيا بعد تشتت الرومان والوندال. وإذ كان القوم يخلطون بين العرب والمسلمين فقد فضّل المنصّرون استهواء سكان القبائل. لقد خلّف هوراس فيرني لوحة تصوّر قدّاسا في بلاد القبائل يرى فيه القس سوشي، مرشد الجيش، مرتديا ثوب الكاهن الأبيض الشهير. إننا إزاء رمزية تنذر بفكرة سترى النور!

ولقد اكبّ الكاردينال لافيجري والأب دي فوكو على تحقيق هذا المشروع، ولكنه اقتصر على عروض مشهدية هزيلة لم تؤت أكلا واضحا. وفي بعض الأحيان لم يحجم قادة عسكريون أمثال الجنرال دي سونيس والأميرال دي غيدون والجنرال لابرين عن مظاهرة هذه المبادرات التي تناقض، وهذا أقلّ ما يمكن أن يقال فيها، دور العسكري المحدّد.

لقد مكّنت مجاعة 1867 المخيفة حواريي التفرقة من فرصة أن يؤسسوا، تحت غطاء المحبة المسيحية، عددا من الملاجئ آووا فيها أيتاما مسلمين وقد انتشالهم، اتفاقا، من الطريق وربّوا ووقوا في كنف عقيدة المسيح. ولكنهم ما أن بلغوا سن الرشد حتى عادوا، جميعهم، إلى إسلام آبائهم. لقد اعتبروا عققة عصاة لا يستأهلون الرحمة الإلهية وأوسعوا شتما وأهين الإسلام. ولكن هذا لم يسلّ مؤسس سان سيبريان في تيغزال عمّا لحقه من إهانة. فكان ينبغي البحث عن حلّ آخر.

إن رسالة لافيجري في الجزائر وتونس لا علاقة لها بالدين. فلقد كان هذا الكردينال شبيها بهيكلي منشغل بفري الكذب على الإسلام وخدمة غايات فرنسا النفعية أكثر من انشغاله بقيادة عدد من الشياه المخطوفة من الزرائب الإسلامية إلى الحظيرة المسيحية. لقد كان واحدا من هؤلاء الرجال ذوي اللباس الكهنوتي الذين لا يتحدثون في شؤون السماء إلا ليحققوا بشكل أفضل شؤون الأرض.

كان، وهو رجل ليون غمبيتا وليون الثامن مثلما سبق أن كان رجل الإمبراطورة أوجينيا وبيوس التاسع، خادما في الآن نفسه للمثلّث ومرشة الماء المقدس لتحقيق مشاريع راهب محارب تخدم، في أفريقيا، نظام استغلال رأسمالي ليبرالي ملحد. لم يكن لتعصّبه حدود. وكان المثل يضرب بمدى حقده على المسلمين، هذا الحقد الذي كان يستمدّه مباشرة من عظات بيير الناسك وتوركويمادا. لقد كان يطالب، ببرودة، وهو الذي كان يستميل الماسونية ويعارض، ظاهرا، لائحة الأضاليل التي خطأها البابا[117]، بتطبيق أحكام محكمة التفتيش المقدسة على الغيورين على العقيدة الإسلامية. وإذا كانت المحارق لم تغطّ المغرب فإن مردّ ذلك إلى أن هذا الأسقف الغريب وهذا الكاردينال الذي سامه كردينالا رئيس دولة كان حربا معلنة على الباباوية، قد ولد في عصر أذعن فيه الكهنوت منذ وقت طويل للسلطة الزمنية.

إنه هو الذي أنشأ تلك الأخويات الدينية بغية التبشير خصوصا في المشرق الإسلامي، الآباء البيض والأخوات المرسلات، وهي أخويات قد يكون في مكنتها أن تتبجّح بأنها خدمت سياسة كنيسة مناضلة ولكن البتة سياسة الصليب، هذا

---

[117] Syllabus أصدره بيوس التاسع سنة 1864. ومن أهم هذه الأضاليل: الليبرالية والاشتراكية والطبيعية (نسبة الى الطبيعة).

الصليب الذي يبقى، عبر القرون، رمزا لتضحية نبيلة سامية لا نفعيّة.

لقد اعتقد لافيجري الذي رفع إلى منزلة كبير أساقفة كنيسة أفريقيا أنه مدعو إلى أن يضطلع بدور شبيه بدور القديس أوغسطين الذي تخيّل أنه اتخذ منه قدوة. ولكنه كان، على عكس أسقف عنابة، يفتقر إلى الاستقامة التي هي الشرط الأساسي في كل رسالة تطمح إلى قيام نظام أرقى. وقد كان إيمانه، أيضا، مشبوها. وكل ما استطاع أن يفعل هو أن يظاهر، بنشاط، خطط غزو أفريقيا الشمالية مع ديبلوماسيين متمرّسين بسياسة الدسائس من قبيل روستان وضباط مصلحة الاستعلامات من نوع ساندير وجمع من السياسيين الباحثين عن الأراضي والوظائف الفضفاضة والدخول الضخمة. فالأمر، وقد تعلق بكاردينال يستمع إليه قداسة البابا والإدارة البابوية ولا تخطو الأسقفية الفرنسية خطوة إلا بإذنه، يعد، إجمالا، أمرا لا يعتدّ به.

وقد وجد داعية آخر إلى أنجلة المغرب الفاشلة هو الأب شارل دي فوكو، وهو وجه ملغز كامد لا قسمات فيه تثير الاهتمام شبيه بشخصية ثانوية في رواية لم تنل من النجاح حظّا ولم يبرز إلا بفضل محاولات إعلان عقبت موته قام بها كتاب في خدمة الإمبريالية.

إنه لم يكن في إمكان هذا الضابط القديم في سلاح الفرسان الذي تشبّع بأدب السكرستيا وفتنته المغامرة والتصوّف بعد أن نفّرته من الحياة المدنية خيانات زوجية تعيسة، إلا أن ينتهي بلبس ثوب التوبة الكاذبة. لقد كان يداعبه، مثل لافيجري، وهم تحويل أنهار أفريقيا الشمالية إلى ما يساويها من نهر الأردن وبذلك يكون هو القديس يوحنا ذا القلب المعمد المختلف. وكان، مثل لافيجري، عدوا للإسلام لدودا. لقد انخرط، مثله، بطيبة خاطر، في المشروع الاستعماري، ولكنه، خلافا له، فضّل حياة التنسك على الحياة الكهنوتية وحاول أن يتمثل، شويّة،

بالقديس فرانسوا.

لقد أنجز تحت اسم وثوب تنكّر يهوديين وبصحبة واحد من بني إسرائيل (هل نكون هنا إزاء موضوع عدد من ضروب الشبه بذكرى الاسخريوطي[118]، مهمة سرية في مراكش لا أحد يطعن في أنها كانت من قبيل التجسس الصرف ذلك أن الأمر لم يكن يتعلق بأقل من رسم خرائط طوبوغرافية ومن دراسة عقلية السكان قبيل غزو الإمبراطورية الشريفية. والجوسسة، على حد علمنا، لم تكن البتة من بين الفضائل الفقهية المعتمدة عناصر حاسمة في إجراءات إعلان القداسة. ترهب دي فوكو ضمن الأخوية السستيرية وبصفة أدق ضمن اللاترابية التي يفترض ما توجبه من ضرورة كبح الانفعالات الزهد في كل ما يعد صاخبا جلبا في هذه الحياة التي تقوم على الحركة، وقد جنح الملازم الأوّل في الخيالة ذات يوم، بعد فترة تأمّل تحضيري قضاها في الأديرة الرومانية وحج إلى الأرض المقدسة، في قلب الهجّار في وسط بلاد العطش بين الجبال المحترقة في الجزء الجنوبي من الصحراء عند الطوارق الرحل الذين كانت فرنسا، في هذه اللحظة بالذات، تخشاهم. فيا لها من رياضة روحية عجيبة هذه التي سلم هذا اللاترابي بأن تختار له في هذا التانزروفت الذي كان يرى فيه المنظرون لفرنسا العظمى سرّة الإمبراطورية الفرنسية في أفريقيا! إنه سيحرز، هنا، سنة 1916 على النصر من دون أن يحصل، مع ذلك، اتفاق حول مدى وطبيعة ما قدم من تضحية، ذلك أن لكل امرئ الشهادة التي يستأهل. ولكنه إذا كان مثل هذا السعي قد باء بفشل على هذا القدر من السوء فإن ذلك لا يعني أن الحكومة الفرنسية رمت، نهائيا، بأثواب الكهان في الحرّاق. لا. إن هذا لا ينسجم مع سياسة يتلخّص همها الأول في الإبقاء على التباس مزدوج إيديولوجي واجتماعي. إن ميزانيات بلدان المغرب الثلاثة كانت تتضمّن أبوابا تدرج فيها مبالغ هامة مخصصة

---

[118] كنية الحواري يهوذا الذي سلم المسيح إلى أعدائه ثم شنق نفسه تأثرا بالملامة والندامة.

للدعاية الدينية. ولسوف يبقى هذا في أيدي أكلة الله، في فرنسا، سلاحا احتياطيا.

إن السياسة البربرية المزعومة تنهض على روح البلبلة هذه. ولقد كان القائمون عليها يؤكدون، منذ بعض الوقت، أن من شأنها، وقد وقع تصورها على أساس من التوافق مع العادات والأعراف في الموطن البربري، أن تكون أكثر نجاعة بما لا يقاس من أوهام تعميد ترشّ فيه ماريان[119] كلتة الأحداث الأفارقة بمياهها المطهّرة. فهل هي الجمهورية تتسلح بمرشة الماء المقدس؟ وهل في وسعكم، مثلا، أن تتصوروا واحدا مثل غامبيطا وفيري وكومب وبريان أو كليمنصو (كليمنصو مؤلف كتاب "في شيخوخة الفكر") يضطلع بدور تبني شعار من أجل مجد أكبر للرب[120]؟ إن الكتب المقدسة، هنا، تعترض على الميثاق المقدس، ومن العبث تغيير لون القناع فالحقيقة باقية.

إن الشريعة أي القانون القرآني الذي هو في الآن نفسه القانون المدني في الإسلام، لم تطالب البتة بمركزية مفرطة في ما يتعلق بصلاحياتها القانونية. كذلك فإن التجمعات الريفية أو القبلية البعيدة في المدن بعدا لا يسهل عليها اللجوء في القضايا الصغيرة أو الكبيرة إلى فقه القاضي حافظت على عدد من عاداتها أي العرف العربي والأزراف البربري الذي تتولى الجماعة تطبيقه بمقتضى نوع من التفويض من القرية أو القبيلة.

لقد خيّل إلى البعض أنه عثر في أمور على هذا المستوى من العادية على قضية توجب إعادة النظر في الأمر. فياله من منطق عجيب!

---

[119] كناية عن الجمهورية الفرنسية.

[120] Ad majorem Dei Glorium.

لقد كان إدريس يستاء من مثل هذا الارتداد. ولقد كان في مناقشاته مع أصدقائه لا يكلّ من مقابلة مختلف المعطيات التاريخية في تطور القانون في فرنسا بما يبيح الموظفون الفرنسيون العاملون في وفاق مع حكومتهم لأنفسهم أو يفعلوا في أفريقيا.

كان كثيرا ما يفكر أننا نعيش في نظام فرضته أمة محكومة بدولة جمهورية يركح دستورها إلى مبدإ الوحدة واللاانقسامية، وصرحها التشريعي الذي هو قانون نابلوين إنما هو تأليف مكثف بين شتى أنواع المصنفات القضائية التي انبنى عليها، منذ العهد الروماني إلى اليوم، مجموع النصوص والوسائل المستعملة لتعريف القانون وتحديده وضمان دراسته ولتطبيق العدالة تطبيقا سليما.

لقد كانت الأحكام القضائية، في فرنسا، تصدر عملا بقوانين ظرفية وعرفية مختلفة.

ولقد أحجمت الفترة الملكية، على الرغم من المركزية التامة التي اتسمت بها طريقة الحكم، عن المساس بهذا النظام فكان لابد من قيام الثورة الفرنسية ممثّلة في أكثر أبنائها نبوغا لمحو هذه التناقضات. ومثل هذا الأمر لم يتحقق تماما إلى اليوم، فالقانون العرفي في نورمانديا مازال يحكم العلاقات القضائية في جزر المانش التي خضعت منذ حرب المائة عام للهيمنة الأنجليزية. وما زال في إمكان المرء أن يعثر في بريطانيا وأوفرنيا وفي البيرن على بقايا إجراءات قانونية ما زالت تعتبر براهين صالحة في أيدي أنصار الجهوية السياسية.

فهو يمكنه أن يعثر فيها على مبادئ أحكام عفاها الزمن ترقى أصولها، على الأرجح، الى الأزمنة الدَّرْوِيدِيّة وعلى مبادئ أخرى مستمدّة من القانون الروماني ومن التشريع الغَالي-الإفرنجي ومن تعاليم الحق الكنسي. ولكننا هنا، على كل حال، إزاء قضايا تطفو على انصهار العام VIII الكبير. ولا أحد، مع ذلك، يجد في ذلك مطعنًا حتى

ليمكن القول، إن رمز القَشَّة والرافدة[121] ما زال قابلا للدفاع عنه في كل مرّة يتعلّق الأمر بضرورة فضح فوضى العقل البشري التي لا تَتَغَيّر.

إن ما اختصّت به الجماعة بين السكّان البربر من حكم في عدد من الخصومات كان، بالذّات، منطلق هذه المحاولات المتكررة لفصل العرب عن البربر التي باء فيها التبشير بفشل ذريع. فلم لا يجرّب الحظّ، بعد فشل تحويل سكّان القبائل والخمِّيريين في الجزائر وتونس، في مراكش التي مازال العنصر البربري فيها هاما إلى حدّ أثار، ما من شك في ذلك، اهتمام كوينلارتبي الإقامة؟

لقد سبق للاروقان، قبل 1914 بكثير، أن فكّر في هذا الأمر. وكان معاونوه على اختلافهم في القرب منه، مانجين وغورو وبْريّو وبلان وسوربي دي بونيادوريس وميشو-بلير وموريس لوغلي والقبطان أودينو يدفعونه الى تبنّي هذا المشروع بحماسة مدهشة بالنسبة الى عدد منهم. كانوا، جميعهم، وهم يتعلّقون بمغامرة على هذا القدر من الجاذبية، يعلنون أنهم "أَفَارِقَةٌ" يهمّهم أن تتخذ في القضيّة قرارات قويّة. ولكن الحرب ومخاطرها وما بعد الحرب وتعقيداته لم يكوّنا ظرفا مناسبا لماشيريع على هذا القدر من المجازفة فوقع تأجيل الأمر الى مناسبات أفضل. وفي الأثناء اندلعت الانتفاضة الريفية. لقد كانت هذه الحرب مناسبة جيّدة كان في إمكانها أن توحي إلى القوم أفكارًا جديدة تعدّل الوسائل القديمة. ولكن لا أحد أقام لها وزنًا. ولقد ذهب إعصار الانتفاضة بلاروقان ومرّ بعده تْروك مرور النيْزِكِ في سماء كاسفة. أما مع سانلوشون فقد تقرّر، في نهاية الأمر، إمساك الثور من القرنين. فكان أن تمخّضت هذه السياسة على الظهير[122] البربري.

---

121 La parabole de la paille et de la poutre

122 الظهير: المرسوم السلطاني.

***

في 16 ماي 1930 صدر في الرباط ظهير زمّته إمضاءات طوعية أو قسريّة أضفت عليه مظهرًا شرعيًّا.

إن القبائل المسمّاة بالبربرية (ومن الصعب جدّا معرفة من أين تبدأ القبائل البربريّة وأين تنتهي القبائل العربيّة) أخرجت بقوّة القانون حسب عبارات هذا المرسوم، من دائرة السلطة القرآنية وأخضعت إمّا لصلاحية الجماعة او القائد القضائية في ما يتعلّق بالقضايا الخاصّة بالقرية أو القبيلة، وإما للقضاء الفرنسي في المدن أو، إن شئنا، فهذا ينزع بطريقة أكثر واقعيّة، إما إلى أبدال التشريع القرآني بالإزراف في القانون المدني وفي المواريث وإما إلى إخضاع المجموعة البربريّة للقانون الجنائي الفرنسي. وبهذه الطريقة وقع التعدّي، عمدًا، على قانون المراكشي الأساسي.

إن الإدارة تتعدّى، من تلقاء نفسها، على مسائل دينيّة التزمت الحماية والمعاهدات الدوليّة التي تحكم القانون الأساسي باحترامها. وهكذا فإن فاصلاً مصطنعا ادّعى أنه يمكنه أن يلقي بظلّه الباهت بين مرّاكشيين يشتركان، في الآن نفسه، في الوطن والدين. فما وقع التغافل عن حمل الجزائريين عليه، وهم الذين كان بلدهم، بمقتضى الاتفاقيات التي تحدّد وضع الغزو، يتمتّع، نظريًّا بحقوق المدينة الفرنسية، خُوّله البربر المراكشيون كرهًا وجملةً وهم الذين لا تربطهم علاقة بالتقاليد ولا بالقوانين الفرنسيّة.

إنّ سلوك هذا المسلك إنما يعني، ببساطة، شعوذة العقل!

لقد كان ردّ المرّاكشيين، هذه المرّة، سريعًا مقتَرِنًا بمحاولة تنظيم جدّيّة. فقد بدا، للمرّة الأولى منذ زمن طويل، أن وعي الأمة الخامد يستيقظ من خُدْرَته. واجتمع الناشطون الذين تثقّف فريقهم وازداد عدد منخرطيه منذ اليوم الذي انضمّ إليه إدريس، لمناقشة الحدث. لقد كان لا بدّ من الردّ على الاستفزاز. ولكنه كان من الضروري عليهم قبل الإقدام على أي أمر أن يعلموا بدقّة أسباب قرارٍ لا يقنع بقلب كل نظام دبلوماسي بُنِيَ على أساسٍ من اتفاقيات 1906 و1912 ولكنه يتجرّأ حتى على إهانة شخصيّة مكّنتها الحماية من حقوق ومن تبجيل يمكن القول أنه يتعذّر انتهاكها.

لقد كان السلطان[123]، وقد هُدّد بوضوح، مُجْبَرًا على أن يصدّق على مرسوم لم يكن يهدف إلى أقل من تشتيت الشعب والقضاء على الإمبراطورية. لذلك طفح الكيل.

دُعي المنضوون إلى الفريق إلى اجتماع سِرِّي يهدف إلى توضيح مضمون هذا المرسوم وإلى اتخاذ موقف عام منه فخطب سي عبد الرحمان فيهم قائلا إجمالا:

"إنّ هذا المرسوم الذي حُمِّله السلطان والمخزن برعونة غريبة هو نتيجَة سياسة مدبّرة وسوء نيّة ملحوظة فلا مجال، بناء على ذلك، للانخداع. إننا إزاء ضربة متعمّدة وبادرة هي، في حدّ ذاتها، نذير خطرٍ يتهدّد أمننا الوطني إذا لم نردَّ الفعل على الفور وبكل ما تتطلّب مناسبة مثل هذه من رباطة جأشٍ.

"إن تاريخ صدور الظهير هو 16 ماي 1930. ولكن الفكرة التي خطّطت له ترقى إلى أزمنة أبعد من هذا الزمن بكثير. لقد تهجّس بوجو بمعطياته في الزمن الذي بدا فيه

---

[123] هو محمد بن يوسف أي محمد الخامس.

أن الحكمة الملكية لاذت بشعر لويس-فيليب المبيضّ. لقد كان هو الذي استوحاه ذلك الكتاب الغريب الذي ألّفه المعتمد العسكري العام جينْتِي دي بُوسي والذي طالب فيه هذا البْرافيدَا في جيش أفريقيا علانية بـ"عودة الجزائر إلى الحضن المسيحي". ولقد رسم رجال غامبيتا، هم بدورهم تصاميم غير واضحة وغير مفيدة. ولقد فكّر لاروقان الذي كان دائما يبدو بمظهر الرجعي المحنّك، ولا يخشى البتّة اللجوء إلى أسوإ التناقضات، في أن يجعل منه مدار الأمر في انجازاته المراكشيّة. وقد أقدم المقيم سانلُوشون، رجل المحافل الماسونيّة، في نهاية الأمر، على تطبيقه مستندًا الى حججٍ تليق بيسوعيّ يلقي خطبة أخلاقية في حفل من الأتباع المغتبطين. إنه ما كان يمكن لجوريس في زمنه أو النائب رُودْيُو لو قدِّر للشيوعيين أن يرفعوا في يوم من الأيّام العلم الأحمر على قمّة برج إيفّيل، أن يغيّرا، هما أيضا، شيئا من هذه السياسة الخرقاء. هذا هو، إذن، واقعنا.

"هل تعتقدون، واصل سي الونوغي، أن فرنسا تحبّ البربر؟ ولكنّ كثيرا منّا، بل وغالبيتنا يقينا، تَجْحَفُ دمًا تمازيغتيًا في عروقها. ونحن، من جهة أخرى، نفخر بأمة كانت أمة يوغرطة وطارق وابن تاشفين وابن تومرت وعبد المؤمن وابن طفيل واين بطوطة والمقراني وابن عبد الكريم مثلما نفخر، بالقدر ذاته، بالمغاربة الاخرين من أصول عربيّة وأندلسية وتركية: عقبة والغافقي وابن رشد وابن المعتمد وابن خلدون وبارباروس وعبد القادر والأخوين باش حامْبة. فهل آخذنا في يوم من الأيّام فرنسا على تمجيد ذكرى أجدادها الكبار من ذوي الأصول المختلفة من شارلومان الألماني إلى نابليون الإيطالي، ومن ني السَّرْوي إلى غامبيتا الجِنْوِي، ومن جان-جاك روسو السويسري إلى ايف (ماري) كوري البولونيّة ومن زولا البييمونتيِ إلى هنري برقسُون اليهودي؟

"لا، إن ما يوحي الى الفرنسيين هذه المداعبات البربرية التي تذكر شيئا ما بلطافة

ذئب الحكاية ليس دافعا خيريا. إنّ فرنسا، هذه الإمبريالية المستعصية على التقويم، المَهْمومَة، لا شك أنها لا تتمكّن من النوم مطمئنّة البال. إنها تمارس، بنزقٍ، شأنها شأن هذا الذي يهضم بعسرٍ ما اكتسب من دون حقٍّ ويُوَظّفه، إضافة إلى ذلك، بسوء تصرّف، ما تُسَمّيه رسالتها الأفريقية. لقد تولّد من هنا كل تردّدها وتعثرها وكلّ هذا الارتباك الذي ميّز ما تمارس من سياسة أَكُّورْديُونٍ غير مضبوط لا تصدر عنه، وهو يوسّع ويضيّق من دون تبصّر، غير نغمات متناثرة تضيع في خليط صوتيٍّ رديءٍ.

"إن ما تحقد عليه فرنسا، على الأصَحِّ، هو الثقافة العربيّة ودين آبائنا. وهما معا، تبنّاهما المجمع المغربي باتفاق جماعيٍّ. وإن ما تستهدفه هو هدم تماسكنا وشلّ إمكانات نهضتنا الوطنية. ولو كانت اللغة العربية مجرّد لغة مشوّهة وغير مفهومة تَرْطِن بها قبائل مُشتّتة وكانت البربرية لسانُا ذا بناء متين، فإنه ليس ثمة ظلٌّ من شكٍّ في أنه كان سيعمد إلى عكس المحورين فتحلّ العربية في مكان البربريّة في قلب ماريان الجسيمة. وهذا الأمر لا يستعصى على الفهم. فإلى أي حدّ يمكن أن يذهب هذا الشغف الجديد بفرنسا؟ إنه لن يذهب بها بعيدًا جدّا. ولتتركوني أضرب لكم مثلا من بين ألف مثل. فهو الذي سيفتح أعينكم بما فيه الكفاية، على ما أعتقد، على هذيان هذه الدسائس السياسية الفاسدة. إن الأمر يتعلّق بقضيّة مَقْلَع.

"إنّ مقلع هو إسم بلدية في القبائل الجزائرية. وهي منطقة بربرية مثلما هي جملة مرتفعاتنا الأطلسية. إن الأمر لا يتعلّق هنا بتطبيق القانون القبائلي الشهير الذي هو المرادف الجزائري للازراف الشِّلْحِي وإنما بممارسة أكثر اتساعا وأوضح بيانًا لقوانين المدينة الفرنسية التي خُوِّلتها نواة من المتجنّسين الذين ستسمح لهم قضية انتخابية عارضة بالتأكّد، وبشكل يستبعد كلّ شكّ، من نوعية هذه البربريّة المصنوعة في

فرنسا[124].

"إن مقلع بلدية في أتمّ نشاطها. وأنتم تعرفون ما معنى هذا. هو يعني أنها واحدة من هذه المدن المدرجة ضمن المجال الجزائري الذي يحاذي الساحل والذي صنّفه ارتجال الإدارة الفرنسية بلدًا يتمتّع بكامل الحقوق المعمول بها في العاصمة الفرنسية. هي تابعة مباشرة لوزارة الداخلية وتنتخب بلديتها بالاقتراع. ونتيجة التصويت لا تنقض بمقتضى الدستور نفسه. فلا مجال لأي قيد في هذا الأمر. ان كل فرنسي، مهما كان منبته، يمكنه أن يمارس مجموع الحقوق المعترف له بها قانونيًّا ونتيجة لذلك فإن هذا الفرنسيّ الذي هو ناخب ومؤهّل لأن ينتخب في إمكانه أن يطالب بالمناصب التي يمكن أن تؤول اليه نتيجة لعبة هذا اليانصيب الكبير المسمّى بالانتخابات. ولا شيئ يمكنه، إلا إذا حدث تزوير أو إكراه موصوف، أن يبطل نتائج المنافسة أو يطعن فيها. وأنتم تعرفون أننا، هنا، إزاء مبدإ قُدُّوسٍ من مبادئ السيادة الشعبية.

"وإذن، لقد أكّدت الانتخابات البلديّة في مقلع، قبل وقت ليس ببعيد، فوز قائمة انتخابية حدث أن كانت الأغلبية فيها من القبائليين المتجنّسين. لقد كان هؤلاء فرنسيين مزوّدين بورقة مدموغة تعتبر في حدّ ذاتها شهادة ميلاد. ولا شيء، من الناحية النظرية الصرفة، كان يجب أن يحول دون إثبات انتخابهم قانونيًّا بالطريقة ذاتها التي يثبت بها الآخرون من كاتالونيين وصقلّيين ومالطيين وبوهيميين متنقّلين ويهود الذين تتكوّن منها فرنسا الجديدة العزيزة جدًّا في قلب هذا اللاتيني المتأخّر لويس بارتران. ولكن الاختيار سيسفر عن خواء مثل هذا التصوّر.

"ومع ذلك، فإن هؤلاء الكسّارين[125] مثلما كان السيد روبير راندو، وهو كيبلينغ

---

[124] Made in France

خائب آخر يسمي البربر المدعوين، زعمًا، إلى الجلوس في البيت الفرنسي، ان هؤلاء الكسّاريين لم يعتبروا أهلاً لحظ بمثل هذا الإشراق. فلقد اجتمع المجلس البلدي، بعد الانتخاب، وانتخب رئيس بلديته فكان قبائليّا. وكذلك كان أغلب المستشارين. وفورًا تملّك الانفعال الجزائر كلَّها إي هذه التي تنتخب بمعنى أقلية الأوروبيين الصغيرة التي تكوّن كتلة المهيمنين[126]. إنّ قضية مقلع تمثل بالنسبة الى هذه الفرقة ربّةِ المعزَلِ، سابقة مزعجة.

ولا أحد سأل نفسه إن كان رئيس البلدية والأعضاء من العرب أو القبائل.

إن هذا هو أقلّ همومهم شأنًا. ولعبة التخبئة فقدت جاذبيتها منذ اللحظة التي انسدّت الدروب، بتصميم، على البربرية الرسمية. إنه لم يعد يمكنهم، من الآن فصاعدًا، غير رؤية أمر واحد: الجزائريين متمتّعين بعدد من حقوقهم...

— "ولكن، اعترضت عقول ساذجة ذات آراء بالية ما زالت ترى في شولشير داعية تحرّر وفي بودين شهيدا وفي صخرة قرنيسي محجّ لُورْدْ[127] ديموقراطي، ولكن لقد كانت انتخابات مقلع نزيهة روعيت فيها القواعد بدقّة. والبلديّة تتكوّن، إذا ما فكّرنا ولو قليلا في الأمر، من عناصر قبل بها في المدينة الفرنسية طبقا للشروط التي قضى بها القانون..."

— "خطأ وخطأ كبير". أجابت الإدارة مدعومة بجوقة الكواسر الذين يحكمون البلاد

---

[125] نسبة إلى Cassard

[126] Les Prépondérants

[127] Lourdes، مركز حجّ في البيريني العليا.

ويستغلّونها. إن على الأهالي المُتَجَنّسِين (سواء أكانوا بربرًا ام لا) أن يزهدوا، ضمنيّا، في الطموح إلى ممارسة حقوق سياسية اكتسبوها صراحة. ذلك أننا لو فتحنا لهم عرضًا، هُوَيْس القناة فإنه، من المؤكّد، أنهم سيغمروننا في يوم من الأيام. فحذار من قانون العدد! وعلينا أن نختار واحدا من أمرين: إما أن نمارس، هنا، سيادة لا تنازع. وعندئذ نكون قد رفعنا عاليًا سارية العلم الفرنسي. وإمّا أن نجازف باسم ما لا يدري أحد أي مبدإ من المبادئ هو، بمنح تنازلات خطرة في ميدان السلطة وبالقيام بمحاولات إدماج حقيقية وفرنسية عناصر متنافرة فيكون الإفلاس بما ينتج عن ذلك، حتمًا، من عبور القوم المتوسّط من جديد. يجب رفض المبادرات على طريقة كاراكالا دائمًا!

— "وإذن ما معنى هذه السياسة القبائلية وشهادات التجنيس التي صمَّت منّا الآذان؟" ردّ عضو من جامعة حقوق الإنسان شيَّخَه عدد من سنين الغباوة الإيديولوجية. لقد تخلّى هؤلاء، حقيقة، على حالتهم الشخصيّة. وهم، إن بقوا مسلمين، لا يكونون من الآن فصاعدًا، إلا تابعين لقانوننا المدني. إنني أقرّ أن الأمر اختلط عليّ أو، إذا لم أته بعد، تمامًا، سأتجرّأ على ان أطرح، بدوري، سؤالا وهو، عندئذ، أيضا، واحدا من اثنين: إما أن الجزائريين يمثّلون أمّة خاصّة بما تتضمّن هذه الكلمة من خاصّيات تشمل الجنس والتاريخ واللغة والحضارة والثقافة. وفي وضع مثل هذا عليهم ان يتطوّروا في مجالهم الحيوي الخاص. وعلينا، في هذه الحالة، أن نتفاهم معهم على نحو يزيل نهائيّا سوء تفاهم عمره الآن قرون ومازال مليئا بالمخاطر. إنه لا أحد يمكنه، في ما أعتقد أن لا يوافق على ذلك. وإما أن فرنسا، وأنا ألحّ على هذه النقطة بكلّ قوّاي، تنوي أن تحقّق في هذه الأرض رسالة مثاليّة مثلما يتصوّر ذلك الكثيرون منّا وعليها، تبعًا لذلك، أن تفتح الأبواب على مصاريعها للذين يلتمسون منها حقّ تبنٍّ من دون أن يتدخّل في الأمر خلاف عابر..."

— "إن هذا غير ممكن، قاطعته ارتجالا، أصوات ذات نَبْرَة خنّاء. إن هذه أحلام طوباويين قديمة، وترّهات..."

— "موافق، أرعد صوت تلميذ فرانسيس دي بريزانسي، ولكن ألغوا، إذن، قوانيت التجنيس التي سننتم واتركوا العرب والبربر يعيشون في سلام. جنِّبوهم وجنِّبونا، نحن أيضا، الأوهام والخيبات..."

— "إن هذه ليس قضيّتنا. هي من شأن الحكومة"، صاحت تشكيلة أبناء الغزو الأعزاء جماعيا.

وختم سي الونوغي حديثه في هذه النقطة بقوله:

— "كان على الأفرِقاء المتخاصمين أن يتقبّلوا على هذا النحو ، تقريبًا، خبر انتخاب مجلس مقلع البلدي. فأنتم توافقون، إذن، أن الانفعال لم يلبث أن ملك أيضا الحكومة العامة في الجزائر إذ كان في الأمر ما يمكن أن يُربِكَ سياستها. إن الحكومة تتمتّع في موضوع مثل هذا بسلطات استثنائية تصل الى حدّ مضادّة القانون. والأمر هنا يتعلّق بولاية مطلقة حقيقية بالنسبة الى مسلمين لا قانون يحميهم من امتناع القضاء عن البت في قضاياهم. فما أن رفعت القضية الى القضاء حتى أصدر ممثل فرنسا قراره. لقد أبطل الانتخابات وحلّ المجلس البلدي. فلا أهمّية للتجنيس. إنه حتى لو كان مستشارو مقلع القبائليون من رعايا لافيجري ما كانوا ليحظوا بمعاملة أفضل!

"حكّم المؤهلون للانتخاب في المدينة القبائلية الصغيرة، بعد أن حلّ المجلس وألغت السلطة الحكومية الانتخابات وكانوا عارفين بالقانون، ناخبيهم من جديد.

وهذا أمر موافق للعبة. فوقعت انتخابات جديدة وتحقق فوز قبائلي جديد وانتخب، من جديد، قبائليٌّ وقبائليّون رئيسا ومستشارين. أوقف المحاكم، هذه المرّة لأجل غير مسمّىً[128]، صارفا النظر مرّة ثانيّة عن قرار المقترعين، مجلس الجهة ومنع بهذا القرار الذي لا يجيزه القانون البتّة في نظام ديموقراطِيٍّ، حرّية حركة اللعبة الانتخابيّة. دفع قبائليونا المنذهلون الذين أداروا حملتهم الانتخابية بنزاهة قضيتهم إلى مجلس الدولة وفوّضوا أمرهم، راجفين، إلى... استفامة قضاة باريس. ولكنّهم، وهم الأقل حظّا من صاحب الطاحونة التاريخية، لم يكن لهم ما يمتع نفوسهم سوى ما فل في عزيمتهم بأن رأوا طلبهم ترفضه أعلى هيئة في الصرح التشريعي الفرنسي. فعلى غير ما كان يتوقّع صدق رجال القانون الوقورون ذوو القرارات المعصومة الذين اجتمعوا في جلسة مغلقة في معزِل عن كلّ ضغط معنويٍّ لا يرافقهم غير وعي إنسانيتهم وأنهم رجال قضاء حرّاس القانون الذي عوّض الأناجيل والذي كان عليهم، بصفتهم خلفاء كوجا[129] مخلصون، أن ينافِحُوا عنه ضد كل لُوبَادِيمُونِيّ الأرض، صدّق رجال القانون على تجاوز الإدارة القانونَ عندما تهيّؤوا لضرب الهيكل الجديد بيد لا تقلّ دنسًا عن هذه اليد التي أرعشت هؤلاء الأجداد الذين عاشوا يوم برومير.

"وهل تصدّقونني إذا قلت لكم إنه في ذات الوقت الذي كانت فيه الحكومة العامة في الجزائر ومجلس الدولة يتحالفان لتثبيت أخر مسمَارٍ في نعش الاندماج في مقلع كانت الإقامة العامة تباشر السياسة نفسها، هنا في مراكش، بدءًا من محاولة أولى لإبعاد الإسلام من المحاكم المحلِّية مما يؤكد، إجمالا، بداية تجزئة أمتنا أجزاء منفصلة ومن دون أن يؤدّي هذا الفصل، مثلما تثبت ذلك تجربة البلدية القبائلية، إلى حلول واضحة لصالح الجزء الذي يقع الاجتهاد في إفساده بمناورات على هذا القدر من

---

[128] Sine die

[129] Cujas

الضبابيّة.

"إنّنا اليوم، أصدقائي الأعزّاء في سنة 1930 وهي سنة مائوية الجزائري أي استعباد المغرب. وفي السنة الماضية احتفلت فرنسا بتكريس مجدها بالاحتفال بمرور نصف أَلْفِيَّةٍ على خلاصها على يدي جان دارك. ويمكن القول ان هذا مثّل بالنسبة إليها خاتمة انتصارها وازدهارها. لقد شبّه أندري تارديو، رئيس الحكومة، تدفّق الغبطة هذا بـ"الطريق الذي تحقّق عليها فرنسا في هدوء أقدارها المفرحة". ومع ذلك فإنه في مقدور العين المجرّبة قليلا وهي تتأمّل عن كثب هذه اللوحة ذات الإشعاع الساطع وهذه البهجة الغامرة وهذه الواجهة التي تزيّنها العظمة والتفاؤل، أن تتبيّن، ذلك، العيب الشائع في هذا الصَّرْح ذي التراكيب الصارخة

"إنه ليكفي المرء أن يلقي نظرة سريعة على ما يسمّونه الإمبراطورية والأخلاق السائدة فيها والنفعيّة الضارّة التي تعيث فيه فسادًا وإن تخفّت وراء مظهر مخادع قُدَّ من نسيج من العبارات فنّدها ما نُذِرتْ له من استعمال، حتى يجد نفسه قد نُقِل إلى مشهد سبق أن رآه على عهد الإمبراطورية الرومانية بعد حكم سلالة سِيفِير أو زمن الإمبراطورية المتأخّرة بُعَيْد موت جُوسْتينْيَان.

"ومن ناحية أخرى فإن الأوضاع في فرنسا ذاتها ليست على ما يُرام. وهكذا فإننا نتجه صوب هذا الوضع الذي، طبيعيًا، يبخل فيه من يطيعون، مثلما كان يقول كاردينال ريتْز، باحترامهم لهؤلاء الذين يطلبونه على الرغم من أنهم فقدوا، نهائيًا، وإن كانوا ما زالوا على إصرارهم على التشبّث بالحكم، الحَيَاءَ.

"فإلام يهدف مرّة أخرى هذا الظّهير الشهير؟ إلى حفر خندق بين العرب والبربر؟ لقد مورس هذا قديما عندما كان صولجان العالم في يدي روما. ولكن أين هي روما اليوم؟

أين هي أحلام فرجيل؟ فهل القصد هو زعزعة أسس المغرب؟ إن هذا لشيء سخيف! ذلك أنه حتى لو اختفى الإسلام من قلوبنا فإن الوطنيّة ستبقى راسخة فيها رسوخًا لا يقلّ عما كان عليه الإسلام لسبب بسيط هو أننا سنواصل، دائما، وقد أصبحنا لاإسلاميين، استصلاح الأرض لنمدّ بالثروة والعظمة امبرياليّة كَنَسَتْ من حساباتها منذ زمن طويل أديانًا وفلسفات أخلاقيّة. لقد كانت إيرلندة وبولونيا مسيحيتين في أوروبا خاضعة لحكم الصليب وهذا الواقع قليلا ما منعها من التصدّي، دفاعا عن استقلالها، لآمم أخرى مسيحيّة مثلها.

كما أن زنوج فريجينيا كانوا على دين الجنرال لي وجفرسون دايفس اللذين كانا يرفضان تحريرهم مجازفين، نتيجة لهذا الموقف، بإمكان نشوب واحدة من هذه الحروب الأهلية التي عرفها التاريخ الأكثر فظاعة.

ولقد كان دونات والسِّيرْكُونْسِيلْيُون، حتى نبقى داخل حدودنا، هم أيضًا مسيحيّون. ومع ذلك فقد ثاروا على الإمبراطورية والبَابَوِيّة بصفتهم مغاربة منشغلين قبل كلّ شيء بمصالح بلدهم.

"هل تريدون معرفة الحقيقة؟ إنه لا لاروقان ولا سانلوشون كانا منخدعين في هذه المسألة. لا بل انهما كانا يخشيان الوقوع في ما نصبا من شرك. ولكنه كان يلذّ لهما، سعيا إلى الحفاظ على حكم قوّة مبنيّة على اللبس، أن يعتقدا أن الوسيلة الوحيدة لتأبيد هذا الوضع هو عدم اليأس بتاتا من دوام اللبس نظاما للهيمنة.

"إلا أن ما كان يغيظهم، وأنا أكرّر هذا مجدّدا، هو صورة حضارتنا الخاصّة. إن قوانا الفكريّة والأخلاقيّة تبدو لهم على هيئة أحجار عثر ليست بالقليلة. وهم يخشون، عن خطأ أو صواب، أن يصطدموا بها في يوم من الأيام. لذلك هم يسعون وبئس

الخبثاء، إلى سلب المغرب كل الوسائل القادرة على أن تقوده إلى اليقظة والى التعبير عن مشاعره ونزعاته إلى حياة حرّة مزدهرةٌ بواسطة تطوّر ملائم في ملكاته النقديّة.

إن امبريالية كل الأزمنة، ومهما كان اللون الذي تحتمي وراءه، تقوم على عِمَادَيْن: تفقير الشعوب التي تسيطر عليها وتجهيلها. فأفٍّ للمُبَرِّرات! إن القميص الأخلاقي المزعوم الذي اعتقِد على مرّ القرون أن من اللائق أن تُلَبِّسَهُ مشاريع فتوحاتها لم يعد يخدع أحدًا. والأزمة المَزْمُوريّة أصبحت، من الآن فصاعدًا، معروفة معرفةً تمنع المرء من الخطإ في تبيّن أسباب هذه اللعبة التشويشيّة. إننا، بما أننا منذ الإسلام تبنّينا اللغة العربيّة مثلما قبلنا بالحضارة الإسلامية وساهمنا في ترقية هذه الحضارة التي تبقى أساس تكويننا القومي، نثير فزع فَاتِحِي الساعة والأسياد العابرين من فكرة كسوف ممكن يلحق إمبراطوريتهم الأفريقية الشماليّة. لذلك هم لا يعتقدون البتّة أنهم يضيعون وقتهم عندما يتفنّنون في طعننا في هذا الموضع طعنة تضعف القوى التحريرية التي تملك بالقوة. إن هذا هو كل شيء. ولكن الفرنسيين، في ما يتعلّق بهذا الأمر، ليس لهم حتّى فضل الابتكار. فلقد سبق لروما وبيزنطة وبارونات جنسيريك أن جرّبوا، هم أيضا، بوسائل مطابقة، هذه السياسة. ولكن مع ذلك...

"ولنلق الآن نظرة إلى الوراء معتمدين الجزائر معيارا لملاحظاتنا. وأنا أوصيكم أن تدرسوا، بادئ ذي بدء في كل مرّة تسعون فيها إلى تحليل سياسة فرنسا الشمال أفريقية، ما الذي حدث في الجزائر. فلا تُضَلِّلْكِم راية الحماية كثيرًا. إنها رُفِعت على مراكش مثلما يرفع يَرْقٌ خَدّاع على قَادِسٍ يقرصن بحارًا هادئة. إنه لا واحدة من السياستين الإدارية القروية تراود خاطري في هذه اللحظة ولكن السياسة الثقافية التي شرع في العمل بها في الجزائر وطبّقت، بعد ذلك على نسق واحدٍ، في تونس وفاس. ولقد كانت مطفأة الكُوِيْنْلاَرِتِيين في كل مكان. إن المَلَكيّة والإمبراطويرة والجمهوريّة تعاقبت على رئاسة الشؤون في فرنسا. ولكنه لم يحدث البتّة أن اهتمّ

بْرَايّار منذ أن يطأ نعلاه أرضنا بنشر هذا التعليم الذي هو، مثلما يعلن عنه في صخب ويذاع، مبرّر التوسّع الاستعماري الفرنسي.

"ها هي، إجمالا، نتائج قرن من احتلال الجزائر، من الزمن الذي ظَلَّلَ فيه شارل العاشر الغزو بالقدّيس لويس وبالحروب الصّليبية الى الزمن الذي تجرّأ فيه إدوار هيريو، وسط هتافات كلّ الأُمَميات، على تبرئة الفلسفة الإمبريالية بعبارات مستعارة من الترسانة التولستوويّة. إنها لا قيمة لها في ما يخصّ السكان المغاربة. وهذا يشمل كل الميادين وبوجه خاص الميدان الثقافي. ففي رأس الهرم الاداري يتربع قانون الأهالي الذي، بمقتضاه، يعتبر الأهلي (ذلك أننا، في عيون مواطني أمثال تروبمان وسوليان ولاندرو، لسنا غير "أهالي" على غرار الكاناك والماووري) ويجب أن يظل صالحا للسخرة والاستغلال. وهذا الأمر يحدد كل شيء. فغياب الحقوق السياسية يقود، نتيجة منحدر طبيعي، الى القضاء على آخر ما تبقى من الثقافة الاسلامية القديمة والى رفض، معلن أو مستتر، لتمكين الشعب من تربية حديثة. فاذا لم تكن مدارس، لم تكن صحافة ولا منظمات يمكن أن تعاضد حركة فكرية وتحريرا اجتماعيا. وحتى ان وجد عدد من المدارس ومعاهد قديمة تسير على نسق عصر ولّى وبعض الصحف ذات السحب المحدود اضطرارا، الخاضعة للرقابة ونواد نصف مهجورة بسبب المراقبة التي تخضع لها، فان هذا ليس ولا يمكن الا أن يكون من قبيل الخدعة. وكذلك شأن عدد قليل من الجامعيين من هنا وهناك وجماعة من الحائزين على الباكالويا الذين لا يلتفت اليهم أو يوظفون في وظائف بسيطة بأجور مساعدي بنائين فلن يكونوا سوى عدد ضئيل من الشاشيات تتقاذفها أمواج بحر من القبعات. يالها من مسرحية تافهة!

"إن قانون الأهالي، على ما يبدو، تَحَسَّب لكل شيء حتى يقيّد الجزائري ويمنعه من التطوّر. هذا يصدق على الجزائر مثلما يصدق على تونس ومراكش حيث تطبّق

القوانين الأثيمة[130] متدثّرة بكلمات أخوى. إن صياغة البرامج ومراقبتها، عندما يسمح بفتح مدرسة حرّة، هما من شأن فرنسيين يتلقّون توجيهاتهم من كُوِينلارتِي المكان. أما المسؤول عن جريدة محرّرة بالعربية أو الفرنسيّة فيجب أن يكون فرنسيّا. وفرنسيٌّ أيضا يجب أن يكون سكريتير النقابة. وعلى الكتاب أو الكراسة أن يعرضاعلى مصالح الرقابة قبل الحصول على الإذن بالطبع[131]. فالرقابة[132] لا تنام البتّة. وهي لا تعرف عطلا قانونيّة. ولكن ضغطها يبلغ حدّا يجعل القليل منا قادرين، لضعف تعليمهم أو للهموم التي تسبّبها أوضاعهم المادية اليومية، على اقتحام الميدان الفكري والتعبير بأقلامهم عن روح تفكير أكّدَه صدام التيّارات التي نعيش.

"فلا يذهبنّ المرء، إذن، على غرار ما يلذّ للبعض أن يفعل مجّانيّا، إلى استنتاج أنّنا لسنا في مستوى دور مثل هذا. حمدًا لله، إنّنا لا نحتاج إلى دروس يلقيها علينا أي كان وخاصة هؤلاء الذين نصّبوا أنفسهم، وقد أصبحوا، لفترة أسياد المغرب الأولياء، رقباء في الوقت الذي ينهالون فيه علينا مآخذ فَظّةً أقلّ ما يقال فيها إنها أفرطت في الجزئية إلى حد يحول دون اعتبارها حصيفةً.

"ما هي نسبة من حصلوا، في كل بلاد المغرب، على المبادئ الأساسية في التعليم؟ هو أقلّ من 2%. وحتى في هذه الحالة هم لا يتجاوزون إلا نادرا المرحلة الابتدائية إذ هم مجرّد طُلْبَةٍ لا يكادون يتمكّنون من كتابة عدد من الأسطر بالعربية بالقلم الأصفر المغموس في حبر من الصوف المحترق. فكيف تريدون والحالة على ما وصفنا، أن توجد صحافة وحركة أفكار محسوسة وتجديد مثلما يطلب منّا، في عدم أخلاقية

[130] Lois Scélérates

[131] Imprimatur

[132] Dame Anastasie

وغالبا في سخرية محيّرة، هؤلاء الذين يتّهموننا بالنقص وانعدام القدرة على الاندماج؟ كيف تريدون أن يكون عندنا صحافة مماثلة لصحافة القاهرة حتى لا تتحدّث إلا عن بلد إسلامي؟

"يوجد في الجزائر وفي مراكش عدد من الصحف الوطنية. ومع ذلك فهذه الصحافة تعاني الأمرّين. إن إمكاناتها المالية تقتصر على البيع المفرد واشتراكات نادرة واكتتابات تزداد بساطة لا سيما أنها تتأتّى من أناس لا ثروات لهم ولا مداخيل مجزية. فقراؤها، تبعا لذلك، محدودون بل إنه يمكن أن نضيف أنهم ينحصرون في عدد من المتعاطفين معها.

"هذه الصحافة التي تعبّر عن الرأي الشّعبي غالبا ما يديرها صحافيون شبّان نزيهون. فظروف الحياة التي تحيط بهم والتعسّف على الفكر تعسّفا يبلغ درجات يستحيل تصوّرها واستغلال البلاد وغياب العدالة والمنطق في العلاقات العامة والنفاق السائد والريبة التي نزلت منزلة مبدإ في الحكم وعقلية الكسب التي تلهم وتقرّر مثلما كان الشأن زمن الدّلالة (على الرقيق) والقادس وتلغي، مسبّقا، كل فكرة تقارب واتفاق والإمبريالية العمياء على الطريقة الفرنسية، إن كل هذه الشرور تحمل محاربي القلم هؤلاء على اللجوء غالبا إلى حروب كلامية لاذعة لمعاضدة قضية بلدهم. وعلى الرغم من أنه كان يساء فهمهم ويوضعون في مواضع الارتياب ويحاربون بالإشاعة الأكثر سريّة وتثار ضدّهم مكيدة خصم أفرط في الإيمان بقوته إلى حدّ منعه من أن يولي القانون أقل اهتمام، فإنهم كانوا يكوّنون جيش معارضي السلطة الذين يفسدون بمطالبهم المباغتة، "الوليمة" التي وفّر حصص الكلاب فيها الغزو الاستعماري. إنهم لم يعودوا، إذن، وطنيين يذودون على مصير وطنهم المستعبد وشعبهم الذي أخضع لحمل قيود الاستعباد، وطنيين كان يمكن لديروليد في فرنسا أن يعتبرهم يستأهلون نغمات قيثارته مثلما يعتبر أشباه موسيوس سكافولا ذي الدور الجسور. لا، إنه، وقد

قلب طرفا المعادلة، لم يعد يعترف لمناضلي القلم النبلاء هؤلاء حتى بميزة الترفّع. إنهم لم يعودوا غير زارعي قلاقل وطموحين يجرون وراء تأكيد الذات أو الظهور ومهملين وساخطين أو، مثلما كتبت ذات يوم 'أفريقيا الفرنسية'، لسان 'الاستعماري المناضل' أنهم ليسوا غير زقاقيين من درجة حقيرة يطمعون إلى التشبه بأمثال زغلول وغاندي.

"وهل تعرفون الوسائل المستعملة لتكميم هذه الصحافة والقضاء عليها؟ إن هذه العملية ليست على ما يتصوّر من تعقيد. ويكفي لفهم الأمر قراءة عدد من صفحات مكيفيل بطريقة معكوسة. ولا يخرج، مرّة أخرى، موقف الصحافة عن واحد من أمرين:

إما أن يقبل محرّرو صحيفة وطنيّة، بعد حالات من الجهر بمعارضتهم، بتلطيف لهجتهم وحتى بتبنّي وجهات نظر الإدارة. وعندئذ يرمى إليهم ببعض الفضلات مما التقط من تحت المائدة. إن هذه هي المناورة الأكثر مهارة إذ هي تتمثّل في حرمان من نالوا ثقة الشعب من كل اعتبار في عينيه. إن ردّة مثل هذه وعدولا مثل هذا عن مواقف سابقة يضعفان إما كثيرا أو قليلا قدرات المقاومة في مواجهة الحالة المضطربة التي غالبا ما تكون عليها هذه الحركات. ووجود شاة جرباء واحدة يكفي لإدانة كل القطيع. والوشاية بالنسبة إلى خصم لا تحرّكه غير دوافعه المادية، تصبح سلاحا لا يقلّ قانونية عن غاز الخردل أو الباسيل المميت.

ومن الصحافيين ذوي الخلق الفزّيع من يكتفي بالانسحاب، بعد وقت معيّن، من الحلبة وقد أرهقه صراع غير متكافئ محفوف بالمخاطر وخيبت ظنّه عداوة البعض ووَهْن البعض الآخر فيهمل عندئذ، في فورة من التبرّم، الأمر يأسًا من النجاح. وإما أن يواصل عدد منهم من ذوي الطباع الأفضل تسلّحا الذي وعوا نبل الرسالة التي

حمّلوا، النضال من دون كلل. وإلى أمثال هؤلاء أعلن قانون الأهالي عن وصاياه. ولكن قوانين اللعبة الإدارية ترى، أنه من الحكمة السياسية، يجب، قبل اللجوء إلى الوسائل الحاسمة، "تركهم، قبل كل شيء، يرقصون في الحلبة". والعبارة هي، على ما أعتقد، للحاكم العم جُونَّارْ.

"إن صحفهم تبتدئ بتحاليل جدية تتناول الوضع وبمطالب حصيفة كان على منطق الأشياء أن يشير، في الحال، بمراعاتها ومحاولة حل المشاكل موضوع الخلاف على أساس من تفاهم ممكن دائما بل دائم.

ولكن أفريقيا الشمالية ليست الا مستعمرة استيطان. وبصفتها تلك وجب عليها أن تتعرّض لقانون الاستعباد خدمة للمستوطن مثلما سبق أن شوهد في العصور القديمة، وقريبا منا جدّا، في القارات الجديدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. إن هذه المسَلَّمة تحدّد وتبيّن سياسة كاملة وتشلّ قبليا، مثلما أكّد ذلك فشل الإصلاحات الجزائرية التي أوصى بها نابولبون الثالث، كل مبادرة شجاعة مبنيّة على مبادئ العقل السليم.

"إن صحافيينا الذين يكمن مبرّر وجودهم في تمثيل رأي يدافعون عنه ويريدون له الغلبة يُدفعون، وقد سدّت عليهم الدروب، الى نفاد صبر معيّن يقع التعبير عنه بملاحظات وزلاّت قلم على شيء من الحدّة... ويشتدّ النقاش ليتحوَّل بوضوح، الى النقد اللاذع والى الهجاء. ويتعوّد القلم، مثلما هو الشأن عند أبطال هومير، على القدح فإذا هو يتصيّد، وقد فقد الاهتمام بالنتائج، كل ما يمكنه أن يغذّي قوته الفاعلة.

"إن فرنسا تدّعي أنها تعيش في جمهورية وأن حرّية الكلمة والكتابة شرط من شروط

النظام الديمقراطي الأساسية. ومهما كانت التضييقات على ممارسة حق النقاش، خارج فرنسا، فإنّ عليها بطبيعة الحال ألا تلغيه تماما وان يبقى، على الأقل، على المظاهر. فمن حق الصحفي، حتى إذا كان "أهليا" أن يتمتّع به حسب هواه. ولكن المحاكم في المستعمرات يقظة. وإذا كان القانون لم ينصّ على كل شيء، فإن قانون الأهالي على عكس ذلك، يسمح للسلطة، بعجلة، بقمع جريمة الرأي. والمحكمة القمعية غير المعروفة في فرنسا مطلقة اليدين في أفريقيا. إنها محكمة الجنح التي تماثل قضايا صحافة بسيطة بحالات قذف وغالبا بمؤامرات شرّيرة ضدّ... سلامة أمن الدولة وهذا في حدّ ذاته جريمة.

"على أن القمع يمارس بطريقة أخرى. وفيه يلذّ استعمال بعض المرونة. ولكن ما أن تبدو المقالات أكثر إقذاعًا وتهجّما ويبدأ الصحافي الذي هيّجته سلبية الإدارة المقصودة إزاء القضية التي يدافع عنها، في "الرقص" على حدّ كلمة جونّار حتى يلجأ الوالي، عندئذ، الى جهازه القضائي. هو يحاول مرّة أخرى، مدفوعا بنوع من الميل الى الظرف أن يعالج الأمر على نحو مرضي... فهل قبل اللجوء الى القاضي، يترك للصحافي مجالا لصب جام غضبه. فلقد صرخ ووبّخ وأرعد ورمى حكّام الجمهورية بحقائق مطبوعة بحبر لاذع. لقد أتيح له المجال لتشريح النظام المفروض وأسلم العنان، شيئا فشيئا، بتأثير مُغيظ من غضب محق تماما لعنف لفظي قد يبيحه التشريع الاستعماري أو لا يبيحه حسب الحالة التي تنفرد الإدارة وحدها بتقديرها.

"وفي كل مرّة تخرج فيها الصحيفة التي استعملت هذا الأسلوب اللعني من المطابع، يسارع "قرّاء" في شراء كلّ النسخ في حين يحجز البريد، من جانبه، الأعداد الأخرى التي أرسلت إلى المشتركين من دون أن يغفل عن تسجيل العناوين المثبّتة على الأربطة.

"وماذا تعتقدون أن البوليس يفعل بأمر من الحاكم، بهذه النسخة؟ يتلفها؟

بالتأكيد لا. إذ ليس القوم، في ما وراء البحر بمثل هذا الغباء! وهناك توجيهات لا بدّ من العمل بها حرفيّا. إن النسخ المخصّصة للبيع والتي وقع تحويلها عن عنوانها الأصلي ترسل، بكلّ بساطة، الى الشرق وإلى الخارج وإلى فرنسا. إنها ترسل الى كلّ مكان ما عدا الجزائر وبلاد المغرب.

"إنكم سألتموني لماذا؟ ومع ذلك فإن الأمر لا ألغاز فيه. فالذين كانوا في الشرق وفي الخارج ضمن الأوساط الغير متحمّسة للاستعمار أو الثائرين عليه، في فرنسا، يعثرون بهذه الطريقة على مناسبة تمكّنهم من أن يقرؤوا كتابيًّا، مثل هذا النقد الموجّه إلى الإمبريالية الفرنسية ومن ثم لن يتردّدوا بعد ذلك في أن يمكّنوها من مكسب لا يكاد يقلّ أهمّية عن رضاء مكتسب. ولنتمعّن في الأمر! فأن يقع تحديد دور البنوك والشركات الكبرى في استغلال فلاحنا وكشف أصناف القراصنة الاستعماريين والكشف عن أعمال القرصنة البرلمانية وربط عمل شخصيات قنصلية الديماغوجي ببيع أفريقيا بالمزاد ونقد أوجين أتيين وتمريغ أنف واحد مثل تارديو في وحل الـ نقوكو-سانغا والتنديد بتواطؤ الصحافة الباريسية في عملية السطو على أفريقيا الشمالية من أدريان هيرار إلى دوبَارِّي: إن حرّيات صحفية مثل هذه إنما هي مدينة لليبرالية بل لأوسعها!

"وهل يدوم كلّ هذا؟ لا. فما أن يقع إرسال عدّة آلف من النسخ إلى أصقاع العالم الأربعة حتى يستقرّ الأمر على وضع حدّ لهذا النقد اللاّذع. وفي الأثناء يكون القلق قد ساور الإدارة وأقلّية المهيمنين الذين يبتزّون البلاد. لقد كان كل شيء قد بلغ حدّا من قابلية النقد والإستنطار والتشهير دفع الشعب الذي أيقظته مواقف صحفه اللاذعة الصادقة المتحمّسة الى أن يهتزّ ويصغي الى من يدعونه الى المزيد من التحمّس لإبلاغ صوته. إذاك تتحرّك الشرطة والمحاكم. ويكفيها ان تعود الى الصحيفة لتسمّي الدجاجة شَبُّوطا. وكل شيء، بخصوص صحفي أهلي، مباحٌ. فحتى

لو عمدت الشرطة الى تركيب كل ضروب التقارير فإن المحاكم تتقبّلها، مثلما لو كانت غرفة تسجيل بترحيب غالبا ما يقارب التواطؤ. ذلك أن الإدارة لا تحتاج، اذا تعلّق الأمر بقمع حقّ بارز من أجله مرّات كثيرة إيميل دي جيراردين وأرمان كاريل وتعرّف في فيكتور نْوار على شهيد في سبيله، الى اللجوء مباشرة الى قانون الأهالي. فآثام القانون الدنيء لا يقع اللجوء اليها الا في حالات أكثر خطورة بكثير. إنه يقع التظرّف حفاظًا على المظهر ولكن ذلك لا يجب، على عكس التقاليد التي مثّلها بريدوازون، ان يتجاوز الحدود التي رسمها مفهوم ما سمّي مبدأ السيادة الفرنسيّة.

"يحال الصحافي الشمال أفريقي الذي يتهمه محقّقون تخفّوا وراء قضاة تحقيق، إلى عدالة محرّفة فيصدر الحكم عليه غالبا من موضع آخر غير المحكمة. ولدى القوم ما يختارون بين محكمة الجنايات والزجري ومحكمة الجنح. على انه لا بدّ هنا أيضا من ابداء نوع من المهارة واللياقة اللتين لا علاقة لهما بالإنصاف بمعناه البسيط إذ الأمر يتعلّق بزجر لا يثير فيه الحكم القضائي استنكارًا حريًّا بان يعرّض الحكومة القابضة على مقلاد السلطة للملامة. ذلك أن المعارضة ترصّد عثراتها والمعارضة، هي بدورها، لا تردّد في مقاومة من يبعدونها عن تسنّم المنصب الأول في الدولة. وسواء انعدمت القضايا ام قلّت. إن الأمر يبدو على هذا المنوال.

"إنه يقع، عموما، تجنّب محكمة الجنايات. ذلك أنه يمكن، لوجود المعارضة، أن تصبح هذه المحكمة منبرًا يلقي فيه محامون من طلبة الإشهار أو النيابة، وعلى غير انتظارن من تحت قبّة المحكمة بأمور غير سارّة تستدعي نقاشات ليست البتّة في صالح الاستعمار. حقّا إن تكوين هيئات هذه المحاكم، وهذا نعرفه، لا يتّسم بشيء من الديموقراطية وخاصة عندما يكون المتّهم الجالس في قعر مقصورة المتّهمين بين دَركيين كورسيكيين، "أهليّا" مثقّلا بحمل اللعنة الإدارية. والمعمّرون الذين تتكوّن منهم، عموما، هذه الهيئات وغالبا ما تسيّر بوحي منهم ويديرونها إنما هم أمثال

هؤلاء المغتصبين[133] للأراضي في الأوهايو والإلينوي الذين كانوا يرون أن "أفضل هندي أحمر هو الهندي الميت". إن هذا لا يجرّد المؤسسة من أهليتها ولا يكاد يسم محلّفيها بسمة الكراهة الجوهرية ولكنه يتضمّن معنى عدم كفاءتها ما دام تطبيق القانون بمعناه الحصري مشوبا بهيمنة الرأي المسبّق الذاتية.

"فهل يقع اللجوء، إذن إلى القضاء الزجري؟ ولكن هذا سبق أن كان تعبيرا عن التشريع الاستثنائي. إنه قانون الأهالي بشعار جمهوري يمكن تبيّنه بواسطة قراءة بين السطور. والمعارضة ستعثر فيه، ما دامت لم تتسلم الحكم، على مطاعن.

"محكمة الجنح، إذن؟ إن في اللجوء اليها ما يحافظ تقريبا على سلامة الحيلة ويراعي إن كثيرا أم قليلا شروط الحكم القانونية. وهو، إزاء "الأهلي" تأمين جنائي مضاد لحرّية الصحافة التي ما سمح بها الا لتوفير عدد معين من الحجج الهادفة الى تضليل الرأي في الخارج أو واحد مثل بْرَايّارْ ما زال مستعصيا على كل تدنيس استعماري.

"إن محكمة الجنح وهي تحكم في جنح الصحافة هي التي يحال إليها، بانتظام، الجانح الجزائري. والقاضي يصدر في مثل هذه الظروف، أحكامه مثل مثل ما يفعل أي زميل له في قضاء منتارجيس أو بريف لا-قايارد. فالأحكام الصادرة غالبا ما تكون خفيفة. والقاعدة هي الغرامة. ولا تتجاوز التعويضات المطلوبة عندما يتعلّق الأمر بعقوبة على الثلب عددا من آلاف الفرنكات. إنه مبلغ ضئيل بل هو لا شيء. ولكن هذا يكفي لقتل صحيفة رأي مغربية. ولتحكموا على الأمر بأنفسكم: إن دائرة القراء ضيقة. وينعدم المانحون. أما المكتتبون المتعاطفون مع الجريدة فعددهم قليل جدّا. ومالية الجريدة زهيدة. إن المداخيل تكاد لا تغطّي النفقات. فإذا انضاف الى هذا

Squatters [133]

الوضع حمل مالي يجفّ المورد حقيقة.

"لقد وقع بهذه الطريقة شل انطلاق تفكير حر في الجزائر. ولقد جرّب ذلك من قبل في تونس وهو ما تقع تجربته اليوم في مراكش.

"ويسوء القوم أن يتوقّفوا في منتصف طريق واعدة مثل هذه. إن المنع لا يقتصر على الصحافة المغربية وحدها. هو يشمل كل صحافة المشرق القادمة إلى شمال أفريقيا التي تخضعها مصالح رقابة تشتغل حسب نظام استنفار دائم لغربلة جادّة. إننا هنا في وضع المطفأة. وهذا هو أوان التصريح بذلك. فلا بد، لتأبيد وضع الجهالة الذي لا يمت بصلة، والكل يقرّ بذلك، الى الإعلانات الدائمة المثيرة للسخرية حول عولمة التعليم مثلما تسعى البلاغة الفرنسية إلى الإيهام به، من مواصلة الإبقاء على الجهل لا بين أوساطنا الشعبية العريضة فحسب ولكن لا بدّ كذلك من توزيع هذه الهبة السماوية بتقتير وبطرق تظهر فيها العيوب نفسها للعيان. فهل أنتم الآن تتبيّنون أي دور عيّن لجنس الكُوبِنْلارْتيين في مجال التعليم المغربي الخاضع للختم الفرنسي؟

"لقد كان من الصعب، حتى أزمنة قريبة جدّا، الحصول على مطبوع أصدرته مطابع القاهرة حتى لو كان خاليا من كل مضمون سياسي. لقد كان علينا أيضا، وقد أبعدنا من المدارس التي كنا، مع ذلك، ننفق عليها من مالنا، ألا نجد في قرن ارسال شارات المورس شيئا نغذّي به أدمغتنا فيجلي ما غمض عليها. وحتى عندما تقدم على المغرب صحف مناصرة لفرنسا صادرة في مصر فإن البريد يعيدها، تواطؤاً منه مع البوليس، الى بلد المصدر او يجير لنفسه حرقها.

"فبم يفسّر هذا الموقف النابذ، من هذه الصحيفة المصرية، مثلا، التي تصل الى بلاد المغرب؟إن سؤالا مثل هذا ينطرح ذاتيا. ومع ذلك فإن الإجابة عليه من أبسط

ما يجاب به على الرغم من أنها تبدو، لعيني الإنسان العادي عصيّة التفسير شُوَيَّةْ. إن هذه الصحيفة ورقة قد تكون محدودة السحب ولكن مداخيل الإعلانات غالية الثمن تسمح لها بتحسينات تقنية على الطريقة الأمريكية. وقطعها وطريقة حفر الكليشهات ومستواها الأدبي العالي وغزارة ودقّة معلوماتها وأهمّية ما تتناول من مواضيع وشهرة المتعاونين، بمقابل مالي، معها، كل ذلك يجعل منها صحيفة يصعب جدّا على صحافة باريس أن تأمل في مباراتها بنجاح. وعلى المرء، إن رام أن يجد لها نماذج حقيقية، أن يتوجّه بنظره إلى لندرة أو نيويورك. وإذ كانت هذه الصحيفة محرّرة بالعربيّة ومشبعة بفكر وثقافة عربيين، وكذلك افتتاحياتها، ومسلسلاتها ودراساتها العلمية والفنية ونشرتها المالية وأخبارها القضائية وعرض النقاشات البرلمانية والبيانات حول وضع الدول الكبرى العسكري وزواياها الإعلامية ولمحها الإرصاديّة ونقدها الأدبي والمسرحي وأسلوب نثرها السليم وحرّية تعبيرها وبراعة مجادلاتها، فإن كل هذا يبدو خطيرا عند مُسُوخِ مكيفيل الذين يحكمون أفريقيا الشمالية باسم فرنسا السيد بول فايري.

"إن المغربي ذا اللغة والثقافة العربيين ليس عليه إلا أن يلقي نظرة خاطفة على صحيفة مثل هذه ليستخلص، بمقارنتها بواحدة من صحف الدييش التي تصدر في عواصم المغرب، نتائج تطيح، من دون رحمة، ببناء كامل من الأحلام المُضِلَّة.

"كذلك لا يجب، أيضا، التساهل إزاء أي إنتاج أدبي عربي اللغة. إنه يقمع فورا بذرائع متنوّعة مستخرجة من ترسانة القوانين الاستثنائية واستنادا إلى ضرورة حماية حقوق لا يدري أحد ما هي.

"إنه ليقع التذرّع بالحرية الدينية عدما يتعلّق الأمر، مثلا، بمحاربة كل محاولة للتحرر الاجتماعي او للتقدّم الفكري. ويعتبر تأسيس جامعة ومدارس حرّة ونوادي محاضرات

من بين الأنشطة المخالفة لروح التقاليد البالية المنحطّة.

"وأما الشعوذة، في كل أشكالها فهي، على العكس من ذلك، محمية مصانة مدَلَّلَة. إن الزوايا التي تعارض معارضة صارخة تعاليم الإسلام تفرّخ تفريخا طفيليّا فيقع الحفاظ عليها ودعمها في ما تأتيه من نشاط يوهن العزائم تدريجيّا. إنّ كل ما ألغته روح النهضة والثورة وفلسفة القرن التاسع عشر في أوروبا باسم الحضارة، من طوائف المختلجين وأكلة الحيّات وبلاّعي المسامير والجذّم والمتسوّلين الجوّالين والملهمين الدوّارين الصيّاحين وجمعيات المعتوهين ممن يشبهون هؤلاء الذين كانوا يعمّرون بلاطات المعجزات في باريس في السنة الألف، ما زال باقيا أو ينبعث من رماده في أفريقيا نصب أعيُن جماعة من المربين الفاشلين المتسامحة."

سعل سي الونوغي قليلا سعالا خفيفا وطلب كأس ماء ابتلعها في جرعة واحدة ومسح شفتيه بمنديل ثم تابع كلامه:

"ولنوسع الآن النقاش. إن حظر الفكر لا يستهدف الثقافة عربية اللغة فحسب ولكنه يتفنّن في مطاردة وتدمير كل ما ينشر بالفرنسية إن كان صادرًا عن قلم مغربي. والأمر المثير الذي لا بدّ من ملاحظته في هذا السياق هو أن هذا الإقصاء لا يراعي حتى جانب أنصار الإدماج. لقد كتب في بداية هذا القرن تقريبا مترجم جزائري ملحق بجيش أفريقيا كان على مستوى أدبي معيّن هو إسماعيل حامد (اعتقد هذا الشخص أن مما يعين على تحقيق مزيد من الانسجام هو أن يتفرنس بأن يبدّل بتاء مناسبة الدال التي تختم اسمه)، بالفرنسية كتابا يعرض فيه ويسند أفكاره التصفويّة في المسألة الجزائرية. وهو، على الرغم من أنه قدّر الحضارة الإسلامية وتاريخ المغرب حق قدرها، لم ير من حلّ للمسألة التي تقضّ مضجعه في غير التضحية بهما

والانصهار في البوتقة الفرنسية. إن هذه هي الأطروحة الرسمية، أطروحة مَشْيَخِيٍّ[134] الإمبراطورية التي كرّستها على هامش قانون الأهالي، المماحكات اللفظية في السرّ حينا وفي العلن حينا لآخر والتي انتهت، بعد أن تطوّرت من السيئ إلى الأسوإ، بإفلاس مقلع الانتخابي. إن هذا الكتاب كان يجب، لو اعتمد المنطق الصرف، أن يحظى من الدعاية الإدارية بالترحيب. ولكن، ماذا كان مصيره؟ إنه الإهمال والاختفاء. فلا أحد سمع عنه شيئا.

أما الكتاب الثاني الذي يندرج في هذا الصّدد فقد ظهر منذ قليل في الجزائر. وهو عمل تعاون على إنجازه فرنسي وجزائري. فهو، إذن، نَتَاجٌ بغلِيٌّ مثلما هو شأن كل ما يمكن ان يتولّد من تصالبٍ غير سويٍّ. ويسعى رفاق الحديقة[135] مثل كتاب م. إ. حامِتْ الى الغاية التفتيتيّة ذاتها تحت ستار المزج والخلط. إن لافيجري، لم يكن، في الزمن الذي كان فيه يوعد الإسلام الجزائري إن لم يركع أمام أرجوانه الكردينالي، يقول، في القضيّة، شيئا آخر. وعندما يقلب المرء الصفحة الأخيرة، فإنه لا يسعه إلا أن يغتاظ للدور الذي تفنّن الفرنسي في إسناده إلى الجزائري. والأجدر هو أن يتحدّث المرء عن شِرْكَةٍ بين ماكر وفْدم. ويظهر في حديقة ليس فيها من الصفات الأكاديمية إلا القليل ولا تشي فيها المناقشات بشيء من المشائية، عددٌ من الشخصيات الوهمية التي تمثّل نزعات تضطرب في الإنبيق المغربي تَذبٌّ ذبَّ فرق من الزنابير حول أجمة من الحنظل. فكل يرفع علمه ويبسط رأيه ويبرّر انحيازه ويوصي باستعمال طرقه في لبس لا يتصوّر. فمن المرابطي الرجعي الذي يزين برنوسه وسام جوقه الشرف الى المصلح الذي يعتقد أنه عثر على الترياق في رمال الصحراء، أو في بعت نوع من المجتمع التوراتي الذي ندّد الاسلام بأطره، بالذات، وقوضها، الى الطبيب الذي

---

[134] Senatus-consultes

[135] Les Compagnons du Jardin

يكرّر، مثل ببغاء عجوز، أغنية الإدماج الخالدة على أساس من الحالة الشخصية الى صاحب الشاشية الشاب الذي تربّى تربية فرنسية ولا يعرف كلمة واحدة من العربية أو القبائلية والذي كان يمكنه أن يتنكّر لكل شيء، بما في ذلك كرامته، لو كان على يقين من تحقيق جزء من طموحاته والذي يخفّف نفاد صبره بفكرة الزواج من ابنة خمّار أوفارني بالمفرق في حالة افلاس أو من تلك المعلمة البيرنية التي تفكّر بهلع، وقد تجاوزت سن الأربعين بكثير، في الغضون التي تحفر خدّين لم تعد نضارتهما غير ذكرى تحنّ اليها.

إن ما تهدف اليه سياسة فرنسا الشمال أفريقية إنما هو بالذات هذا الخليط من الآراء المتعارضة وهذه السَّلَطَة الروسيّة من الأفكار المضطربة التي لم تنفذ الى عمق الإحساس نفاذا يمكّن من التعبير عنها بجلاء. وحتى حبكة الكتاب الذي لا يخفى ادعاء عرض كل الآراء التي تولّدت عن نزاع الاتجاهات التي تدفّقت على أفريقيا المغربية نرى مناصرا للتصفية القومية مرتدّا يجيز لنفسه أن يجاري واحدا من ممثلي الإدارة الجزائرية الأكثر خلوصًا في ما يذيع من كلام معسول. إنها لعبة تخبئة صيغت في شكل كتاب. وفي هذه الهرجة نرى العرّاب المسلم، وقد تخلّى عن اسم لم يلمع في ميدان الأدب لمعانا يجيز ترف التخفّي وراء اسم أدبي مستعار، يمضي هذا الكتاب الذي هو عبارة عن خدعة فظّة، باسم فكري. وتلك، لعمري، فكرة عجيبة في رفقة مثل تلك!

"والحال أن رفاق الحديقة الذين استخلصوا ضرورة أطروحة الإدماج الرسمية ودعوا إلى الردّة من أجل تحقيق بالوعة رومانية ينقصها تخفيف سلالة سيفِير التشريعية، لم ينالوا، على حدّ علمي، سمعة حَسنة عند الطرف المقابل. بل العكس إذ كل شيء يدعو الى الاعتقاد أن مصيره لم يكن أفضل من مصير هذيان اسماعيل حامت. ففرنسا لم يبد عليها أنها كانت مهتمّة بهذه القبلات التي هي لا تقلّ، مع ذلك، في

الظاهر حرارة عن قبلات الأب لاموريت[136].

"لقد كان المراد هو تأييد اللبس باستشارة الرأي العام. لا أكثر ولا أقل. والأساس في كل هذا هو تجفيف الينابيع الثقافية التي يمكننا منها أن نرتوي وأن نروي غليل عقلنا الذي فطم عن رضاع المعرفة واسْتُكِدّ على أمل مقامر هو، اجمالا صبياني، في أن نرى ذات يوم وقد قضينا جوعا مثل هذه الأشجار المنفردة التي ينتهي بها جفاف دائم الى الدَّسْوَة والموت. إن هذا لهو المبدا الذي حكم، قبل كل شيء، السياسة البربرية. فما دامت لغة البلاد هي العربية فإن ما يفهم القوم من البربرة إنما هو، ببساطة، نسف أساس كل بعث ممكن. ويظهر هذا بجلاء أكثر أن المنافحين، الأفارقة عن الرومنة الجديدة وأنصار الفرنسية لم يجازهم الفرنسيون أنفسهم على الرغم من الحاحهم المتكرر، بغير الجحود والسخرية والإهانة. إن هؤلاء السنتأوغستينيين من المدمنين على المقاهي-المغاني وهؤلاء الأبوليين المبشّرين في الصحراء وهؤلاء الترتوليانيين الشاحبين وهؤلاء اليوبيين المضحكين لم يكونوا يطلبون البربرة فحسب، بل كانوا يحاربون كذلك القومية الثقافية الكلاسيكية باسم الاندماج. ومع ذلك!

"فلتحذروا، أنهى سي عبد الرحمان كلامه. إن السلاح موجّه الى القلب فينا. إنه لا بد من ردّة فعل وإلا فإننا سنسمح لأنفسنا أن نهوي الى منزلة مستَرَقّي المجتمعات القديمة الذين لم يكن يسمح لهم بالوجود إلا بالقدر الكافي من الخدمات الذي يقتضيه رفاه أسياد المدينة"

[136] L'Abbé Lamourette رجل دين وسياسة جمع سنة 1792 النواب للتصدي للخطر الخارجي وقد أطلقت على مشهد عناقهم عبارة قبلة لاموريت.

ما وراء الأفق

تشاورت الجماعة في أمر النضال. لقد حلّ الشارع من الآن فصاعدا محلّ الجبل وقام القلم والكلمة مقام البارود لترجيح الحقوق الوطنية. لقد وقع استخدام صيغ التنظيم الجديدة التي ولدت بقيام الثورة والتي كان عليها، بالتأكيد، أن تتسرّب من منافذ الميدان الأوربي إلى بلاد المشرق حيث وضعت الهجمة الإمبريالية الفظّة الحديثة الشعوب الخاضعة لها أمام اختيار ذي حدين لا مفر منه:

إما تكييف وسائل العمل حسب ما تقتضيه الروح الجديدة وإما الاختفاء من المسرح العالمي بمقتضى هذا القانون الذي شاء، على الدوام، أن يُخْليَ الضعاف مكانهم للأقوياء. لقد بقيت، ما دام ابن عبد الكريم قد فشل حيث انتصر كمال أتاتورك، الوسائل الأخرى الأفضل والأوثق والأنسب إلى مستوى ظروف البلد الاجتماعية. هذه الوسائل التي طبقتها بورجوازية القرنين قبل الأخيرين وبروليتاريا القرن اللاحق في أوربا والتي ستُوَطِّنُها فترة ما بعد الحرب في مصر والهند بقيادة زغلول وغاندي.

لقد رسم سي الونوغي الذي قرأ الكثير حول تاريخ حركة الأفكار في أوروبا وتعلم منها بما فيه الكفاية وتردّد، مدفوعا بفضول يفوق الرغبة النضالية، على الأوساط التي كانت تدّعي أنها ملاذ التفكير الثوري، مخطّطَ مقاومة مستوحىً من البيئة المغربية وملائمًا لطبيعة الأحداث الجارية.

وما دام ظهير 16 ماي يهاجم الدين بطريقة غير مباشرة فقد اختير المسجد في

البداية بؤرة للمقاومة. لقد كان هذا، إذا شئنا، نوعا من ناقوس الخطر عوض فيه سيف الإمام الخشبي حبل المصلصلة. وأصدقاء إدريس، في ما يتصل بهذا الأمر، لم يأتوا بدعة، لا في الزمان ولا في المكان. ففي الجزائر، بالذات، حاول ابن باديس، من حجر المسجد، أن يجَدِّدَ إسلاما أفسدته وشوّهته الشعوذة الطرقية.

وفي المسجد كذلك اشتهرت مشاريع التجديد الاجتماعي المغربي الأولى مثلما أخذها التاريخ في إبانها في بداية العصرين المرابطي والموحدي.

وفعلا فإن التقاليد القديمة تشاء أن يكون الحرم هو منطلق كل إصلاح وكل إحياء وكل تعبير عن الأفكار. ذلك أن الواجبات التي تطلبها العناية الإلهية لا تنافي البتّة مقاومة جور السلطة.

لقد اضطلع المنبر دائما بدور رئيسي في إسلام الأزمنة الأولى واستخدمه محمد وعمر ومعاوية والحجّاج وأبو مسلم بكثرة للدعاية إلى الدين أو لتقويم الأخطاء. ولقد صوّبهم التاريخ. إن الإسلام الذي تولّد من ضرورة إصلاح مجتمع أكدّته الفوضى وترصّدته لا يتعين ولا يلتمس إلا عندما تحسّ شعوبه بالاضطرار الملح إلى خلع الغل الذي أحاط به أسياد، أجانب كانوا أو أهليين، رقابها من دون أن يحسوا بوخزة ضمير...

***

هكذا إذن انتشر الأمر بين المساجد المراكشية. لقد مكثت أغلبية المؤمنين، بعد الصلاة، جالسة على الحصائر داعية إله الرحمة، والسبح في الأيدي، أن يحبط مشاريع الفرنسيين وأن يحفظ الوحدة الإسلامية في الوطنية الوليدة. إنه ليخيّل للمرء أنه كان بإزاء عودة الماضي القديم وتحدٍّ استعادي صادر عن أشباح متلاشية وظلال تنبثق

من قبور ابتلعها الزمان والتراب منذ عهد طويل.

ولو قدّر لعقل كَلِفٍ بالتاريخ أن يرى مشهدا مثل هذا لاستحضر، في التوّ، هذه المواكب من ضحايا محكمة التفتيش التي حكم عليها بالحرق أو بالسجن أو أن يستحضر أيضا، وهذا عندما بدأت العظمة الإسبانية تزخرف واجهتها باسمي سرفانتيس وزورباران، مذابح المنفيين المسلمين الهاربين من وطنهم بحثا عن ضفاف أكثر ضيافة.

كانت الأشباح تبدو كأنها تفلتت من حلم مُغِمٍّ ومن قبور طوتها الأرض في جوفها في كل أرجاء الأندلس المجاورة وجاءت، في حشود متراصة صاخبة لتجلس في حلقة المؤمنين وترتل معهم، بصوت تضفي عليه التضحية طابعا من المجد الخرافي، اللطيف الذي كانت مقاطعه تتعالى مثل ناقوس إنذار عبر أقاصي البلاد. كان إدريس الذي سبق أن عرف عددا كبيرا من القصائد الأندلسية التي ترقى إلى هذه الفترة المشهورة يقارن هذا المشهد بالمرثية التي وجهها أبو الوفاء الرندي، سابقا، إلى السلطان بايازيد عندما كانت محاكم توركويمادا تعرض على القضاء البابوي قرارات إبادة تمثل مقدّما، وبشكل عجيب، ظهير المقيم سانلوشون. لقد دوّت مساجد مراكش، كلّها، وحتى الجزائر مردّدة في رتابة ضارية، هذه الصلوات المؤثرة السائطة وكأنها تعلن عن استدعاء للطاقات الغافية. فالشبيبة المغربية التي اخترقت القشرة الغليظة التي ميزت إسلاما هجّنته ممارسات تزمّت آلي لا حميّة فيه ربطت إيمانها، صراحة، بعد أن استفِزّت في أكثر ما تفخر به من مشاعر، بحياتها الأرضية. وهي في هذا النهج، بقيت على نهج التقاليد الموحدية السويّ في صلب مضمون التعليم الاتحادي العقلاني الذي تلقته من أمثال ابن تومرت وابن رشد وابن خلدون أي على نهج لا يقول، لدفع الضرّاء، برميها بصيغ لعنية لا طائل من ورائها أو بتوسل فردي يشي بأقنعة من التواضع أو بالأمل الافتراضي في عون يسقط من تلقاء نفسه

من السماء مثلما سقطت بيضة العقاب على رأس أشيل. كما أنه نهج ليس البتة نسخة حرفية من هذه التقوى المطمئنة التي تفوح طرقية رديئة. إن الدين لم يعد، على عكس ما ذهب إليه اعتقاد البعض، قوة مساعدة للظلامية وضربا من ضروب صمام الأمن الذي يشغّل لضرب حريات البلاد وشرفها. لقد التصق، من الآن فصاعدا، بالمفهوم الوطني. لقد استعاد المسجد، وهو يحارب الزاوية عميلة الأجنبي ومعقل الايديولوجيا الرجعية الأكثر سفالة، دوره التربوي في العصور البطولية.

أشعل ترديد اللطيف بسرعة كبيرة أرض المملكة ونفذ النفس الألفي الذي كان يتضمن إلى الشعب فكان كل واحد يحسّ إحساسا تُوقّعه حبات السبحة التي تفرطها أصابعه المحمومة، بخطر يدهمه يناسب الفكرة التي كوّنها عن إيمانه وعن العقيدة التي تلقى من ربه ويدرك مداه. إن الإسلام الذي تفتّحت عليه عيناه الآن بدا أنه يستعيد وجهه القديم، وجه الإسلام السلفي المتفق مع مقتضيات القرن مثلما تصوّره مصلح الأطلس قبل عدة خمسيات من ولادة الشارح القرطبي. وهذا يحدث في الوقت المناسب لأن جذام الطرقية، هذه الهرجة المقيتة التي تدعمها فرنسا، كان يتدرب على تخليد وضع خَرَبٍ إذ أن الدينامية التاريخية كانت، بمقتضى هذا القانون المتعلق بالأواني المستطرقة والذي يسري على الأشياء الاجتماعية مثلما يسري على الأشياء الفيزيقية، يجبره، ذاتيا، على التجدد والتكيف. كان روح من التنظيم يؤثر في الحركة بطريقة بارعة. وقد وجد إحساس بتوطين وسائل نضال جديدة واعتماد انتظام يناقض التقليد القديم المتمثّل في فردية الأجداد: كما لو أن فوضى القبائل الجرمانية، وهذا نفيد به هؤلاء السادة، أو غليان العشائر الغالية منعا التاريخ من إصدار أحكامه. ويبدو أن هذا الأمر شغل بال الإدارة. فالصحف والنوادي وجيش الغرولوين والكاميلكوبفيين والكونيين كانوا يؤكدونه. ولقد بلغ صداه البرلمان، في باريس، مضافا إليه التعليقات التي كان نواب الجزائر من المستوطنين يوجهونها وجهة ليس من الصعب جدًّا تبينها.

وهكذا هاج الرأي العام!

تعجرف سانلوشون. فقد وجه من أولمبه المقدس إنذارًا إرهابيا إلى "زارعي القلاقل" الذين كانت أفريقيا الفرنسية وزمرة الكتاب الأردياء الفرنسيين في أفريقيا الشمالية تمقدّمانهم له ثيران مصطرع تسكّن غيظه. لقد تعود الناس منذ 1930 على هذه الحلول التي يرثى لها إذ ما زال القوم عند معتقدهم أنهم إزاء واحدة من هذه الزوابع في كأس ماء يكفي إخطار رسمي مرفوق بنقل عدد من مفارز الجندرمة لتهدئتها. وهكذا فإنهم رأوا أن عليهم، تماما مثلما هو الشأن في دراما فودفيلية، أن يكتفوا بإبراز نيوب الليث "للأهلي" حتى تعود المياه إلى مجاريها ويَعُود السكون. ولكن تقطيب الحواجب، هذه المرّة، لم يعط النتيجة المرجوة إذ أن التهريج طال بما فيه الكفاية.

لقد بدا، بانتشار اللطيف في كل مراكش وتخطّي حدود المولوية، أن القضية تتخذ وجها رأى أقل الناس تشاؤما في الإقامة أنه ينذر بالخطر. هذا إذا بقيت على هذه الهيئة من الاقتصار على التباطؤ في العمل إذ كان من المقرر، على العكس من ذلك، أن ترفق بجملة من الأحداث تنقلها، دفعة واحدة، إلى مستوى يمكن القول إنه عالمي. وفي اللحظة التي كان فيها سانلوشون يهمّ بالانقضاض على الحركة كان وفد من الناشطين هو نواة الحركة الوطنية في البلاد لاحقا، يسلّم مصالح الإقامة المختصّة عريضة مطالب كانت في الوقت ذاته خطة إصلاحات درس فيها كل شيء وعرض بدقة. كانت مجموعة المطالب لا تخرج، بطبيعة الحال، عن النطاق الذي حدّدته الحماية. إنها أساس مشروع تعاون دقيق بين طرفين يملكان ما ادعت اتفاقيات 1912 أنها مكنتهما منه فلا شيء، يمكّن الواحد منهما من أن ينفرد به من دون الآخر. وهذا على الرغم من أن الأيتام القصّر كانوا يطالبون، وقد بلغوا سن الرشد، وبالوسائل

القانونية والمباحثات العقلانية، بما لم يكن الأوصياء ليمكنوهم منه إلا قولا ويحرصون على أن يثبّتوهم في الوضع الذي كانوا يدعون أنهم وجدوهم فيه. لقد كان ذلك بالذات حجرا جميلا ألقاه الدّب في مستنقع الضفادع! ولقد وقع توضيح الإشكال وسدت الدروب على أفكار لاروقان. إنه لم يعد للنفاق الرسمي الذي يرعاه سانلوشون من مبرّر بعد الآن.

***

"إن هؤلاء السادة، شرح سي تاشفين للوفد المكلف بإبلاغ المقيم العام لائحة الإصلاح، يدعون أنهم قدموا إلى هنا لغرض النظام ونشر نعم حضارة كنا، إن صدقناهم، نفتقر إليها. إننا لن نسعى إلى مناقشة صحّة هذا الزعم الذي أصبح لازمة كل المغامرات الإمبريالية في هذا القرن الذي وهب الإنسانية الفن والعلم. ولكننا سنتظاهر باعتقاد ذلك وكأنه أمر صحيح. لنأخذهم بما يدعون. إن الحماية هي، إن التزمنا بمضامين الفلسفة الرسمية، المبدأ الذي ينبني عليه التعاون بين الفرنسيين وبيننا. وبناء عليه فإن ثروات مراكش ومراقبة التصرف العام يجب أن توزعا مُنَاصَفَةُ بين المتعاقدين وكل هذا في المبتدأ وإلى أن تمكّننا المدرسة والنصائح من بلوغ النضج المطلوب. والحال أن الحماية بلغت اليوم سن الثامنة عشرة، أي سن الرشد، وما زال هؤلاء السادة لا يتردّدون في الإجابة، في كل مرة يتجرأ فيها واحد من ذوي النيات الحسنة على تذكيرهم بالتزاماتهم، بأن مراكش مازالت تفتقر إلى نخبة قادرة على أن تعبّر عن رغبات الشعب بأفعال واضحة وبأن الحل الأفضل هو "تمكين البلد من التطور في نطاق ثقافته الخاصة". هذه صيغة جميلة فتّانة على الرغم من أنها ماكرة شيئا ما. والمكر، مع ذلك، لم يكن البتة فضيلة من فضائل الحكم.

"ونحن اليوم، شاء القوم ذلك أم لم يشاؤوا، نملك نخبة. ولا بد لكل هؤلاء الذين

جاؤوا عندنا لافتكاك أراضينا وافتكاك وظائف ومهن الإمبراطورية والحصول على وظائف عاطلة شائنة من أن يكونوا يصدرون عن سوء نية تامة إن تجرؤوا على ادعاء أننا لا نمثل غير عصابة من مهيّجي الجماهير لابدّ من الإسراع بلجمها بالقوة.

"إننا نقبل بصيغة المعاهدة. وإذا ما وجدنا محاورين صادقين أمناء مستعدين لا للاستماع أو المحادثة فقط ولكن للعمل في مصلحة الجميع، فإنه لا أحد منا، في ما أعتقد، يمكنه أن يصدر عن قصد سيء. إنّ سلام المغرب ورخاءه لا يتوقّفان علينا ذلك أننا، نحن، الضحايا الطالبين الذين سلبوا كل شيء، معنويّا وماديّا، والذين يطالبون بحقهم باسم هذه العدالة التي يصفّق لها حينا وتداس بالأقدام حينا آخر حسب ما يقتضي الظرف.

إننا نعيش عصرا رفع فيه شعار الأمن الجماعي إلى منزلة المبدأ المحرك لكل الاتفاقيات الدولية الكبرى. وبناء عليه فإننا نريد أن يكون التفاهم المبني على الثقة المتبادلة هو الضامن الأفضل في حل المشاكل الأكثر استعصاء. وهذا مشروط بأن يبذل كل طرف ما وسعه من جهد إذ لا حل من دون تحقيق هذا الشرط.

"إننا، لذلك، سنعرض على هؤلاء السادة خطة شاملة صيغ فيها كل مطلب صياغة تراعي الدقة المطلوبة حتى لا يتخفّى القوم وراء سدّ رماية يطلقون منه سَيْلا من الأوصاف المجانية والأسئلة المفخّخة. وفي هذا الصدد سنعتمد، روحا ونصا، المعاهدات التي كانت سبب الحماية والتي تبقى، بالنسبة إلينا، السلاح الشرعي القانوني الذي لن نسمح بأن يسلب منا.

"يبدأ هذا المخطط، يا أصدقائي الأعزاء، بعرض للأسباب التي تحدّد، انطلاقا منها، وضع البلاد ونعرّف بالأدواء الثلاثة التي تعانيها مراكش سياسيا واقتصاديا

واجتماعيا. هذه المعاناة مردّها، مثلما تعرفون، إلى أسباب ملازمة للنظام الذي فرض علينا قسرا. إننا لن نجرّم شيئا لا علاقة له بصلب النظام الذي يحكم الحماية أو يندمج فيها. وباختصار فإن هذه الأدواء نشأت، رأسا، من الإدارة والاستعمار الفرنسيين. إننا نجد هذه السياسة جائرة ماكرة. ونتيجة لذلك فإن من حقّنا الذي لا مجال للمنازعة فيه أن نجيز لأنفسنا فضح الجور الذي يقوم شاهدا عليها ويجرّدها من المشروعية".

"هذه السياسة عنصرية، فهي تستعمل المحاباة الضريبيّة والميزانية. وهي ظلاميّة. وهي معادية لليبرالية. وهي استعمارية. وهي، بعد كل حساب، إدماجية. وكل هذه الحقائق تكذب الادعاءات التي تسند مشاريع فرنسا الشمال أفريقية وتجعل من صيغة الحماية مثلما تصورها بول كامبون بالنسبة إلى تونس، قبل أن يوطّنها لاروقان في مراكش، هزأة.

"إن هذا المخطط، مثلما شددنا على ذلك في عرض الأسباب، ليس فاتحة عمل سلبي أو وهمي. وليس فيه شيء مما يمكن أن يعد تخريبيا. فموقفنا من الحماية واضح. إننا نتبنى الامتيازات السياسية مثلما تبيّنها الاتفاقيات والرسائل وكذلك تصريحات الحكومة الفرنسية الرسمية...

"إننا نطالب، بمقتضى هذا المخطّط، بإصلاحات سياسية: أي بتنظيم إداري وحريات عامة وخاصة وبتعريف قانوني للجنسية المراكشية. ونطالب بإصلاحات قضائية تتصل، حصرا بالعدالة: بتنظيم قضائي وبإجراءات وحقوق القضاء وممارسته وكذلك إعادة النظر في نظام السجون. ونطالب بإصلاحات في التعليم والحبوس والصحة العامة والمساعفة الاجتماعية والشغل. ونطالب بإصلاحات اقتصادية ومالية: أي أننا نتطلب إعادة صياغة سياسة اقتصادية تكون بمنأى عن النزوات

الشخصية وبالحد من نظام الاستعمار، بل مراجعته، إذ هو مصدر فساد الوضع في شمال أفريقيا وهو يهدد بشكل دائم سلامة العلاقات الاجتماعية وتحسين الفلاحة المراكشية وتعديل قوانين النظام العقاري وتليين القوانين الضريبية: التراتيب وضرائب أخرى. ونطالب، أخيرا وختما لقائمة مطالبنا، باتخاذ إجراءات تهدف إلى إلغاء السياسة البربرية المزعومة إلغاء تاما وبحرية اللغة العربية ونشرها، وبالتنديد بالتبشير الديني باعتباره مصدر سوء تفاهم وخلاف، وبالسماح بشهر الراية الوطنية والاحتفال الرسمي بأعيادنا القانونية، وبراحة يوم الجمعة. كل هذا، إذن، واضح دقيق ولم يعد في إمكان القوم أن يتهمونا بالسعي الى تحقيق منافع بشكل موارب وسطحي".

لم يسلّم هذا المخطط للإقامة وحدها إذ كان يمكنها، بعد الاطلاع عليه، أن تتغافل عنه إن لم تلق به في قعر سلّة. ذلك أن مقيما يتحول، في أفريقيا، بقوة الأوضاع، إلى حاكم طاغية. فأول ما يفكّر فيه عندما تطأ رجلاه التراب "المحمي" هو تنكيس علم الديمقراطية. ومن هذه اللحظة لا يصبح غير متسلطن بسيط. وهو إذا ما غطّ شفتيه في هذه الكأس يصبح الله وحده عالما بما إذا كانت رأسه لن تستسلم للدوخة. إنه لن يبالي بحقوق الآخرين.

كان للناشطين المراكشيين المعجبين بيوغرطة، قُوّةُ حَزْمِه. ومثلما كان هذا الفارس في حروب المغرب القديم على روما كانوا، هم أيضا، يعرفون كيف يتصرفون في أفريقيا وأوروبا. وإذا كانت سلطات أفريقيا الشمالية غارقة في المحاباة التي وفّرها الحكم الجديد المتولد من الفتح واغتصاب الأراضي فإن باريس بقيت ميدان عمل مذهل للنشاط المغربي. وعلى هذا النحو وجد البرلمان نفسه مثلما كان شأن مجلس الشيوخ قديما، يتعرض لوابل من العرائض والمطالب وتسلمت الحكومة واللجنتان الكبيرتان في المجلسين ورؤساء ومدراء الأحزاب الرئيسية والصحافة المخططَ.

وباختصار فإن المخططَ عرض على الرأي العام العاصمي في الوقت الذي عرض فيه على الإقامة في الرباط.

كان الأمر ذا شأن. فها أن سانلوشون يعبر عن سخطه وهو الذي اشتهر بأنه كان البرودة سوّيت بشرا. لقد كانت هذه المساعي التي ضبطت على نسق واحد ونفذت بسرعة مدهشة تربك سياسته. فلقد كان يريد أن يباغت الجميع وأن يضرب الخصم، مفاجأة، ضربة قوية من دون أن يذيع الخبر في الخارج. إنه ما يشبه عملية خنق لطيفة. ولكن ها أن ظهيره يفشل.

كان الناشطون المراكشيون وهم يتأثرون خطى من يكبرونهم سنا في تونس يعجّلون في السير فظهرت، في باريس، صحيفة ناطقة بالفرنسية رعاها عدد من الشخصيات البرلمانية المزدهية بأفكارها الليبرالية. إن مثل هذه الفؤول على الرغم من أن التجربة الجزائرية التونسية كانت تدل على وجوب الحذر منها دائما، كان لابد لها، مع ذلك، أن توحي إلى عدد كبير من أنصار سياسة استعمال القوة وجوب توخّي حذر ماكر يتمثل في اللجوء، عوضا عن إرخاء القمع، إلى سياسة التحري والتذاؤب والظهور في مظهر المنشغل بالأمور والدبلوماسي.

على هذا النحو ولدت المغرب. والمغرب هو اسم المجلة التي أصدرها منذ قليل إدريس وأصدقاؤه في باريس بالفرنسية ابتغاء الدفاع عن مصالح مراكش وكذلك فضح تصرفات السياسة الاستعمارية في أفريقيا الشمالية. لقد سبق قبل خمسة عشر عاما عندما كانت الحرب العالمية جاشية، أن نشر ناشطون مغاربة آخرون، وهؤلاء كانوا تونسيين، في جنيف، هم أيضا، جريدة تسمت بجريدة المغرب واختفت بنهاية الأعمال الحربية وموت محركيها الأخوين علي ومحمد باش حامبة.

كانت القومية المغربية المعزولة في بداياتها المترددة تبرم حبالها وتتبدّى في سلسلة أحداث متتابعة تعبر، بهذه الطريقة، وإن في شكل طفرات وتقدم متقطّع، على الرغم من تشتت صفوفها، عن قوة تعلن أضعف علامة فيها عن الرغبة في فرض النفس والمطالبة بالحق في العزة وفي الحياة وبحق المغربي في أن يكون له مكان على الأرض يبرره، بعزم، تاريخه الطويل الخصب. وهذا على الرغم من عظمة قوة خصم كان يطارد هذه القومية بالوسائل الكثيرة التي في حوزته ويناوشها من دون انقطاع في كل مكان.

ومثلما ناضل المناظرون التونسيون الذين اتخذوا من القسطنطينية وسويسرا ملجأ لهم في مجلة كان عنوانها وحده يوحي فكرة البعث القومي سمّى النشطاء المراكشيون، في باريس، مجلة مطابقة المغربَ. وفي العنوان تسمية رمزية. وفيه كذلك إخطار وثيق الصلة بالموضوع. فالمغرب إنما تُحذّر هؤلاء الذين يلتهون بتحدّي ذريّة حنبعل وابن رشد وورثة قرطبة وغرناطة وأحفاد المحاربين في كان وبواتي وسُلاَّنِ قراصنة المتوسط الكبار وتحذر ممتهني الثلب الذين لا يتجرؤون على الإمساك بالقلم إلا لاقتناعهم أنه في إمكانهم، من دون خشية عقاب، أن يقذفوا بِرُوَالِهِم أخصامًا تُكَمِّمُ القوانين أفواههم وتطادرهم الشرطة وتحاكمهم المحاكم ركوحا، في أحكامها، إلى قوانين استثنائية. لقد كان وقع صدور المغرب في فرنسا على فرسان الشتيمة والنميمة هؤلاء شبيها بوقع قنبلة تنفجر، فجأة، في ميدان استعراض.

لم يكن مخطّط الإصلاحات وصدور المغرب هما الإجابتان الوحيدتان على الظهير إذ وُجِدت ثالثة كانت ما تزال تنتظر المقيم سانلوشون. ولقد بقي، عند الإعلان عنها، مبهوتا وأصابته دهشة عميقة ووقع هذا الداهية الإداري في الشرك الذي نصب وكلّفه ذلك ولايته. ولم يكن من السهل، إنقاذا لهيبة فرنسا التي امتزجت بالماسونية والاستيطان، إمهاله في منصبه، سنتين أخريين. ولقد آل أمره إلى أن يمضي بقية أيامه في كرسي قاض عاجي.

لقد كانت هذه الإجابة الثالثة هي موجة الاستنكار التي انتشرت، بعد أن تخطت حدود مراكش وأفريقيا الشمالية، في باريس وفرنسا وأوروبا والمشرق. لقد وقع تمثل دروس يوغرطة بشكل جيّد. ولقد غطّت صحف الجزائر وتونس مقالات احتجاج وعبّرت غريزة البقاء، لأول مرة، عن نفسها بفعل تضامني يدل على أن الشعور بدأ يتحول فكرة. ولقد كان هذا هو الأساسي. وهو أفضل ثمر أنتجه الخطأ الكبير الذي ارتكبه المرزبان الصلف ومستشاروه الذين كانوا يدعمون رأيه في أن الوقت قد حان للإجهاز على وحدة المغرب الأخلاقية. وفي أقل من شهر عُرِّيت فرنسا من ثيابها قدّام العالم، وتسلمت باريس ولندرة ومدريد وبرلين وجنيف والقاهرة ومدن المشرق الكبيرة ونيويورك وبيونس آيرس وساو باولو عرضا شاملا، في صيغة نصوص تدرج في الصحف أو كراسات وجهت إلى الشخصيات والمؤسسات السياسية، مصحوبة بملاحظات تفسيرية للإثبات، حول الإجراءات التي يوجزها الظهير البربري.

ومن الذي كان يخطر بباله أن أفريقيا الشمالية التي كانت مؤامرة صمت تعزلها عن العالم وتفوّض أمرها لتقدير أمة كاسرة هي التي ستكون سببا في اقتناع العالم الآن بأن ليبرالية الجمهورية لا تنفصل عن جماعة البرايارين والكوينلارتيين والقرولويين والكاملكوبفيين والكونيين؟

***

إن الخلاصة هي أن القضية، إذا ما اعتبر تطوّرها من اللطيف الذي كان يردّد في المساجد إلى مخطط الإصلاحات ومن تدفق التحاليل والمجادلات حول الوضع إلى مظاهر الاستنكار التي ترددت أصداؤها في أقاصي الأرض، لم تقع إدارتها برعونة. وهي

تعدّ، باعتبارها محاولة أولى، دليلا على البراعة. ومن الصعب على المرء أن يتصور ما كان عليه وجها سان لوشون ولاروقان، أي المتحمس للمثلث وعسكري السكريستيا المتحدين، بالتساوي، في الحقد على المغرب، عندما ظهرت نتائج ظهير 16 ماي على هذا النحو أمام أعينهم المندهشة بعد عدة أشهر، لا أكثر، من تحمل الإقامة مسؤو لية هذا القرار.

لقد تردّدت الإدارة وقد أذهلتها المناورة المضادة. كانت ترغب جيدا، وقد صدر الظهير، في أن تبدي، على الفور، "جهاز قوتها تجنبا لاستعماله" مثلما كان يوصي بذلك الماريشال من كان مهيئا للقبول به كاهنا معصوما. ولكن رد الناشطين السريع أفحم هذه الإدارة إلى حد إرباك سياسة صرف الأنظار التي كانت تعتمد إرباكا كثيرا.

لقد فضّلت، إذن، التريّث، في البداية منتظرة مرور العاصفة. ذلك أن عرافي أفريقيا الشمالية الذين يتميزن بإدراك أضرّت به الأفكار المسبقة الراسخة حتى الأعماق لم يكونوا ليولوا موجة القَعْرِ هذه غير أهمية عرضية. فهي لم تكن، في نظرهم، غير واحدة من هذه الزوابع التي تهدأ بمجرد الإعلان عنها والتي يشبّهها أكثرهم اتزانا ببؤرة تمرد لا تستحق أن تخضع، في أسوأ الأحوال، لغير عملية أمنية بسيطة. فهؤلاء النسخ الرديئة من مترنيخ المنتفخين إدعاء هزيلا لا يكادون يتبيّنون ما يميّز الانتفاضة عن الثورة. لقد بلغوا، بمقياس هذا القرن، من العمر عُتِيًّا!

أما النشطاء فهم لم يكتفوا، من قبلهم، بما حقّقوا من نجاح. لقد كانوا يعون جيدا أنهم يخوضون صراعا غير متكافئ وأن هذه المبارزة غير المتكافئة التي يصعب الصمود فيها تتطلب قدرا مساويا من الصلابة والرشاد حتى تؤتي ثمارها. وهم، فضلا عن ذلك، كانوا يقدرون قواهم تقديرا سليما ذلك أن قرنا من التجربة مكّن

عقولهم من معيار صالح لتقدير ما في وسعهم أن يتحملوا حتى لا تخمد هممهم.

لقد كان يمكن لسياسة صريحة تحرّكها رغبة صادقة في التفاهم أن تدفع الإقامة، يقينا، إلى مراجعة قرارها حول الظهير وأن ترهف الأذن لمشروع التعاون الذي عرضته الشبيبة المراكشية عليها إذ أن الأمر بلغ منعطفا اتضح معه أن ليس يوجد خطأ أفدح من عناد أعشى لابدّ له من أن يصطدم، عموما، بقضية الهيبة أو كبرياء الفكر المسبق. ذلك أن مثل هذه الصخور هي التي تحطمت عليها روما وبيزنطة. وفي هذا درس للإمبراطوريات الكبيرة الحديثة يجب تذكره إذا ما طمحت إلى الحد الأدنى من الدوام. ولكنه يمثل ما يصعب على المرء أن يغرق سمكة يصعب عليه أن يقنع الفرنسي في هذا الموضوع. فهو قد اتخذه قراره. وهو ما دام يملك القوة، لا يعرف غير الهراوة مع احتمال أن يغلف ضروب تعسفه بنوع من الهذر المسهب الصبياني الذي يذكر بالمماحكات اللفظية التي اشتهرت بها لاتينية ما بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية.

كان الصدام، إذن، وشيك الوقوع. ولم يكن من الممكن تلافيه. ولسوف تبيّن الأسابيع اللاحقة أن خرافة قوزاق الإمبراطورية الروسية والفرسان المرتزقة في الجيش البروسي، من سيافين ورماة، ليست ميزة الدول المستبدة وحدها ذلك أنه كان للجمهورية، هي أيضا، فيلقيوها وسينيغاليوها، وكانت تمهر في استعمال سوط الجلد والضرب بالعصا مهارة الجلادين الذين سبق أن أدانهم ثوار 1848 دفاعا عن بولونيا الشهيدة!

ضرب الحصار على فاس، فاس عاصمة مراكش التي ورثت، هي وتلمسان، آخر التقاليد الأندلسية التي وصّت بها مدينة أبي عبد الله. إنها فاس، من الآن فصاعدا، التي سَيَشِعّ منها ومن محيط طلبتها الفكري النشيط ومن تجّارها ومن صنّاعها إيمان

جديد تحوّل، وهو يخرق قشرة عاداتها القديمة التي تجاوزها الزمن شيئا ما، إلى وطنية نافذة اندمجت في قوانين القرن، إنها فاس، وعلى إثرها كل مدن مراكش. إن حبل الوفاق بين المدينة والجبل الذي قطعته منذ الموحّدين سلسلة كاملة من الأخطاء وسوء الفهم يعقد من جديد ويتأسس على توازنات جديدة لا تتمكن السياسة الأجنبية، على الرغم من جهودها المتزايدة، من تفكيكها وهدمها. إن روح التكتل أصبح يصدر عن توليف وطني.

لقد كان سانلوشون يتخيّل، مثل يشوع، إمكان إيقاف الشمس عند طلوعها. وها أن مقاومة البلاد، بعد استسلام الأمغار بأقل من خمسية تتخذ، بعد أن بدلت ممرات الجبل بالمدرسة والمسجد والسوق، صيغا من النضال جديدة يغلب فيها توضيح الأفكار على قوة الشعور الفطرية العمياء. إن هذا هو ما توقعه جمال الدين لبلاد الإسلام عندما التقط، نهاية القرن الماضي تقريبا، بعين العقاب، أسباب انحطاط الإسلام الخفية وأوصى، معا، بجهود قائمة على العلم والتسامح والعمل، دواء.

وأخيرا صمّم سانلوشون، في تصلب يبعث على الاستغراب ولكنه سمة فرنسية مميزة، على اللجوء إلى سياسة القوة. لقد أحس هذا الماسوني الحائز على رتبة عالية في الترتيب الجِيرامي فجأة، أثناء القمع، أنه يتوفر على نفس يعقوبي من سلالة كاريي وجان بون سان أندري وأطلق على المتظاهرين باشاواته ومخزنييه وسينيغالييه وجندرمتة وكلّف الجنرال نوار، قائد حامية فاس بـ"إعادة الأمن إلى نصابه في العاصمة"

وَالَذكرى فارصوفيا!

فمن يكون هذا الجنرال نوار؟ إن اسمه، هو أيضا، يمثل مزاجا ونظاما وعصرا. بل إن الأفضل من ذلك هو أنه نموذج الضابط الفرنسي المجرّم المخوّذ الذي يُنشر من

فترات ثورية سابقة. إنه شبيه بديموريز وكيلرمان وهوش عندما ينشط في "المستعمرات".

كانت الحكومة الفرنسية عندما انخرط، بصفته ضابطا شابا ثانويا في المهنة قبل ربع قرن، قد قررت بعد حل قضية دريفوس وتبني الراديكالية مذهبا سياسيا، تطهير الجيش من العناصر الرجعية فيه وتهيئتة لتقبل نفس جمهوري جديد. ولقد تميّز الملازم الأول نوار الذي كان، آنذاك، حديث التخرج من سان سير، بأفكاره التقدمية وأخذ، على الرغم من أنه كان ينتمي إلى "الأبكم الأكبر"[137]، يكتب في صحف اليسار متخفيا وراء أسماء مستعارة تشي بحبرها العسكري. لم يكن في ما كان يكتب منشغلا بالخطط الحربيّة وإنما بالسياسة بل إنه كان يظهر، في هذا الميدان حماسة مربكة.

ولقد أثارت مذابح سان بيترسبورغ، في هذا اليوم البعيد المضبّ، يوم 22 جانفي 1905 اهتمامه فنصر غايون على القيصر والجمهور الثائر على القوزاق ومكسيم غوركي على بليهف والغران دوق سيرج. ومع ذلك فإنه كان على فرنسا التي كانت ترتعش لمجرد تقطيبة من القيصر وكانت تربطها بروسيا معاهدة تحالف وشهدت انتصار اليابان الساحق على "المحدلة" أن تؤثّر بطريقة جد مغايرة في ألياف هذا المتمرد الغريب الوطنية.

ولكن فرنسا كانت فريسة أزمة عميقة. وبدا أن غريزة جزّار فاس في مقبل الأيام الجمهورية تطغى عنده على أمري الوطن والانضباط.

---

137 La Grande muette، الجيش.

كان الجنرال أندري قد عوض الجنرال غاليفي. وكان قنص ذوي الميول الدينية من العسكريين قد افتتح. إن هذا هو ما أطلقت عليه عبارة "قضية الجذاذات" الشهيرة. ونوار، وهو ينشغل بالمجادلات الصحفية ويشي بزملائه، إنما كان في حقيقة الأمر يستجلب اهتمام رؤسائه الجدد في الجيش. ومع ذلك فإن 1914 لم تغير من رتبته العسكرية شيئا. وقد ساهم في الحرب التي وقع أسره فيها منذ المناوشات الأولى بوصفه سجينا في معسكر اعتقال ألماني. وقد استأنف سنة 1918 عمله بالرتبة التي كان عليها قبل 1914. أما فاس فقد شهدته سنة 1930 حاملا النجمة الثانية. وها أن الفرصة تتاح. ولقد انتهز هذه الفرصة السانحة بأن سلك في مجابهة الجماهير المراكشية المتمردة سلوكا رَفَضَه سنة 1905 للقيصر وبليهف والقران دوق. لقد سبق أن توفي الكاهن الأرتوذوكي غايون وإلا لكان الملازم الأول القديم المعارض، أكيدا، أمر، وقد أصبح جنرالا للجمهورية وحاكم فاس العكسري، واحدا من سينيغالييه بأن يصرعه إذ أن الجيش الفرنسي يترفع عن استخدام القوزاق للقيام بمهام تحضيرية مثل هذه.

لقد وقع رفض مبدأ التفاوض حول مخطط الإصلاحات الذي كان هو الشرط الضروري في كل تسوية أساسية. وكانت الإقامة تعوّل على احتمال هذا الرفض لترد الفعل وتبرر إجراءاتها الصارمة. أما الناشطون المراكشيون فلم يكونوا، من جانبهم، ميالين إلى الوقوف موقف المتفرج المشدوه من الأحداث ولذلك قرروا النزول إلى الطريق.

إنّ الطريق، هنا، ليس لها من المعنى ما لتعبئة الحشود في كبريات المدن البروليتارية في أوروبا. إنها تختلف عنها اختلافا تاما على الرغم من سيلان الدم دائما نهاية هذه المظاهرات. ذلك أن المغربي الذي جرّد من حقوقه الأكثر ابتدائية لا تحمي ظهره لا قوانين تمنع التعسف الإداري ولا صحافة تتمتع بكامل حصانتها ولا

حريات نقابية ولا حرية تنظيم يمكن أن يؤطر تحركه. وهو إذ ينزل إلى الطريق لا يفعل ذلك بوصفه منتصرا للعنف ولكن بوصفه متظاهرا مسالما واعيا حقوقه وواثقا، كذلك، في منطق الآخرين. والأوامر التي يطبق لم تتضمن في يوم من الأيام محتوى انقلابيا ولا استفزازيا مثلما يلذّ لدعاية غادرة أن تؤاخذه عليه إلى اليوم. لقد انتسبت حركته، بإصرار، إلى مفهوم القانونية الذي لم يعترف له بالحق فيه ركوحا إلى حجج أقل ما يقال فيها انها بلغت من المكر مستوى يستنكف معه العقل النزيه من التوقف عندها لحظة.

إن الجماهير المهنية المغربية، وهي تسير خلف وفودها وراياتها، إنما تعبر عن نوع من حركة الجماهير التي تماثل الجماهير التي تبعت سنة 1905 الكاهن الأرثوذوكسي غابون ملتمسة من القيصر شيئا من العدالة والتي اعتقد الأعمى بليهف، وهو يغرقها في الدم، أنه كان يأتي فعلا محمودا.

وهل يعرف المرء ما الذي انجر عن ذلك؟ إنه لا يعترض للتيارات الشعبية من دون عقاب. فصوت الشعب هو صوت الإله[138] وإنّ ثورة ما لا تدفعها ضربات سيف أو رمح حتى لا نقول ضربات رشاش. إن الثورة يقع تجنبها بتجاوز من الطرفين حقيقي أساسي صادق. وإلا فإنه الانقلاب. إن العالم يسير على هذا النحو منذ فجر المجتمع المنظم: من الزمن الذي ألقى فيه ابن الإنسان في وجه الإمبراطورية الرومانية الجبارة بكلمات محبة تحولت، إذ أطرحت، بقوة الأشياء، إلى عناصر تغيير عام هادفة إلى تجديد الإنسانية إلى الأيام التي سيّب فيها كرومويل وواشنطن وروبيسيير وبوليفار وكوسوت وماتزيني ولنكولن، بدورهم، تيارا حاملا نفسا تحريريا مطابقا، حتى يجرف القوى المعارضة للتقدم ذاتها.

---

138 Vox populi, vox dei

والحال هي أن الفكرة التي تجعل من لاروقان، هذا الدوبليكس المتأخر، الذي يعيش في أزمنتنا المعاصرة، باني إمبراطورية إنما هي فكرة مآلها السقوط لعيب في الخلقة. إن للعالم من الآن فصاعدا الحق في حلول حكيمة جسوره وإننا لندور في وسط حلقة مفرغة. لقد سد تطور الإنتاج الفوضوي وسلطة البنك والمصنع المطلقة ومبدأ أولوية الربح وغلو الإيديولوجية الثورية الواقعة بين سراب مجتمع مثالي وتصورات عنف مجاني، الدروب على العالم. ومع ذلك فإنه لا أحد لا يعرف لماذا دمرت أورشليم قديما. وكل الناس يخشون، اليوم، أن يتعرض العالم لعقاب مماثل أو ربما أشد قسوة من هذا الذي أثار أيما إثارة غضب النبي إشَعْيَا.

لقد كان الإضراب، هذا السلاح الخاص بالضعفاء، بعد ذلك، وسيلة عمد النشطاء إلى استخدامها. واللفظ هنا أيضا يختلف في معناه عما يفهم منه في أوربا إذ أنه انتهي فيها، منذ مجيء الرأسمالية الصناعية، إلى مرادفة المعارك التي كانت تشنها الطبقة العاملة. وإذا ما فهمنا من البروليتاريا العامة والفئات الشعبية المنحطة اقتصاديا فإن هذه الفئات تتمثل في أفريقيا الشمالية، وهي بلاد مجردة من كل تصنيع، في الكتل الريفية والحرفية التي تكوّن صميم الطبقات العامية. فقلة المصانع والورش الكبيرة تحصر أعداد البروليتاريا العمالية الشمال أفريقية في المنشآت المنجمية والمواني، وساحات التعمير ومؤسسات الحفر وخاصة في الأعمال الفلاحية. ولذلك فإن الأجور المنخفضة التي يتقاضاها العامل وحرمانه من كل منحة يمكن أن تتأتى من التشريع الاجتماعي الجاري به العمل الذي يتجاهله ويحطّ من قيمة عمله يشدانه، حتما، إلى وسطه الوطني ولا يكون من الممكن أن توجد علاقة تضامن ممكنة بينه وبين العامل الأوربي.

إنه لا خير مشتركا يمكن أن ينالا، معا، من حركة تنظيم نقابي أو حرفي حتى لا تتحدث

عن إضراب بما أن القوانين والأفكار المسبقة واختلاف الأجور تتضامن لتفضيل الواحد منهما على الآخر. فالدور الوحيد الذي يمكن أن يؤول إلى الواحد منهما في علاقته بالآخر أثناء النزاعات المحتومة التي لا تحصى بين رأس المال والعمل هو أيضا دور كسر الإضراب.

وإذا كان الميثاق الوطني والحركة النقابية يدعمان العامل الفرنسي في مجابهة أرباب العمل والدولة فإن الرباط الوحيد الذي يمكن للعامل المغربي أن يعوّل عليه، عند الاقتضاء، سواء على المستوى المادي أو المعنوي، هو الذي يشده إلى وسطه المخصوص. إن التعاطف والمساعدة العالميين ليسا بالنسبة إليه، غير رماد يذر في العيون وتشكل سراب وخرافة طنانة، ولا شيء أكثر من ذلك!

ولهذا فإن الإضراب، باعتباره وسيلة لمجابهة الامبريالية الفرنسية، يبقى محصورا في السوق والمدرسة. إن هذه هي، في هذا الظرف، الأوساط التي يمكن لاحتجاج الأمة أن يعثر فيها على آذان صاغية موافقة قادرة على أن تتحول أفعالا ملموسة. وعندما يغلق التاجر، بناء على أمر تلقاه، متجره ويغادر الصانع حانوته الصغير وعندما يردّ صاحب المقهى وصاحب الحمام مصاريع أبواب محليهما وعندما يقاطع الطالب الدروس وتصطبغ المدينة، لذلك، بواحد من هذه الألوان الحزينة المنذرة بأفدح وعيد، فإنه لاشك في أن ما يحصل من نتائج يفوق بكثير تأثير إيقاف الحركة الاقتصادية الذي يرافق هجر المصانع والمكاتب في بلاد أوروبا. إن الأمر أخطر بكثير إذا ما تخلينا أن الإضراب، في أفريقيا الشمالية، يشمل كل طبقات السكان التي توحدت في وثبة تظاهرية واحدة في حين أن الإضراب عن العمل، في أوروبا، يستنفر الطبقة العاملة ويستثني أجزاء السكان الأخرى التي، غالبا، ما تبدي إزاءها العداء وفي بعض الأحيان تنصر الدولة عليها.

إنه عندئذ الإضراب العام[139]، أي نظرية الإضراب العام الشهيرة التي شهرها، ذات يوم، أرستيد بريان أثناء تربصه في صفوف الحزب الاشتراكي والتي أصبحت، بعد أن ازدرعها الدستور في تونس، منذ فترة آل باش–حامبة، سلاح الحركة الوطنية المغربية الذي لا يضاهيه سلاح.

لقد أصاب سي تاشفين وسي عبد الرحمان عندما وضعا خطة مترابطة تتمثل في خطوات أُحْسِن تصورها وتنفيذها معا: من اللطيف في المسجد، مستقر اتفاق مشاعر الأمة إلى السوق التي تنشط فيها حياة العاصمة الاقتصادية والتي تؤثر في مجموع البلاد إلى الجامعة التي انطلقت منها الفكرة التي تولّدت منها الحركة أي بكلمة واحدة أكثر إيجازا وأكثر اختصارا، التحالف بين مولاي إدريس والقيصرية والقرويين.

وما أن أعلنت الإقامة أن سانلوشون يرفض أن يجلس إلى الوفد الذي فوضّته المنظمات الوطنية التي تطالب بإلغاء الظهير والقبول بالمخطط حتى تقرر شنّ إضراب احتجاجي. ولقد دلت أوامر تقييد حركات العساكر في معسكراتهم على أن الإدارة كانت قد تهيأت لتسديد ضربة موجعة. فالإنسان لا يمكن أن يكون فرنسيا اتفاقا.

شُنّ الإضراب. وفي لمح البصر توقفت كل المدينة عن العمل. وفعلا فإن مخازن القيصرية والدكاكين المتناثرة في كل حارات فاس والحانوتيين والباعة الصغار بالمفرّق والبقال والجزار والحائك والصباغ والدباغ والزنار والمبيطر والحداد والنجار والبابوجي والحذّاء والمقصدر والنحاس والكتبي والكاتب العمومي وتاجر الثمار والسقاء والحلواني المتجول والدلال وكل المهن وكل أصحاب الحرف والتجار

---

[139] بالعربية في النص.

والأعراف والصناع المبتدئين، إن كل هؤلاء عادوا إلى بيوتهم وهم يصفقون الأبواب.

لقد ظهرت المدينة بمظهر صارم. وهذه الحاضرة التي كانت إلى حد الآن، لما بدا على وجهها من تهكم ناقد وطيبة ساذجة، تبدو على مزاج متردد مائج أبانت عن فضائل جديدة من الحماسة والثبات.

لقد اندهش إدريس، وهو ابن جبل لم يكن يرى في المدينة غير مسرح يبدّد الطاقة عندما تمسها الحياة المتهاونة السهلة من ذلك هذا الاندهاش الساذج الذي يميّز المزارع الأبدي التائه في العواصم الكبيرة. لقد كان يقف من المديني موقف نفور تولّد، ما من شك في ذلك، من ارتياب رجل المحراث في رجل دفتر القيد خاصة عندما يكون خاط الثلوم مُلَبَّسًا برام حاذق أو بمروّض جياد جيّد. ولم يتمكن إدريس من التخلّص من هذا الاحتراس الذي ترقى جذوره إلى أزمنة بعيدة والذي ما يزال باقيا في أزمنتنا الحاضرة، أزمنة الزراعة الآلية وحتى المتشيعة، إلا في الوقت الذي بدأ فيه يتشرب، في ظل سي تاشفين، نوعا من القومية المتنورة. لقد كان مزارعا، وبقي كذلك. وكانت إحدى قراءاته المفضّلة هي أن يتفحّص، بتوجيه من الونوغي، وهو مديني، أطوار هذا الصراع الذي كان يتبيّنه في العلاقة بين البونيين والبربر عند قراءة صفحة قديمة من التاريخ القومي في صالامبو. لقد كان يفضل على النبوغ القرطاجني القائم على التنظيم واتساع الأفق من ناحية وشدة التدقيق في التفاصيل وتقدير العواقب من ناحية ثانية، حمية النوميدي، هذا البدوي الفارس الذي يمزج بين البساطة والبطولة، والذي لا يملك من الحياة إلا ما يكتسبه من أحاسيس أثناء حُضْرِ فرسه والذي يعرف كيف يموت، في اللحظة التي تقتضي ذلك، وهو يعهد بمطيته وقوسه إلى الرفيق الذي يتجشّم عناء دفنه تحت مدرة من التراب. إن مثل هذا النوميدي، وبعد ذلك العربي، هما اللذان خلدا أمجاد المغرب. وفعلا فإن القديس سان أوغسطين لم يجتذبه البتة إذ لم يكن يرى في هذا النابغة العظيم الذي

تحرّر ظله من أسوار المدينة ليركب تيارات الإنسانية الكبرى، غير علامة من المطلق ومن المدمج وغير عنصر ارتد عن أرض الأجداد. لقد كان يفهم جيدا عددا من صفحات "مدينة الله" وما تتصف به، أكيدا، غاية أب الكنيسة الذي نجح شيئا ما في تنظيم بناءات المعتقد المسيحي الغامضة، من تعال. ولكن عقل مستخلص الجوهر هذا المفرط في الليونة إلى حد ذاب فيه في عقل جنس معاد، كان، في الآن نفسه، يُنَفِّرُهُ ويُقْزِزُه منه. فبين الفارس النوميدي الحر الفخور والأسقف العالم المدجّن كان غالبا ما يلذ لإدريس، بتأثير من تأسُّلِيَّة قبلية قديمة، أن يبرز حذر الكوخ الضارب في القدم من البيت الحجري.

وها أن وجه فاس يتبدّى لعينيه وقد نفض عنه هذا الرشاش الفردي. إن التاجر والصانع اللذين تركا عملهما ومصدر رزقهما الذي فرض عليهما منذ أزمنة غابرة الخضوع لنير العمل اليومي الشاق استجابة منهما لنداء البلد بديا عنده جديرين بالإعجاب جدارة المحارب في الجبل الذي يهجم على الخصم غير ملتفت إلى الوراء وأصابعه على لسين رمي البندقية التي لا تفارقه، وهو معرض في كل لحظة، للتدحرج أسفل ثلم أو دغل من دون أن تفلت من شفتيه أقل صرخة توجّع بل إن الأمر وصل بإدريس، الآن، إلى التعبير عن تفضيله مُطَرِّي الجلود في الحومة المجاورة وقهوجي الدوح وعقاقيري العطارين والقراب الذي يتعيش هو وعائلته في ذاك المسكن المتداعي للسقوط والذي براه، وقد أثارت القلب هذه الصدمة العاطفية الغامضة التي تحملنا على الاندغام في الناس الذين يشاركوننا التفكير، يستجيب لدعوة الإضراب في همّة وهدوء غير متوقعين حقا.

كان إدريس، إذاك، يواجه مسألة صراع أحاسيس تحدّد، قبل أن يتمكن المرء من حلها، هذه الحيرة الأخلاقية التي يرى فيها عدد من الناس بدايةً لازمةً لكل تطور ذاتي. لقد فهم إدريس، مثل أبيه في الماضي الذي علم وهو ينزل بطرابلس أفريقيا بعد أن

أنهى رحلة طويلة قادته إلى أهم مدن الشرق، بتنحية السلطان عبد الحميد الذي كان محط آماله، باعتباره مسلما شيخا مناصرا لخلافة واحدة، وانتهى به الأمر إلى أن يفهم أن سير الأفكار يحتم على المغرب أن ينهج نهجا قوميا، فهم إدريس بدوره، على مستوى اعتقادي آخر، أن ضرورة مطابقة تفرض، أيضا، زوال الاختلافات الاجتماعية القديمة في سبيل دمج البنية العضوية في البلاد دمجا أكثر كمالا. ولقد كانت فاس، هذه المرة، هي معلمته.

عقد اجتماع مساء الإعلان عن الإضراب في بيت سي عبد الرحمان. وفي العشية كان الأسمر قد وصل من تيزران محمّلا برسالة إلى إدريس. كان الحاج علال الذي لم ير ابنه منذ حرب الريف شغلا به. وكان يحرص، وقد وهن منه العظم، على لقائه قبل أن يموت ذلك أنه على حد قول مأثور في البلد، إذا بدأت اللحية في التزين بشعر الحكمة فقد حان وقت التهيؤ للمثول بين يدي القاضي الأكبر.

وكان إدريس، من جانبه، يتمني أن يرى أهله. فلقد استولى عليه الوطان، نهاية إقامته الطويلة في فاس، وانتهى أمره، بغيابه المستطيل إلى أن يمرضه. لقد أصبح كئيبا. وأصبحت سِكَتُه الطويلة التي تقطعها أحيانا نوبة حمّى تثير في أصدقائه شعورا متزايدا بالخيفة من مكروه يلحق بصحته. ولكن هذه الحالة لم تكن تدوم طويلا فالحنين إلى الوطن الذي كان يعذّبه كان، من جهة أخرى يجد له في الدرس والعمل ترياقا كافيا.

لقد كبر الآن. كانت لحية تبطّن وجهه البيضوي بطوق خفيف. وكانت جبهته المحدّبة تعبر عن نضج باكوري. وتلمع عينان كستنائيتان مذبلتان بريقا يستثير نشاط جسد مشيق ويمنحه مظهر بساطة سليمة النية لا تخلو من رهافة. لقد بقي، وهو الرشيق صاحب العضلة ذات الرأسين الفولاذية وربلة الساق القوية، ابن الجبل.

لقد نما تعليمه. وكان بفضل ملكاته الفطرية، قد أقبل، بكدّ، على دراسات متنوعة فتوسعت معارفة وتعود على استعمال الفرنسية استعماله العربية. وكانت الآداب تجتذبه. وقد مكنه حب اطلاع لا يستثني شيئا، منذ وقت باكر، من أن يألف الميكانيك والعلوم الطبيعية. إلا أن الأمر يحتاج، طبعا، إلى الكثير حتى يصبح في إمكان معارفه العلمية أن تجد الوسائل التي تسمح بالتعمق في معطيات المعادلات والصيغ العلمية المعقدة شيئا ما. ذلك أن بلدا يتنزّل فيه كوينلارت منزلة الملك ليس مؤهلا، بالتدقيق، للسماح لفتًى "أهلي" موهوب بمواصلة طريق معرفية، ارتضاها، قادرة على أن توصله إلى تعقب آثار واحد مثل لابلاس أو لامارك.

إننا نعرف الأخلاق التي دفعت بهارييت بيتشر ستو إلى أن تكتب "كوخ العم توم". إن الحضارة الغربية حضارة انحطاط فهي لا تعرف ولا تقدر، لانبنائها على أساس من الفردانية الضارية وعلى المنفعيّة التي تنخرها، غير الربح. وسلّم قيمها مقصور على الفائدة التي هي منها، في الآن نفسه، النسبة والقاسم المشترك. إن المادة، فيها، تهيمن وتبتلع كل شيء ابتلاعا يعلن، منذ الآن، نتيجة حروب الإبادة التي أملتها النزاعات حول الربح، عن نهاية روما الجديدة مثلما نظم فرلان:

أنا الإمبراطورية ختم الانحطاط
أنا من يرى مرّ البرابرة البيض العظام

إن فاس ليست بالمدينة التي كان يمكن لإدريس أن يتابع، فيها، مرحلة تعليم قد تتوّجها السوربون.

فباريس لا تفتح كل أبوابها في وجه المغاربة. إن مدينة النور لا توزّع عليهم مَنَّها

الفكري إلا بالتقتير. وحتى في هذا الإطار لا يجب أن يتعدى الاختصاص الحقوق والطب. وهل حدث لأحدهم أن رأى مرّة شمال أفريقي، يجتاز بوابة البوليتكتيك؟ قد يحلو لماكر أن يلقي إليك، وهو يضحك سرا، باسم هذا العقيد الجزائري في المدفعيّة. ومع ذلك فإن هذا العقيد اللامع في الرياضيات المتضلّع خصوصا في علمي القذائف والناريات الذي أجمع أساتذته على أن يتوسموا له مستقبلا باهرا، أحيل، فجأة، على التقاعد بمجرد أن علق على بزته الشريط الخامس. لقد كان عمره، آنذاك، خمسة وأربعين عاما! لقد كان إفريقيا. ومن سوء الحظ أن هذه الحقيقة تحي في عدد من الناس ذكرى سبتيم-سيفير، قيصر اللابوريموس. إنه ليس عندنا، في شمال أفريقيا، رأي قبلي في باريس ولا فرنسا: فرنسا هذه التي يلذ للكتب المدرسية أن تحليها بأجمل المفاتن المثالية. ولكن فرنسا هذه ليست بالنسبة إلى الشمال أفريقيين غير فرس رولان! ما الذي يبقى غير الشرق؟ إن المغرب مسلم وشرقي على الرغم من اسمه، وهو مبرر جغرافيا، الذي يربطه بالمشرق المتوسطي إذ كان، دوما، يولّي وجهه، لثقافته وللون أحاسيسه وطريقة تفكيره ونوع سلوكه، شطر المشرق. وبالأمس كان المشرق هو الإمبراطورية العثمانية وهو مصر اليوم.

كانت مصر، في هذه الفترة من نهاية الثلث الأول من القرن العشرين تسير، في خطى ثابتة، في طريق التقدم وكانت تحقّق، حسب الصيغة الرشدية تأليفا صائبا بين الإيمان والعلم إذ لا يوجد غير قدر هيّن من الاختلال في هذا التطور شبه الثوري. لقد وقع، عن قصد، استبعاد المثال التركي. ولم يتوقف عليها أن شمل التغيير، بطريقة أوسع وأصلح، صيغا اقتصادية أشمل كان نظام الامتيازات والوفرة العائقة الناتجة عن استثمار رؤوس الأموال الأجنبية يُثَبِّطَانِها تثبيطا بالغا.

أما الأزهر فلم يعد يبهر أحدا. لقد تخطاه العصر. ولقد انتهى وانقضى الزمن الذي كان فيه الجنرال بونابرت يذهب، وقد سمي بعلي وعُمّم، إلى فناء الحرم الجامعي

لمناقشة علماء كانوا، على نقيض الأمرة، يفضلون المال على التبن والذهب على الشعير. لقد انتهى وانقضى الزمن الذي كان فيه قاهر الأهرام ينتزع من عدد من الحمقى، تصحبه في ذلك بسمة مونج الساخرة وضحكة كليبير المغتصبة، فتاوى تفيد أن جيش مصر مسلم ولكنه، مع ذلك، يتمتع بامتياز يعفيه من الختان ويبيح له استهلاك لحم الخنزير وشرب الخمر. لقد انتهى وانقضى العصر الذي كان فيه الشيخ عْلِيش يرفض، معارضا في ذلك الخديوي إسماعيل، أن تدرس الجغرافيا الحديثة في الأزهر ولا يرى عيبا في أن يعتقد تلامذته اعتقادا يتعذر ردّه، أن النيل ينبع من جبال القمر في تخوم عدن السماواتية!

لقد أصلح الأزهر، منذ أن مرّ به جمال الدين، مناهجه وبرامجه إصلاحا كبيرا. كان يسرع أكثر مما هو متوقع بالقدر الذي سارت عليه السربون عندما فرضت أفكار النهضة إنشاء معهد فرنسا حيث أَشْرَعَ تعليمُ الإنسانيات الذي بدّد ما تبقى من آثار السكولاستيكية العجوز، الأبواب على مصاريعها لتقدم الثقافة. لقد أعلن سعد زغلول وطه حسين، وهما تلميذان من أشهر التلاميذ فيه خرجا من المعهد الفاطمي العجوز وهما يصفقان الباب، للشرق عن نهاية نقيضة وعن مجيء عصر جديد. ولكن ما كان ينبئ بحسن طالع مصر لم يعد الإبقاء على الأزهر الذي لم يعد غير ضرب من المنارات يقوم بمهماته قياما غير مجد إطلاقا. ذلك أن الأساسي والإيجابي كان هو الازدهار الفكري الذي شمل مصر نتيجة إدخال التعليم العصري بشكل منظم. إن الشيخ الشرقاوي زمن بونابرت والشيخ عليش زمن إسماعيل لم يعودا غير شبحين متلاشيين من ماض كان الزمن، هذا الحكم الأعظم، يلقي عليه تدريجيا كفن النسيان. هذا التجديد الذي لم يعرفه المغرب، باستثناء وحيد، وإن كان أيضا نسبيا، هو تونس، كان مع ذلك، حريا بأن يمهد الطريق لتربية تطمح إلى التمام لا سيما أن وحدة الدين واللغة والأخلاق تحل، في ذاتها، مشكلة ضرورة التكيف عند الابتداء.

كانت تونس في المغرب، ما تزال على قدر من القيمة. فالزيتونة المحَسَّنَة والصادقية والوسط الذي جدده خير الدين ومحاولات الليبرالية الدستورية الراسخة، دائما، في أذهان النخبة وذكرى الأزمة البونيقية وحروب يوغرطة المجيدة وأرض تدشين الإسلام الشمال أفريقي الذي تلخصه ملحمة أفريقية، وطن مؤلف المقدمة وتاريخ البربر، كل هذا كان ميدانا مهيئا لبذر حبة مفيدة ولود.

لقد كان يمكن، آنذاك، لخط المحراث، أن يكون على خلدونية كلاسيكية. ولكن حظّ تونس لم يكن ليختلف عن حظّ مراكش. كانت تئن من ثقل حماية ذات نزعات مماثلة. ولقد أحدث، هنا، سابق للبرايارين وللكوينلارتيين هو الهزأة ما شويل، هذه المطفأة أي سلاح الظلامية الرمز التي شرعت جمهورية السيد الماريشال دوق دي ماهون في الطواف به عبر القارات مستظلة بدعوات الثورة المخفقة. وَرَغْم هذا فالدراسة في تونس دونها عقبات إذ على إدريس أن يحصل على جواز للذهاب إلى تونس. وكان الأمر صعبا لأن مغرب 1930 لم يعد غير "فيلاركية" من العصر الروماني المسيحي الأول.

لم يتبق، إذن، غير الارتحال إلى مصر. ولكن الظرف، آنذاك، كان غير ملائم البتة. إذ كيف يغادر المرء بلاده ويخلي المكان الذي يقضي الواجب أن يكون فيه، في الوقت الذي كان فيه اللطيف نتيجة للطعنة الغادرة التي تمثلت في الظهير البربري، يردّد صداه مثل ناقوس إنذار عبر البلاد؟ إن ذلك لمن الصعب. فلقد سبق قبل أربع سنوات أن حال تردّد مماثل دون التحاق إدريس بأهله عند تصديهم للغزاة. ولقد ندم على ذلك ندما لا شفاء منه. والحال أن الخطر ذاته يهدد، اليوم، البلد. هذا الخطر، وإن لم يرتفق بفرقعة قذائف المدفعية أو بلعلعة الرشاشات ليس، مع ذلك، أقلّ شدة بل إنه أشد. ذلك أن المرض، مثلما هي الحال في الأدواء الخبيثة، يظهر في هيئة مرض هيّن.

لهذا السبب عزم إدريس عندما تقرّر الإضراب، على البقاء في مراكش ومتابعة سير الأحداث إلى جانب أصدقائه. ومثلما سبق أن جابه الموت حلف، هذه المرة، أن يجابه السجن أو النفي.

***

حدث ذلك ذات يوم مشمس من أيام الخريف، كانت هبّات البوإبلان تلطف آخر قيوظ الفصل المنتهي وكانت فاس تخضوضر تحت سماء ساطعة، وكانت منازلها البيضاء وحدائقها ذات الأوراق شبه الاستوائية التي يهدهدها تموج خفيف يتنزل من القمم الأطلسية تعلن إعلان سحرة قدامى عن خلود أمجاد المدينة المرينية. وكان الفاسيون يبدون أنهم يستقرئون من أعالي السطوح، وقد اتجهت أبصارهم نحو الأبعاد المتقزحة التي تعمم الأطلس، هذا الأولمب الحارس حيث تقيم الجنّيات التي ترعى أقدار الجنس، المضمر بين الأرز وثلوج المنحدرات الجبلية.

كانت المدينة مغلقة والحياة متوقفة، وكان الجنود والشرطة ومخزن الباشا وجيش من الجلاوزة ذوي القبعات والرازا يسدون الأنهج والأزقة وكانت السجون قد اكتظت بالموقوفين و"المشبوهين" ولم تكن مقرّات الشرطة باطلة عن العمل. كان القانون العرفي قد أعلن وكانت مجالس الحرب منعقدة، في انتظار تطور الأحداث، من دون انقطاع. إنه لو كان في إمكان ديبون دي نومور أن يعود إلى الحياة لفقد، ما من شك في ذلك، مبادئه الأخيرة...

لبس سانلوشون الحائز على أعلى الرتب في أخوّية المثلث، سعيا منه إلى قمع أفضل للحرية، سترته البهرجة وبنطال الركوب والرّان وقبّعته التي تأخذ من كبّية الجنرال

وكسكيت الأميرال ويعلو مقدّمتها تاج من أوراق البلوط.

وسيجيب المؤرخ، في المستقبل، عما إذا كان سانلوشون، وهو يتأهب للأمر بأن يطلق مرتزقة الجنرال نوار النار على المراكشين، قد عاش حيرة قانونية، هو أيضا، مثلما سنرى دالاديي، فيما بعد يقلّب صفحات الدالوز حتى يتأكد من أن الدم الذي أراقه الباريسيون في ساحة الكونكورد لا يخالف القانون الدستوري مثلما وقعت مراجعته وتصحيحه استنادا إلى تعليم الكسندر ستافسكي.

تحركت مواكب المضربين عبر أنهج المدينة في نظام ومن دون صراخ. كانوا يمشون متراصين متلوّنين متنوّعين، في هدوء ونشاط مدهشين. لقد حوفظ على النظام في التجمّع المتموّج المكوّن من جموع متراصّة يضخّمها، مثل مياه البحر عند المد، قادمون جدد يتوافدون من دون انقطاع من جميع جهات المدينة. كانوا يتقدمون تبعا للمهن والحرف والمدارس والأحياء. كانت فاس، روح البلاد، تغلي. وكان النحّاس والعقاقيري والبنّاء والتاجر والشوّاء والرثّاث والتلميذ يكوّنون كتلة تمثّل الإرادة الشعبية تمثيلا تاما، شكلا ولونا. كانت كل الفئات الاجتماعية تنصهر في وثوب جماعي. كان عدد منهم ممتلئ البطن محمرّ الوجه كثيف شعر يحدق بخدّين ملحِميْن متثاقل الخطو متزن الخطوة. وكان الآخرون رشيقين فارعي القوام هزيلي الوجه خفيفي الحركة قليلي شعر اللحية الأسود المرطب. وإلى جانب من سبق كان يوجد صنف أكثر أصالة ذو عضلة متوترة وعضلة ومأبض منفوخين يعلنان عن العامل المتمرس بمشاق العمل اليومي. كانوا مسنين وراشدين وشبانا، وكانوا مدينيين وجبليين. وكانوا رحلا ومستقرين في السهل. كانت توجد الجلابات وبرانس الصوف المندوفة المنقدرة المفصلة التي ما زال يشمّ منها وشل الجزّة وكذلك جلابات وبرانس وقفاطين من حرير خام أو من قماش انتجته مصانع الغزل الأنكليزية. ويرى المرء سلم الألوان جميعها: الحمر الفاقع والأحمر الرماني والوردي الخامد والأخضر التفاحي

والكستنائي الغامق والأصفر المخملي والأزرق الليلكي وأزرق بروسْيا والأبيض السكري والأسود الفاتح. وفوق هذه الألبسة الغنية بالألوان فراجيات "باتستيّة" وموصلية. وفي موضع وسط بين هذه الألبسة، تقع جلابات الطلبة من الصوف الأبيض المحبب التي تغطي الصدرية المقدودة من قطن قصّبة الحرير. وتغطي الرأس إما الرازة المراكشية أو الطربوش الأحمر وأغلبهم كانوا، عملا بالتعليمات، يحملون في أيديهم السبح.

كانوا يمشون في صفوف تتكوّن من ثمانية أو عشرة أشخاص أو اثني عشر يشرف عليهم موجّه رافعين اللوحات والرايات الصغيرة. إنها أول مرة في تاريخ مراكش يتظاهر فيها الشعب امتثالا لأوامر مقتبسة من حق التظاهر الشعبي في أوربا. ومن ناحية أخرى فإنه ما كان لديه إمكانات اختيار متعددة، فلقد وجد نفسه، وهو يُوقَظ فجأة من نومه، في مواجهة خصم حلّ بأرضه مثلما فعل ذلك الرومان واليونان قديما. ولكن هذا الخصم كان أكبر خطرا على البلاد من خطباء الفوروم وفرسان بيزنطة لأنه، وهو الماهر في تلبيس الحبّات القاتلة بجيلاتين من الصيغ الفارغة، كان ينوي قمع البلاد على النحو الذي نجح فيه توركويمادا في اسبانيا الإسلامية من دون أن يظهر وقاحة الكاغولي الشرير البدائية. ذلك أن الحرية في فرنسا أصبحت ادعاء فضفاضا. ومع ذلك فإنه لابد من الاتفاق على معنى هذه اللفظة المتعددة المعاني.

يتبدّل هذا اللفظ في المغرب متعرضا للتغييرات الأكثر غرابة ففي المغرب يكون المرء ضد الحرّية إن طالب، بمقتضى العقود الممضاة واستنادا إلى منطق الأشياء، بأن يمنح الحريات الأكثر ابتدائية في ممارسته الحق العام، وهو ضدها إن احتج على الاستيطان ومصادرة الأراضي بكثافة وهو ضدها إن طالب ببسط الانتفاع بالأشغال العامة على المدن والأحياء وعلى الريف حيث يسكن السكان المسلمون، وهو ضدها إن ألح على ضرورة إلغاء الشعوذة بكل أشكالها ومنها المرابطيّة.

وهو في المغرب، مع الحرية إن كان في الموقع المضاد وأصرّ على رفض كل هذه المطالب، فهناك، إذن، أسلوب في التقدير يحوي، أصلا، كل النزاعات القادرة على أن تحدث، نهائيا، تباعدا بين الجنسين المتواجهين. إنه لا يتبقى عندئذ، بما أن الخصم لا يكفّ، لما هو عليه من ارتباط بشكل مؤسساته، عن استخدام الكلمات الرنانة الفارغة التي لا يأخذ بها أو يكرسها في الممارسة، غير مفاجأته وهو في حالة تلبس بجريمة الغش وإقناعه بخيبة مسعاه وتضييق الخناق عليه.

ومع ذلك فإنه يتبقى في كنانته سهم هو النظر إلى المغاربة من عل، على الرغم من أن هذه مجازفة قد تكذّبها وقائع غاية في الفظاظة، والتأكيد لهم أنهم يفتتنون بالأوهام الكاذبة ويكرّرون ألفاظا لا يفقهون معناها ويطلبون برق خلب وأن أفضل ما يتبقى عليهم فعله هو الصمت. ولقد وقع الحديث، بهذه الطريقة، إلى شعب باريس في 13 جويلية 1789.

والحال أن ما يحتاج إليه المغاربة ليس هو النصائح المجانية بقدرما هو أفعال مطابقة لما تقتضيه المرحلة. وهم، في ذلك، على حق. وهكذا فإنهم مثلما لقنوا في مدرسة البرايارين أن يكرهوا الباستيل وأن يبصقوا على رأس الحاكم دي لوني بعد أن قطعت ورفعت في طرف وتد وأن يروا في الإعلان عن حقوق الإنسان منتهى المبادئ الإنسانية الكبرى وأن يقبلوا بالحروب النابليونية انتصارات تحريرية على قوى الرجعية العالمية وأن يصدقوا كل ما رسم كونت وتين ورينان وهوغو وأ. فرانس على جَبَهيّة القرن التاسع عشر تصديقهم حقائق تصور المستقبل مقدما، فإنهم اعتبروا، وقدر رأوا أن الممارسة تخالف هذه المعاني، أن واحدا من أنجع الأسلحة التي في إمكانهم استعمالها هو هذه الترسانة من الشهادات والإدعاءات المعلنة.

***

كان موكب إدريس قد احتشد في القيصرية، الشارع الرئيسي في فاس وكان هذا الموكب الذي ضخمه طلبة جاؤوا من كل المدارس وحشد من الصناع والحمالين الذين خرجوا من بوجلود، يضم، كذلك، كثيرا من الجبليين الذين يمكن تبيّنهم من جلاباتهم القصيرة ومن بلغاتهم المدورة ذات النعول المفردة ومن رؤوسهم العارية التي يغطيها القاب. كان عدد منهم ينتمي إلى هؤلاء المقاتلين غير النظاميين الذين انتزعوا فاس عنوة بإعانة طوابير شريفية سنة 1912. وكان آخرون، وقد شجت وجوههم وثبت أجسامهم، ممن نجوا من حرب الريف ومن الجبل. كان وجود أسود البارود هؤلاء في هذه المظاهرة في غير محلّه تماما فلقد تاهوا وسط كتلة المدينيين وكانوا يظهرون، بأسمالهم الجبلية الخشنة مثل بقع مغراء وسط بحر من الألوان الساطعة. كانوا جافلين شيئا ما، مندهشين، فهم لم يكونوا قد فهموا جيدا ما الذي يراد منهم. وكثيرون منهم كانوا يرون أنه من الغريب ادعاء إلحاق الأذى بالفرنسيين بالتظاهر عبر الأنهج. لقد كان تصوّرهم النّضال هو تصور عنترة الذي لم يكن يرى حلا ممكنا للنزاعات في الدنيا في غير منطق رمحه وفي الحجج التي تحويها كنانته. ولكنّ سبحا وضعت في أيديهم وقيل لهم أن يمشوا في النهج وهم يهمهمون اللّطيف وأن هذه الصلاة التي تصّاعد من الجماهير المتحركة هي قربان لله وتضرع إلى القوة السماوية حتى تدفع قوى الشرّ التي استدعاها حظ المغرب العاثر إلى أرضه والتي تتهيأ مثلما كان شأن إبليس الذي لعنه الكتاب المقدس، لتقويض أسس الأمة والإسلام. لقد شاركوا، وقد اقتنعوا، في الموكب وكانوا يتهيئون للسير حول الرايات.

كان اللطيف يصّاعد في السماء مثل مزمار منتقم وترتيلة جشاء النبرة. مدينيون وقرويون، جبليون ورحل: كل الشعب كان يصرخ تعبيرا عن إرادته في العيش حرا على

أرض أجداده. ولقد وجد موكب المتظاهرين نفسه وهو يبلغ نهاية القيصرية، يجابه قوى الفيلق والسينغاليين وجها لوجه. بدا أن ترددا قد حدث فقد حاول "ذباب"[140] مندس، على الطريقة المعهودة، أن يشيع، بتجاوز صفوف العساكر، هلعا يقود إلى رد دموي ينجر عنه، سريعا، تشتيت شمل المظاهرة بتخطئة المراكشيين. ولكن المتظاهرين لم تخدعهم هذه الحيلة وتمكن الموكب من الحفاظ على تماسكه وانفصل عنه وفد يقوده سي تاشفين وعدد من الأعيان طالبا مفاوضته قائد الجيش.

كان الوفد الحامل عريضتين إحداهما إلى السلطان والأخرى إلى المقيم يطلب مقابلة المندوب ورئيس الرقابة المدنية. وقد رفض القائد، عملا بالأوامر التي تلقّاها، استقبال الوفد فرد إلى الخلف وعاد إلى الموكب. حقا إن الجو هو جو استفزاز!

في الساعة نفسها كانت هرجة تمثل في المشوار[141]. وإذا كان لبعض الجاهلين بحقيقة الأمور أو الشكوكيين أو السوداويين عن الحماية ومرونة جهازها رأي سلبي مسبق يدعو إلى أن يشفق عليه جيش الأطبّاء من بني "هذا أفضل" الذين زجموا وظائف إقامة الرباط الوهمية ولكن عالية الأجر وعدد من المنظمات الموازية في العاصمة الفرنسية فلن يكون عليه، في هذا الظرف، ألا أن يذهب إلى فاس ليتأكد عنده صواب رايه. فكلمة التعاون الشهيرة تمارس فيها ببساطة لا مزيد عليها.

كان محمد بوشته بن البغدادي، وهو مقاتل قديم في جيوش السلطان وباشا فاس بنعمة لاروقان آخر عيّنة من مخزن نخره السوس متداع وشهد احتضار الامبراطورية

[140] Mouches، ذباب.

[141] المشوار: المكان تاذي يعقد فيه السلطان مجالسه.

وتبخر آخر آمال مراكش. ولقد كان متربعا على هيئة ناسخ من نساخ توتيميس بدا فيها، وهو يتهزهز، طويلا جسيما ذا لحية بيضاء تؤطّر وجه ثعلب عجوز يتنامى كيده بتقدم السن والسهولة المتزايدة في الاختلاس. وكانت تستغرق رأسه طاقية على هيئة قالب سكر تتوارى خلف جدائل زخرفية في رازا واسعة. هو لم يعد أكثر من تحفة في متحف. وإذا كانت ريشة هنري رينيو وقلم نورو قد نجحا في رسم صورة سريعة تقريبية لظله الثقيل فإن الأجيال القادمة وحدها ستقاضي في يوم من الأيام ذكراه. وكان على مقربة منه القبطان المسمى توكيت، وهو الضابط الذي يرأس المصالح البلدية ويقوم مقام المفوّض عن الإقامة والمؤتمن على تفكير المقيم ومحرك الباشا الذي لم يكن غير اليد التنفيذية العاملة بإنجيل الحماية، يباشر استنطاق المعتقلين الذين يقعون في يديه صدفة ويجرمهم ويعينهم للباشا الذي يأمر، بكلمة، ومن دون أقل مراعاة لقانون "فلتأمن على جسدك" الشهير أو تحقيق قضائي أو محكمة أو دفاع يمكن أن يطلب قانونيا أو قانون يمكن أن يستفتى أو مسرحية قضائية يمكن أن تمثل، بأن يطرح "المجرم" أرضا ويحدّد، على هواه، عدد الجِلاَد وينفذ، من دون حضور أي طبيب، عدالته على مرأى من الموظف الحامل شارة السلطة التي عينته، سلطة فرنسا السيد غاستون دوميرق العطوف.

كان يتملك المأمور المستبد، وهو يحضر، في فقدان للرفعة، هذا المشهد، وقد غرس السيجارة في منقاره في حين كان سوطه يسيط بايقاع جزمتيه المبرنقتين، إحساس بالمتعة لا تقدر عليه غير أمة متفوقة ترك لنا عنه كارنيير وأشباهه وسيرفي وبرتراند شهادات لذّ مذاقها وصلف أدبها. لم يكن القبطان توكيت هو وحده الذي حضر لمشاهدة هذا الحثل من النيرونات فلقد جلست هناك، أيضا، شخصيات رفيعة المقام جاءت لاقتيات انفعالات تذكّر بانفعالات سبق أن وجد لها مثيل قبل ألفي سنة أثناء لعبة المصارعين في الكوليزي الروماني لإمتاع الشعب المختار المجتمع تحت أقدام القياصرة بالدم المسفوك. ومع ذلك فقد روى القوم

أن تيبير وكلود ونيرون دخلوا التاريخ وقد وسمت اللعنة جباههم إلى الأبد. ولكن نيرون وكلود وتيبير قد خلّفوا أقرانا. وهؤلاء نعثر عليهم اليوم بكثرة في أفريقيا الشمالية. إنهم ذلك الأستاذ في "الكوليج دي فرانس" الذي باض عددا لا يستهان به من الكتب حول المغرب. وهم عدد من الصحافيين الذين يوفرون مداخيل شخصية سخيّة بتنقل لا ينقطع بين باريس والرباط. وهم ضباط مصلحة الاستعلامات الذين حضروا بوصفهم متفرجين. وهم السيد قرولو دي بونتير الذي رافقه عدد من زملائه وقد أفقدته الشامبانيا صوابه وحاول أن يطلع، من خلال المشاهدة الحية، على الطريقة التي كان الباشا الطيب يجلف بها لحم "مثيري الشغب" في فاس.

***

فرقعت السيور في الهواء وكان يمسك بها قردة سود منفّرون. كان تجار وعمال وصناع وأعيان يمرون، جميعهم، على هذا السراط. لا تقدير ولا شفقة. كان انبساط شيطاني يتجلّى في سمات الأستاذ الباريسي العجوز الذي حمل شدقاه سمات عالم خان سلطته الثقافية وأصبح ضميره يقدّر بعدد أجور الأتعاب التي تلقي بها إليه في كل سداسي مقابل وظائف شرفية لا يعرف حتى صفاتها، الشركات التي تقضم أرض مراكش.

جيء بسي بن زيدون. كان التعس، وهو حسير النظر خلقةً يضايق عينيه التهاب فيهما وكمدة العدستين اللتين يثبت على الأنف، قد انضم، طوعا، إلى المظاهرة وقبض عليه عندما كان يناقش رائد فوج السينيغاليين الذي يحرس محيط المندوبية.

مشى بجسارة وصرخ ووبّخ العالم بأسره وتفلّت، بضربات من مرفقيه، من المخازنية

وهو يطلّق، بوصفه سعديا حقيقيا فخورا بذكرى الحروب على البرتغال، سلبيته، ليوبّخ الباشا بشدّة. ولكن لا شيء أثّر فيه. أمر ابن البغدادي الذي لم يكن غير آلة تسجيل، بناء على إشارة من توكيت، بطرح أستاذ التاريخ أرضا.

— "أطلب العفو من الباشا!" قال الضابط المليح وهو يشدّد لاستنقاصه، على ضمير المخاطب المفرد.

— "أنا، ولماذا؟" أجاب الفقيه.

— "لقد تمرّدت على سلطة سيدنا، إنك لم تحسن التصرف."

— "ماذا؟ سأل سي بن زيدون بسذاجة وقد تملكه شعور مزدوج بالاندهال والارتباك بسبب ما كان يعيش من وضع والتهمة التي وجهت اليه: كيف؟ متمرد أنا؟ ولكنني طلبت فقط، مع الآخرين، مقابلة ممثل سيدنا وممثل سيدكم، فهل ترى في هذا أمرا جديرا بالعقاب؟"

— "إنه لكذلك، أجاب قرن البوبرترين واللاكرويين الدي فوبوايين، يوجد في تصرفك عنصر تمرد وإذا ما أردت الخلاص فعليك أن تطلب العفو من الباشا."

— "لن أطلب العفو لأمر لم اقترف، أبدا."

أومأ القبطان، بعينيه، إيماءة ترجمتها آلة التسجيل المدفونة تحت قالب السكر والثياب الموصلية، بحركة من اليد متثاقلة خطيرة ما زالت تحافظ، على الرغم من حقيقة الخضوع الأعمى لأوامر الأجنبي، على بعض من مظاهر القرار الحر لا يخلو من

امتلاء ذاتي يثير السخرية.

هزّ الأزفال[142] الهواء محدثا صفيرا مخيفا وبدأ يشطب كتلة لحم الأستاذ ذي الحظ العاثر الذي لم يكن ليصدّق أذنيه. لقد بدأ القرع بالعصا...

إن كل مرونة إوالية الحماية التي جعل منها لاروقان، طوال ولايته، أساسا لسياسته تتلخص، هنا، في الطريقة التي عرف بها سي بن زيدون باكورة... السوط. لا أكثر ولا أقل. إن الشعب المراكشي والشعب الأفريقي الشمالي إنما هما سي بن زيدون. كان هذا الشعب يتعرض للاعتصار والقضم والإفلاس والاستعباد والنفي خارج حدود الإنسانية. ولم يكن عليه إلا أن يصمت. وإذا ما صرخ فإن الهراوة جاهزة. ولكنه عوضا عن أن يكون القبطان هو الذي يضطلع، شخصيا، بمهمة الضرب مثلما كان الشأن في الجزائر، البلد الملحق، فإن توكيت يكتفي، في فاس، بالأمر. أما التنفيذ فقد أوكل إلى ابن البغدادي فصارالسلطان في هذه الحالة مجرد ذيل للمقيم وصار المخزن دولابا دركيا سفليا من دواليب الإدارة وستارا ملائما كانت الغاية منه حجب جميع أصناف خرق القانون وتفريط العدالة في مبرر وجودها.

وكانت الضربات في الأثناء تنهال على أستاذ القرويين المنكود، قاسية جارحة. لقد صدرت عنه، عند الضربة الأولى، حركة وكاد أن يبدي شكوى ولكنه عدل عن ذلك. لقد كان يعرف جيدا من كان واقعا بين أيديهم. إنهم أناس من دون حياء لا يستأهلون، في أحسن الحالات، غير هزّ الكتفين احتقارا لهم. لذلك صمت وكزّ على أسنانه وثبّت، بعد تحسس بالأصابع، النظارتين اللتين زلقتا على الأنف بتأثير من هزة الأزفال ثم امتنع نهائيا عن الحركة.

---

[142] السوط

– "أطلب الأمان"، هس إليه الباشا في أذنه.

– "الأمان؟ أبدا"، اكتفت بأن تأوهت ضحية الحضارة التي يشخّصها توكيت وسوطه.

انفجرت من الفريق الأوروبي الذي كان في المشوار ضحكات ساخرة وقهقهات. وكان المستوطنون السكارى إلى حد الموت يأتون اختلاجات صرعيّة لم يكن أقبح سفيه في الطريق قادرا على اختراع مثلها. كان في إمكان المرء، إن فحص المشهد فحصا، أن يتعرف فيه، بسرعة، على ما تقوم عليه فلسفة تذكر جيدا بلوحة عذاب اليهودية مثلما ثبّت ذلك ديهونينك في لوحة مشهورة. كانت تلك العدالة العجولة التي حاولت ريشة الرسام أن تخلّدها من زمن نظام منحط. وأحداث 1912 لم تغير منه شيئا. فكل ما جد هو نقل المسؤوليات فيه. فالباشا مازال دائما في مكانه للقيام بأعمال التعذيب. ولكنه على عكس باشا ديهونينك لم يعد غير دمية يحرك القبطان الفرنسي خيوطها بمعلم ومرأى من الجميع.

كان أستاذ الكوليج دي فرانس (ولتستشيطي في قبرك غيظا يا روح إيراسم!) يتأمل بمرح هذا المشهد المسلي. كان هو، بائض الكتب نفسه المختص في القضايا الشمال أفريقية، الذي صرّح ذات يوم أن فرنسا لم تأت أفريقيا لسواد عيون "الأهالي" وأنها كانت تنوي، بوصفها وريثة روما، أن تنفرد فيها بالعظمة وحق الإثراء. وهذا أمر ما من أحد شك فيه البتة.

كان هذا المثقف الرديء يقبض مرتّبا عن كل الموازنات التي تعدل على عرق الجلابة والبرنوس. وكان حضوره يكنس تلقاء نفسه، آخر ما قد يكون تبقى من أوهام

حول خرافة فرنسا أمّ الحضارة. كان متظاهرون آخرون في انتظار أن يجلدوا وأن يتلقوا نصيبهم من ضربات المقرعة وأن يدفعوا ضريبة الإهانة الضرورية لتهدئة سورة غضب سلطة ما زال القوم يصرّون على القول إنها لا تقبل المنازعة وغير منازع فيها.

كان حوالي عشرة مراكشيين محاطين بسينيغاليين جعلوا حرابهم في أفواه بنادقهم وبجمع من المخازنية، حول جسد سي بن زيدون الممدّد. كانوا يمثلون، على الرغم من ثيابهم الممزّقة والتراب والدم اللذين كانا يغطّيان أجسادهم وقد أخذ برقابهم عصابة سوء من السود يضطلعون بوظيفة الجلاد المساعد، جماعة تقف وقفة فخورة لا عجرفة فيها كان توكيت يلقي عليها نظرات تريد أن تكون مزدرية ولكنها لم تكن إلاّ وقحة جبانة.

كان السلاوي بين هذه الجماعة، وكان يبدو من عينه المورّمة ووجهه الذي تغطيه الكدوم ومن أنفه وفمه المنزوفين وجلابة الحرير التي مزقت قطعا وقدمه العارية، أنه شارك مشاركة بارزة في المعركة. كان يجيل عينه السليمة المتبقّية بين سي بن زيدون والباشا لتصل الى توكيت وأستاذ الكوليج دي فرانس والمستوطنين الذين فقدت أفكارهم السداد بفعل أبخرة الأنيسون فاذا هي تائهة في مكان ما من حقل كروم المولى. كانوا ثلاثيا مضحكا: لقد كانوا، وقد ثملوا، يغمغمون شتائم ويلقون بهُجْر من الكلام بدا أنه يمتّع العالم البحاثة الذي كان يصنفه نشاطه الأدبي ضمن المترشّحين في مقبل الأيام لنيل جائزة مونتيون.

وكان يقف بالقرب من السلاوي شاب قصير أسمر ذو رأس تنم عن ذكاء، ووجه متوتر وشفتين ثابتتين وعينين يقظتين تعكسان العزمة والنشاط. كان ينتمي إلى عائلة

مراكشية عتيقة وحصل حديثا على ألقابه الجامعية من إحدى كليات باريس[143]. كانت ثقافته صلبة وكان، وهو الذي مارس الصحافة، ذا مواهب في الجدل لا يستهان بها. ومثل هذه الصفة تبقى، في الفترة التي نعيش، أفضل سلاح يمكن استعماله لمواجهة خصم كان على الدوام يتباهى بالتوفيق بين الحيلة والعنف في مشاريع لصوصيته الاستعمارية. لقد قاوم، عندما أوقف أثناء وجوده في مقدمة المظاهرة، معتقليه فوقع تدافع وتبودلت اللطمات العنيفة. وعلى الرغم مما تعرض له من سوء معاملة فإنه قاوم مولوسيي الباشا والجندرمة الذين هرعوا لمساعدتهم. كانت آثار العركة الدامية بادية في خدود زنجيين وكان أنف أحدهما الذين سبق أن فطسته الطبيعة قد زادته لكمات الصحافي الشاب الذي أثبتت يده، بهذه الطريقة، أنها تتقن، في الآن نفسه، مسك القلم وهدم نوع معين من الأشداق، زادته تفطيسا.

ألقى بنظرة ازدراء فيها تعال وفيها مكر على الجماعة المكوّنة من القبطان والمتحذلق والسكيرين وعدد آخر من الحاضرين. كان الأوّلان، وهما الضابط والمدعي الأحمق، يعرفانه إذ كان لديهما، عدة مرات، متسع من الوقت لدراسة سيرته الذاتية في جذاذات مصلحة الاستعلامات. وها هو في هذه الساعة ينزل عليهم من السماء منا وسلوى. فما اسعد حظ هؤلاء الآخذين بنظام الإرادة المطلقة!

تلمظوا لرؤيته. كانوا يتلذّذون، سلفا، بنعيم العرض الذي ستتاح لهم فرصة مشاهدته. أي! لقد كان منذ زمن بعيد يقرعهم في صحيفته ويعنفهم وينقدهم نقدا لاذعا ويشهر باستمرار ومن دون انقطاع، باختيانهم ودعارتهم. هو لم يكن ليتركهم يهضمون، في راحة، ما ملكت أيديهم من غير حق: أراض سرقت من الفلاح وقطع

[143] هو حسب الوصف محمد بن الحسن الوزاني الذي تخرّج في معهد العلوم السياسية في باريس سنة 1930.

أرض افتكت خفية بأسعار تافهة ورشاو وعمالة بنسبة مائوية باهظة واتجار بالنفوذ واستبداد وتعدد وظائف غير قانوني وانتهاك متعمد لأبسط شروط الحماية. إنه لا شيء من هذا لم يقع فضحه. وكان، من دون كلل، يكافح نذالة أصحاب القلم. ولم ينغّص أحد مثلما نغص طمأنينة الجيش الكبير من المخفقين في الأدب الذين كانت السمعة السيئة أو الحاجة تطردانهم من بلادهم فيجيئون إلى مراكش عارضين خدمات أكثر من مشبوهة على أيّ كان يودّ استخدامهم. كان المثقف الشاب المراكشي يحمل على هذا الصنف من الأدباء الملفّقين، وهو نوع جديد من إخوان الساحل ينشط في اليابسة، الذين يعهرون كتاباتهم خدمة لنهب البلاد، حملات تتردد أصداؤها في كل أفريقيا الشمالية وحتى في فرنسا. كان يوقعهم في حيرة. وفي كل مرة كان فيها صحفي فاشل يحاول أن ينزل إلى الميدان لترويج حجج لا سند لها باسم منطق مفترع مترسما في اسلوبه الباهت أسلوب واحد مثل درومون أو كارنيير، كان يوبّخ بعنف، وبالتأكيد!

لقد شكا القوم، وقد نفد منهم الصبر، إلى الإقامة، وهذه طلبت من مصلحة الاستعلامات تقريرا اتخذ، بناء عليه، قرار: إنذار فمباغتة شرطة فاستدعاء قضائي كان ينتهي، دوما، بالغرامة أو السجن أو منع الصحيفة من الصدور.

ما أن رآه الجمع حتى تشابكت العيون. أشعل القبطان، وكان دائما على تعاظمه، سيجارة وأشار إلى الباشا بالتوقّف عن جلد سي بن زيدون. قوّم أستاذ القرويين التعس، ومن دون أن ينطق بكلمة ومن دون أن يأتي حركة غير نافعة، تبع المخازني إلى "بنيكة" الباشا التي حولت في هذا الظرف إلى سجن. وهناك جلس ونفض ثيابه وعدل نظارتيه وأسند ظهره، وقد أضاءت بسمة خفيفة وجهه الملحم الذي انخضد شْوَيّة، إلى طي الأريكة القديمة التي كانت فيها وأخذ يتنفّس. ومع ذلك فلقد كان يبدو سعيدا يعيش حالة من وفّى ما عليه من واجب ثقيل إزاء ضميره بل بعيدا عن

البنيكة وعن المشوار وعن المشهد الشرير الحقير الذي كان موضوعه وعن فاس. لقد كان خياله في مراكش التي وقف فيها أمام صف القبور السعدية خاشعا خافضا رأسه حتى ليمكن أن يقال إنه كان يتهيأ لتلقي أمر وتقديم حساب بما عانى في سبيل قضية لا يكاد يتنبأ بعظمتها الخفية. والمغرب مليء بأمثال هؤلاء البنزيدونيين.

انقض مخازنية الباشا، تنفيذا لإشارة من القبطان، على الصحافي وأرادوا الإمساك به، وتبع ذلك ارتباك استغله السلاوي للانفلات فجأة من حراسه. وتماما مثلما يحدث لأنقيليس وقع في شبكة صيد ولكنه نفذ فجأة من عيونها بفضل ضربة من ذيل زنجور مختلج قطّعها تفلّت صديق إدريس، على الرغم من أنه كان محروما مؤقتا من إحدى العينين، من بين سيقان الجنود وجلاوزة الباشا. ارتفعت الصيحات والشتائم ودوّى طلق ناري ولكن الطالب أصبح بعيدا جدا...

ألقي بالهجّاء أرضا، مقيدا، في حين كان المثقف الشقي الذي أثرى من دم الشعب المغربي يحاول أن يصبح أكثر تواضعا مما كان عليه في العادة بتصنع موقف حليم متعطف إزاء هذا الذي كثيرا ما أرهقه، مستقويا بحقه، بالأسئلة،

– "هلم، فلتتعقل، أطلب الأمان من الباشا، إننا لن نلحق بك أي أذى"، قال العالم مجمّع الوظائف الوهمية والدخول.

وانفجرت الإجابة انتقاميّه سريعة سرعة صرخة تعجب أطلقها هوس[144] جديد يجرّه الى الابّالة رهبان الديمقراطية الحديثة:

---

[144] هوس: مصلح تشيكي أحرق اذ اتهم بالهرطقة (ق 14-15).

— "اخرس، غوغوس"

— "آه، اخرس، وما زلت تتجرأ على النطق بهذا! طيّب! سنرى!"

تلاقت عيون توكيت وغوغوس، ورمق القبطان الباشا الذي ما كان منه، تماما مثل الرائد، إلا أن يومئ بيده على المخازنية فقطع الأزفال الصمت من جديد.

كانت سيور الجلد تقع على صلب الصحفي الذي نال شهاداته من جامعة باريس مثلما حرثت، قبل قليل، ظهر استاذ جامعة فاس. وفي اللحظة التي تقرّرت فيها بداية المحنة لوح غرولو الذي ما زال يخمّر ما شرب، بيده على الطريقة الرومانية، لا محيّيا ولكن ناكسا إبهامه إلى الأرض مثلما كانت تفعل عامة أوربس المخمورة في المسرح عندما تستحسن بهذه الحركة، مقلدة في ذلك طغاتها مثل نيرون وكاليغولا، إشارة البدء بإطلاق الحيوانات المتوحشة على الضحايا المصطفّين حول أعمدة المصطرع. إن ما يحدث هو تكرار حقيقي لمشاهد المدرج. لقد احتفظ لنا التاريخ، هذا المبلغ الكبير، بأسماء أندروكليس والقديسة بلاندين وشهداء فيلق طيبة. ومع ذلك فإن رومة، على الرغم من أنها تجملت بكنية الخالدة قد اختفت ولم تعد أكثر من ذكرى. ولكن الفكرة التي من أجلها تعذب أندروكليس والقديسة بلاندين وجند طيبة، عند إشارة الإبهام، ما زالت حية وتتجدد على الدوام في كل مكان. فمن العبث محاولة تكرار حركة قيصر أو أي بهلوان آخر منتفخ بقيمته التافهة إذ لا طائل من وراء هذا الأمر. فالحق، في نهاية المطاف، هو الذي ينتصر. أما في ما يتصل بقوة الإمبراطوريات فإن حكمها، مهما كانت عبقريتها، محكوم، حتما، بمصير الكائنات العابرة إن لم تسعف القوانين الحكيمة الخادمة للتكيف، في الوقت المناسب، القائمين عليها. هكذا تحدث سفر الجامعة. وهذه الحقيقة تبدّت، باستمرار، من العصور القديمة إلى أيامنا هذه من جملة من العوامل الثابتة في تطورها ثبات حركة النجوم أو

تأبّد الأجناس الحيوية، فلا تخدعنّك المظاهر!

كان الأزفال يصوّت في الهواء واقعا، في ضربات عنيفة، على ظهر الكاتب الشاب الوطني فما الذي كان يمكن لأرمان كاريل وروشفور أن يقولا لو كان في مقدورهما أن يكونا هناك؟ لا شيء بالتأكيد. إن حادثة دريفوس ممكنة في فرنسا، وهي تصبح بمجرد تخطي المتوسط، غير ممكنة.

لقد كنا في سنة 1930 وكان القرن العشرون قد جاوز ربعه الأول. لقد سبق أن مات باستور ورينان وتولستوي وأناطول فرانس وما زال إيديسون وماركوني وبرغسون على قيد الحياة. وكانت فرنسا غاستوني وهو ابن ألبي ومجانس لكالاس، تحكم أفريقيا الشمالية. لقد ظنت نفسها، إذ لبست قلنسوة الحرية، قد أصبحت مسيحا جديدا مخلصا للأمم. وها نحن نراها في هذا الوقت بالذات التي لم تخرج فيه من الحرب منتصرة إلا بمعجزة حقيقية والذي باشرت فيه الاحتفال بسلسلة من الأحداث التاريخية بدءا بذكرى رحلات جان دارك الخيلية وصولا إلى استقرارها بالجزائر، ها نحن نراها لا تعثر، بعد أن قمعت في الدم مظاهرة شعبية، على ما هو أفضل من جلد أستاذ وصحفي. ومع ذلك فإن من يعرّض نفسه، بمثل هذا السلوك، للتشهير إنما هو، بالذات، فرنسا. ولكن فلنعلم جيدا أنه لا ضربة من المقرعة تعرّض لها سي بن زيدون والشاب المثقف الفاسي لم تتثبت في ذاكرة شعب كامل. فحذار من أحقاد نيميزيس! إذ لا شيء يخلد في الأرض واليوم أنا وغدا أنت وإهانات من هذا النوع لا تنسى أبدا.

قد يعارض البعض مستندا إلى أن روما وبيزنطة لم تسلكا إزاء الأفريقيين سلوكا مغايرا وهذا هو بالذات ما قصّر عمري إمبراطورية قياصرة روما وقياصرة بيزنطة على الرغم من ألق واجهتيهما واتساع نفوذهما. وهما إذ اختفيتا لم تتركا وراءهما غير

عدد من الآثار الحجرية التي تحمل اسما شائنا لم يتمكن الزمن حتى من تجنيبه الشتيمة. ثم إنه تندرج بين هذه الفترة وبين عصرنا الفترة الإسلامية بما حملت من مياه حلم ألقيت على الخَنادق القديمة. إن الأمور، اليوم، تختلف تماما عما كانت عليه.

***

بعد أربع سنوات من هذا الحدث نام لاروقان، في هدوء وقد طعن في السن وحاز الثروة والمجد، في حضن المولى. لقد مات ميتة هادئة بعيدا عن صلصلة السلاح التي لم يكن هذا الماريشال يحبها في حياته. إن اللّباس العسكري وركوب الخيل وحفلات الاستقبال الرسمي، إن هذا هو كل ما ورثه متحف بولون. ولكنه ترك بعده ورّاثا صاخبين كانوا ينتوون، لأنهم عاشوا في ظلال مجد مغالى في تقديره، عدم السماح للنقد بأن ينزل من عليائه رجلا ساهموا في رسم صورته بأن توّجوا جبهته بنوع من الإكليل "القنصلي" وفي هذا المجال ظن اصحاب الأقلام المروّضة هؤلاء أن عليهم، هنا أيضا، أن ينتحلوا أفكار بلوتارك. فبعد أن حبوه بلقب سيبيون رأوا أنهم يأتون عملا صالحا إن أقاموا لذلك أساسا. وبهذه الطريقة عرف المرء أن لاروقان كان قد أبدى رغبته، في حياته، في أن يدفن في شالة، مقابل الأطلنطي، في ركن فاتن من الأرض المراكشية مشبع بالذكريات الموحدية لقد أراد، على ما أكّدوا، وهو يهجر ال"أنفليد" وعقيقه اللوريني الهادي ودائرته الشرقية العزيزة، أن ينام نومته الخيرة في حضن "إمبراطوريته". لقد أثيرت حول نعشه مناقشات إن كانت ذا طابع بيزنطي فهي لا تخلو من معنى. فكل واحد أصر، وقد تدخلت المجادلة في الأمر، على أن يسند مناظرات ما بعد الحياة هذه بعرض آماله أو مخاوفه إذ أن منهم من شاء أن يرى في ما أتى الرجل وهو في آخر رمق فكرة بقيا المهمة الفرنسية في أفريقيا وأطنب في دعم رأيه، ومنهم من لم يتردد، لأنه كان يقدّر قوانين الدينامية الاجتماعية حق

قدرها، في افتراض أن يقع الحكم، في يوم من الأيام بعد أن تكون فرنسا قد خرجت من أفريقيا مثلما سبق أن خرجت منها روما وبيزنطة الواحدة بعد الأخرى بعد حكم دام ألف سنة تقريبا، بأن وجود قبر لاروقان يعدّ إهانة لبلد سبق أن خنق حرياته وأن رفاته مثلما فعلت التأسيسية برفات ميرابو سيلقى به، من دون أي شك، في مياه البحر مثلما ألقي برفات سيجان، ذات يوم، في أمواج التيبر.

إن المغربي لم يكن في يوم من الأيام فظا، وهو، لأنه ينحدر من قبائل فخورة كانت الضيافة دائما فضيلتها الغالبة، نادرا ما يقابل الموت بعمل تدنيسي. زد على ذلك أنه لن يأتي ذلك في مقبل الأيام. إن القبة الصغيرة البيضاء التي يعلوها صليب وتزينها نقوش لا تينية سيشملها التسامح مثلما شمل الآثار الكبيرة الخرساء التي تتكاثر في المغرب من ليبتيس مانيا إلى فوليبولوس، بل أكثر من ذلك: فمغربي المستقبل الذي يكون قد أحس، على طريقته، بالدروس الأليمة التي عاشها من سبقوه، سيذهب إلى ما هو أبعد من هذا التسامح. إنه سيرى أن من الواجب عليه أن يبني قبالة القبة مسلة صغيرة مقدودة من صوان أفضل صخر من صخور الأطلس لتخليد ذكرى لحظة سيئة في تاريخه وللإشارة إلى الأجيال القادمة، بنقوش سوداء الحروف، إلى مدى العبودية التي أمكن للضلال والضعف أن يقودا إليه. وهكذا فإن نصب لاروقان في مراكش يكون قد أدى، انطلاقا من تأويل فيه قدر من التعسف للتفكير الذي قاد إلى دفنه في مراكش، إلى أمر سليم وإلى استرعاء ضمير مرسوم في التراب وإلى دق ناقوس خطر صامت ومصلصل دائما.

كانت مجموعة إدريس في صراع مع الجيش.

لقد صرف وفد النواب المكلّف بمقابلة السلطان. كان سي تاشفين وممثلو المجموعات الأساسية يتناقشون لتحديد الموقف الذي يجب أن يتخذ عندما ظهر

السلاوي وهو غاية في اللهاث لقد تمكن من الهرب وانتهى، عبر أزقة المدينة، إلى الالتحاق بالمتظاهرين وحدّثهم بما حدث في المشوار. أذهل وصفه ما حدث سي تاشفين ومن كانوا معه، فقد كانوا قد مالوا إلى اللين، وكان عدد منهم يوحي بالتأجيل ويقترح، تجنبا لإراقة دماء لا فائدة منها نوعا من الهدنة. ولكنهم عندما عرفوا بما حدث في المشوار تغلب السخط واستولى على هذه العامة المسالمة جدا في العادة غضب لا حدود له. تعالت من هنا وهناك الاحتجاجات والصراخات والأحكام الصارمة وجلبة مندددة بالتعسف الذي تقدّم عليه، في ظل الحماية، أمثلة عديدة مؤسفة، وتركّزت كل اللعنات على رأس الخائن الذي داس برجليه اسم المغرب إذ قبل أن يضطلع بدور الجلاد وأن لا يحجم عن فظاعة جلد مواطنيه على مرأى من الأجنبي الذي كان هو الذي يصدر الأحكام. وبذلك تحوّل إلى كبش المحرقة وتقرر صرف النظر عن قرار منع الزحف على المندوبية. وقرار مثل هذا يفترض كسر صف العسكر إذ انتصبت حول الرشاشات الرابضة سرية من الفيلق الأجنبي على أهبة الاستعداد.

الفيلق؟ إي! إنه يضاهي الآخر جيدا في كل شيء وخاصة في طابع تركيبته المتميز بالارتزاق وغياب الوازع الأخلاقي. فالفيلق الذي تجند عناصره من بين هؤلاء الذين يمثلون أوباش كل بلدان العالم ولا تعرف لهم أصول ولكنهم أصحاب ملفات عموما ما تكون مثقلة بالأحكام الشائنة، يمثل، فيما وراء مظهري الانتظام والانضباط العسكري، اندماجة تلطّخت بكل عيوب الإنسانية. إنها تتضمن من كل الأجناس من يعتبر عندها السقط والنفاية وحثالة المجتمع. إنه فيلق مغامرين هم من الأشرار أسوؤهم. وهم ما أن يتطوعوا حتى يغفر لهم كل شيء بشرط أن يستخدموا البندقية التي توضع في أيديهم ضد سكان البلدان المفتوحة التي إما يقيمون لهم فيها موقعا أو يجوبون أراضيها على هيئة رتل.

إن على المرء أن يرقى إلى العصور القديمة الرومانية وإلى العصر الوسيط الإيطالي وإلى القرن السابع عشر الألماني، وهي عصور لم يظهر فيها بعد مفهوم الوطن ليخفف من وحشية الغريزة، إن أراد أن يعثر على شيء شبيه. وإن جمهورية حقوق الإنسان لتركح في مشاريعها الاستعمارية إلى هذا الحشد من الضواري.

إن هذا الفيلق خلّف في كل مكان من أفريقيا الشمالية آثارا تعادل آثار السائفين الذين عاثوا فسادا في فرنسا إبان حرب المائة سنة أو في ألمانيا غوستاف-أدولف.

استولى فاسي طويل كان يلبس جلابة ذات لون أزرق بنفسجي على لافتة وتقدم الصفوف محاطا برجال من سواد الشعب. كان الوجه منهم والمشية يدلان على أصلهم الجبلي.

كانوا أناسا من بو إبلان: بني وراين وبني سدان وآيت بوسي ويزغة من المقيمين في فاس بعد أن بادلوا المحراث بالمتجر والآلة. وكان فريق من الجبليين الذين لبسوا الجلابات القصيرة وانحسرت منهم الرؤوس يتقدمون الصف نفسه. كان في مقدمتهم إدريس والأسمر وطلبة الجامعة، وقريبا منهم سي تاشفين والسلاوي، بعينه اليسرى المعصوبة، الذي تخلى عن الطربوش ليلبس رازا. لم يكن في الإمكان تجنب الاصطدام فلقد كان من البيّن أن الفرنسيين تهيئوا لاستعمال السلاح. وقد شرع قسم من الفيلقيين الذي كان يكوّن لسانا متقدما وسط المتظاهرين ويقوده مساعد عجوز من المرجح أن شارته الأولى ترقى إلى الحملة على مدغشقر، في ردّ عدد من المراكشيين المصرّين على التقدّم إلى الخلف مستخدما قنادق البندقيات. ومن خلفه كانت بقية أفراد السرية قد اتخذت هيئة رمي في حين كان رشاشان منتصبان في زاويتين يوجّهان مدفعهما على الجمهور.

كان الضباط يحملون مسدساتهم ولم تكن توجد خيالة إذ لم يكن الصَباحُية موضع ثقة تامة. تكاثرت ضربات القنادق وأصبحت أدقّ توجيها وكان عدد من الجنود يستخدمون حرابهم في الهجوم على المتظاهرين بمثل البساطة التي يمكن تصورها لو تعلّق بتمثال تدريب.

وكان من الصعب جدا على المرء أن يتمالك نفسه فالضربات والشتائم لم تكن لتساعد ولو قليلا في تهدئة الغليان الذي كان يزيد من حدّته إلى حدّ ما قيظ مستمر. كان سي تاشفين يبذل ما وسعه من جهد، يمينا وشمالا اجتهادا منه في اتقاء الاصطدام مهما كلف الأمر. وفي لحظة ما ارتمى فيلقي ذو سحنة ضبعية، وكان فظا جسيما قصيرا سمينا، ونموذجا لهذا الفرنسي من جنوب اللوار الذي تعلن نظرته الجامحة ويداه الموشّمتان عن بعض قدماء المحكومين بالمؤبد سرّح من السجن، على فاسي وأطاح به بضربة عنيفة من قندق البندقية على الرأس ثم حاول، وهو يقلب السلاح، أن يشكه بحربته. وكان آخر، وهو ذو شدق بلقاني وشعر صدئي اللون، يضري في ضرب طفل صاحب المظاهرة ويتلذّذ بدوسه بحذائه العسكري. وبعيدا قليلا عن الإثنين كان نذلان متدليا الشاربين يطرقان رأس ريفي دامية وهو متعلق بعنق أحدهما.

اندفع القسم، وقد شجّعه هذا الهرج والمرج وسط قلب صف المتظاهرين الذي شكل في تراجعه مربعا في مواجهة العسكر. وحدث تشابك تعرضت فيه القبعات العسكرية والبوشمرير التي غرقت في أمواج الجمهور الهائجة، في الحال للهجوم. ففي اللحظة التي كان فيها الريفي يتخبط بين الفيلقيين كان الأسمر الذي قلع جزءا من بلاط زقاق ملاصق للقيصرية قد هرع هو وجبليين آخرين لمساعدة الجبلي وقد قببت ذيل جلابته كومة من الحجار.

لقد اشتهر الجبلي، قديما، بأنه، وإن كان راميا جيدا، أفضل مقلاعي في الكتائب القرطاجنية. ولقد كان غالبا، إن عدم المقلاع، يستخدم قطعا من الصخر بمهارة تعادل مهارة رامي القرص في الجيش المضاد. لقد كان حنبعل يثني على هذه الخصلة فيه. وهو، عندما يستنفد آخر خرطوشة وتمنعه عقبات من استخدام الخنجر، وهذا هو سلاحه المفضل في الهجوم، يمكن أن يصبح خطيرا، بوجه خاص، إن استخدم الحجارة في هجماته. وما أكثر المدفعيين والرشاشين أو حتى المشاة اللائذين بالمتاريس الذين جربوه ودفعوا حياتهم ثمنا لذلك. ولذلك فإن جيليي المظاهرة عندما رأوا الفيلقيين يستعملون القنادق والحراب وأن عددا من أقاربهم بدؤوا يسقطون أرضا، لم يجدوا بدا، وقد أعوزتهم الأسلحة من استخدام الحجارة. ولقد استخدموها على أنجع وجه.

رمى الأسمر الذي تصدى للفيلق مثلما تصدى سابقا للترسيو بكل قواه، وقد مد جذعه الأمامي وسحب ساعده إلى الخلف وأمال رأسه شْوَيّة إلى الكتف اليمنى راسما بذلك صورة دقيقة لرامي الصحن مثلما يبدو في نقيشة أثر قديم يبرز الملامح ذاتها والنظرة ذاتها، فيلقيّا يبعد عنه عشرة أمتار بحجر فانهار على الأرض وقد تهشم صدغه. تراجع القسم وقد فاجأه هذا الجرف وغطت السماء رشقات حجارة، وسقط فيلقي آخر تدحرجت بندقيته على الأرض فاستحوذ عليها إدريس.

لقد استعاد ابن ذئب الجبل تفوّقه على الطالب الذي تشكّل في ظل الأخلاق الفاسية، واستولى، عند سماع إطلاق النار وبروز الخطر، غريزيا وبتأثير اجتماع ارتكاسات وراثية أقوى مما هو معتاد، على السلاح من يدي الجندي العدوّ. احتمى وراء جدار وجثا على الأرض وصوّب البندقية إلى المساعد العجوز وعبرت، نتيجة تداع للأفكار غريب، صورة الفاريز الإسباني الذي قتل قبل سنوات مثلما يعبر ظل طيف شمسي، قمحة السلاح ولكنه رأى في اللحظة التي كان يهم فيها بالضغط على

لسين القفل سي تاشفين واقفا على نوع من البناء الصغير وهو يلوّح برازته ويجتهد، صارخا مشورا، في تهدئة حماسة المتظاهرين الذين كانوا قد شقوا صف الجنود وتقدموا نحو الرشاشين. أشار سي تاشفين الذي اشتبه في الفخ الذي ستتعثر فيه المظاهرة إن أسلمت للعنف قيادها، أشار إلى إدريس بأن يلقي ببندقيته وبضبط الجبليين الذين كانوا يتأهبون، هم بدورهم، لدق البوشمرير... وفي الجهة المقابلة خفضت البنادق استعدادا للرمي، ودوّت أوامر موجزة، مزقت فرقعات الهواء ولفت نيران صلية متواترة الجو بهزيم رعد. كان الرشاشان يطقطقان مضيفين إلى الجوقة الجهنمية هزيز طلقاتهما المخيف وتلون الهواء المشبع دخانا المثقل سخونة بلوين مصفر زاده بهت أشعة الشمس تكثفا. وسرعان ما اختلط بهذا الصوت أنين المحتضرين والجرحى. كان نطاق المتظاهرين يتفرج بسرعة وكان عشرات من المراكشيين الذين حصدتهم النار منتثرين على الأرض كان الدم يسيل. وكان الفيلق المجيد الذي انتظمت صفوفه، ما كان منها جاثيا وما كان منها واقفا، انتظاما مثاليا، يطلق النار من جديد تطبيقا للأوامر وكأنه كان في ميدان تدريب. فيا لها من لوحة رائعة تليق بلامْبير البطولة الرخيصة!

لم يفقد سي تاشفين، على الرغم من رشق النار والموتى والخطر، شيئا من هدوئه. كان، على هزاله وكهوب وجهه والتهاب النظر في وجه تقبضت قسماته وعلى حركته الدائمة، لا يكف عن الانتقال من مكان إلى آخر وعن تعريض نفسه للضربات متضرعا إلى المتظاهرين أن يرتدوا إلى الوراء، مجابها حشد الجند المذعور الذي كان يطلق النار من دون توقف، صارخا مناشدا متوسلا. إنه في وسع المرء، وهو يراه على هذه الصورة، أن يتحدث عن انتصار ساموتراس وهو يثني جناحيه الحاميين على مشهد مقتلة.

انطلق، من جهة المراكشيين، طلق لقد كان هو الطلق الوحيد: إنه إدريس الذي

أطلق النار من البندقية التي التقطها عندما صرع الأسمر الفيلقي. ولقد اكتشف وهو يعالج مؤخرة البندقية ليحشوها ثانية، أن مخزنها فارغ لأن الفيلقي نسي، على الأرجح، أن يدخل فيها الملقم.

رأى ادريس، عندما نهض من ملجئه ليهرع لنجدة الجرحى الذين كانوا ممددين على البلاط، سي تاشفين الذي كان يحاول أن يهدئ المتظاهرين المشتتين في واجهة الجند. لقد أعجب بشجاعته. وفعلا فإن نشاطا مثل هذا حريّ بأن يفتن النفوس الأقل ميلا إلى إضمار الإجلال لمن تميزوا بنكران الذات.

كان موتى ومحتضرين وجرحى على اليمين وعلى الشمال، وكان حولهم أصحاب عاهدوا أنفسهم، على الرغم من النار الكثيفة التي كانت تبيدهم، على ألا يتركوا الصديق المصاب على عين المكان. إن مثل هذا السلوك ناجم عن تقليد قديم. إنه لا يجب، البتة، إلا عند خرق مبدأ ملتصق برصيد المعتقدات الشعبية، ترك رفيق نضال من دون إغاثة ولو استوجب ذلك طلبه في بؤرة النار. والتنصل من هذا الواجب إنما يعني الانحطاط إلى مستوى الوغدان. إن التضحية تطابق، هنا، الكرامة وضربا من الشجاعة الأخلاقية التي لا يبت في أمرها غير الضمير. ولا بد، بعد الصديق المغاث، سواء أكان ميتا أم حيا، من العود بسرج الجواد الصريع حتى لا يمكّن انتصار عدوّ من وسيلة تجمّل. وفي هذا إبداء غير مباشر لشعور بالتقدير إزاء فرس القتال الأمين الذي لم يعد عجزه عن مواصلة الكفاح يسمح، وقد بلغ المعترك أشده، بإنقاذه من الموت أو الاغتنام. إن هذه العادة التي وقع توارثها عبر القرون، من جيل إلى جيل ومن الآباء إلى الأبناء، رسخت، بمر الزمان، في الشعور الوطني، وهي، من ناحية أخرى، تلائم جيدا جملة الخصال التي تمثل نواة إرث الأجداد.

***

جرى إدريس الذي أذهله شيئا ما المشهد الفظيع الذي كان يدور أمامه الى سي تاشفين وقد رأى شبحه يبرز فوق ستار الدخان. كان إطلاق النار متتابعا. ألقى نظرة متفحصة حواليه فرأى الأسمر وجبليين أو ثلاثة وعددا من الفاسيين يجرون وراءه من دون هدف. واعتقد أنه لمح، على اليسار في مكان أبعد وسط فريق يدوم تدويما، السلاوي وقد عرفه من عصابة عينه. كان واحد من المتظاهرين يطلق، من وقت إلى آخر، صرخة ثم يسقط أرضا. وكان سي تاشفين، دائما، واقفا. كان يواصل صراخه وقدحه متوجها، بالتناوب، إلى أهله وإلى الفرنسيين كما لو كان يعتقد أنه في مقدوره أن يبث في أي كان رغبته في التهدئة. ولكن واحسرتاه! إنه لم يكن يملك، في ساعة الجنون تلك، شيئا من صفات القطب المغناطيسي! إذ لا أمل، يقينا، في حل مرضي بين المراكشيين العزل والفرنسيين الذين كانوا يطلقون النار. فالقضية مفروغ منها.

وكان، على مسافة بعيدة جدا وفي مؤخر المشهد المؤلم الجنرال نوار غاليفي الذي وقف وسط مجموعة من الضباط المتطاوسين في مشية زادها تبجّحا أنه لم يكن شيء يتهددهم، يتبدى في هيئة خيال يظهره في مظهر هزأة ازدراها بوليب.

حاول إدريس أن يقترب من سي تاشفين وأن يتلقّى أوامره ولكن النار كانت تتواصل في ازدياد مطرد. وكان الأمر يتعلق، قبل كل شيء، بتجنب مسار رصاصة قاتلة.

كانت اللحظة خطيرة. فلقد كان يمكن في كل لحظة أن تذهب زلة قدم أو حركة غير حذرة أو نسيان بحياة ثرية بأفضل الوعود الى الأبد. كان الواحد يقفز ويركض وينبطح لينطلق من جديد ومن دون أن يعرف، بالضبط، في أي اتجاه يسير لشدة ما

فاجأ به إطلاق النار الجميع.

وصل إدريس أخيرا قريبا من ثنية الأرض التي كان سي تاشفين فوقها يتحرك عندما هزت، من جديد، صلية أكثر كثافة مما سبقها الهواء. كان الرشاشان اللذان توجههما طلقات البنادق يطولان قذفهما زارعين، هذه المرة، الهلع والرعب. وخرّت ضحايا جديدة صريعة. وأحس إدريس في الدقيقة التي همّ فيها بالانحناء على سي تاشفين كما لو كان يطلب سماعا أفضل، بألم حاد في جنبه الأيسر. لقد أصابته رصاصة. طنّ صدغاه وجرى سائل فاتر لزج على طول جسده. ورأى سي تاشفين يكب عليه في حين كان الأسمر يمسكه من وسط الجسم. تتالت بعض الأشباح أمام عينيه اللتين انغلقتا على رؤيا من الرعب والجزع. قلّص فواق يستحيل كبحه حنجرته ثم تراخى، ببطء، وقد أحس فجأة بقواه تخور في حضن صديقه...

كان إدريس، عندما استعاد وعيه، ممدّدا على بساط ملفوفا في أقمشة صوفية ورأسه تستريح على وسادة زين وجهها بعيون طاووس. وكان يحيط به أصدقاء يهمسون في صوت خفيض فألقى نظرة طويلة دائرية حوله وتعرف، فورا، على منزل سي عبد الجبار. وفي الجانب الآخر من الجدار كان شخص آخر نائما على فراش مغطى بسجادة صغيرة وبمخاد من الجلد وقد أحاطت برأسه وعينه الضمادات. لقد كان هو السلاوي. فلقد أصابته رصاصة في الفخذ ولكن الجرح لم يكن يبدو خطيرا إذ لا العظم ولا الشريان أصيبا. كانت بقع دم تلطخ أغطية السرير. وكان مولاي عبد الجبار متربعا على الطريقة الشرقية قريبا من رأس إدريس وأمامه سي تاشفين والأسمر. وقد جلس طالبان وعدد من الجبليين الذين انتشلوه من مكان المعترك في زاوية الغرفة وقد اسودت منهم الوجوه وشحبت الملامح. كان الدم يصبغ جلاباتهم باللون الأحمر.

كانت إصابة إدريس قاتلة. لقد أغمي عليه لنزف حدث. ولم يكن الوقت الذي اقتضاه نقله إلى المنزل عبر ألف صعوبة الا ليزيد من أوجاعه. فلا طبيب إذ كان على القوم أن يحافظوا محافظة تامة على سرية المخبأ. والعجوز مولاي سي عبد الجبار إنما خاطر مخاطرة بينة عندما رضي باستضافته. ولم يكن منزهه يؤوي جريحين فقط وإنما، أيضا، واحدا من "المحرضين" وجبليين جرّمهم مجلس الحرب، هذه المرة، من دون تردد لاجئا إلى واحد من تلك القرارات العجولة التي هي من نصيب البلدان التي لا يحس الاستعمار فيها بما يقرب من الاطمئنان إلا في ظل سيف مسلول باستمرار.

استنجد أحدهم لعلاج إدريس والسلاوي بأنوار طبيب من زمن سيدي محمد بن عبد الرحمان يتمثل تطبيبه، وهو نوع من الترياق لجميع الأمراض، في تبليع المريض ملء عدة ملاعق من الزبدة المذابة وتطهير الجراح بواسطة دواء منفط مكون من فضالة زواحف وحشرات شويت وسحقت وغطست في سائل ضارب إلى السواد. لا شك في أن الطبيب الدجّال قد عد في مصيده منذ الوقت الذي شرع فيه في ممارسة مهنته النبيلة عددا لا يستهان به من الضحايا المساكين. وعلى الرغم من ذلك فهو لم يعرف، في بلد نسجت فيه الجهالة خيوطها بقذارة، بأنه كان هامة مفزعة بل إن الجميع، على العكس من ذلك، كانوا يؤمنون بمحاسن علمه الشفائي العلاجية التي لا تقهر.

كان مولاي عبد الجبار وهو نموذج قديم من عالم منهار، هو الذي بعث في طلبه ضامنا نجاعة علاجه فلقد كان يكن له احتراما لا حدود له. ولكن ما أن هم الطبيب بالجلوس على البساط في وقار وأبهة أضفتهما عليه جدارة تعتقد، جديا، أنها غير قابلة للقدح فيها حتى أمسكه سي تاشفين، الذي قفز من مقربة من سرير المريض، من كتفيه ودفعه نحو الباب وهو يحتدم غيظا. كان المسلك الذي سلك سي تاشفين غريبا. وهذا أقل ما يقال فيه. وفعلا فإنه كان مخالفا للمألوف خاصة إذا

تعلق الأمر بعجوز كانت لحية بيضاء ترزن شْوَيّة امتلاء ذاتيا في طور الزوال. ومع ذلك فإن هذا الموقف لم يكن من الرجل بقدر ما كان من الماضي البغيض الذي كانت تمثله شعوذته والذي انصب عليه عنف الفقيه الفاسي العابر. لقد كان يعده، بحق، مسؤولا عن الوضع الذي كان هو وأصدقاؤه فيه. وكان، في حقيقة الأمر، على شيء من الصواب. ذلك أن الحالة الحزينة التي كان المغرب يشرف على الوقوع فيها إنما ترد الى خطأ ارتكبته جهالة على هذا القدر من البلادة. إنها هي سبب نضوب منابع نشاط الجنس الفكرية. وهي التي انتهت إلى تبديد كنز البلد المعنوي وإيقاف نمو قدرته الإخصابية بتهيئته لنوع من الزهادة التي تكاد لا تطابق في شيء مدى نبوغه.

سقط من يد العجوز الذي تعثر بعتبة الغرفة أنبوب قصبي كانت تسده قطعة فلين فانفتح وهو يسقط أرضا وتفلتت من داخله، في أزيز متوحد، مجموعة كاملة من الجعلان والجعران والجنادب اصطيدت في ذات الصباح في أحد مروج فاس. وانبعثت من مسحوق مصفر كانت تلك الحشرات تنقع فيه حية رائحة نعنع بري خالطها ظل من رائحة الصعتر البري والحلبة.

كان يمكن لهاوي حضارات قديمة أن يتبين في هذا التعايش الغريب عددا من المعارف في علم النبات والحشريات لم يقع تمثلها على الوجه المرضي والتي كانت تمثل في الزمن الذي كان فيه ابن سينا ساطع النجم في سماء بغداد العباسية، رصيد مكتسبات العصر العلاجية. ولكن سي تاشفين لم يكن من ذوي الأفكار المسبقة. كانت وطنيته من طينة أخرى. ولقد كان على قدر كاف من وعي ذاته مكنه من تجنب الوقوع انذهالا إزاء ما لا جدوى منه. إن التاريخ الذي تعلم على قراط الشموع المدخن والزيت الرديء لا يقتصر على الإعجاب بأشياء عيشت وعفاها الزمن وماتت تقريبا ولكن، ومثلما كان يعلن ذلك دائما وبصوت عال، يقتضي إخضاع المجموع لنقد واضح قاس. فهو لم يكن يضمر لمجموعات منتخبات العصر

الوسيط غير استخفاف كلي. وهو لم يتردد البتة في تحميل أغلبية الكتاب المسلمين مسؤولية الانحطاط الذي أصاب الإسلام والمغرب تبعا لذلك وبالقدر ذاته يحمل استبداد الخلفاء وتزمت الاكليروس المنفعي غالبامسؤولية ذلك.

لقد كانت قدوته هي ابن خلدون. وباستثناء مزاجه العاصي المتذمر دوما كان يتشبه به في كل شيء. وإذ كان سيد فلسفة التاريخ ابنا للمغرب فقد عثر فيه سي تاشفين على المعلم الأمثل للمّ شتات الجزء الحي في الشبيبة المغربية حول تعليمه. لقد كان من المشكوك فيه أن يتمكن مطبب جاهل من أن يوحي شيئا آخر غير الازدراء إلى مزاج ارتوى من عين مثل تلك.

عندما بدأت مغمدات الأجنحة التي انفلتت من القصبة تطن عبر الغرفة ارتسمت علامة وجوم واضحة على ملامح مولاي عبد الجبار. لقد أصيب بالبهت واعتقد أن في الأمر نذير سوء طالع وبطلان سحر وابطال فعل رقية. هو لم ير، وقد تشبع دربة على الأساطير، في مسلك سي تاشفين غير إقرار بعقاب سماوي سلط على شبيبة ملحدة. ذلك أن احترام الخرافات والإيمان بالدجل والخضوع الأعمى للخداعي والغامض كل ذلك تقدم، في هذه الرأس المريضة المنهكة على الرغم من بدانة الجسم والخدين الموردين، على الشعور المعقلن والفطرة السليمة. ولكن مولاي عبد الجبار لم يجرؤ على الكلام فذهب ليجلس، في هدوء، وراء الأسمر.

ارتفق السلاوي وكان يتأمل، بالعين الوحيدة الطليقة، الحيوانات المجنّحة التي خلّفها الطبيب والتي كانت تملأ الجو بموسيقاها الصارة:

— "لقد تبخّرت الطلاسم وتبخرت معها بقايا علمنا المسكين. وإن شاء الله يكون ذلك آخر الجن الذين ما زالوا يصفدون سذاجه آبائنا والذين أوصلونا إلى ما نحن

فيه اليوم."

ثم انه ردّ النظر، في فضول، إلى إدريس الذي بدأ يغشّي وجهه شُحوب الموت. لقد كان حزينا، وكان، هو بدوره، يبدو متألما. لا من جراحه ولا من المشاهد التي شهد ولكن من حالة صديقه.

كان يعرف مثلما يعرف الآخرون، أن دقائق ابن الحاج علال معدودات وأن الصاحب الحنون الذي ارتبط به منذ سنين أصيب بطلقة لن يبلّ منها. لقد وحّدتهما منذ سن المراهقة روابط المحبة ورابطة الإيمان بأنبل مثل أعلى يمكن للشباب، زمن الأحلام الكبيرة، أن يصوغ. وها أن رصاصة تافهة يتلقاها المرء في مظاهرة، اتفاقا، تكفي لحشّ حياة كانت تبشر بكل خير.

كانت نظرة إدريس محمومة وقسمات الوجه مضطربة. وكان خداه قد وسمهما ذلك الضرب من ألوان الشمع الذي يشيع، قبل سكرة الموت، في وجوه المحتضرين وميضا عابرا سرعان ما تطفئه الموت. وكانت جبهته، تماما مثل آخر انعكاس لشمس غاربة، ما زالت تعبّر عن ذلك الألق من الجمال الجسدي الذي يشبّهه أرباب الفن بهّبه سنفونية إلهية تاسعة. طلب أن يجلس. ولكن كل حركة كانت تنتزع منه صرخة ألم. كان خيط دموي يتجلّط في ملتقى الشفتين. وضعت مخاد تحت ظهره في حين كان مولاي سي عبد الجبّار يحاول، وقد جرت دمعتان كبيرتان على خدي الشيخ الجليل، أن يبقيه على قفاه. كان ملك الموت يحوم فوق الغرفة وكان صمت جنائزي ينشر أهواله في مداخل البيت وكان الحاضرون يرتّلون، بصوت خفيض، سورة ياسين التي تعادل، عند المسلمين، المناولة الكبرى والإعلان عن نهاية حياة جاهزة لإجابة دعوة ربّها. لقد كان إدريس هو الذي قطع الصمت. تمددت أجفانه مسفرة عن عينين كبيرتين كستنائيتين محاطتين بأهداب طويلة كان اقتراب النهاية ينوّرهما برقة

ملائكية ووجّه الكلام إلى سي تاشفين وقال له:

— "لقد أعجبتني، حقا، أثناء التراشق بالرصاص. إنني أغبطك على رباطة الجأش. إن قوة وراثية أثّرت فيّ. وبدل أن أذعن لما كنت توجّهه إلينا من إشارات، ارتأيت أن أواجه العنف بالعنف. إن هذا لهو الخطل. بندقية ورصاصة لمواجهة مفرزة فيلقين مسلحين بالبنادق والقنابل والرشاشات ويقف وراءهم المائة والخمسون ألفا من جنود الاحتلال بطائراتهم ودبّاباتهم وكل زلزال الأرض: إن النتيجة، حقا، ليست في مستوى الهدف المنشود. إذ لابد من تقرير ذلك هنا...

— "ولكم ماذا تريد يا صديقي العزيز، إننا جيش التضحية. لقد حبلت بنا أمهاتنا في زمن عجيب حقا. فنحن لو جئنا هذا العالم قبل خمسين عاما مزوّدين، طبعا، بما في رؤوسنا اليوم، لكنّا، أكيدا، مددنا مولاي الحسن بمجموعة المعاونين الذين كانوا ينقصونه لمساعدته في مشروعه الهادف إلى الإنقاذ الوطني. ولكن الأمر في الواقع لا يتحدّد على هذا النحو من الحسم. فكل شيء ينجم عن تطوّر تحدّده أسباب قاهرة. ونحن ربما كان يمكن أن يكون في مقدورنا، لو ألزمنا بمهمة مماثلة وفي لحظة ملائمة، أن نتجنب الكارثة. لقد ولدنا بعد زهاء خمسين عاما. وكان يمكن، أيضا، ولا يجب الشك في ذلك، أن نجد أمامنا ميدانا هيئ بشكل أفضل لتقبّل بِذَارنا. كان يمكن للوسط أن يكون أكثر تأهلا ومن ثم أكثر تأييدا للنشاط الذي نبتغي لمصلحة وطننا، كان في الإمكان أن نكون أفضل تسلّحا لمجابهة المسألة الخطرة التي يطرحها مبدأ تحررنا.

"ولكن الآلهة، وكما كان يقول حكيم المدينة، قرّرت غير ذلك. لقد اختار وسيط الوحي طرقا أخرى. إن إسرار القدر مغلقة، وليس للإنسان أن يطالب بحق لوضعه إلا إذا أثبت قدرته على ممارسته. إن لغز التاريخ، وأنا عارف بذلك، إنما يكمن هناك.

"ومن ناحية أخرى: لقد علمتماني ذلك بما فيه الكفاية، سي عبد الرحمان وأنت. ان علينا أن نمرّ عبر هذه الطريق المزروعة أخاديد حتى يعيش البلد وحتى يمكن ذات يوم لأولئك الذين يأتون بعدنا أن يجدوا أمامهم أرضا حرّة. نعم، إنه لابد من المرور من هناك. إننا، ونحن منهزمون، نرفض الركوع. إننا، ونحن قد وضعنا أمام اختيار واحد من بديلين إما القبول، في خضوع وردّة، بوجود قوامه السلام البهيمي وإما أن نجابه ضروب العنف التي في إمكان نظام قائم على سياسة الدسيسة أن يتصورها اخترنا البديل الثاني. إن الحياة ليست إلا صراعا أبديا وقوانينها محتومة. إننا لن نرتد إلى الوراء. إننا، بهذه الطريقة، لن نفرط في الرسالة الثقيلة التي نتحمل إزاء ضمائرنا. وإن هذا لأفضل من القبول بحبل الحرير الذي يراد لنا أن نضع على الرقاب والوضم المصقول الذي تنتظرنا عليه ضربة المقصل أي الموت أي، بكلمة واحدة، الموت التي يعرض علينا في كأس من المعدن الخسيس.

"لقد رويت لكم مرات عديدة ما دار من نقاش بيني وبين الأب توركواتو، هذا القس الإسباني الذي عرفت في تطوان وكان يخبئ تحت إسكيمه، قلبا إنسانيا انفك عن كل هوى، حتى عن هذا الذي كان يدعي، من وراء حجاب النفاق، الترفع عن كل مصلحة. لقد كان يحدثني هذا الإنسان الإلهي ذو السخرية الرفيعة المتبسمة، عن مشاهد من رواية الإنجيل لآلام المسيح لم أتمكن، حينذاك من فهمها. وكان لابد من كل علم سي عبد الرحمان الذي تمكنت في مدرسته من التدرب على فك ألغاز الرومانسية الأدبية، حتى أتعلّم كيف أعرّي السرّ المسيحي من جزء من حجابه. وقد يكون في هذا سبب نفور عقل الأفارقة السليم المولع بالبساطة والصدق البريء من المسيحية على ما كانت عليه مقاصدها الأولى من نبل.

"كان الأب يحدثني عن جبل الزيتون وعن حديقة غيتشيماني وعن الطريق الأليمة وعن غولغوتا. كان يحدثني، بطبيعة الحال، بوصفه مؤرخا لا بوصفه مبشّرا تصفده غلول

إدارات رهبانية تشيد بالتبشير وتغفر، باسم الرأي المسبق أشنع الفظائع الناتجة عن الغزو الاستعماري. لقد كان يبلغني كلمة سينيك التي كان يفضلها على كلمة سيسنيروس. كانت أسماء مثل هذه تسترعي انتباهي. وفيما بعد تمكّنت بفضل شروح سي عبد الرحمان من الربط بين ما تقوم عليه عند قراءة حياة المسيح لرينان. إنني، إذا نقلت الأحداث إلى إطار آخر هو ما نقاسي اليوم من شقاء في سبيل بلدنا والذي هو، أيضا، رسالة تبشير مخصوصة، أدرك جيدا، تعاقب الأوجاع والآلام التي كانت تتمخّض في خطبة الجبل قبل أن نسلك، بدورنا، نحن أبناء أفريقيا الشمالية الطريق المؤلمة التي قادت، قديما، إله المسيحيين إلى جَبَلِ الجُلْجُلَة. وإذا كانت المقارنة ليست دائما صوابا فإن تطابق هذه الملاحظات كان لابد له من أن يجلب انتباهي. إن المغرب، اليوم، وطن مصلوب.

"إنني في اليوم الذي عرضنا فيه للمرّة الأولى في حياة أفريقيا الشمالية تارتوف لموليير على المسرح الفاسي تحدّثت في ذلك إلى سي الونوغي وإليك أنت..."

أومأ سي تاشفين برأسه مصدقا على كلامه في حين جرت من عينيه دموع تحسّر.

"...ومع ذلك، واصل إدريس، فإنني أودّ، حقا، لو امتدّ بي العمر. إن البلاد في حاجة إلينا. وعيوننا لم تتفتّح إلا منذ قليل على شمس العمل. وإنها البَهْجَةُ أن يواصل الإنسان الحياة وسط المخاطر إذا كان ضميرنا، في هذا الشأن، موافقا لتفكيرنا ولكن..."

لم يتم جملته وقطرت قطرتان أسفل عينيه. لقد أصبح وجهه منزوفا. كان مولاي عبد الجبّار والجبليون يبكون. واقترب السلاوي، زاحفا بتؤدة على البساط، من كدس اللُّحَفِ والمِخاد التي تمدّد فوقها صديقه. كان يحدق فيه بعينه الوحيدة وكان خداه

اللذان جوّفهما، هما أيضا، الألم، يعبران عن الكرب الذي يعصف بصدره في حركة كانت تنتهي، مناوبة، إما بالتنهّد أو النحيب. تناول يد المحتضر وقبّلها. ورفّ الصمت من جديد على البيت. كانت الشفاه تواصل تمتمة سورة هؤلاء الذين تحرّرهم فكرة اقتراب الموت، أخيرا، من الهموم على الأرض والذين يتهيؤون للمثول أمام الخالق. وتدفق سيل مضطرب من الذكرى والتذكر المبهم في مخيّلة المحتضر فاستذكر التيزران والدشرة العائلية وأباه وأيام صباه الأولى ورغباته وحبّه الدراسة وفاس والقرويين وكتبه وصداقاته وخطواته الأولى في طريق الوطنية والنقاشات بينه وبين زملاء الدراسة وسي عبد الرحمان وسي تاشفين وتأملاته. وها هو، وهو على عتبة الحياة وعندما بدأ يهيء نفسه، وقد امتلأت رأسه بالمعارف التي لا غنى عنها، للنزول إلى الميدان والى متابعة الطريق التي اختار وإلى إشباع رغبته الشديدة في العمل، يصاب أثناء مظاهرة كان عليه فيها أن يلمس، للمرة الأولى، بيده الجور الذي يكبل المغرب متخفّيا وراء مظاهر حضارية مزيّفة ذات اتجاه واحد، بالرصاصة التي إذا كانت قد أخطأته عندما كان يجابه الإسبان في الفندق فهي تصيبه إصابة قاتلة، هذه المرة، وسط أنهج فاس الهادئة.

لقد جاء إلى هذا العالم مثلما قال إما شيئا ما قبل الأوان وإما متأخرا قليلا. وكان في عداد زمرة المضحّى بهم. هذه التضحية التي لن تؤتي ثمارها إلا في الأجيال القادمة باعتبارها ثمنا تولّد عن أخطاء الأجيال السابقة.

لم يتمكن، وهو المسلم الصادق الذي تربطه بعقيدة آبائه عرى راسخة، من الامتناع، وهو على عتبة الموت، من استحضار الصورة التي رسمها له الأب توركواتو، ذات يوم، في غيضات تطوان البيضاء المزروعة برتقالا ذا روائح مدوّخة، عن تعذيب المسيح وموته: جبل الزيتون وحديقة غيتشيماني وطريق الآلام التي تتخطى وادي يوسفيت والتلّ الصغير في مقابل أسوار الهيكل حيث كان يتماحك كهنة إسرائيل

الشاهد على حدث سيجعل من راع متواضع في الناصرة لم يخف أمام الموت، إشباعا لتعطشه إلى العدالة، شهيدا ونبيا وفاديا ضفته أعين شيعته كل أفضال الفتنة الإلهية.

إن رواية الإنسانية المجيدة، هذه التي أسست عليها شرائع الكنيسة، فيما بعد، قاعدة دين وهدف رسالة، يمكنها بالمستوى نفسه، في كل مكان وفي كل زمان أن تكون المثال المحتذى في عمل ذي أشكال متشابهة تقريبا. وهكذا كان إدريس يقارن، بتأثير من التقاء أفكار ومن تسلسل ذكريات بعثها تفكير شرد عبر مناطق الشعور الباطن وفي ما يشبه الهذيان مصائب المغرب وتضحيته الخاصة بصورة إن كان يهوذا مسرحا لها، فهي تنطبق، تماما، على الأحداث في إفريقيا مثلما تنطبق على أحداث أخرى خارج إفريقيا وذلك بعد ألفي سنة من لعنة هيرودس وخديعة بونس بيلاتوس وخيانة حايف وصعود غلغوته/الجلجلة؟

***

هزّ المحتضرَ انتفاضٌ. وتزايد تقلصه بمقدار ما كان خداه يتحوّلان من الشحوب إلى لون أكثر شمعية وبقدر ما استغرقت عينيه اللتين انقلبتا في محجريهما هذه الرؤية المرعبة التي هي آخر انطباع يحدثه الموت في النازع منذ بدء اتصاله بما وراء الحياة.

وجاءت الحشرجة أخيرا لتعلن عن نهاية سكرة الموت: نهايات وبدايات ونهايات. إن هذه لهي ماهية الإنسان الخالدة إذ هو يولد ويموت ويتعفّن ليعود إلى الحياة من جديد. وهي موضوع جدل شائك معقّد بين الروح التي تواجه الجسد والفكرة المادة والأطروحة النقيضة، جدل بين النور الذي يواجه الظلمة والحياة الموت. وهي قضية تتجدد، على الدوام، في أشكال وألوان مختلفة وسط اللانهاية

الشاسعة ذات الحدود التي لا تقدّر والتي فيها يلوّح الإنسان، هذا الذرة الضائعة في المحيط الروحاني، بعدمه مجابها الروح العبقرية التي خلقته وترهقه والتي عليها، مع ذلك، أن تحسب له، دائما، حسابه.

فتح إدريس، فجأة، عينيه ورأى بين يديه الأسمر الذي كان، وفي اليد سبحة، يرتّل بهدوء آيات ياسين. كانت لحية سوداء تحوط بوجه صديق الطفولة المبرنز. وقد تذكر عينيه واستحضر تسلسل الذكريات التي سبق، قبل عدة دقائق، أن ذكرته بمحاورة الأب توركواتو، فتذكّر، هذه المرّة، قرية الولادة المخبأة في أرز تيزران. لقد خرجنا من أحشاء الأرض وإنا إليها لراجعون.

هذه القعطة الصغيرة من الأرض التي وُلد فيها والتي أضاءت فيها بسمة أمٍّ وجه طفلها الصغير وهو يرى نور الحياة، إنه ليستذكرها في اللحظة التي كان فيها يسلم الروح. السلام الأسمى على الأرض والدم. وهذه التحية يردّدها، تذكرا، بإجلال وحب مثل التَّمِّ الذي يرسل في الطبيعة، محييا قبل أن يموت، آخر صوت في الحنجرة وأروعه. وفي الدقيقة التي لاقت فيها عيناه عيني الأسمر ورأى يديه تسبّحان في حين كانت تصدر عن شفتيه أصوات مبهمة ظنها طريقة في الحساب، ظهر بين يديه شبح سي عبد السلام وهو ينبثق من أعماق الماضي متدثّرا بثوب أبيض، باسما شبيها برسول الرحمة. وَلَبَسَ خليط من الفرحة والرهبة قسمات المحتضر. وخيل إليه أنه يتبيّن في طرف يد رفيقه الرحيمةَ وشفتيه المهتاجتين مُحْيِيًا بذلك مشهدا من المْسِيد القديم كان جريان السنين قد أقصاه في ركن من أركان الذاكرة. وفكّر في نوع من الامتحان الإعدادي قبل المثول أمام المنصف.

كانت آيات ياسين تتحول أرقاما كما لو كانت تحصي الثواني الأخيرة. أربع! ثلاث! اثنتان! واحدة! وهذه المرّة لم يكن الأسمر يغشّ في اللعب. فعيناه اللتان غشّاهما

البكاء ووجهه المنهك والنحيب الذي كان يهزّ صدره، كل ذلك كان، حقًّا، يدلّ على ما كان يعيش من انفعال.

هزّت رجفة النازع وجرى تنمّل مزعج على أخمص القدمين اللذين جمّدهما الموت وأحس بهذه الحِكَّة الشبيهة بما يحدثه سير صفٍّ من النمل على الجسد تبلغ الساقين فالظهر فالصدر. وامتطّ جسمه وتقبّضت أطرافه، وهي تتيبّس، في هزّة أخيرة. وارتسم ضرب من الابتسام على شفتيه المتقلصتين المنزوفتين. إنه لوميضُ هلعٍ. ثم إن إدريس دخل، وقد أطاح رأسه لتسقط على كتف سي تاشفين وقد تخفّف ضميره من كل ندامة... في الأبدية.

بعد شهرين كان الأسمر والجبليون الذين نجوا من مذبحة فاس يمرّون أمام منحدرات تيزران. كانت الدشرة على مرمى البصر. وكان السكان قد فرغوا من قطاف العنب وجني التين ولم يتبقّ من منظر الكرْم والأشجار غير شبكات من الجذوع والفروع العارية من الأوراق تحوم فوقها أسراب من طيور الزرزور والكروان. إنها فترة الحرث. كان فلاح الجبل يمرّر، ببراعة أُلْعَبان على تلال الجبال وفي الوهاد الصغيرة وفي غور واد جاف سمحت فيه طبقة من الطَّمْيِ حَمَلَهَا آخر فيضان بمحاولات زرع، المحراثَ البسيطَ الذي يجرّه بغل أو ثور الجبال الصغير الذي يجتاز مجرى السيل قفزا أو يتسلق الصخر بخفة جَدْي. ويشاهد، أيضا، على المنحدرات، مزارعون آخرون عراة الرؤوس سحبوا من الجلابات سواعدهم، يَنْكُشُون بالمعاول ذِرْعَانًا من الأرض الصالحة للزراعة تُطَيِّن الحجر ويلصقون فيها الحبوب أكثر مما يَطمرونها.

كان الـ"زْبِير" يحرق مساحات شاسعة من الدغل. وكانت النار المشتعلة تضيف، تحت زرقة السماء ويشب التموّجات الجبليّة، حرارتها الشديدة إلى نور النهار فيشحب انعكاسها القوي الآفاق.

كان تيزران يشعّ في اخضيضار أفناده العملاقة المثقلة صَبَرًا والتي تزداد بهاء على الدوام بألق ألفيّ. إنه عزّ مجده. كانت غابات مرتفعاته تتقدم بين الأرض والسماء مثل حدائق بابل.

وكان الهواء النقي ينفخ في الصدور والأرض تَجْحَفُ نُسغا وفَوَحانا مغذيين. ويبرقش الترنجان وزهر اللؤلؤ والخشخاش وزر الذهب حقولا صغيرة يغطيها عشب مائج. وترعى أعنز ذات جزّة بلون حبّاري باقات من الشوك. وتصّاعد القبّرة، رسولة العمل، في الهواء مطلقة صيحاتها الجذْلة. وفي البعيد، وفوق أشجار الأرز، يرسم عقاب دورات حلزونية طويلة قوية. لقد كان يبدو أن السلام يسود...

كان الجمع يمشي صامتا. وكان يتوقّف، بين الفينة والفينة، عند حرّاث أو حطاب أو راع يبادلهم الكلمات أو نَفَسَ كِيف ثم يواصل سيره. كان رجل على بعد عدّة مئات من الأمتار من القرية يتقدم، بمشقّة، وراء محراثه الذي كان يسحبه ثور أبيض مرقّط بالشقرة وبغل كسي جلدا أصفر.

كانت الأرض، على الرغم من أنها على هيئة منحدر، أفضل وأسهل استصلاحا من الأراضي الأخرى. وكان مالكها الذي يلبس جلابة بيضاء قصيرة ويعتمر "رازا" ساحبا زعبولته إلى الظهر، يبدو في وضع ميسور شُوَيّةً. كان عجوزا. وكانت حركاته متثاقلة غير موفقة. وكان ينتقل متعثرا ولا يستخدم غير يده اليمنى. أما الكمّ الأيسر فكان فارغا. وكانت لحية بيضاء قليلة الشعر تنفش وجها عزوما وإن جعّده العمر والهموم. وكانت العينان الذابلتان ما زالتا على احتدام يسكن جسما ضامرا متهافتا. ولقد كانت رأسه الصغيرة ذات القياسات العضدية الرأسية الكاملة وقوسا الحاجبين اللطيفين على الدوام، على الرغم من الشعر الأبيض المبعثر، والنظرة المؤنسة، كان

كل ذلك يدلّ على أصل الجنس وصلابته. لقد تحدّب ظهره وكانت بداية ربو، وهو مرض عادي في المناطق المرتفعة، تهزّ، في أوقات متقطعة جسما ليس في وسع نحافته أن تشير إلى عرض من أعراض انحطاط الشيخوخة. أما الوجه الأسمر فكان يتضوّع جلالا. لقد كان الرجل هو الحاج علاّل بن حازم، أب إدريس. كانت الجماعة أمامه عندما بدأ يتهيأ، وقد أنهى ثلمه، لعكس المحراث. تقاطعت النظرات في آن واحد فتوقف الحرّاث بتأثير المفاجأة. ومع ذلك فلقد كان يتآكل شوقا إلى إدريس. لقد كان في قلق لغيابه. وعتّم فجأة هاجس قاتم وجهه. وتسارعت دقات قلبه فترك مِقْوَمَيْ المحراث كما لو أنّ نُعْرَةً لسعته وأدار رأسه وأطلق خُوارا طويلا.

حرك البغل جسمه ثم عدّله في حركة جافة عصبية. انحنى الأسمر وأصدقاؤه لتقبيل يد أب صديقهم النكيب. حيّاهم ولكنّه لا شيء فيه، مع ذلك، كان يعبّر عن تداع نفسي حقيقي. إن للجبل قوانينه وعاداته وطرقه التي هي إرث الأسلاف القدماء ذوي التقاليد القوية التي لا يستخف الناس، على الرغم من مظاهر الخشونة، بضرورة الأخذ بها.

تبادلوا بعض الكلام المبتذل حول الصحّة والسّفر ثم حلّ صمت مزعج تقطعه جمل مُتحَفّظة أو تلميحية أو كلمات لا معنى لها حقيقيا. أخرج الحاج علاّل منديلا ونشّف جبهته وتمخط ثم ارتجل سؤالا:

— وإدريس، أين هو؟

— إدريس، أجاب الأسمر بهدوء مغالى فيه، إدريس لن يعود. ولتشمله الرحمة الإلهيّة. لقد مات صريع رصاصة أصابته عندما كان يمشي، منذ عدة أسابيع، في طليعة مظاهرة فاس...

عقب ذلك وقفة صامتة ثقيلة مزعجة ثم إن جبليا كان قد عاد من فاس صحبة الأسمر قطع الصمت:

— فلتغتبط، سيدي، قال، لقد مات إدريس موتة رجال!

لا شيء، باستثناء تملُّلٍ خفيف في اليدين، لا شيء دل على ظل من الوجوم عند الحاج علاّل. ومع ذلك فإن ما ضاع منه إنما هو شيء من حياته ودعام وجوده ومناط مطامحه التي تقوّضت في حين أنه، وهو الأب العجوز المتعب المعوّه الذي ترصّده كل مصائب جسم هالك بلغ الحدّ، تخلّف عن الابن الذي انبنى عليه فخر وأمل العائلة والقبيلة وربما البلد. إن هذا ليعرفه الحاج علاّل السلفي والمحارب ورئيس الجماعة ويحسه عن خبرة وكان يقدر أهميته وليس في إمكان شعوره أن لا يعبّر عن هذا الأسى البالغ المتولد من خسارة مثل هذه. ولكنه عرف كيف يتمالك نفسه.

إن الرأس، عنده، تغلب القلب. لقد منّعته مبادئ تربية عمرها قرون عديدة التحمت بروحه التحام جذور الأرز العملاق بالأرض منذ أمد طويل، من حالات ضعف مماثلة. ولو قدّر لسي تاشفين، صديق ابنه ومرشده، أن يعرفه على غير ما قدمه إليه إدريس من وصف بَخيل لقارنه، يقينا، بشخصية كورنيليّة تجمّلت بخصال أرض أفريقيا الرجولية.

— حسنا، قال، بعد دقيقة من التفكير. فلتذهبوا، رأسا، إلى منازلكم ولا تذيعوا الخبر قبل أن أبادر بإخطار العجوز.

ثم إنه وخز، وهو يدير سكة المحراث نحو الجنوب، ردف الثور، بمنخسه القصير.

كان تيزران، وقد بلغ من الجمال مبلغا لم ير له مثيلٌ يستبد بكلاكله بهذه الأرض المغربية الشرسة الضليعة التي لم يتمكن أي غاز منذ أزمنة خرافيّة من أن يقضي منها وطرا. هذه الأرض تؤوي شعبا صلبا نفورا. وفي كل مرة كان فيها هذا الشعب يستشعر خطرا على استقلاله، كان ينطوي على نفسه. وهو، إذ يغلب، لا يسلم بالهزيمة. إنه لا شيء يفتّ في عضده. هذا الشعب القنوع العنيد الأنوف اللازب النزق غالبا ولكن الصبور دائما المرتبط بأرضه التي محّضها شغفا عنيفا والذي يضمر الإجلال للأجداد، الجسور جسارة العقاب الذي يعشش فوق الذرى، والذي هو نظيره، عذابا وشراسة، هذا الشعب يفوّض أمره دائما عندما تتعثر خطاه، إلى سماواته الحامية. وهو يترك، في أيّام الحظّ العاثر المدّ الجارف يمرّ ثم ينتظر، في منجَى جَبَله وبَرَاحه الصحراوي، أن يَنْفَدَ الموج ذاتيا. ومثلما كان شأن "أنتى"[145]، يستغل هذا المآل لتجديد قواه بتأثير الأرض الأم. إنه بهذه الطريقة توصّل إلى إضناك روما وبيزنطة. وهكذا فإن شعب الحاج علاّل وإدريس الذي هو في الآن نفسه متمرد ومستوعب ولود على غرار مكسر البحر الذي تضربه المياه المجنونة والعنينة، يرشح نفسه حارسا لا يقهر لدينه و... لوطنه.

بغداد، ديسمبر 1941 — جويلية 1942

[145] هو في الأساطير الاغريقية، عملاق متعلق بالأرض التي هو منها. وقد خنقه بعض الآلهة بأن أبقاه معلقا في الهواء، بعيدا عن الأرض التي يستمد منها قواه.